دراسات سياسيَّة

الشرقُ الأوسَطْ

رستم جودي

إعداد: فهيمة دشتان

ترجمة عن الكردية: جوان تتر

الشرقُ الأوسَطْ

رستم جودي

دراسات سياسيَّة

إعداد: فهيمة دشتان

ترجمة عن الكردية: جوان تتر

منشورات
مركز ميزوبوتاميا للترجمة

تصميم الغلاف: لالش عبدالرحمن
التصميم الداخلي: صلاح الدين يوسف

الطبعة الأولى ٢٠٢١

الناشر

شلير للطباعة والنشر

weshanashiler@gmail.com
www.shiler.info

إهداء المترجِم:

هذا الكتاب عبقٌ من روحِ شهيد، فلتتنفَّسهُ الأجيالُ الجديدة.

الفـــــهرس

تنويه ١١
مَن هو رستم جودي ١٣
أوَّلاً: فوضى الشرق الأوسط ١٥
١ - الحلُّ والمشكلة في الشرق الأوسط: ١٧
٢ - نهضة الشرق الأوسط: ١٨
٣ – الشرق الأوسط منبع الحضارة: ٢١
٤ - الرأسماليَّة حركةٌ بلا أمل: ٢٢
٥ – الغرب يفسِّر التاريخ وفقَ أهوائِه: ٢٤
٦- الشرق الأوسط يجد الحلول دائماً في أفكار وحياة الغرب: ٢٥
٧ – أسباب الأزمة وذهنيَّة الشرق الأوسط: ٢٩
٨- ما هي الدوغمائيَّة؟ ٣٠
٩ – تطوّر الفكر والميثولوجيا: ٣٦
١٠ - فرص التغيير في الشرق الأوسط وتطوُّر الدين المسيحي: ٤٠
١١- محاولات تخطّي الوضع الموجود في الشرق الأوسط: ٤٥
١٢- الإله الواحد على الصعيد الذهني الفكري ثورة: ٤٦
١٣- النضال ضدّ السلطة في الشرق الأوسط: ٤٨
١٤- حركة الخوارج: ٤٩
١٥ – مذهب المعتزلة: ٥٠
١٦- حركة إخوان الصفا: ٥٣
١٧- تقدّم الفلسفة والعلم في الشرق الأوسط: ٥٥
١٨- الزرادشتيَّة بحثٌ عن السموّ وتحسين الحياة الاجتماعية: ٥٧
١٩- أسباب تقهقر العقلانيَّة والنهضة: ٥٩
٢٠- مرحلة تطور المجتمع النيوليتيكيّ: ٦٢
٢١- نضال القائد عبد الله أوج آلان في مواجهة اعتداءات النظام: ٦٦
٢٢- تأثير الذهنيَّة في ميادين الحياة: ٦٨
٢٣- الشرق الأوسط لا يمكنه العيش دون قوَّته الروحيَّة: ٧٠
٢٤- لا بدّ ألَّا يفصل المرء بين العلم والروح: ٧١

٢٥- سيطرة فكرة قوميَّة الدولة في الشرق الأوسط: ٧٦
ثانياً: دور السلطة والدولة في الشرق الأوسط..... ٨١
١-الدولة وتاريخ البشريَّة: ٨٦
٢- نقاشُ الثورةِ الاشتراكية على الدولة: ٨٨
٣- الفارق بين دولة الشرق الأوسط ودولة الغرب: ٩١
٤- تطوَّر ونهوض الديمقراطيَّة: ٩٢
٥- ديمقراطيَّة روما: ٩٤
٦- أسطورة رقيّ وعظمة بابل: ٩٦
٧- طبيعة العنف في الشرق الأوسط: ٩٨
٨- ملامح مقاومة الشعوب ضدَّ الدولة: ٩٩
٩- تحديث الكفاح ضدَّ الدولة في الشرق الأوسط: ١٠١
١٠- تقدُّم حركة القرامطة: ١٠٢
١١- تَقدُّم حركة الزنج: ١٠٤
١٢- انتحار الحركات في الشرق الأوسط عبر ذهنيّة الدولة: ١٠٦
ثالثاً: مُعضلَة المرأة والعائلة في الشرق الأوسط ١١١
١- إثباتات العلوم الاجتماعية الاشتراكية: ١١٥
٢- الإنكسارات الجنسيَّة للمرأة في الشرق الأوسط: ١١٧
٣- تعميق الانكسار الجنسي في دين الإله الواحد: ١١٩
٤- حل مشكلة المرأة في الشرق الأوسط: ١٢٢
٥- ثورة المرأة وتطوّرها في الشرق الأوسط: ١٢٤
٦- العائلة أحاديَّة الجانب والدولة الصغيرة في الشرق الأوسط: ١٢٦
رابعاً: المُلكيَّة، الدين، المذهب، القَبيلة، العَشيرة في الشَّرق الأوسط. ١٣١
١- تأثير الدِّين والمذهب والطُّرُق في الشرق الأوسط: ١٣١
٢- ظهور المذهب الشيعيّ: ١٣٤
٣- نشاط الحركة الوهابيَّة في يومنا الرَّاهن: ١٣٥
٤- تأثير القوميَّة في أزمة الشرق الأوسط: ١٣٨
٥- القوميَّة هدفاً للسلطة: ١٤٠
٦- نظرية القوميَّات في النظام الرأسماليّ: ١٤٠
٧- تطوير القوميَّة عوضاً عن الأمَّة في الشرق الأوسط: ١٤٢

٨- حال الدول في الشرق الأوسط: ١٤٤
٩- ضرورة النظريَّات: ١٤٥
١٠- الأمَّة الديمقراطيَّة تسميمٌ للقوميَّة: ١٤٧
١١- تطوّر تنظيمات القبيلة والعشيرة: ١٤٨
١٢- الاقتصاد في الشرق الأوسط ليس اجتماعيَّاً بل سلطويّاً: ١٥٢
١٣- الرأسماليَّة والصناعيَّة والدولة القوميَّة: ١٥٩
١٤- التقليد اغترابٌ أيديولوجيّ: ١٦١
١٥- لا تغيير في الكيفيَّة والدوغمائيَّة: ١٦٣
١٦- التاريخ الحقيقيّ هو لمقاومة الشعوب: ١٦٥
١٧- البحث عن الحقيقة التاريخية يتخذ العلم أساساً: ١٧٠
١٨- تقليد العنف الشديد: ١٧٥
١٩- النظرة على السياسة: ١٧٨
٢٠- السياسة وإدارة المجتمع: ١٨٣
٢١ - السياسة الديمقراطيَّة ليست سلطة: ١٨٥
٢٢ - عصر الإسلام وتأسيس الإمبراطوريات: ١٩٠
٢٣ - البحث عن الوحدة في الغرب وتعزيزها: ١٩٣
٢٤ - الحروب الصليبية ضد الأيوبيّين: ١٩٦
٢٥ - تأثير العباسيّين وصعود الدولتين الصفويَّة والعثمانيَّة: ١٩٨
٢٦ - الحملة الأوروبيَّة الأولى لاحتلال مصر: ٢٠١
٢٧ - الفَرض وتطور الحداثة في الشرق الأوسط: ٢٠٤
٢٨ - أسباب الحرب العالميَّة الأولى: ٢٠٦
خامساً: على أيِّ أساسٍ تمَّ تطوير مشروع الشرق الأوسط الكبير ٢١١
١- كيف كَبُرت إيران: ٢١٤
٢- الغرض من الحرب العالمية الثانيَّة وأسبابها: ٢٢٠
٣- المتغيِّرات الجديدة في إيران وأسباب تطورها: ٢٢٢
٤- تأثير تركيا على منطقة الشرق الأوسط: ٢٣٣
٥- تطور القوميَّة في تركيا: ٢٣٤
٦- الدينيَّة فرعٌ آخر من فروع الإيديولوجيا الرسميَّة في تركيا: ٢٤١
٧- السياسة التي انتهجتها إنجلترا وفرنسا: ٢٤٣

٨- مقاربة الدولة التركيَّة للظواهر والأحداث: ٢٤٦
٩- تقديس الدولة القوميَّة في تركيا بلا حدود: ٢٥١
١٠- يجب التخلُّص من نظام الإنكار: ٢٥٤
١١- دور تركيا في لبرلة الشرق الأوسط: ٢٥٥
١٢- تطوُّر الحركة الناصريَّة بإدارة جمال عبد الناصر: ٢٦٠
١٣- بناء الجبهة الشعبيَّة الفلسطينيَّة وتطوّرها: ٢٦٦
سادساً: الثورات في مِصرَ والجزائر والعِراق وليبيا وسُوريا ٢٧١
١- أسباب نجاح الثورات في الشرق الأوسط: ٢٧٢
٢- دورُ الدولةِ السوريَّة في تَطوير وتشكيل حِزب البعث: ٢٧٥
٣- أهميَّة وتاريخ العراق: ٢٨٦
٤- معارضة القوميَّة العربيَّة ضدَّ الحركات الكرديَّة: ٢٨٧
٥- أثرُ حزب البعث على العراق وسوريا: ٢٨٨
٦- استقلال العراق وجغرافيّته: ٢٩١
٧- علاقة بعض الحركات الكرديَّة بالإمبرياليَّة: ٢٩٣
٨- إبادة الحركة البعثيَّة في العراق: ٢٩٦
٩- المجازر التي ارتكبها نظامُ البعث بحقّ الكرد في العراق: ٢٩٧
١٠- دور وتأثير السياسة الإسرائيليَّة في الشرق الأوسط: ٣٠٠
١١- تطوَّر الانتفاضات الفلسطينيَّة ضدَّ إسرائيل: ٣٠٨
١٢- أثر قوميَّة جمال عبد الناصر على حركة التحرير الفلسطينيَّة: ٣١٢
١٣- تطوُّر الحركة اليساريَّة في فلسطين: ٣١٣
١٤- الطائفة الشيعيَّة ليست بنية تحتيَّة متجانسة: ٣١٦
١٥- الكماليَّة والعلمانيَّة: ٣٢٠
١٦- تطوُّر الحركات المُستقِلَّة: ٣٢١
١٧- أثر الإمبرياليَّة في تفاقم الأزمة في الشرق الأوسط: ٣٢١
سابعاً: هجمات الإمبرياليَّة على الشرق الأوسط جيوستراتيجيَّة وحضاريَّة... ٣٢٥
١- الإمبرياليَّة في الشرق الأوسط تريد السيادة على النفط: ٣٢٨
٢- ما هو هدف الإمبريالية من حماية إسرائيل؟ ٣٣١
٣- مشاكلُ الإمبرياليَّة مع الشرق الأوسط حضاريَّة: ٣٣٣
٤- لا بدّ لحربنا أن تكون ضدَّ فكرة الحداثة وأسلوب حياتها: ٣٣٥

٥- الإمبرياليَّة تشنُّ حرباً تاريخيَّةً وثقافيَّة: ٣٣٥
ثامناً: الاشتراكية في جوهرها الصحيح ليست بعيدةً عن حقيقة الشرق الأوسط ٣٣٩
١- تطوّر الحركة الشيوعيَّة في الشرق الأوسط ٣٤٠
٢- مقاربات الحركة الشيوعيَّة الدوغماتيَّة في الشرق الأوسط: ٣٤٤
٣- تطور الدين الإسلاميّ في الشرق الأوسط: ٣٤٩
٤- الحركة الوهابيَّة: ٣٤٩
٥- سيكولوجيَّة الحركة الوهابيَّة: ٣٥٠
٦- نشأة القاعدة: ٣٥١
٧- تطوُّر حركة الإخوان المسلمين: ٣٥٣
٨- أسباب تطوُّر المذاهب: ٣٥٥
٩- تطوُّر الطريقة النقشبنديَّة في كردستان: ٣٥٥
١٠- أسباب تطوُّر الإسلام السياسيّ في الشرق الأوسط: ٣٥٦
تاسعاً: حلُّ مشكلة الشرق الأوسط ٣٥٩
١- مشروع الحلّ الرأسماليّ الإمبرياليّ: ٣٥٩
٢- مشروع الشرق الأوسط الكبير: ٣٦١
٣- دولة القوميَّة في الشرق الأوسط: ٣٦٤
٤- كيف تَحلُّ الإمبرياليَّةُ مشاكلَ الشرق الأوسط؟ ٣٦٥
٤- استراتيجيَّة الحفاظ على السُكون: ٣٧٣
٥- النظام الاستبدادي يُطيل عمره عبر التنازلات والتحالفات الإقليميَّة: ٣٧٥
٦- العنفُ كأسلوبٍ آخر للحلّ: ٣٧٦
- الحلُّ الديمقراطيّ: ٣٧٧
١- مشروع الحريَّة الاجتماعية والمرأة والاقتصاد الاجتماعي: ٣٧٧
٢- المشروعُ الديمقراطيّ انسجامٌ فيما بين البلدات والقرى: ٣٧٨
٣- الديمقراطيَّة ليست مجرد انتخاب بل تراكم للقيم: ٣٧٩
٤- الحقيقةُ بحثٌ مستمرّ: ٣٨٠
٥- الحرب على نمط حياة الرأسمالية المموّلة: ٣٨٣
٦- دولة القوميَّة: ٣٨٣
٧- معارضة الدين الثقافي مع الرأسماليَّة: ٣٨٦
٨- أسباب تطوُّر حماس: ٣٨٩

تنويه:

يتضمَّن هذا الكتاب محاضراتٍ أُلقيت بصوت الشهيد (رستم جودي)، لذا آثرتُ أن تكون النسخةَ العربيَّة أقرب في سياقها اللفظيّ من النسخةِ الكرديَّة المفرَّغة عن الصوت، أي حافظتُ على السياق المحكيّ ضمن النسخة الكرديَّة، حيثُ الأسئلةُ الكثيرة والأجوبة عليها والاستطرادات الكثيرة، مع الاحتفاظ بعلامات الترقيم الأساسيَّة دون أي تصرُّف أو تدخُّل منّي إلَّا فيما اقتضت الضرورةُ اللغويَّة العربيَّة.

كانَ بمقدوري أن أتصرَّف بالترجمة وتغيير الصياغات الكرديَّة آنَ نقلها إلى اللغةِ العربيَّة، ولكن تعمَّدتُ أن أكونَ قريباً في السياق العربيّ من روحِ كلام الشهيد رستم جودي أثناء إلقائه للمحاضرات، كما واستمعتُ إلى المحاضرات المُسجَّلة صوتيَّاً ومقارنتها مع النسخة الكرديَّة المُفرَّغة كتابيَّاً منعاً لأيِّ التباسٍ أو سوءِ فهمٍ آنَ تفريغها تدوينيَّاً.

المترجم

مَن هو رستم جودي:

ولد رستم جودي واسمه الحقيقي رستم عثمان خلال العام ١٩٦٥ في قرية خربى دبسى الواقعة في مدينة سرى كانيه.

كان رستم سليلَ عائلةٍ وطنيَّة وقوميَّة، أتمَّ دراسته الابتدائيَّة والمتوسطة والثانوية في سرى كانيه ومن ثم توجَّه إلى دمشق لاستكمال دراسته الجامعيَّة في قسم الزراعة. تعرَّف على حزب العمال الكردستاني خلال العام ١٩٨٥ أثناء دراسته في دمشق، وفي الوقت نفسه كان يشارك في حركة اليسار الاشتراكي، كان دائم المتابعة لأوضاع البلاد عن كثب ومن وجهة نظر سياسية وكان دائماً في خضمّ الحياة والحركة.

إضافةً إلى امتلاكه لعقلٍ حرّ وشخصيَّة مستقلة في الجانب البحثي، فإن قدرته على تحليل المواقف السياسية والاجتماعية كانت في المقدمة على الدوام.

حضر خلال العام ١٩٨٧ اجتماعاً في لبنان ضمَّ القائد عبد الله أوجلان وآمَن على الفور أن آراء القائد وثورة حزب العمال الكردستاني ذات مغزى وقيمة وقرر الانضمام إلى صفوف الحزب.

خلال العام ١٩٨٩ انتقل إلى لبنان ليكمل دروة أكاديمية تدريبية في أكاديمية معصوم كوركماز، ومن ثمَّ بعد الدورة انضم إلى نضال الشعب، وهناك توضَّحت قدرته القياديَّة.

استشهد رستم جودي مع مجموعة من رفاقه على إثر غارة جويَّة وحشيَّة نفَّذتها الدولة التركيَّة ضد منطقة الدفاع الإعلامي ضمن خاكورك في ١٠ أكتوبر العام ٢٠١١ وانضمَّوا إلى قوافل الشهداء.

أوَّلاً: فوضى الشرق الأوسط:

سَنُسلّط الضوء هنا على: الفوضى، الأنارشيَّة، والخراب في الشرق الأوسط، فما هي الفوضى؟ لكي نفهم أكثر سأسوقُ مثالاً عمليّاً، فليتخيَّل المرءُ أنَّه بين أمواجِ بحرٍ، فإن أمواج ذلك البحر هي الفوضى، لِمَ نقولُ ذلك؟ لأن الفوضى شيء غير جليّ، خطورة، أزمة أو مشكلة، يعني ما الذي سيحدث؟ النتيجة غير معروفة، فمن المُحتَمل في أيِّ وقتٍ أن يبتلع الموجُ ذلك المرء، وخلاصُ المرء من الفوضى يتحقَّقُ آنَ وصوله للشاطئ، بهذا الشكل من الممكن للمرء أن يسمّي ذلك حلّ المُعضلة، لذا حين نقولُ في وقتنا الرَّاهن: "الفوضى في الشرق الأوسط"، فذلك يعني أنَّ المنطقة بكلِّ مشاكلها وكل أشكال النواقصِ فيها تعيش حالةً من الفوضى، فموعدُ ابتلاع موج البحر لها غير واضح، لذا تحاولُ المنطقة جاهدةً بشكلٍ أو بآخر في سبيل أن تصل إلى الشاطئ، وتلك المحاولات تأخذُ أشكالاً مختلفة، إحدى تلك المحاولات تكون على هذا الشكل: حيثُ يتم عرض نهج معيَّن يقال عنه: هذا هو نهجُ الخلاص من الفوضى، فيما الشكل الثاني يصفُ منهجاً آخرَ مختلفاً واصفاً إيَّاه بالخلاص، لذا فإنَّ ثمَّة مشكلة أيضاً في العثور على نهجٍ بحدِّ ذاته للخلاص من الخطر.

النظرةُ المسيطرة في يومنا الرَّاهن هي الهيمنة الرأسماليَّة، الهيمنة التي حاولت عبرها الرأسماليَّة أن تجعل من نفسها نظاماً عالميّاً ومهمَّاً للعالم بأكمله وطريقةً لحلِّ كلِّ المشاكل، لذا فإنّها ترى أن نظرة الشرق الأوسط أنانيَّة إلى قيم الرأسماليَّة، الليبراليَّة، السوق الحرَّة، فإن حصل وقَبِل الشرق الأوسط بهذه الأمور فإنَّه سيَهتدي إلى خلاصِه ويخرج من فوضاه، ورغم

إمكانيَّة إثبات العكس، لكن الرأسماليَّة لا تزال مُصرَّة على أنَّ طريق الخلاص من الفوضى هو القبول بقيم الرأسماليَّة العالميَّة. لا شكَّ أنَّ ثمَّة طرق أخرى مختلفة، وبشكلٍ خاص المشروع المسمَّى بـ الحداثة الديمقراطيَّة المستند إلى أساس قدرة الفرد على ربط الجوانب الإيجابيَّة في ثقافة المجتمع ضمن الشرق الأوسط بقيم الحاضر الأساسيَّة، وعلى وجه الخصوص جوانبها العالميَّة التكنولوجيَّة، بذا أيضاً يتوفَّرُ شكلٌ من أشكال الخلاص. بشكلٍ عام ثمَّة وضعٌ الآن وهو صعبٌ للغاية!! فمن أين تتأتَّى تلكَ الصعوبة؟ سيرى المرءُ حين يجولُ ببصره أزماتٍ كثيرة في كلِّ أنحاء العالم، لكن طرقُ الخلاص من الأزمات هناك ليس فيها ما يُسبِّب الألم والخراب كما هو حال منطقتنا على إثر بعض خصوصيَّاتها على الجانبين الثقافي والاجتماعي، فتلك المناطق لا تزال تؤيّد بشكلٍ كبير وتقبل الآخر وفقاً إليها بهدف أن تُخْرِج نفسها من الأزمات، فمثلاً: تلك التغييرات الليبراليَّة التي حصلت في شرق آسيا، في أندونيسيا وماليزيا، سنغافورة، إلخ.. تدلّ على ما قلناه سابقاً، حتَّى مؤخَّراً في آسيا الوسطى، قفقاسيا، وُجِد ميلٌ نحو هذا الشكل من الخلاص المتمحور حول جعل النظام ليبراليَّاً، وبهذا الشكل يشيرون إلى خلاصهم من أزماتهم. فكيف توضِّح الإمبرياليَّة – وفي المقدِّمة أميركا التي تعيشُ أيضاً أزماتها- شكل الخلاص من تلك الأزمات، كيف يمكنها فعل ذلك؟ عن طريق تعميم نظامها على كل العالم سواءً من ناحية الأفكار أو البروباغاندا والترويج والإيديولوجيَّة، الأمرُ الذي جعلَ العالم يعيشُ في كنفِ ضبابٍ كثيف، لا بل وتقول أنَّ مشروع الاشتراكية قد أفلس دون مقدرتها على أن تكون خياراً على الجانب الآخر، ولأجل ذلك ثمَّة محاولاتٌ لإيجاد حلٍّ للمعضلة، وهو حلٌّ متجسِّدٌ في النظام الرأسمالي، أي أن الديمقراطية الليبراليَّة متحقِّقة، لِمَ؟ لأنَّ كُلَّ النظم فشلت في محاولاتها لإسقاط الرأسماليَّة، دعوكم من الانتصار، لقد انهزمت واستسلمت، وهذا يثبت أنَّ النظام المُطلَق الذي يمتلك الحقيقة بين يديه والمتتبِّع لأثر الحقيقة بطريقةٍ صحيحة هو النظام الرأسماليّ، لذا لا بدَّ أن يتمّ تقبّل هذا النظام، لكن وبمقابل ذلك ثمَّة رفضٌ شديد وردَّات فعل، لكنَّهم يظهرون ردَّات الفعل تلك بطريقةٍ وحشيَّة، أو أنَّها تحاول بطريقةٍ أو

بأخرى أن تعيدَ التاريخَ إلى الوراء بشكلٍ مطلق، لذا لا يمتلكون القيم الإنسانيَّة ولا المعرفيَّة، إنَّهم ضدَّ الحقيقة، وعلى هذا الأساس لا بدَّ أن يكون ذلك النظام محكوماً بالاضمحلال، وبهذا تعثر على ذرائعها في هجماتها على العراق وأفغانستان وليبيا وغيرها من الدول، حتَّى أنَّها تجدُ ذارئعها في الهجوم على قِوى ديمقراطيَّة مثل قوَّتنا ونشاطنا استناداً إلى قاعدة أنَّ مفاتيح الحقيقة في يدها، ومن يقف ضدَّ هذا النظام الرأسمالي فهو ضدَّ الحقيقة، لذا قرّروا الحرب والإمحاء، بهذه الطريقة تحاول الرأسماليَّةُ الخروجَ من أزماتها.

١ ـ الحلُّ والمشكلة في الشرق الأوسط:

لا حلولَ سهلة للمشكلة في الشرق الأوسط، لِمَ ذلك؟ يمكنُ قولَ أشياءَ كثيرة في هذا السياق، الحقيقة في كل الأوقات تُثبت شيئاً، فما هي تلك الأشياء؟ يقال أنَّ الخطط التي يتمُّ وضعها للمنطقة تتعرَّضُ للإفلاس حين يتمّ مواجهتها بشكلٍ عمليّ، وكأنَّ الشرق الأوسط يغدو مقبرةً لكل الخطط التي يتمُّ تجهيزها من الخارج، ثمَّة محاولاتٌ عمليَّة حثيثة في أن تتحوَّل هذه المنطقة إلى جزءٍ من القوى العالميَّة، جزء من أفكارها، ومحاولات التغيير تلك تنفَّذ على قَدمٍ وسَاق، تغييرات على الصعد الاجتماعية والثقافيَّة، دون أن تنجح تلك المحاولات، وهذا الفشل في المحاولات لم يجرِ من تلقاء نفسه، هذا الأمر يجلب معه حقائقَ مقبولة في أغلب بقاع العالم، فما هي تلك الحقائق؟ الشرقُ الأوسط ومنذ زمنٍ بعيد ليس مُستعدَّاً للقبول بأفكارٍ قادمةٍ من الخارج، فمن أين يتأتَّى هذا الرَّفض؟ مِن أنَّ الثقافةَ العائِدة إلى آلاف السنين لا تزال تملكُ التأثير، فالقادة، المعنويَّات، الإحساس، كلّها توضِّح أسلوب الحياة في الشرق الأوسط، لذا لا يمكنُ للأفكار القادمة من الخارج أن تنتصر، أي أنَّ الخطط التي يتمّ وضعها من الخارج لإعادة تصميم المنطقة لا تنجح، وإن كان لا بدَّ من النجاح فإنّها تبقى لزمنٍ قصير دون ديمومة، لا يمكن لها أن تُقبَل على أن

تكون وصفةً للحل، ومن الضروري للمرء أن يتوقَّف عند هذه الحقيقة، هل هذا الأمر لا يعدو كونه خيالاً أو ادِّعاءً دونما أيِّ أساسٍ أو قاعدة، أم أنَه يمتلك قاعدةً ما؟ على المرء أن يتوقَّف عند هذه الحقيقة، لكن بدايةً ما هي الأمور التي يجب أن نُقنِع بها المرء بغية إثبات هذه الحقيقة؟ فالمشاريع التي وُضِعَت من الخارج لإعادة التصميم، المسودات الموضوعة لأجل المنطقة، سواءُ في السابق أم في يومنا الرَّاهن لم تنجح، على سبيل المثال، هذا المشروع من الممكن له أن ينجح إلى درجةٍ ما في شرق آسيا، إنَه ينجح في أميركا، لكنّه لن ينجح في الشرق الأوسط، فالثقافات المتكوِّنة منذ آلاف السنين في هذه المنطقة تمتلك تأثيرها، لذا ولأجل اجتياز الأزمة ثمَّة محاولاتٌ للخروج منها على أساس ديناميكيَّة الداخل، وفي الوقت نفسه ثمَّة تضحيات ومحاولات جديَّة لها جوانبُها المعرفيَّة، لكنَّها لم تنجح، لِمَ لم تنجح؟! لأنّ المشكلة الأساسيَّة هنا أيضاً كامنة في الثقافة، وكمثال: كانت تلك المحاولات ضدّ الاستعمار، وهذه حقيقة.

٢ ـ نهضة الشرق الأوسط:

كما حصل من محاولاتٍ للنهضة في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ثمَّة محاولاتٌ من هذا القبيل في الشرق الأوسط ضدَّ الاحتلال والسلطات الخارجيَّة، لكن أرادوا أن يحاربوهم بأسلحتهم، وبهذا الشكل قبلوا الحداثة، أرادوا استنساخ قيم الحداثة الرأسماليَّة في بلادهم، لأجل ذلك كانوا مرتبطين إلى درجةٍ عالية بالحداثة الرأسماليَّة وكأنَّهم عبيدٌ لها، الأمر الذي جعلهم يتقبَّلون تلك الحداثة بلا شكٍّ أو نقاش. كانت لهذه المرحلة مشاكلها، حيث لا يمكن لاستنساخ تجربةٍ ما أن يساهم في حلِّ مشكلة، فعلى سبيل المثال: النشاط المعرفيّ الذي ازدهر في الشرق الأوسط بأكمله كان مهتمَّاً بالحداثة الرأسماليَّة، أي مهتمَّاً بالقيم الحديثة في أوروبا، تلك المُستقاة من الثورة الفرنسيَّة والإنجليزية، الديمقراطيَّة الأوروبيَّة وحقوق الإنسان في

أوروبا، أراد هزيمة الحقوق الفرديَّة في إيران ومصر وتركيا، حيث وُجِد أمثال الأفغاني والكواكبي وميرزا ماركون في إيران، وكانوا جميعاً ضدَّ الاحتلال والملكيَّة، وهُم -حسبما عرّفوا عن أنفسهم- كانوا أصحاب مشروعٍ نهضويّ وإعادة إحياء في الشرق الأوسط، لكنَّهم لم ينجحوا في مساعيهم، لكن ما أسباب الفشل؟ من يودُّ أن يغيِّر نظامه استعانةً بالخارج لن ينجح، ولا من يودُّ وهو في الداخل أن يستعين بقيم الخارج، أي عبر غَرسِ قيم الخارج، الطريقتان خاطئتان ولن تنجحا البتَّة.

ربما قد تنجح تلك الطريقتان على سبيل المثال في أفريقيا، حيث توجَّهَ طلَّابها إلى التعلُّم في الدول المستعمَرة، إلى بلجيكا وإنكلترا، وهذه القوى كانت جميعها محتلَّةً لأفريقيا، لذا يعودُ الطلبةُ إلى أفريقيا ويعملون في المجال الإعلاميّ وكان بمقدورهم إحداثَ تغييراتٍ في بلدهم وينجحون في ذلك أيضاً، حصلت المحاولات ذاتها في الشرق الأوسط، سوى أنَّ أصحاب تلك المحاولات لم يتّحدوا مع الشعب وبالتالي فقد الشرق الأوسط استقراره وقَبِلَ الفكر اليساريّ، لذا فالمشكلة تكمن هنا، الأزمة ها هنا، ديناميكيَّة الداخل لا تكفي لعبور الأزمة، أي عبور الفوضى والوصول إلى الشاطئ، فمحاولاتُ فرض قيم الخارج عبر الهجمات العسكريَّة كما حصل في أفغانستان والعراق، أو عن طريق الإعلام الثقافي، وفرض النماذج الاجتماعية، حيث تغدو طريقةً وأسلوباً للحياة، يراقبها الفرد دون أن تنجح بل تساهم في الخراب، حين نقول أنَّها لا تنجح، يجب ألَّا نُسيءَ الفهم، فحين نقول لا تنجح فإنَّ هذا لا يعني أنَّها لا تتبقَّى بدون نتائج أو أنَّها لا تؤتي بثمارٍ أو نتائجَ لأصحاب تلك المحاولات، لا، فأمريكا تحصل عبر المكاسب على المكسَب الرئيسي، لكنّنا الآن نناقشُ أمراً آخر، نناقشُ الفوضى في الشرق الأوسط، فالأزمة لا يمكن اجتيازها عبر الفوضى، أي أنَّ المشاكل تبقى: الحروب الداخليَّة، الفقر، الجهل إلخ... العديد من الأمور الواضحة التي تبقى لا يمكن اجتيازها. لذا ولنفهم هذه التجربة لا بدّ على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار بعض الأساسيَّات، أي بعض الخصوصيَّات، قبل كل شيء حين نودّ إحداثَ

تغييراتٍ في منطقةٍ ما، أو أن نجد حلًّا لمشكلةٍ ما، أو إحداث ثورة، لا بدَّ أن نكون أعضاءَ في ذلك التغيير، لا بدَّ للمرء أن يكون على هذه الأرضيَّة وأن يبقى عليها، وأن يجد حلًّاً للمشاكل على هذه الأرضيَّة، لا بدَّ أن نوضِّح هذا الأمر. لِمَ هذا التفسير والتقارب ضروريّان بالنسبة إلينا؟ المشكلة أنَّنا حين نناقش الشرق الأوسط فإننا لا نقيم على تلك الأرض، لا مرجعيَّة لنا، بل نفهم عبر مناهج الغرب أو من خلال مقاربات المستشرقين الأكثر إيجابيَّةً.

ما هي مناهج الغرب والمستشرقين؟ الاستشراق يعني أن يأتي شخصٌ ما يحمل بداخله معلوماتٍ عن الشرق ويرى نفسه على علاقةٍ به، ولكنَّ القاعدة في كل ذلك أن يقترب دائماً في نتاجاته من ربط الإنسان الشرقيّ بقيم الغرب، وأن يجعله على طبيعته دائماً، أن يبني الشخصيَّة، وهذا هو الهدف من ذلك التقارب، لكن كنشاطٍ إيجابي وحتَّى أمدٍ ليس ببعيد تعرَّض الاستشراق إلى الكثير من الانتقاد، وهذا أمرٌ طبيعيّ، لا سيَّما في أسلوب الحياة والأفكار في الشرق الأوسط، وجعل الأخير كمستعمَرة، أي منطقة مستعمَرَة مرتبطة بأوروبا.

الآن المبادرةُ بيد الغرب، ما هي تلك المبادرة؟ ففي يومنا هذا تعبّر حركة الحضارة المعرفيَّة، التكنولوجيَّة، العلميَّة، الفلسفة، العمران وكلَّ أنواع العلم، المعرفة الاجتماعية، الطبيعيَّة، أي كل شيء اليوم يعبِّر عن نفسه، وهذا الأمر في الأساس طبيعيّ، مثلاً: اليوم في هذه المدرسة ثمَّة البعض من الشروط، فإلى حدٍّ معين بمقدورنا أن نتطوَّر، لكن حين نخرج من المدرسة ونتوجَّه إلى ساحةٍ واسعةٍ أكثر، بين الشروط المختلفة المتوافرة هناك، آنذاك سيكون تطوّرنا أو عدمه في مجالٍ معيَّن ضمن ذلك النشاط التطوّري.

٣ – الشرق الأوسط منبع الحضارة:

لذا فإن منبع الحضارة هو الشرق، هذه حقيقة، وفي يومنا الرَّاهن يتقبَّلون الحقيقةَ هذه سواءُ بشكلٍ خفيّ أو خجول، ويعترفون، لكن هذه الحضارة كنتاجٍ تاريخيّ بشري بإمكانه أن يتطوَّر أكثر إن حصل ووُجِد على أرضٍ أخرى، هذا أمرٌ طبيعيّ وليس نقصاً في الشرق الأوسط، ولا يجب على المرء أن ينظر إلى هذا كنقصٍ، لكن والحال هذه أين يكمن النقص؟ يكمن في أن ثمَّة معرفة بالطرق في الشرق الأوسط فيما يخصّ الدنوّ من المعرفة والفن والمصالح ومن كلِّ ما بإمكانه أن يرفع مستوى الانسان، يعني أنَهم رأوا أنفسهم ومصالحهم أمراً مركزيَّاً، كما وأنَّه تقاربٌ للحفاظ على الجنس، وبهذا الشكل فإنَّ المعرفة هي ملكٌ للإنسانيَّة جمعاء أو وضعٌ تاريخيٌّ بدأ قبل آلاف السنوات منذُ أن باتَ بمقدور الإنسان أن يسخِّر الحجر لحياته، بدأ آنذاك إلى أن وصل في يومنا الرَّاهن لمرحلة (السيبرانيَّة – الإلكترونيَة – والروبوتات إلخ)، الغرب لا يفهم على هذه الشاكلة، وعلى النقيض من ذلك فإن امتداده التاريخيّ مستقلّ، يحصل على العلم بناءً على قاعدة المصلحة الشخصيَّة، أي أنَّه يعلن عن أن العلم نتاجٌ من نتاجات الإنسان الأبيض، لذا يودّ أن يجعل كل من هو خارج هذا الإطار انساناً بلا قوَّة أو إرادة، وخصوصاً أنَّه يحاول حُكم الشرق الأوسط بهذا الأمر ويُحكِم قبضته.

لِمَ يفعلُ الغربُ ذلك؟ إنَّه يفعل ذلك على وجه الخصوص لأنَّه ثمة إمكانيَّات وبدائل موجودة في الشرق الأوسط. فحضارة الغرب تعتبر حديثة العهد وليست قديمةً جدَّاً قياساً إلى حضارة الشرق الأوسط، لأجل ذلك ثمَّة إمكانيَّات وبدائل في الحضارة الشرق أوسطيَّة أكثر مما هي موجودة في الحضارة الغربيَّة، لذا وعلى هذا الأساس فإنَّ النظام السياسي الغربيّ يعيش في كنفِ محاولاتٍ حثيثة لأن يجعل الإنسان الشرق أوسطي في اغترابٍ عن حقيقته. ولأجل ذلك، كيف يكسب علم الغرب مواضيعه وأين تتوضَّح مصالحه؟ هنا تتوضَّح المصالح، حيث يقولون أن العلم بدأ مع الحضارة الغربيَّة، حيث

خطت الحضارة خطواتها الأولى مع روما والإغريق، وعادت إلى الحياة عبر محاولات النهضة، أي أنَّها الأساس في إعادة نهضة البشر ومنها بدأت نهضة الحضارة الإغريقيَّة والرومانيَّة. يقولون أنَّه وفي مصر منذ آلاف السنين قبل الميلاد وجدت الكتابة الهيروغليفيَّة، كما أنَّ علم الهندسة كان قويَّاً، وعلم الفلك، وُجِدت في الشرق الأوسط القِلاعُ والزراعة والري، كل هذه الأمور كانت موجودة، لكنّ الغرب يقول أنّ تلك الأمور كانت مصادفةً، هذا الإنكار ثمرةُ دراسةٍ لا عقلانيَّة وغير منطقيَّة، ليس فقط ذلك، فنحن في بعض الأحيان ننظر إلى علم وفلسفة الشرق الأوسط كمصدرٍ ومادَّةٍ خامّ باهتمامٍ كبير، مثلاً: يقولون علناً: ثمَة مصادفاتٌ هنا، المصادفات شاءت أن يحصل هذا، تقول أنَّ علم الفلك كان متطوّراً، ثمَّة علمٌ كاملٌ مهتمٌّ بحركة النجوم وثمَّة إثباتاتٌ كثيرة في هذا الصَّدد، لكنَّهم يقولون: الحظُّ هنا هو الأساس، فلكي يعرفُ المرءُ قَدَرَه اضُّطرَّ إلى اقتفاء حركة النجوم، الأمر الذي جعلهم يمتلكون بعض المعلومات عن هذا العلم، تقول أنَّ ثمة أهرامات، والأهرامات بحدِّ ذاتها تعتبر علماً في البناء والعمران، وإلى يومنا هذا تُبنى المباني وفقاً لقوانين بناء تلك الأهرامات، ففي الهندسة ثمَّة قوانين خاصَّة بتلك الأهرامات، لكنَهم يقولون لك: لا، الأمرُ ليس كذلك، فهم بنوا هذه الأهرامات لكي يعلِن المرءُ ألوهيَّته، أي لا توجد أيّةُ أسسٍ عقليَّة أو منطقيَّة.

٤ ـ الرأسماليَّة حركةٌ بلا أمل:

ماذا يعني ذلك؟ يعني أن يجعل من الشرق الأوسط فاقداً للأمل على صعيده الشخصي، الحداثة الرأسماليَّة لها التأثير الأكبر على رجعيَّة وتخلّف البشر، لِمَ يغدو هذا الأمرُ جوهريَّاً؟ لأنّها تنظر إلى نفسها وفقاً لمصالح شخصيَّة، وتعتبر نفسها الأساس والمركز، ولا تنظر إلى البشر المختلفين على أنَّهم يستطيعون إيجاد حلولٍ للمشاكل التي تعترضهم، لا البتَّة، إنَّما ينظرون إلى البشر دون جنسهم على أنَّهم متوحّشون ولا يستطيعونَ سوى أن يقبلوا القادم

من الخارج وليس بمقدورهم تقديمَ أيِّ نتاج، الغرب يريدُ أن يُجبِر البشر على القبول، الأمرُ الذي يتسبّبُ بمشاكلَ كثيرة، وهذا هو هدف الغرب بالضبط، تلكَ ثقافة الحداثة الرأسماليَّة، وإن انتبهنا، حتَّى ولو انتصرت الحداثة الرأسماليَّة، فإن المرء يرى الأمان في الماضي والعودة إليه، لكن في الرأسمالية يتغيَّر هذا الشيء، فما هو أساس هذا الأمر؟ الإنسان بمعرفةٍ أو عدم معرفة يرى الأمان في التاريخ القديم، أي أنَّه في الأساس يعود إلى طبيعة المجتمع، يودَّ أن يعود إلى هناك، حيثُ القيم الإنسانيَّة، العدالة، المساواة، الانسجام بين الطبيعة والإنسان، يودّ أن يعود إلى ذلك الزمن، الرأسمالية أزالت هذا الأمر من جذوره، فلننتبه إلى أنَّ الأماكن التي تنجح فيها الرأسمالية لا يوجد فيها من يودُّ أن يعود إلى التاريخ القديم، فالأماكن التي تحكمها الأفكار الرأسماليَّة لا تريد أن تتقهقر إلى الخلف، حتَّى أنَّها تفسِّر التخلّف بالعودة إلى التوحّش، الخراب، لذا فإن الإبادة الجماعيَّة تتأكَّد هنا، أي يجرّدون البشريَّة من جذورها، يحوّلون البشر إلى أدوات لكي يجعلوهم تحت إمرة نظامهم، هذا أمرٌ خطير، الرأسماليَّة تودُّ أن تصنع شيئاً مماثلاً للمجتمعات فتجعلها بدون أملٍ. والآن ماذا يقول للمجتمع الذي فقد الأمل بنفسه؟ ذلك المجتمع لا يمتلك القدرةَ على العطاء، يفقد ثقته وإيمانه بنفسه، فما الذي يحصل؟ يقبل المجتمع بوضعٍ واحد، أي أنَّه فقط يأخذ لنفسه ولا يستطيع أن يعطي أو يمنح، وهذا هو الموتُ نفسه بالنسبة إلى المجتمع، وإلا فكيف يموتُ المجتمع!! إلَّا حين يفقدُ قدرته على الصنع، الإبداع، وينتظرُ دائماً هِباتَ الخارج، فيفقد البدائل الموجودة لديه ويشكِّلُ أسلوب حياته ونظامه السياسيّ ونشاطه الاقتصادي وفقاً لأساليب الخارج، آنذاك يحصلُ الخرابُ الأكبر. هذا الأمر لا يحصل من تلقاء نفسه، وإنَّما من القصف الإيديولوجي والثقافي والفكري الممارَس عليه، والنتيجة هي ما ذكرناه. لذا ما الذي يفعله الغرب في يومنا الرَّاهن؟ يحاولُ في الشرق الأوسط أن يجعل النَّاس في اغترابٍ عن هويَّاتهم ويرفضوا تلك الهويَّات، وحين نقول الهويَّة، فإنَّنا نعني أنَّهم يمحون الثقافة، أسلوب الحياة، قيم المجتمع الإيجابيَّة وكل ما هو مرتبطٌ بالأخلاق.

٥ – الغرب يفسِّر التاريخ وفقَ أهوائِه:

لم يفهموا التاريخَ مرَّةً أخرى بالشكل الأنسب، مثال: فلنتمعَّن في أنَّ المقاربات التحليليَّة والتاريخية تختلف عن بعضها البعض بهذه الطريقة، وقد تحدَّث القائد عبد الله أوج آلان عن هذه النقطة بشكلٍ موسَّع في مرافعاته الدفاعيَّة. ما هو الشيء الموجود في سوسيولوجيَّة الحداثة الرأسماليَّة الإيجابيَّة؟ ثمَّة تحليل ومقاربة تحليليَّة، على أي أساسٍ تحليليّ؟ أي أنَّهم يقولون أنَّ ثمَّة وضعٌ سيء لم يقبل أن يتّحد مع العقل ولا مع المنطق، وعلى هذا الأساس نَشبَت الثورات والنضال وانتصرت بفضل الرأسماليَّة، وبهذا الانتصار فُتِحت السُبُل أمام كلّ شيء: العلم، التكنولوجيا إلخ... هذه مقاربة تحليليَّة، فما الذي يجلبهُ ذلك؟ يجلب إنكاراً تاريخيَّاً، ولكي يكون بمقدور الإنسان أن يحقِّق إنسانيَّته أكثر فإنه يقتفي أثر الحقيقة بطريقةٍ صحيحة، كانت له محاولاتٌ دائماً، تلك المحاولات بدأت بأشكالها الصغيرة، خطوةً إثر أخرى عبرَ مرحلة الميثولوجيا وصولاً إلى شكله القائم، هذه المساعي بدأت بطفرات صغيرة وتطورت تدريجيا مع الميثولوجيا وصولاً إلى النثر وأوصَل نفسه عبر الدين بخطوةٍ أخرى نحو الحقيقة، ليخطو مسافةً أكبر نحو الحقيقة عبر الفلسفة والطرق العلميَّة الأخرى ولا يزال مستمرَّاً، هذا هو الجانب التاريخيّ، وحين نودُّ أن نتناول ذلك الجانب التاريخيّ أكثر لا بدّ أن نولي الأهميَّة لحضارة الشرق الأوسط وأن ننظر إليها على أنَّها منبع الحضارات، وحين ينظر إليها المرء على أنَّها منبع الحضارات تمحى الأسباب في السلطة والهيمنة، لذا يسعَى الغرب ليمتلك دائماً أسبابهُ في الهيمنة، يحاولُ بإصرارٍ أن يُبعِد تلك الحقيقة ويمحيها أو يفهمها بطريقةٍ محدودة كما يفعل في إطار المسائل العلميَّة والتقدُّم الذي يربطه بالجغرافيَّة الأوروبيَّة والغربيَّة، ولا سيَّما أنَّها توفَّرت باجتهاد الرجل الأبيض، هذه المصالح تُفرَض بدرايةٍ مُسبَقة، كلُّ هذه الأمور يقوم بها الغرب ليبقى المرءُ بلا أملٍ، وهذا ما يصنع التأثير، متى يتمُّ التأثير؟ لأوروبا الحقُّ في أن تقول أيّ شيء ولها محاولاتها الدائمة في الهيمنة، وتقوم لأجل ذلك بتوفير الأسباب لنفسها، وهي أسبابٌ عنصريَّة

وأيديولوجيَّة، فضَلاً عن أسبابٍ أخرى، فببعض نقاط انتصارها في جوانب الحياة المختلفة، تعمل على أن يكون انتصارها مثل منبعٍ وأساس، يُفهم من الأمر أنَّها تودُّ فرض نفسها على هذا المنوال. من المهمّ جدّاً لكل شخص أن يعبِّر عن قوَّته في الحياة، القوَّة التي يستطيع أن يعيش من خلالها، أي لا بدّ أن تكون /أو/ يكون القادة أو القياديَّات هي مميَّزاتها، لا أن تكون القيادة من الخارج، لذا ستكون تلك المحاولة أيضاً موجودة، آنذاك لن تكون هناك أيَّة مشكلات، وحينئذٍ من ذا الذي سيحكُم؟ فمتى استطعت أن تجعل من العلم أساساً تستطيع أن تحصل على النتائج، وما من مشكلةٍ في هذا الجانب.

٦- الشرق الأوسط يجد الحلول دائماً في أفكار وحياة الغرب:

أين تظهر المشكلة؟ حين تكون فاقداً لقوَّتك، وتلك هي المشكلة التي نعيشها الآن، فالرأسماليَّة أساساً تريد خلق هذه المشكلة، تودُّ أن تخلق في المرءِ اللا أمل وتطوِّره، أي أن يكون المرء في نظر ذاته فاقداً للأمل ولا يرى في نفسه إمكانيَّةَ العثور على طريق الخلاص أو إيجاد الحل وأن يفقد ثقته بنفسه وألَّا يكون له وجهة نظر في التقدَّم نحو الأمام، ألَّا يملكَ مشروعاً، هنا تظهر المشاكل، لذا يغدو المرءُ حينها مجرَد مادَّةٍ خامّ لتنفيذ مشاريع الآخرين، يأخذ فحسب دون أن يكون بمقدوره العطاء، تغدو الأفكار الغربيَّة هي الأمور المهيمنة في حياتنا، أسلوب ونمط الحياة الغربيَّة، لأنَّنا قد تُهنا عن الأمل، لأجل ذلك ولكي نخطو خطوةً حضاريَّة ونعبر الأزمة نحن بحاجة إلى نسيان الأشياء الوافدة من الغرب ونجعل من هذا الأمر أُسَّاً، من هنا سنهتدي إلى طريق الخلاص، وهذا يتعارض مع حقيقتنا الاجتماعية والثقافيَّة، ولنحقِّق ذلك نقف وجهاً لوجه مع الكثير من المشاكل، أي عوضَ أن تجلب معها الحلول فإنَّها تعمِّقُ الأزمات الاجتماعية بشكلٍ أكبر، ثمَّة قيمٌ تقاوم، القيم الدينيَّة، العائليَّة، العشائريَّة، القَبَليَّة، هذه الأمور تأتي سويَّةً على النقيض لتغدو أسباباً كبيرة في أن تُزيد من عمق الأزمة عوضَ أن تجد حلولاً لها، لذا

حين نناقش الشرق الأوسط يجب أن نتخلَّى عن هذه الحالة النفسيَّة، تلك الحالة النفسيَّة التي تصيبُنا حين يتمُّ الحديث عن الغرب، فهذا يعبِّر بالنسبة إلينا عن العلم، التطوُّر والتقدُّم، لا بدَّ أن يكون هذا معروفاً، وهكذا سنفهم، أم أننا سنقترب من ذلك نقديَّاً؟ لكن يا تُرى هل ستتوفَّر لدينا قوَّة الانتقاد أم لا؟! نحنُ كتنظيمٍ نعتبرُ أنفسنا قوَّةً رائدة، ففي نشاطنا حتَّى الآن حين يتجرَّأُ أحد رفاقنا على انتقاد الحداثة الرأسماليَّة، فإنَّ ذلك الانتقاد وأسلوبه لا يؤخَذان كحقيقةٍ من قِبلنا، فبكلامٍ غير ذي معنى يقولون له: "ماذا أنت؟ من أنتَ حتَّى تنتقد الحداثة الرأسماليَّة، ما الذي تستفيده حين تنتقدها؟" وهذه مشكلة بحدِّ ذاتها، فلِم يحصلُ ذلك؟ لأنَّ الحداثة الرأسماليَّة وما حقَّقته كالدولة القومية والصناعية والرأسماليَة بالتوازي مع قوة الفكر والتحليل العظيمين، مقابل ذلك تسبَّبت لنا بانهيارٍ نفسيّ. كيف يمكن لنا أن نثبِّت هزيمتهم؟ حينَ يكونُ بمقدورنا أن نصبح مثلهم، وليس مثل أنفسنا، نحن نريد بذلك أن نجتاز حالتنا النفسيَّة.

لذلك لا نمتلك القوَّةَ النقديَّة، وفضلاً عن ذلك ثمَّة بحثٌ ما عن التقليد، والتقليد بطبيعة الحال لا يمكن له أن يساهم في حلِّ المشكلة، والآن فإنَّ مصدر المشكلة يكمن هنا، مثال: يوجد في الغرب علم النفس، السوسيولوجيا، التحليل الطبيعيّ والاجتماعي، وبُنيت الدول على تلك الأسس وعبرها تمَّ قيادة المجتمع، فسهولة المقدَّمة هي من صنعت المشهد في الغرب، أي ظهور صورة موَّحدة تبقى خالدة ودائمة، وبالتالي توفَّر قوَّة ما، آنذاك وفي نضالنا لأجل حضارةٍ ديمقراطيَّة أو لديمقراطيةٍ حديثة، كيف سنكافح؟ كيف سيكونُ منظورنا إلى الكفاح؟ سيكونُ كفاحنا في مقدرتنا ضمن ثنايا هذا النظام الحداثويّ العامّ أن نربط القيم الإنسانيَّة بشكلٍ جيِّد وبطريقةٍ علميَّةٍ ووجدانيَّة وبأسلوبٍ أكاديميّ أو عبر البحوث الديمقراطيَّة مع القيم الاجتماعية والثقافيَّة التي تعتبرُ التضامنَ والأخلاق من الأساسيَّات الهامَّة بطريقةٍ مستقلَّة ونصنع تاريخنا وأخلاقنا وثقافتنا وفقاً لشروطنا، بهذا الشكل يمكننا أن ننتصر، أو إنَّنا سنجعل التقليد أساساً لنا. الآن، الكمال أو عدمه بيننا هو المشكلة، مثال: متى أعتبر كاملاً، متى أرى نفسي كاملاً؟ حينَ أرى إتقاني اللغة الإنجليزيَّة أو أنَّ

أسلوب حياتي يماثلُ أسلوب حياة الأوروبيّين، لِبسي، طريقة الحديث، النهوض والجلوس، مقارباتي للمواضيع وللدولة، المجتمع حين يكون موجوداً، آنذاك أرى نفسي كاملاً، حين لا أكون ذلك فلن أعتبر نفسي كاملاً، لكن لننتبه إلى شخصٍ إنكليزيّ لا يعرف الكرديَّة، فإنَّه لن يعتبر الأمرَ نقصاً بالنسبة إليه، لكن حين لا يتقنُ كرديٌّ اللغةَ الإنكليزيَّة فإنه يحسب ذلك لنفسه نقصاً، ففي كردستان حين لا توجد أبنية عالية نصفهُ بالبلد الفقير ، إنَّنا نبحثُ في الطريق الخاطئ بغية أن نجتازَ الفوضى والأزمات.

كيف نبحث عن طريق الخلاص؟ نقول: حين نغدو مثلهم سيكون بمقدورنا اجتياز الفوضى والتخلُّص منها، هذا أمرٌ خاطئٌ للغاية، لِمَ؟ لأنَّ الغرب لا يمكن له في أيِّ وقتٍ من الأوقات أن يجعل من قيمه سائدةً، لأن شرطيَّاً في إنكلترا وقف يوماً ما باستعدادٍ واعتدال أمام مواطنٍ إنكليزيّ ولكن في الوقت عينه كان الشرطيّ نفسه يقتل النَّاس في الهند، ما الذي يعنيه هذا الأمر؟ الأمر يعني أنَّ القيم وحقوق الإنسان والعلم... إلخ لا تطبَّق على العالم بأكمله، فحين يودَّ أن يفعل ما يريده هو ويضعنا في الإطار الذي يحدِّدهُ هو وينمّي من الانحدار لدينا وتطبيق القوالب الذهنيَّة التي يريدها علينا، فإنّه يفعل ذلك لأجل أن نصبح طريقةً للرأسماليَّة. مثال: يوزّع في العراق مجموعة كتب موجَّهة إلى الشباب وأخرى إلى النساء، وأيضاً إلى التجَّار، يوزّع معلوماتٍ، وكتب أخرى موجَّهة إلى الأحزاب السياسيَّة، وعلى هذا الأساس تخرج مجموعة معيَّنة تكون في المحصلة مجموعاتٍ منذورة للرأسماليَّة، لأجل ذلك تعمل على إخراج المجموعات لأن تصبح مثلها، لذا ليس بمقدورنا آنئذٍ الفوز في هذه المباراة، بل أن المرء يتوه عن نفسه وحقيقته ويبتعد عن جذوره وأصله، وهذا ليس طريقاً للحلّ. في هذه الحالة تغدو مشكلتنا أن نمنح الثقة لأنفسنا، ولكن كيف سنحقِّق تلك الثقة؟ ثمَّة اهتمامٌ بنا، فالغربيّ يعني التطور، فيما الشرقيّ يعني التخلف والوحشيَّة، هذا الأمر ترك تأثيره الكبير علينا، ودائماً يتم تحليل اللا ثقة واللا إرادة، مثال: لكي نقوم بتحليلٍ ملائم فنحن لا تثق بقوّتنا، فالمثقّفون الشرقيّون لا يقرأون مرافعات القائد عبد الله أوج آلان لكي

يقوموا بتحليل الحضارة، بل يقرأون مَن؟ هينديغتون، فرانسيس فوكوياما، إلخ... يقرأون للمستشرقين، يقرأون برنار لويس، يقرأون كل هؤلاء لكي يتعرّفوا إلى أنفسهم، سوى أنَّ تحاليلهم تأتي وفقاً للغرب، يعني أدلجة الشرق، وحتَّى إن وجد انتقادٌ ما، فإنَّهُ لن يكون ضدَّ النظام الغربيّ، بل يتمّ فرضه بغرض أن يغدو نظاماً عالميَّاً، لأجل ذلك لا بدَّ أن نؤمن أن البدائل قد خرجت من بين أيدينا، نحن فقدنا الثقة بأنفسنا، لذا فإنَّ هذا الأمر يظهر واضحاً على نشاطنا العمليّ أيضاً. مثال: توجد بلدانٌ في الخليج العربي، الجزيرة العربيَّة لها بلدانها: السعودية، قطر، الكويت، رأوا أنفسهم فجأةً مستقرّينَ فوق بحرٍ من البترول الذي يعتبر هامَّاً بالنسبة إلى العالم، أي أنَّه من الناحية الاقتصادية يجلب الكثير من المكاسب، لذا بدأوا بتجديدٍ ما لأجل أن يبيعوا البترول، فوُجدت حداثةٌ كبيرة، بنوا المدن والبيوت وطوَّروا تجارتهم والصرافة، كانوا في حاجةٍ إلى الأناس المجتهدين وذوي الخبرة والاختصاصات، مثلاً: ثمَة شيءٌ كهذا يحصل: حين يذهب رجلان إلى السعوديَّة أحدهما عربيّ فيما الآخر إنجليزيّ، حتَّى وإن كان الاثنان قد درسا اختصاص الهندسة ذاتها، فإن كان مرتَّب العربيّ ألف دولار، فسيكونُ مرتَّب الإنكليزي مُضاعفاً مع أنَّهما درسا الاختصاص ذاته، هذه الثقة المعدومة بالإنسان الشرق أوسطي من شأنها أن تنسحب على كل مناحي الحياة، مثلاً/ ثمَّة العديد من المهندسين المثيرين للاهتمام في سوريا ودول أخرى، حتَّى وإن كانت لديهم مشاريع في الهندسة أو الرياضيَّات فإنّ الدولة السوريَّة تستعينُ بخبراء ومهندسين أجانب بمبالغ ضخمة وأجورٍ مرتفعة، ثمة الكثير من أموال المجتمع يتم إنفاقها، لِمَ؟ فلتعطي رأياً، نعم أم لا، لا شكَّ في أنَّك تستطيع إعطاء نظرة المهندسين في سوريا بكل سهولة، لأن الأوضاع في ذلك البلد معروفة إلى حَدٍّ ما، لكن انعدام الثقة هي من جلبت معها تلك الأشياء، لذا فإن اهتمامنا بالشرق الأوسط ضعيف، نحن نفهم الثورة الفرنسيَّة بشكلٍ جيّد ونعرفها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الثورة الإنكليزيَّة، الأميركيَّة، نتابع أخبار الانتخابات، اللقاءات الثقافيَّة والفنيَّة، لكن مهما حصل من خراب في الشرق الأوسط فإنَّه لا يثيرُ انتباهنا! حتَّى على مستوى الدول التي نعيش فيها والتي نمتلك علاقةً معها لا نهتمّ بأي

أمرٍ يحصل فيها، في سوريا، إيران وتركيا والعراق وكلِّ الدول العربيَّة، سواءُ ما يتعلَّق بالصعيد السياسي أو الاجتماعي، لا نملك سوى معلوماتٍ قليلة، لا نعرف كيف بُني النظام السياسي وعلى أيِّ أساس، ما هي الثقافات السائدة في هذا البلد، بِمَ يتأثَّرُ بَشرُها؟ ما هي ردَّات فعلهم وضدَّ ماذا؟ لم نتعمَّق في هذه الأمور بشكلٍ جيد، هذا متأتٍّ من ذلك المنطق، لأجل ذلك حين نناقش هذا الدرس فلا بدَّ أن نحقِّق عدَّة أمور ليكون بمقدورنا أن نتخطَّى مشاكلنا، أي لا بدَّ أن نكون مُلكاً لأنفسنا أكثر.

٧ – أسباب الأزمة وذهنيَّة الشرق الأوسط:

بادئ ذي بدء لا بدَّ وأن نعرف ماهيَّة الأسباب التي أدَّت إلى ظهور المشاكل والأزمات في الشرق الأوسط والوقوف عندها، والإيديولوجية هي في مقدِّمة تلكَ الأسباب، ولا بدَّ أن نقف عندها، فالإيديولوجيَّة كنَّا نفهمها ذي قبل وفقاً لتاريخ الماديَّة الديالكتيكيَّة، أو كنَّا نفهمها وفقاً لمقاربة العلوم الاجتماعية الإيجابيّة، لم نكُ نعطي دوراً ذا أهميَّة في تغيير المجتمعات إلى المؤسساتيَّة، إنَما كنَّا نفهم أنَّ التغيير الأساسيّ يأتي كنتيجةٍ للعوامل الماديَّة والاقتصادية، لذا، وبدءاً من المشاكل الاقتصادية وغيرها من المشاكل السياسيَّة والنقاط الأخرى التي تغدو أسباباً كبيرة تجعل شعوب الشرق الأوسط تعيش في ظلِّ أزماتٍ سببها ارتباطها بالإيديولوجيَّة، لأنَه حين لا تتوفَّر إيديولوجيا مفتوحة، ومهما توفَّرت الظروف الماديَّة، إلا أنَّها إن لم يتم تقييمها في الإطار الإيديولوجي أو المعرفيّ الصحيحَين أو مساهمتها في إعلاء شأن الحياة في تلك المجتمعات فليس واجباً على المرء الخوض فيها أو بحثها.

هذا هو الوضع القائم: فبالجغرافيَّة الواسعة والأرض الزراعيَّة الخصبة والطبيعة المعطاءَة للشرق الأوسط وطبيعة أناسها، كان لا بدَّ لها أن تتجاوز كندا أو سنغافورا وغيرها من الناحيَّة الاقتصادية، لكن في يومنا هذا الذي

ننظرُ إليه فإنَّ أكثر من نصف البشريَّة في الشرق الأوسط يعيشون المجاعة، وهذا إن أمعنَّا فيه عائدٌ إلى ومرتبطٌ بـ الإيديولوجيَّة، لأنَّ الأيديولوجيَّة أكثر من كونها تقارباً سريَّاً فإنَّها تعمل على التفرقة الداخليَّة، فمن يوضِّح نشاط وحركة الأشخاص فإنَّه يعمل على توضيح نشاط وحركة المجتمع كذلك الأمر، التقارب من القيم أو من المسائل الماديَّة للحياة، وبشكلٍ عام كيف يمكن أن يفهم الحياة، الذهنيَّة، هذه الأمور كلها تؤسِّس وفق قالبٍ ذهني يقبله المجتمع، فحين يتمّ قبوله يتم بناءه وفقاً لذلك الأساس، لذا فإنَّ المرءَ لا يمكنه ولسببٍ بسيط فهم المشاكلَ الإيديولوجيَّة على صعيد توفُّر الفوضى في الشرق الأوسط حيثُ تعيشُ الأزمات.

٨ـ ما هي الدوغمائيَّة؟

الإيديولوجية ضروريَّة وهامَّة، ولكي تُفهم هذه المسألة بشكلٍ أوضح، لا بدَّ أن نقف عند الدوغمائيَّة التي تعني تلك المقاربة الممنوعة عن النقاش، المقاربات ذات العلاقة بالنقاش الذي يمنع فيها البحثُ والانتقاد، أي القبول بما هو موجود مُجبراً، فما هو موجود يقبل به المرء، الدوغمائيَّة أسلوبٌ للتفكير على أساس الإعلام وليس على أساس البحث والتمحيص والعقلانيَّة، أي أنَّك تُخبر فقط، أي أنَّ جدَّك ينقلُ لأباك، ومن ثم أباك ينقلهُ لك، ليستمر الأمرُ على هذا المنوال، لا يوجد شيءٌ اسمه البحث أو التمحيص أو التدقيق، أي أنَّه لا يمرُّ باختبارٍ عقليّ. لذا فإنَّ كل شيء مقبول هو عبارة عن استنساخ، أيّ أن الأساس ها هنا هو القبول ومن ثمَّ الإعلام، لذا فإن الدوغمائيَّة تعمل على سدِّ الطريق أمام التغيير ومنعه من الحصول، وتعتبر الدوغمائيَّة في الشرق الأوسط مشكلةً جديَّة، لا، الدوغمائيَّة موجودة في كلِّ مكان، نحن أيضاً بمقدورنا الآن وإلى حدٍّ ما أن نكون دوغمائيين، لِمَ؟ لأنَّ الدوغمائيَّة قد تكون ممكنةً إلى حَدٍّ ما، في أي إطار يمكن أن تكون ممكنة؟ مثال: الآن أنا أدَّعي وأبحث لأقول أنَّ الوضع القائم لا يمنح السلام ولا يمكن القبول به، أحاولُ

العمل ضدَّ الوضع القائم، أي لكي أجتاز هذا الوضع أنفَّذ خطوةً علميَّةً نظريَّةً فكريَّة وأخرى عمليَّة بغية أن أُقنِع من حولي، هذا الأمر إلى حدٍ ما دوغمائيّ، لكن على الدوام لا بدَّ على منهاج العمل أن يمنح فرصَةً ليكون بالإمكان رؤية طريقتي، أن يكون علمنا مرئيَّاً إلى حَدٍّ ما، وأن نقرّب معلوماتنا حول الوضع القائم، وأن نقيسها ببعضها الآخر، يا تُرى هل تلك المعلومات صحيحة أم لا؟ لا بدَّ أن نمنح هذه الفرصة.

الدوغمائيَّة تزداد دون أن يكون بمقدورنا منحها الفرصة، تبقى محافظةً على سكونها وتغدو كما تريد هي، الشيء الموجود أنَّها تقترب من الشيء اللا مرئي، وكأنَّ لا شيء موجود ولكن تبقى مصرَّة على ما تريد، وفي يومنا الرَّاهن تعتبر المعرفة الإيجابيَّة في الغرب دوغمائيَّة، هي أيضاً أمرٌ سيء، إلَّا أنَّها أسوء في الشرق الأوسط ولها تأثيرها الكبير على النشاط الاجتماعي، فهي تمنع المجتمع من الحركة أو التطوُّر وكأنَّها تريد أن تجبره على أن يبقى في مكانه، ربمَّا ثمة جوانب إيجابيَّة، ولكن إن كان بمقدورنا إثارة بركانٍ على صعيد الذهن فإنَّ هذا الشيء سيكون أصليَّاً ومتيناً أكثر، هذا ربمّا جانبٌ إيجابيّ، ولكن في يومنا الرّاهن فإنّها تمثِّل الجانب السلبيّ من أفكار الغرب. فما هي الأمور السلبيَّة التي تمثِّلها؟ الشرقُ الأوسط مهد الانطلاق للكثير من الأمور وخلقها، هنا استقرَّت الأفكار، السلطة ظهرت هنا، الدولة، الميثولوجيا، الدين، إلخ، أي أنَّ الأنشطة الفكرية والعمليَّة ظهرت هنا على نحوٍ جليٍّ.

إن انتبهنا جيداً، فلن نرى شيئاً مختلفاً من ناحية الجوهر في العالم، فالحقوق، الرياضيات، الدولة، بناء الدولة، المؤسسات، السلطة، حتَّى العلوم الطبيعيَّة كلَّها خرجت من الشرق الأوسط، وهذه الأمور التي ظهرت لا يمكن نعتها بالصغيرة، فلننتبه، لم يكن الإنسان الكردي متيقِّظاً لأفكار الحريَّة والاستقلال، أي لا معرفة مسبقة لنا مطلقاً، مثال: حين يقرأ أحدهم كتاب: (طريق ثورة كردستان) وكأنَّه يعثر لأوّل مرَّة على كلّ شيءٍ في هذا الكتاب ويشعر بتلك

الأشياء، وكأنَّه يعثر على أناسٍ كان قد تاه عنهم، حيثُ يمنحه سلاماً روحيَّاً، يشعرُ بحماسٍ لأنّ كل ما يقرأه أشياء جديدة عثر عليها للتوّ، لذا تغدو تلك الأشياء المُكتشفة آنذاك أموراً مقدَّسة، ولا يودّ أن يتخطَّاها أو يتجاوزها لأنَّهُ يرى الحقيقة فيها، يغدو وكأنَّه خرج للتوّ من بيئةٍ قديمةٍ أو من وضعٍ حيوانيّ وتوصَّل إلى معلوماتٍ حول تنظيم حياته، يصل إلى الدين ومعرفته، الأخلاق، العادات والتقاليد، التعلُّم، هذه الأمور كلَّها على قدرٍ كبيرٍ من الأهميَّة، لذا فإنّ الفرد يقبلها بقدسيَّة وتغدو جزءاً منه، فلا يودُّ أن يتركها وليس بمقدوره فعل ذلك، هذا هو مصدر الدوغمائيَّة في الشرق الأوسط لأنّ هذه هي المواضيع المبدئيَّة. فلننتبه إلى أنَّ الدوغمائية في مكانٍ آخر لا يمكن لها أن تكون المهيمنة أو المسيطرة، لأنها مثل النسخ، وثمة فرص تدريبيَّة للمرء لكي يكون بمقدوره أن يفعل كل شيء حسب شكله وأسلوبه، مثال: الميثولوجيا موجودة في الشرق الأوسط، وفي روما واليونان أيضاً، سوى أنَّ الميثولوجيا أكثر إنسانيَّة في اليونان وروما وتمتلك بداخلها قوَّةً إنسانيَة، والإنسان بمقدوره أن يعطي لتلك الميثولوجيا شكلاً إنسانيَّاً وفق حياته، حتى من الممكن أن يرفضها أحياناً ويقف ضدَّها، هذه الأمور كلها تسيّر وفق المصالح، لكن هذا الأمر غير موجود في الشرق الأوسط لأنّ الميثولوجيا فيها هي الحقيقة ذاتها ومنبعها، فهو يعبّر عن نفسه من خلال تلك الميثولوجيا ويرى فيها كل أسباب حياته. لذا فإنَّ هذه الميثولوجيا هي منطلق العلم، أي إنَّها العلم الأوَّل، مثال: لم تكُ علوم الرياضيات أو الفيزياء أو الكيمياء متقدَّمة كما هي الحال في يومنا الرَّاهن، بل كانت جلّ البحوث متمحورةً حول الحياة والموت والتكوين أو التعبير عن الصراع والمشاكل بين الكائنات الخياليَّة وظهور السُلطات وأشكالها عبر تلك الميثولوجيا التي كانت تعبّر عن كل تلك الأشياء، فمثلاً في يومنا الرَّاهن حين نودَّ أن نتحدث عن حقيقةٍ لا بد أن نجهّز عنها كشفاً بيولوجياً فيزيائياً كيميائيَّاً ليغدو مصدراً، أيضاً كانوا يودّون أن يعثروا على تعبيرٍ عنهم عبر الميثولوجيا، ولا بدّ أن يعثروا على حقيقتهم فيها، أو ربمَّا لم تكُ حقيقةً إنَّما شيئاً صحيحاً، لم يكُ ليتجرَّأ أحد على التعبير أيضاً. لذا فإن التزمّت والدوغمائيَّة عميقتان جدَّاً في الشرق الأوسط، حتَّى في

الأزمان القديمة لا يمكن لهما أن يتغيَّرا في الشرق الأوسط، بل يتم إمحاؤهما، مثال: في بابل لا يمكن أن تحصل إصلاحات أو تغييرات، وفي آشور وأكاد كذلك الأمر، فالشيء الموجود إما مطلق بالكامل أو يُسقَط بالكامل، لا مجال للنقاش أو البحث والتمحيص والبناء والتقييم فيها، أي أنَّ كل شيء فيها مطلق، لِمَ؟ لأنَّ تلك الأشكال هي من أعطت منظور الحياة بالنسبة إلى البشر، وحاصرت حياة البشريَّة وفق تنظيمٍ أو تشكيلٍ معيَّن دون أن توفَّر لها فرص البقاء، أمَّنت الحماية والمأكل والمشرب، لذا فهو يرى نفسه بمثابة بِشارة، يراها على أنَّها جزءٌ من حياته ويتّحد مع تلك الحقيقة ويغدو شيئاً مطلقاً.

لننتبه إلى أنَّه ثمَّة محاولاتٌ كثيرة في أيامنا الرّاهنة لليساريَّة، الوطنية وغيرها، بغية أن تحلَّ محلَّ الدين، لكن دون أن تتمكَّن من ذلك، فما السبب في ذلك؟ انظروا، لا بدَّ ولكي نفهم بعض الأمور أن نأخذها ونفكِّر فيها حسب واقعها وأرضيّتها الماديَّة، ليكون بمقدور المرء أن يطبق أمثلتها على الواقع الرَّاهن، فلنفترض أن ثمة انسانٌ يعيش في قريةٍ تمتلكُ فلسفةً خاصَّةً بها في الحياة والعيش، لها طرقها في القيام والجلوس والحديث والعمل، التعامل مع الوالدين والجيران والمحيطين، أي يختار أسلوب ونظام حياة معيَّن ويطبّقه في قريته، وبعد فترة زمنيَّة توجَّه الشخص ذاته نحو أوروبا أو إلى مكانٍ آخر بعيدٍ عن أرضه الأصليَّة، بعد فترةٍ زمنية حين ترى ذلك الشخص ستقول أنَّ هذا الشخص قد تغيَّر فيما القاطنون في القرية لا يزالون على ما هم عليه من نظام حياة، ما هي الأسباب في ذلك؟ هناك العديد من المشاكل في هذه النقطة، نحن نقول إن البداية دائماً كانت من الشرق الأوسط، في ميزوبوتاميا العليا، تأسست على أطراف نهر النيل، حتَّى قبلها في الهلال الخصيب، في زاغروس وطوروس حيث أرضُ الثورةِ النيولوتيكيَّة، وهكذا عبر مجاري المياه بدأت تتجه رويداً رويداً نحو النهر الكبير لتغدو حضارةً في ميزوبوتاميا العليا ومن ثمَّ توزَّعت في أنحاء العالم.

حين يتَّفق الإنسان على أنَّ الشرق الأوسط هو موطن البدايات فلِمَ إذن أضاعَ أولويَّاته؟ إن كانت اليونان قد استفادت منَّا فلِمَ لَم نتقدَّم عليها؟ هذا هو السبب، الشيء على أرضه يكون مرتهناً لبعض القيم، يقال عنه nirxdarazî أي محكومٌ بالأسلوب، لذا لا يستطيعون الخروج عن ذلك الإطار، ليسوا أحراراً، يقدّسون ويخلِّدون من رُبّي في الغرب، ويغدو الأمرُ نظاماً محميَّاً من جيلٍ إلى آخر وعلى هذا الأساس يتلقّون التربية في المنزل، في الدولة، وبهذا الشكل يعيدون أنفسهم.

لكن حين يخرج شخصٌ من أرض الشرق الأوسط متّجهاً نحو مكانٍ آخر، أي ينظر إلى الشرق الأوسط من خارج الصندوق، فما الذي يراه؟ يرى أعمالاً ومنتجاتٍ جيدة، يرى البناء والعمارة، علم الفلك، الطب، الهندسة، الرياضيَّات، أي تلك الأشياء التي نصفها بالجيّدة، لكنها في الوقت نفسه مكرَّرة، لذا لِمَ يكرِّر الشخص نفسه؟ لأنَّه يحملُ ثقافةً اجتماعيَّة معيَّنة تجبره على أن يكرِّر نفسه، هذا ما يحصل، هذا ما تربَّى عليه مُتابِعَاً على هذا المنوال، لن يقوى على العيش إن لم يفعل ذلك، تلك العادات والتقاليد ترميه وتحكم عليهِ بالموت، لذا من ينظر إلى الخارج ما الذي يفعله؟ إنَّه يأخذ الأشياء الجيِّدة بالنسبة إليه، سوى أنَّه ليس محكوماً بتقليد نمط الحياة تلك، أو تقليد الحركة ليس محكوماً بكل النسخ الموجودة، لكن بمقدوره أن يروِّض ما تعلَّمه وفقاً لشروطه الخاصَّة.

لا شكَّ وأن العلماء الكبار الذين فتحوا الطريق نحو رقيّ الغرب ومهَّدوه أمام الحضارة الغربيَّة هم أمثال طاليس، فيثاغورث، هم أنفسهم استقوا علومهم من بابل ومصر فيما يخصّ علم الفلك، الهندسة، الرياضيات والكثير من الأمور الأخرى، سوى أنَّهم لم ينسخوا تلك العلوم كما فعل البشر في الشرق الأوسط، بل روّضوها وفقاً لشروط وخاصيَّات بلادهم، أيّ أنهم استعملوا ما هو ضروريّ وذا فائدة لبلادهم وحسب.

هذه الحرية وفَّرت الإمكانية لتطوير الشيء أكثر ممّا هو عليه، أي مهما كان الشيء ذا أصولٍ وجذورٍ شرقيَّة، سوى أنَّها طُبِّقت في الغرب بشكلٍ أكبر، فمهما يكُ من فرقٍ كبير بين إنكلترا وأميركا، فإنَّه فرقٌ ذهنيّ، فلننظر إلى أميركا التي كانت مستعمَرَةً إنكليزيَّة، أميركا اكتُشفت من قبل الأوروبيّين، حيثُ ذهبوا للعيش هناك وجعلوها مستعمَرَة لهم واستقرَّوا، لكن إن نظرنا في يومنا الرَّاهن فإنَّ قوَّة أميركا لوحدها وبثرائها من النواحي الماديَّة والسياسيَّة وقوَّتها الفكريَّة تتغلَّب على إنكلترا وفرنسا، ما السبب؟ السبب ذهنيّ، لِمَ؟ لأنّ الإنسان الأميركيّ حين غادر أوروبا واستقرّ في أميركا اتخذ لنفسه فلسفةً أخرى غير تلك المؤسَّسة في السابق، حيث عمل على أساس مقاربة انكلوبروتستانتيَّة مبنيَّة على دوغمائيَّة أكثر، وعلى أساس أين تكمن مكاسبه، وعلى قاعدة المكسب الذي يمكّنه من كيفية العيش بحريَّة، لذا نالَ هذه السلطة الكبيرة.

قد يقول قائل كانت أميركا مستعمَرَةً إنكليزية فكيف حصل وأن توسَّعت أكثر من إنكلترا نفسها وباتت علومها أضخم؟ كل شيء يعود إلى أنَّ الأميركيون حين خرجوا من إنكلترا لم يخرجوا وحسب بالمعنى الفيزيقيّ، وإنَّما بالمعنى الروحيّ، فالقيم التي كانت تقيّدهم في أوروبا لم يجعلوها لأنفسهم قيَماً ومنطلقاً بل رتَّبوا حياتهم بالتطابق مع مصالحهم، لكن إن انتبهنا، فإن كندا والمكسيك أيضاً تم اكتشافهما في ذلك الوقت، وأيضاً الأرجنتين والبرازيل وتشيلي، فلِم هذه الدول غير متقدَّمة في الوقت الذي تعتبر فيها الولايات المتحدة الأميركيَّة على النقيض منها؟ لأن من يدير إيديولوجية الأميركيين أشخاص يعتمدون على الأيديولوجيَّة الإنجلوبروتستانتيَّة المبنيَّة على أساسٍ براغماتيّ. هذا ما جرى، فمن جرَّد نفسه من التعاليم القديمة أو ابتعد عنها، عمل فقط في إطار مصالحه، لذا حين يتعلَّم اليونانيون من الآشوريّين فلن يذهب اليونانيون للعيش وفقاً لما تعلّموه من الآشوريين بل سيعيشون وفقاً لأنفسهم، يصنعون بين أنفسهم نوعاً من عدم الارتباط، بل التعاضد، أي يزيدون على ما تعلَّموه كتعاضدٍ كبير، يبني ما تعلّمه طابقاً فوقَ الآخر. لذا هذا الانفجار يولِّد رقيَّاً،

فالحضارة الغربيَّة مقابل حضارة الشرق الأوسط تصنع انفجاراً في منحى التغيير، وهذا أمر ضروريّ، ففي ذلك الوقت لا بدَّ أن نفهم أنَّ المشكلة في الإيديولوجيا، فما هي المشكلة الإيديولوجيَّة؟ لا بدَّ أن نفهم الإيديولوجية وفق شكلٍ براغماتي داخل إطار التعليم المقدّس، أي نقارن في ذهننا بين القوالب الإيمانيَّة وبين العلوم التي نعيشها في أيّامنا، وهكذا سنعيش؟

للأسف نحن نعيش حتَّى الآن في حالة نسيان أو باستنساخ أشياء الخارج، أو من خلال التعاليم القديمة، وبقوَّة العادات والتقاليد، والمفهومان الآنفان الذكر لا يمكن لهما إحداث أيَّة تغييرات، لذا فإنَّ الإيديولوجية توضِّح كل الأمور، الأمور الاقتصادية، انظروا إلى العرب إن تم قطع البترول عنهم فسوف يجنَّ الشرق الأوسط ويُنهَك، لكن إن نظرنا فعلى الرغم من امتلاكهم لإمكانيَّاتً ماديَّة واقتصاديَّة إلَّا أنَّهم لم يتطوَّروا، إذن فالإمكانيَّات المادية لا تكفي لوحدها بغية تحقيق التقدُّم، فالإيديولوجيا الصحيحة بإمكانها تحويل البراري إلى جنَّاتٍ، وعلى النقيض من ذلك، فالإيديولوجيا الخاطئة من شأنها أن تقلب الجنَّاتُ إلى صحاري جرداء، لذا لا بدَّ أن يتعمَّق المرء في موضوع الإيديولوجيَّة ليفهم الموضوع، فالقوالب الإيديولوجيَّة التي وُضعت بقوَّة الإيديولوجيا ودين الإله الواحد ومؤسسات الدولة تكونُ عائقاً في الرحلة نحو التقدُّم، وقد كانت هناك محاولات لتخطّي هذه المشكلة سوى أنَّها لم تنجح، لِم فشلت؟ سنتوقّف عند هذا الموضوع.

٩ – تطوّر الفكر والميثولوجيا:

لِمَ كانت محاولات تخطّي الإيديولوجيا عبر الفعل النهضويّ والتجديديّ في أوروبا قادرة على اجتياز البراغماتيَّة، في الوقت الذي بقي فيه الشرق الأوسط في مواجهة الأحداث التراجيديَّة؟ النشاطُ الفكريّ بشكلٍ عام له مراحله، ففي المرحلة الأولى يعلن عن المضيّ في التقدّم والدعوة إلى

المشاركة، أي أنَّه يفتح الطريق أمام التقدُّم والتطوّر، لذا فهو يلعب دوراً إيجابيَّاً ها هنا، سوى أنَّه في بعض المراحل يمارس دوراً سلبيَّاً ومتخلِّفاً، أي أنَّه يعمل على إيجاد العوائق، لِمَ يحصلُ ذلك؟ إن تحدَّثنا الآن عن الميثولوجيا، فهي في أساسها لأجل تطوير فكر الإنسان والإنسانيَّة والمجتمع، وهنا يلعب دوراً جيداً، والنتيجة الأوّلية هي: كيف أنَّ للكيمياء أو الفيزياء اليوم الدور لإيجاد الحلول لبعض المشاكل ورفع السويَّة العلميَّة لدى البشر، فإنَّ الميثولوجيا تمارس الدور ذاته، تحاول أن تجد حلَّا للحرب القائمة، أن تجد حلَّاً للأشياء الغامضة غير المعروفة، ما هو الكون وكيف كوّن، كيف خُلِق الإنسان، ما هي العلائق بين الحياة والموت، ومن ثمّ معرفة علاقة الإنسان مع نفسه ومع الطبيعة، لذا فإن الميثولوجيا بحثٌ عن الحقيقة، وهي بالنسبة إلى المكان الذي ظهرت فيه وبالنسبة للبشر هناك هي الحقيقة نفسها، تعمل على لغةٍ رمزيَّةٍ ذات دلالات وتوضِّح وحدة الحياة. بمقدور الإنسان أن يرى هذه الأمور جليَّةً في الميثولوجيا: الفروقات الجندريَّة بين مجموعات الحيوان والبشر، الغابات والحيوانات، أي تلك الأشياء التي يقال عنها: الحيَّة والجامدة، كل هذه الأشياء في الأساس موجودة ضمن الميثولوجيا، أي تتوضَّح الطبيعة المُعاشة، ربما في المنطلق قد تتوضَّح الروحانيَّة في الحياة، وهكذا تبدأ الميثولوجيا، لكن ثمة أشياء أخرى أكثر في الميثولوجيا بإمكان المرء أن يراها بسهولة، مثلاً كيف يمكن للغابةِ أن تفهم لغة البشر، وكيف يمكن للبشر أن يفهموا الحيوانات.

لا شكَّ، ليس على المرء أن يفهم الأمر كما هو موجود، ولكنها في النتيجة عبارة عن إشارات ودلالات تعبّر عن شيءٍ ما، فهي ليست أموراً غير ذا قيمة أو لغةً مجرَدة وسريَّة أو لا علاقة لها بالحياة الماديَّة، سوى أنَها توضِّح الحياة الماديَّة الموجودة بطريقة مادية أو عبر الإشارات.

مرَّة أخرى في الميثولوجيا، ثمة صراعٌ موجود للبشر مع الأزمات، سواءُ كانت صراعاتٍ طبيعيَّة أم اجتماعيَّة وثقافيَّة، مثال: حين نقول ميثولوجيا

السومريين ثمة كفاحٌ للرجال في سبيل حقوقهم أو قوانينهم، فإنّنا نعرفها وفقاً لأشكالنا في الكفاح، مرَّة أخرى حلَّت لعنة الأكاديين كما أدمع السومريُّون ضدّ هزيمة مدينتهم المباركة نيبور.

دائماً كانت ردَّات الفعل تظهر ضدَّ الظلم والقهر والاستعباد، وفي النتيجة دائماً ثمَّة بحثٌ لا يتوقف عن الحرية والمساواة، وبإمكان المرء مشاهدة ذلك الكفاح في الميثولوجيا، فبمقابل الحصول على الحرية، المرءُ مستعدٌّ لأن يضحّي بكلِّ غالٍ ونفيس، فهذه الأمور لم تخرج على يد الثورة الاشتراكية ولا ثورة تحرير الشعوب، ولا ثورات الشعوب الديمقراطيَّة في القرنين الثامن والتاسع عشر، ولا حتَّى ثورة أميركا أو أوروبا، هذا البحث عن الحرية هو كفاحٌ لا نهائيّ للمرء وهو جليٌّ في الميثولوجيا كذلك الأمر، لكن في الوقت نفسه ما هي الميثولوجيا؟ تُرى أتنظّم حياة البشر كذلك، هل توضَّح العلاقات بين البشر أنفسهم؟ المشكلة تكمن في أنَّ المرء حين يرى أن الميثولوجيا لم يعد بإمكانها التعبير عن مشاكله، أو أن الميثولوجيا تفقد قدرتها على إيجاد إطارٍ صحيح لحل مشاكله، فإنَّه عوض اجتيازها فإنَّه يجعل من بحثه مشلولاً ومحدوداً مستسلماً للأشياء في حالتها الوجوديَّة، هذه هي البراغماتيَّة، وهذا هو المثير للانتباه في الشرق الأوسط، أي أنَّ المرء يرى الحقيقة بعينه سوى أنَّه لا يراها، لِم يحصلُ ذلك؟ لأنَّه حين يرى الحقيقة فإنَّ الأشياء التي يحملها في ذهنه تتشوَّش فيغضُّ النظر عن الحقيقة كونها قيماً مقدَّسة، وهنا مكمن المشكلة.

المشكلة الثانية هي أنَّ الميثولوجيا لا فكر حرَّ فيها ولا يمكن لها أن توضِّح طريقاً للمرء نحو حل مشاكله، هي فقط إيجاد حلٍّ لمشكلة لا يمكن للمرء أن يقوم بحلِّها، هي ذلك في عصرٍ معيَّن، لكن تتحوَل فيما بعد إلى سُلطة لتظهر المشاكلُ على إثر ذلك، مثال: حين أقول فكرة والآخرون يقولون أفكارهم وهكذا دواليك، فلا مشكلة في هذا الأمر، لا بل يُعدُّ إثراءً، إنَّه أمرٌ ضروريّ،

فالمرء إن استطاع أن يصل إلى نتائج معيَّنة لمجموعة من الأفكار المختلفة، أو أن يصل بيسرٍ إلى الحقيقة، لذا حينئذ لا ضرر من الأفكار البتَّة.

في أي وقتٍ يمكن للأفكار أن تكون ذا ضررٍ؟ يظهرُ ضررُ الأفكار حين تتّحد مع السلطة، لا سيَّما الفكرة الدينية أو الميثولوجيَّة، وفي يومنا هذا توضِّح العلمية الإيجابية هذه الحقيقة، لِمَ يحصل ذلك؟ كل فكرة ناضلت لتصل إلى الحقيقة حسب إيمانها، وهذا ما لا يمكن نقاشه مع صاحب الفكرة، ولكن حين لا تكون السلطة بين يديه ستخبره أن ما تقوله ليس صحيحاً، إنني أرى الحقيقة على هذه الشاكلة، سيقول لك حسناً، لكن حين يمتلك السلطة بين يديه سيقول: لا يجوز، أنت تفكر بشكلٍ خاطئ، هذه هي الحقيقة، فمؤسسات السلطة تفرض الحقيقة بشكلها المطلق على الجميع، فما يخرج منها يحكم بقوانين مختلفة، وها هنا تظهر المشكلة، وشكلنة الدولة أُسِّست على هذا المنوال، لِمَ توجد هذه المشكلة في الشرق الأوسط؟! تُرى ألَم تكن الميثولوجيا موجودةً في كلِّ مكان؟ لا، كانت موجودةً، ألَم يكن الدين موجوداً في كلِّ مكان؟ لا، كان موجوداً، كما أنَّ الفلسفة كانت موجودةً في كلِّ مكان، في اليونان، روما وأوروبا، لكن لِمَ هذا الأمر يغدو مشكلةً في الشرق الأوسط؟ المرءُ مجبرٌ مرَّةً أخرى على أن يسمّي هذه المسألة، الشرق الأوسط هو منبعٌ لكل ما تمَّ ذكره آنفاً، مثال: دين الإله الواحد لم يظهر في أوروبا، اليهودية والمسيحية والإسلام أيضاً، جميع تلك الأديان ظهرت في الشرق الأوسط، حيث لا فروقات جديَّة بين تلك الأديان فيما يخصُّ المسائلَ الاجتماعية والأخلاقيَّة، لا توجد أي فوارق جديَّة، المصدر واحد. مثال: الإسلام لا ينفي المسيحيَّة، والأخيرة لا تردّ اليهوديَّة، ليس ذلك وحسب، كتابهما المقدس واحد، إحداها باسم (العهد القديم) فيما الآخر اسمه (العهد الجديد)، أي أنَ التوراة والإنجيل يعرفان بهذين الاسمين وكلاهما يفصحان عن مرحلتين، أي أن المصدر هو عينه، كَبُرَ المصدر هنا ولا شكّ أنَّه لم يبدأ من الصفر، مثال: يقال أنَّ التوراة هو كلام الله، إذن فالقرآن الكريم هو أيضاً كلام الله وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى الإنجيل، لكن فيما بعد وضَّح علم الآثار، وأخرج مجموعة

من الوثائق أشارت إلى أنَّ الأمور التي ذُكرت في التوراة كانت عبارةً عن معلومات، بدءاً من الطوفان وصولاً إلى الكثير من الأمور المختلفة البقية، تكوين البشر، مقاربة المرأة، ثمَّة العديد من الوثائق الموجودة بشكلٍ كتابي، حتَّى قبل ذلك كانت موجودة، حتَّى قبل آدم، فالتاريخ الذي يرويه التوراة منذ زمن آدم وتكوين البشر، ثمَّة العديد من الوثائق التاريخيَّة التي تسرُد المعلومات عينها. في ذلك الزمن كان الدين سريَّاً، حيث نزل الوحي على نبيّ، ليظهر الدين، لم تكن هذه المعلومات موجودة ولا يعلم بها أحد، هذا ليس صحيحاً، لأن الجميع يعرف أن أخبار الطوفان الأولى كانت موجودةً في الكتب السماويَّة، التوراة والقرآن الكريم، لكن بعد اكتشاف ملحمة جلجامش مصادفةً تبيَّن أنَّها سرَدَت حكاية الطوفان بطريقةٍ أجمل، وآنذاك لم يكن ثمَّة وجودٌ لـ آدم ولا نوح ولا لأي شخصٍ آخر.

في الوقت ذلك، هذا مصدر وبداية سلسلة تلك الفكرة، فالبداية من الميثولوجيا، حيث ظهر الدين بشكلٍ مغاير وأمسى هويَّةً للبشريَّة، فلننتبه إلى أن الإنسان الشرق أوسطيّ يفهم الكتاب الدينيّ ولا يلقى أيَّةَ صعوبة أو مشكلة فيها، لذا ففي الوقت الذي لاقت فيه الحركة الاجتماعية الاشتراكية صعوبةً في الوصول إلى الذهنيَّة المجتمعيَّة، كانَ الدين أو الخطاب الدينيّ يصل بسرعةٍ وبلا أيَّة مصاعب يمكن ذكرها، هذه نقطة.

١٠ ـ فرص التغيير في الشرق الأوسط وتطوُّر الدين المسيحي:

النقطة الثانية ولأنَّها هي المصدر أو المنبع، فإن فرص التغيير لا تتوفَّر، فحين أكون فرداً غريباً عن هذه المنطقة ورُبّيتُ على قيمٍ ثقافيَّة مختلفة، وعندما أتفرَّج أرى أن ثمَّة أمور إيجابيَّة في الإسلام، فأريد أن أعتنق الإسلام كإيمانٍ بالنسبة إليّ، وسواء إن أردت أو لم أرِد كإنسانٍ عربي أو كردي من أبناء هذه الأمَّة ألّا آخذ الإسلام كما هو موجود، وإنَّما آخذه بطريقتي الخاصة

مع الأخذ بعين الاعتبار بعض خصوصياتي الشخصيَّة أو حسب شروط حياتي التي أحياها، هنا ثمَّة فرصٌ أكبر للتغيير، أو أنَّ هناك فرصة أكبر لمحاولة المرء على التغيير، ولكن حين يأخذ أحدهم الإسلام بالنسبة إليه كهويَّة، فإن أي محاولة للدنوّ أو إحداث التغيير سيُقابَل الأمر بردَّة فعل، سوف يعلن عن رفضٍ كاملٍ وجَديّ، لا يمكن القبول بالأمر، وهذا ما يوضِّح خصوصيَّات البراغماتيَّة الدينيَّة في هذه المنطقة.

لذا، فما هي الفروقات هنا بينها وبين أوروبا إن أردنا الفهم؟ قَبِلَت أوروبا بشكلٍ عام بالدين المسيحيّ، ولكن كيف تأسَّست هذه المسيحيَّة في أوروبا؟ هذا أيضاً أمر ضروري ولا بدَّ للمرء أن يفهمه.

الشرق الأوسط مهد المسيحيَّة، لا سيَّما يهود الطريقة الإثنيَّة، رأوا أنَّ اليهود فقدوا قدرتهم على حلِّ مشاكل البشر، ولم يعد بمقدورهم احتضان ألم البشريَّة، حيث فقدت اليهوديَّة قدرتها على أن تكون الأمل وباتت ديناً قوميَّاً ضيِّقاً، وتاهَت عن قدرتها في الكثير من الجوانب على احتضان الأفراد ممن هم خارجها وتغدو لهم حلَّاً من الحلول، لذا ظهرت المسيحيَّة.

كانت المسيحيَّة محظورةً من قبل السلطات آنذاك وتتعرَّضُ لحربٍ مضادَّة، المسيحيّون كانوا يُحاكَمون، ولكن على الرغم من ذلك كان هذا الدين يروّج له عبر محاولاتٍ حثيثة. أين مَكمَنُ الثقل في الترويج لهذا الدين؟ في الشرق الأوسط، أي آسيا الصغرى، تركيا الآن، مصر، بلاد الفرس، توزَّع المسيحيون على هذه الأنحاء، توزَّعوا في أوروبا ولكن ليس بالقدر الذي توزَّعوا فيه ضمن الشرق الأوسط.

الإمبراطوريَّة في روما كانت تعيش معضلة، فما هي تلك المعضلة؟ بشكلٍ خاصّ كان الشرق الأوسط يعيش المشاكل، هجمات قبائل الجرمان عليها واقتطاعهم قسماً من الإمبراطوريَّة، كما أنَّ الهجمات الإنكلوسكسونيَّة كانت موجودةً، وهي الأخرى قامت باقتطاع أجزاء من الإمبراطورية، وبالنتيجة

صَغُرت الإمبراطورية وما عاد بمقدورها صدَّ الهجمات الخارجيَّة ضدَّها، وفي الداخل أيضاً فقدت الإمبراطورية قدرتها على إرساء الاستقرار والأمن والشبع، تقلَّصت قوَّتها، لذا فقدت الإمبراطورية قدرتها على فتح أبوابها حتَّى على الشرق الأوسط، وعلى هذا الأساس تم الإقرار في الأعوام ٣٠٠-٣١٠ قبل الميلاد بضرورة تقسيم الإمبراطوريَّة، لكي يعيشوا قُسِّمت الإمبراطوريَّة، فإمبراطورية روما الغربيَّة سمّيت فيما بعد على يد المؤرخين بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، فيما الأخرى دُعيت بإمبراطورية روما الغرب.

إمبراطورية روما الغرب كانت تتجه نحو التصفية وتفقد تأثيرها، كانت الدول قد تأسَّست، انكلترا تأسست، ألمانيا، أي أنَّ ثمَّة قوى أخرى تتسيَّد ضدَّ سطوتها، وكانت المسيحية محظورة إلى ذلك الزمن، كانت المسيحيَّة محظورة في روما كاملةً، لِم ذلك؟ لأنَّ المسيحيَّة رفضت الإله الموجود، بل كانت تقبل بالإله الواحد، وخارج هذا الإطار، فإنَّ المسيحية ترى العلائق بين البشر خاطئة، وتريد أن تضع حلولاً للمشاكل الاجتماعية بالكثير من المساواة والعدالة ومفاهيم الأخوَّة، وحين توجَّه مركز الإمبراطوريَّة نحو الغرب، ولا سيَّما في عهد الإمبراطورية القسطنطينيَّة، رأى قسطنطين أن البشر كلهم مسيحيُّون وأنَّ قوة المسيحية تتعاظم، لذا ما الذي فعله قسطنطين؟ قرّر اعتناق المسيحيَّة، لأنَّه إن لم يفعل ذلك فلن يكون بمقدوره أن يبقى حاكماً على الأرض الموجودة وبالتالي تمحى الإمبراطورية، لذا قَبِل بالمسيحيَّة، اختار إستانبول عاصمةً له، لتبقى عاصمة روما الغرب حتَّى سنة ١٤٥٣ إلى أن استولى عليها العثمانيُّون، وكانت المدينة تحمل الاسم ذاته: قسطنطين، اسم الإمبراطور الأول لروما الغرب.

عقد قسطنطين خلال العام ٣٢٥ قبل الميلاد اجتماعاً مع الراهبين وعلماء الدين المسيحيِّين، وتمَّ الإقرار بأنَّ الديانة المسيحيَّة هي الديانة الرسميَّة للدولة وقَبِل الإمبراطور بذلك، لكن كيف قَبل بذلك الدين؟ قِبِل هذا الدين على هذه الشاكلة، مثال: يحكى في الميثولوجيا عن نوعٍ من العقاب، حيثُ كان الآثم

يُربط على خشبةٍ طويلة، فإن كان الآثم أطول من الخشبة قطَّعوه ليصبح وفقاً لمقاس الخشبة، وإن كان أقصر من الخشبة شدُّوهُ ليغدو بنفس الطول، لكنَّهم لم يكونوا يغيّروا الخشبة، وهذا ما فعله الإمبراطور بالمسيحيّين، فهو في الحقيقة لم يغدو مسيحيَّاً، سوى أنَّه أقنع المسيحيين ليحافظ على استمراريَّة دولته، فهو لن يستطيع الخروج ضدَّ الدين المسيحي الذي غدا تياراً أو مذهباً رسميَّاً، الجميع كانوا قد قبلوا بالمسيحيَّة سوى أنَّها لم تغدو سلطةً، فلم يعد بمقدوره أن يقف وجهاً لوجه مع المسيحية عن طريق القتل والإبادة، لذا أُجبر على القبول بالمسيحيَّة، ولكن مهما كان قد قَبِل بها أيضاً، فحين يقبل بأساسياتها القائمة على المساواة والحرية الشخصيَّة فإنَّه يرفض بذلك نظامه، لذا أدلَج المسيحيين وفقاً لنظامه الخاص. هذه هي المسيحية التي نعرفها في يومنا الرَّاهن، دائماً تؤدلج وفقاً للنظام. في العام ٣٢٥ يحصل كل شيء في الاجتماع المذكور، حصل كل شيء حسب نظام التصويت، مثال: المسيح هو الربّ أم لا، وهذا حصل عبر التصويت، لأنَّ المسيحية حتَّى ذلك الوقت لم تكُ تنظر إلى عيسى كربٍّ وإنَّما نبيَّاً وبشراً، لكن إن غدا عيسى ربَّاً فإنّهم يحوّلونَ كلَّ شيء وفقاً لأعراف وتقاليد الإمبراطورية، لذا أصبح عيسى ربَّاً عبر التصويت، ظهر معارضون في الاجتماع ضدَّ هذا الأمر، لكن النظرة الرسميَّة تسيَّدت، لذا جرَّدت المسيحيَّة من خصوصياتها الثوريَّة والقوة والمساواة، أي أنَّها أصبحت بالكامل دينَاً وفكراً للدولة، هذا ما حصل في روما الغرب، ورويداً رويداً حصل الأمر نفسه في روما الشرق، وبِذا تحوَّلت المسيحيَّة من دينٍ محظور ومُحارَب من قبل الدولة إلى دينٍ رسميٍّ للدولة نفسها، ومن ثمَّ لتبعدها الدولة ذاتها عن خصوصيَّاتها وحقيقتها.

بمقدورنا القول كأن يقوم أحدهم اليوم ويعقد اجتماعاً بغية إعادة النظر في القرآن الكريم، لا ضرورة في هذا الأمر، سوف يتهدَّم العالم، وهو ما لا يمكن القبول به في الشرق الأوسط، حيث يقال أن القرآن والله واحد، القرآن هو لسان الله، والمدوَّن فيهِ هو كلام الله ولا يجوز العبث به أو التغيير فيه، بإمكان المرء أن يقول شيئاً، صحيحٌ أن المكتوب في القرآن كلام الله، لكن هذا الله

يقول شيئاً في بداية القرآن وشيئاً آخر في نهايته، لذا هل يمكن أن يحصل تغيير آنذاك، لِم لا يمكننا القيام بذلك؟ يقولون: إنه الله وبإمكانه فعل أي شيء، لكننا لا نستطيع أن نقوم بذلك، بهذا الشكل يبقى متخلِّفاً، أي غير قابلٍ للتغيير ورافضاً له.

في أوروبا يمرُّ الأمر بالتغيير، لِمَ؟ لأنهم ليسوا أصحاب الأمر، فمن الضروري أن يقبلوا، وإن كان بدرجةٍ نسبيَّة فإن الإنسان بإمكانه أن يرى هذا التقرُّب التركي من أوروبا، وهكذا كانت تركيا تفعل فيما يخص الدنوّ من الديانة الإسلاميَّة، مثال: الإمبراطورية العثمانيَة لم تقبل الدين الإسلامي بشكلٍ عام وجوهريّ، ولكن لأجل مصالحها ولكي تتقرَّب عبره من شعوب الشرق الأوسط وتحصل على مساندتهم لتهاجم أوروبا، لأجل المحافظة على مصالحهم تلك تقرَّبوا من الدين الإسلامي، وحتَّى يومنا هذا فإنَّهم يقتربون مَرضاةً لمصالحهم الشخصيَّة، يحصلون على منافع عبر هذا التقرُّب، ولكن لا يقتربون بشكلٍ عام من الشعوب، لذا فلننظر إلى أن المسيحية حتى وإن كانت براغماتيَّة، لكن أوروبا لم يكن لها أن تتعثَّر أمام التغيير، لِمَ؟ لأنَّ الديانة المسيحيَّة في الأساس حين تمَّ قبولها كإيمانٍ فإنه قبولٌ نتيجة مستلزماتٍ معيَّنة، أي أن المسيحية لم تُقبل كهويَّة، بل قُبلت كنتيجةٍ لمستلزمٍ سياسيّ، ووضعت قوانينها على هذا الأساس، ودائماً تحصل التغييرات على هذا الأساس، على أساس المصالح الشخصيَّة ومنافع السلطة السياسيَّة، مثال: منذ العام ١٠٢٠ أرادوا أن يربطوا الأمر ببعض الكتب الفلسفيَّة، فما الذي فعلوه؟ وحَّدوا فلسفة توما الأكويني وربطوها مع فلسفة أرسطو والديانة المسيحيَّة، أي أدمجوها معاً، عملوا على إيجاد عقدة اتصال بين الدين المسيحيّ وفلسفة أرسطو، لأن فلسفة الأخير ايضاً من الممكن اعتبارها إلى حَدٍّ ما ثابتة ومطلقة، مبنية على أساس بعض الحقائق وتستقرّ على أساس ذلك، ليجعل من الأمر جزءاً من الدين المسيحيّ.

الحقيقة أن أرسطو ليس رجلاً متديّناً ولم تكن المسيحية موجودة في زمنه، لكن كان ضرورياً ان يتمّ إقرار أفكار أرسطو في الديانة المسيحيَّة، فالنقاش في الدين المسيحيَّ كان أمراً محظوراً حتَّى القرن السادس عشر، ومن كان يناقش أفكار أرسطو يُعدَم، فمثلاً في العام ١٦٠٠ تم إحراق مفكّر على مستوى برونو إثر رفضه لبعض ما قاله أرسطو.

في المحصِّلة سواء في الجانب الميثولوجي أو الجانب الدينيّ، حين يتم تصنيع نسخة ثانية أو ثالثة من فكرةٍ ما مصدرها الشرق الأوسط وتدخل إلى الغرب، تغدو فكرةً ناعمة أكثر ومتأتية على مقاس وشروط المجتمع الغربي، لذا فإنَّ تلك الأفكار لا تغدو مشكلةً أو عائقاً ضد التقدُّم، كما هو الحال عليه في الشرق الأوسط، أي أن المرء في الغرب بإمكانه الخروج على السلطة، الحياة ليست فردوساً كما يتم تصويرها بطبيعة الحال، فهناك أيضاً كانت السلطات تقتل من يخرج ضدَّها، لكن الأوضاع لم تكن كما هي عليه في الشرق الأوسط، ففي الشرق الأوسط كانت الدوغمائيَّة ذا قوَّة فائقة.

١١ـ محاولات تخطّي الوضع الموجود في الشرق الأوسط:

تُرى ألَم تكن ثمة محاولاتٌ قطّ في الشرق الأوسط لاجتياز الوضع الموجود؟ بلى، ثمَّة محاولاتٌ كثيرة نُفِّذت. الآن الأشياء التي تُدعى: النهضة، الإصلاح، الثقافة، الفلسفة إلخ... كانت أشياءَ متطوَّرة في الشرق الأوسط قبل مئات السنين أكثر مما كانت عليه في أوروبا، لا بل متطورة أكثر من الطرائق الأوروبيَّة، قد يقول أحدهم لكننا لم نصادف تلك الأشياء في الشرق الأوسط، مثال: في القرنين الثامن والتاسع من عصر الأمويين قد لا نعثر على مفردة: الديمقراطيَّة، لكن ثمة محاولات اجتماعيَّة تفيد معنى أكثر وضوحاً من الديمقراطية نفسها، الحياة كانت اتحادية كومينالية أكثر مما هي عليه الكومينياليَّة نفسها، تلك الأمور كانت موجودة في ذلك العهد، ربمَّا لم تكُ

تُعرف العقلانيَّة باسم المنطق، إلَّا أنّ العقلانيَّة في ذلك الوقت كانت قد اجتازت المنطق نفسه.

ربمَّا كانت هذه الأمور قد ظهرت إلى العلن على إثر عمق وتفاصيل المرء الشرق أوسطي، غير صحيح، فالدين هو المرحلة الثانية في الفكر البشريّ، إن اعتبرنا الميثولوجيا هي المرحلة الأولى، فالدين يعتبر المرحلة الثانية من تطوَّر فكر وإيديولوجيَّة المرء، لِم؟ لأنَّ الدين أكثر قرباً من العقل وفهمهُ أسهل قياساً إلى الميثولوجيا، وأكثر حقيقةً، كما أنَّ الدين يقترب أكثر من مشاكل المرء الاجتماعية، لذا فإنَّ الدين أقرب من الميثولوجيا إلى الحقيقة، حتَّى أن المرء بمقدوره أن يسميّ الأمر ثورةً من الناحية الذهنيَّة الفكريّة.

١٢ـ الإله الواحد على الصعيد الذهني الفكري ثورة:

ربمّا قد لا يستطيع المرء أن يسمّي الدين ثورةً من الناحية الاجتماعية، ولكن الدين ثورة من الناحية الذهنيَّة، لأن الدين قَلَب الأمور رأساً على عَقِب، غيّر نظرة المرء إلى الطبيعة، نظرة المرء إلى المرء، إيمانه، حركته ونشاطه، لقد غيَّر الدين كل الأعراف والتقاليد، حيث كان المرء يعيشُ قبل دين الإله الواحد وفق طريقةٍ معيَّنة وبدأ يعيش حياةً ثانية وبطريقةٍ أخرى مغايرة بعد دين الإله الواحد، وهذه ثورة من الناحية الذهنيَّة، لأنَّه يهدِم كل شيء، فالدين قبل أن يتحوَّل إلى سلطة كانت أبوابه مفتوحةً أمام الاجتهاد، حيث دائماً يستقرَّ على أساس إيجاد الأجوبة لأسئلة المشاكل الاجتماعية. مثال: الدين الإبراهيمي على هذه الشاكلة، وأيضاً الدين المسيحي، فالدين الإبراهيمي بشكلٍ ما دين موسويّ، مسيحي، والدين الإسلامي كذلك الأمر.

الدين الذي يأخذ مصادره من الآثار الآريَّة أكثرُ انفتاحاً على الحقائق الاجتماعية، هذا قبل أن يتحوَّل إلى سلطة، ولكن حين يغدو الدين سلطةً فإن أبواب الاجتهاد تُغلَق، ما هو الاجتهاد؟ مثال: بدون أن ترفض شيئاً وتبدع

فيه، فاليوم نحن نعمل عملاً معيَّناً له قوانينه وقواعده الأساسيَّة، نستطيع أن نمضي في عملنا وفقاً لتلك القوانين والقواعد، ليظهر لنا عملٌ بشكلٍ معين ولكنّ الأعمال أو الأفكار تتكرَّر في تلك الحالة، لكن ثمَّة شخص يزيدُ بفنّه على الأعمال تلك ويعطي نتائج أكثر، إبداعاً أكبر، هذا الشيء يسمّى اجتهاداً، أي أنّه يُزيد على العمل الذي يعمل به ويختصُ فيه دون أن ينقطع أو ينفصل، فالمرء يبقى مُسلماً لكنّه يبدع في الإسلام، مثالٌ آخر: أنت عضو في صفوف حزب العمال الكردستاني وتبدع دون أن تتخطَّى أصول الحزب الجوهريَّة. لذا، الطريق دائماً سالكٌ أمام الاجتهاد والتجديد والعثور على إجاباتٍ للمشاكل الاجتماعية، فالنقاشات الحرَّة التي كانت تُدار في جوامع النبي في المدينة المنوَّرة لا يمكن لها اليوم أن تُدارَ في معاهد الشريعة في الأزهر أو حتَّى في المكَّة المكرَّمة، ففي الأيام الماضية كانت النقاشات مستقلَّة، كل شيء كان مثاراً للنقاشات، حتَّى أن وجود الرب وعدمه كان يتم مناقشته، كل المشاكل المتعلِّقة بالمرء يتم نقاشها، الحياة اليوميَّة، علاقة الرجل والمرأة، تربية الأطفال، المسائل الاقتصادية، ولكن في يومنا الرَّاهن باتت أغلب تلك المسائل المُناقَشة بمثابة بديهيَّاتٍ لا يتجرَّأ أحد على نقاشها، هذا الأمر مرَّ عليه حوالي ١٥٠٠ سنة، وكانت النقاشات مفتوحةً في الماضي على النقيضِ مِمَّا هي عليه راهِنَاً.

ما الذي تفعله السلطة بالفكرة؟ إنَّها تمنع الفكرة عن الاجتهاد وتغلق أبواب الأخير، يدع الفكرة في مسار مصالحها وحسب، لأنّ الفكر إن تغير فإن ثمة نقاشٌ سوف يُدار حول السلطة، لذا فلنتنبَّه إلى أن السلطات بشكلٍ عام وشامل دوغمائيَّة، والسلطة في يومنا الرَّاهن دوغمائيَّة كذلك الأمر، لِم ذلك؟ إن انتبهت السلطة إلى فكرةٍ ما فلن يكون بمقدورها نقاش تلك الفكرة، مثال: إنها تريد أن تستقر الشريعة والإسلام، لأنَّها إن انتقدت أو ناقشت الشريعة، فإنَّ السلطة أيضاً سيتم انتقادها.

لذا ما الذي تفعله السلطة؟ تمنع وتحظر النقاش في الشريعة باسم الشيء المقدس، تحت اسم الإله، وتقول: لا يحق لأي أحدٍ النقاش في ذلك، والشريعة تحفَظ كما هي موجودة، لِم ذلك؟ لأنَّ المرء حين يناقش الأمور الموجودة وينتقد ويبحث، فإنَّه سينتقد أسلوب عمل السلطة ويناقشها كذلك الأمر، سوف يغدو المرء بنقاشه قوَّةً مُراقِبة على السلطة.

١٣ـ النضال ضدّ السلطة في الشرق الأوسط:

السلطة بشكلٍ عام في الشرق الأوسط استبداديَّة وترفض أي قوَّة رقابيَّة فوقها وترفض الاجتهاد، الدوغمائيَّة أمرٌ يناسبها، لكن الإبداع غير ملائم لها، لذا فإن البشر والمجتمع البشريّ أرادوا أن يتحرَّروا عبر الدين، أي أرادوا الوصول إلى الحقيقة والعثور على الحلقة المفقودة وأن ينتهوا من الظلم والاستبداد والوصول إلى الحرية، أو أن يعودوا إلى الجنَّة، تلكَ كانت الآمال المعقودة على الدين، والأخير كان يمنح هذه الآمال، لا سيَّما بقوَّته الروحانيَّة والمعنويَّة والقوَّة الأخلاقيَّة والنصائح التي يُسديها والنتاج الذي يعلن عنه، هكذا يخلق الإيمان لدى البشر، سوى أنَ البشر شعروا بعد ذلك أنَّهم باتوا في مواجهة خيانةٍ ما، الإسلام والمسيحية كانا لأجلهم، ولكن السلطة السياسيَّة لم تفي بمسؤولياتها وواجباتها وليس بمقدورها تحقيق المساواة، فالظلم والقتل والعبوديَّة أمور موجودة مرَّة أخرى وتُرتكَبُ باسم الله.

فيما سبق، ربمَّا كان للمرء أن يرفع رأسه إلى حَدٍّ ما ويعيش خارج السلطة، لكن السلطة باتت المركز أكثر فأكثر، الدولة غدت المركز والحاكم، باتت تمتلك القوَّة والجيوش وتفعل كل شيءٍ باسم الله بشكلٍ مطلق، الأمر الذي يقضي على فرص المقاومة أمام البشر، فهل يعقل أن يخرج المرء ضد الله! ضد شيءٍ مطلق! لذا وبدون أي نقاش، فإنَّك ستكون قاتلاً إن فعلت ذلك، وعلى هذا الأساس ظهرت بعض الحركات التي أرادت في الشرق الأوسط،

في عهد السلطة العربيَّة والإسلاميَّة أن تطهَّر الدين من مرض السلطة، من هذه الحركات التي نتحدَّث عنها حركة تدعى: "حركة الخوارج".

١٤ـ حركة الخوارج:

هذه الحركات التي تحدَّثنا عنها على اعتبارها أرادت تنظيف وتحرير الدين من علَّة السلطة، كانت الخوارج إحداها، فما هي حركة الخوارج؟ اسمها يدلُّ عليها، أي أنهم خارجون، يدعون أنفسهم خارجاً، خارج ماذا يَدعون أنفسهم؟ ينأونَ بأنفسهم عن الصراع على السلطة، حيث بدأت تلك الصراعات عقِب موت النبي، لتتضاعف في عهد الخليفة علي، حيث ودَّ الأرستقراطيَّون العرب بناء نمط سلطة تماثلُ السلطة البيزنطيَّة أو الفارسيَّة، أي أن يقلّدوهما، لذا ينشب الصراع بين طرفين، طرفٌ يريد أن يعيش وفقاً لقيم الإسلام في المساواة وثانٍ يودُّ أن يضع الإسلام في خدمة السلطة، لذا دفع هذا الصراع الكثيرين إلى أن يخرجوا ويُفهموا إن الأمر لا علاقة له بالدين الإسلاميّ الذي اعتنقوه بناءً على آمالٍ في حل المشاكل الاجتماعية ولا بدَّ من منع أن يغدوَ أداةً في يد السلطة، ولا يجوز أن تُسفكَ دماءُ أصحاب الدين الواحد، لكن تُسفَكُ الدماء وتحصل المجازر، لذا خرجوا بغية حلّ الأمر دون أن ينجحوا، ما كانت لديهم فرصٌ تجعلهم ينجحون لتخرج المبادرة أيضاً من بين أيديهم، ربما تمكَّنوا من كسب بعض الأشياء، حيثُ قتلوا علي، لكن لم يستطيعوا قتل معاوية، كان قولهم إن تمَّ قتل الرجلين فإن الصراع على السلطة بين المسلمين سيتوقَّف وسيتّحدون مرَّةً أخرى، لذا قتلوا علي دون أن يتمكَّنوا من معاوية، ومع مقتل علي وضع الأمويَّون يدهم على السلطة بالكامل، ليخرج على إثر هذا الحدث مذهبٌ ومنهجٌ جديد، سمَّي مذهب المعتزلة.

١٥ – مذهب المعتزلة:

يعتبر هذا المذهب الأكثر عقلانيَّة ورمزيَّة في تاريخ الإسلام والشرق الأوسط، أُطلق على معتنقيه "المعتزلة"، فمن هم؟ أتى هذا الاسم من مفردة: العزل، أي حين يتجرَّد أحدهم من شيءٍ ما، حين يترك المرءُ مكاناً ما، أو أن تترك أمراً ما، مثال: يقال إن لاعب كرة قدم ترك اللعب، فحين كبر بالعمر فقد قدرته على اللعب لذا تركَ اللعبة، فيقول عبر تصريح: الآن أنقطع عن كرة القدم، أي أنَّه يعتزل اللعبة، أي يعتزل عمله القديم.

بدءْ تاريخ تأسس هذا المذهب هو السنة ٨٠ الهجرية، أي ما بين الأعوام ٧٣٠ و٧٣٤ ميلادية، ليمتد وجوده إلى القرن العاشر، أي أنَه موجود منذ أكثر من ثلاثمئة سنة سواء بشكلٍ علني أو سرَّاً، ثمَّة نظريّات عِدَّة حول تأسيس مذهب المعتزلة، بعضها تبتعد عن العقل، فيما بعضها الآخر تقترب أكثر من الحقيقة، وهذا ما يُشاع عنهم: "هؤلاء في الأساس ابتعدوا عن السلطة ولا سيَّما أنَّهم أبدوا استياءهم من ابن علي حسن، لِمَ؟ لأن حسن بايع معاوية وقَبِلَ به خليفةً، لذا أعلن هؤلاء عدم رضاهم وتركوه، وكأنّهم ابتعدوا عن كل شيء، لأن معاوية لا يملك الحق في الخلافة، كما أنَّهم نظروا إلى أن حسن لا يملك القوَّة قياساً إلى حسين ولم يكن مقاتلاً لذا ترك الخلافة، والمعتزلة على هذا الأساس تركوه، إنَّهم يتوقّفون عند هذه النقطة، فيما النقطة الثانية تقول: نتيجة الحرب التي اندلعت بين العلويين ومعاوية، الأمويين والعلويين، قالوا: هذه الحرب تروح وتجيء، لذا ابتعدوا عن الحرب وانشغلوا بالمسائل المعرفية والفكريَّة، وهذا يعتبر منهجاً. فيما يقول آخر: أنَّه كان هناك رجلٌ في مدينة البصرة بالعراق ضمن جامع يقال له حسن البصري، كان عالماً كبيراً في الدين الإسلامي، حيث كان ثمة نقاشٌ وجدلٌ حول تحديد ماهيَّة الخطيئة الكبرى التي هي الشرك بالله، وهذه هي الخطيئة الكبرى التي لا تُغتَفَر، حيث أقبل أحدهم وأخبر الحسن البصري قائلاً: "هذه الخطيئة الكبرى هل تُغتَفر أم لا؟ يقال إن شخصاً من المعتزلة سارع في الردِّ قائلاً:

"إن مات الشخص المُشرِك بالله دون أن يطلب التوبة فلن يُغفَر له، لكن إن تابَ إلى الله قبلَ موته حينها سيُغفَر له" أي اقترب بطريقةٍ مرنة من المعضلة، ونهض مبتعداً عن المجلس، لذا يقال إن الحسن البصري قال حينذاك، لقد اعتزلنا فلان، أي ابتعد عنَّا، ومن هنا بدأت التسمية".

في الحقيقة هو مذهبٌ يعمل خارج السلطة، مذهبٌ مشغولٌ بالفكر والمعرفة، ولكن ما هي فكرتهم؟ إحدى أهم النقاط لفهم هذا المذهب، هو أنَّ أتباعه بعيدون عن السلطة، أي أنَّهم ضدَّ السلطة، وهذا أمرٌ سيتوضَّح، لكن الأمر المهم هو تقرُّبهم من المعرفة، فما يقال أنَّ: "الله في المكان الفلاني، عيناه هكذا، أو فمه هكذا، له كلامٌ، والبشر يستطيعون رؤيته" مثال: في القرآن الكريم ثمَّة آية فحواها أنّ المرء حين يدخل الجنَّة في العالم الآخر ثمَّة أماكنٌ معينة بها بإمكان المرء أن يرى الله فيها وهذا يعتبر الثواب الأكبر بالنسبة إلى البشر في الجنَّة، سوى أنَّ المعتزلة يرون أن الله لا يمكن رؤيته، والشيء الذي يُرى هو ليس الله بذاته، فمن يملك مكاناً لا يمكن له أن يكون إلهاً، ومن يملك بدناً لا يمكن له أن يكون إلهاً، لذا يقولون أن ثمَّة أموراً في القرآن الكريم لا يمكن لها أن تغدو أساساً، فليس على المرء أن يفهم أنَ القرآن الكريم هو ذات الله وبإمكانه ألَّا يقبل الكثير من الأشياء الواردة فيه، إنَّهم يرفضون هذه الأمور فيما يتعلّق بالله، حيث يقال في القرآن الكريم أن الله في الأعلى، لكن المعتزلة يرفضون الاعتراف بأنَ ثمة عالماً سفليَّاً وآخر علويَّاً، فالكون لا يقبل أن يكون فيه عالمين: علوي وسفليّ، وهذه حقيقة، لأن مكان الله ليس واضحاً، فإن كان مكانه معروفاً فلن يكون ربَّاً حينذاك، وبدنه واضح، كبيرٌ هكذا أو لا أعرف، إلا أن المعتزلة يرفضون وجود شيءٍ من هذا القبيل، لذا يقولون أنهم لا بد أن يرفضوا الآيات القرآنية التي تفصح عن لون الله أو هيئته أو مكانه، لِمَ؟ لأنّها آيات لا يمكن حمايتها، أصحاب هذا المذهب يناقشون الأمر مع من هم خارج مذهبهم، مع الفرس والزرادشتيين، لأنهم يرون أن أولئك لا يملكون العقل ولا المنطق ولا بد من تصحيح مسارهم، ويقولون أيضاً أن المرء بإمكانه بواسطة العقل أن يعرف الصحيح من

الخاطئ، وليس عن طريق الاقتصاص، لذا فهي حركة عقلانيَّة، وهذه الأسئلة الإلهية التي كانوا يسألونها وقتذاك بالكاد كان الأوروبيون يستطيعون سؤالها خلال القرنين السادس والسابع عشر، مثال: يقال أنَّ الله هو من خلق البشر، وهذا صحيح، لكن المرء من بعد خلقه يغدو ملكاً لنفسه، لِمَ؟ يقولون إن كان المرءُ غير مخيَّراً ولا يملك عقله أي دورٍ في خياراته وأن تصرفاته تحدد من قبل الله، فإن كان مكتوباً له أن يرتكب الآثام والخطايا حسبما ما هو مكتوبٌ له، وحين يرتكبها فهذا يعني أن الله يجبره أن يفعل ذلك، وإن فعل فلِم يحاسبه الله فيما بعد؟ أي أن الله هو من خلق كل شيء وكتب كل شيء على جبين الإنسان ويسيّره وفقاً لذلك، والمسلمون يقولون دوماً أن الله موجود على يمينك ويسارك وفي كل مكان، في نومك ويقظتك، هو يعرف كل ما تقوم به، لذا تقول هذه الحركة أن الله طالما هو من يحدِّد لنا المصائر إذن لِمَ يحاسبنا ويُدخلنا إلى جهنَّم إن حصل وارتكبنا إثماً؟ لكن يقولون حينئذ: لا يجب أن نرمي أخطاءنا على الله، ثمة عقلٌ بشريّ، وبواسطة ذلك العقل نعرف الخير من الشر، ونحن بقرارٍ من أنفسنا نختار أيَّهما، الله هو من أوجدنا وخلَقَنا، ولكن لا يجب على المرء أن يثقل كاهل الله بأشياء وذنوب أخرى، على هذا الأساس يقولون: لكي يتم الاقتناع لا بدّ للعقل أن يختار. لنقم بما هو ضروري، لا بد أن نترجم الفلسفة، لأنَّ الإلهيات لوحدها غير كافية، ثمة أشياء يمكن توضيحها فقط عبر العلم والكيمياء الرياضيات، لذا لا بدّ من بحثٍ وتمحيص في الفلسفة اليونانيَّة وأشياء أخرى فيما يخص المجال العلميّ.

كانت لتلك الحركة نظرة انتقاديَّة فيما يخص العدل ضمن النظام السياسي، حيث أن الحركة كانت نشيطة ومتقدمة في العصر العباسي، ولا سيَّما أن الدولة كانت تفتح الطريق أمامهم، لِمَ كانت تفتح الطريق أمامهم؟ لأنَّ الحركة امتلكت قوَّةً فكريَّة، مؤلفاتها كانت كثيرة ولكنها غير واضحة، لكن مؤخَّراً عُثرت على مؤلفات لأصحاب هذه الحركة في أماكن مثل اليمن، كان واضحاً أنَّها حركة عقلانيَّة متقدِّمة كثيراً، فهي تفهم الله عبر العقل دون أن ترفض الإلهيات أو الله.

لِمَ كانت الدولة الإسلاميَّة تستفيد من المعتزلة؟ لأنها كانت تقف بقوّتها الفكرية والعقلية أمام المسلَّمات الدينية، حيث كانت الدولة الإسلامية تستفيد من تلك القوَّة المعرفيَّة، لكن حين كان يفتح الطريق أمامهم لانتقاد السلطة كانت السلطة تهاجمهم، وقد قَتَلَت الكثيرين منهم بطرائق بشعة، حيث تمّ بهذا الشكل تصفية حركة المعتزلة، ربَّما لم يساهموا في إحداث تغيير، أو إحكام العقل أكثر، ولم يغدو السبب الرئيسي في إحكام العقل، ولكنَّهم بالكاد فتحوا الطريق أمام العقل، سوى أن الدوغمائية أغلقت الطريق، لا سيما في القرن الحادي عشر عن طريق الإمام الغزالي و حمادة الغزالي حيث عملا على استقرار الدوغمائيَّة.

في هذا النشاط الفكري يفهم المرء في يومنا الرَّاهن وكما تمّ توضيحه، بأنَّ الدوغمائية وكسل التفكير وكأنَّهما أشياءُ بدهيَة طبيعيَّة وموجودة في الشرق الأوسط، لكن الأمر غير صحيح، بل على النقيض مما قد تمَّ توضيحه وإعلانه، فمنذ البداية وفي كل عهد من العهود كان ثمَّة بحوثٌ جديدة، ولم يعرف المرءُ الحدودَ في سبيل معرفة الحقيقة، وعلى الرغم من المطلق ورغبة البعض في تسيير وتعميم أفكاره، إلَّا أن ثمَّة معارضة وُجِدت، لهذا السبب بإمكان المرء حقيقةً في هذا العهد أن يعثر على أمورٍ أخرى فيما يخصُّ العلم، فما هي؟ بإمكان المرء استجلاب بعض الأمثلة ليكون الأمر جيّداً.

١٦- حركة إخوان الصفا:

تأسست هذه الحركة في زمنٍ غابر، وتمَّ العثور على وثائقَ تحمل اسمَ: إخوان الصفا تقارب حوالي اثنتان وخمسين وثيقة شبيهةٍ بكتابٍ يحمل عنوان: "رسالة"، رسائلُ دوّنت، ولكن ما هي هذه الرسائل؟ إنها تحمل اسم السعادة، النشوة التي يصل إليها المرء عبر العلم، أي أن المسافة بين المرء والله يتم

تقصيرها عبر العلم، المرء يصل إلى الله عبر العلم، والسعادة أو النشوة تتحقَّق عبر العلم، ما هي تلك العلوم؟ الكيمياء، الفيزياء، البيولوجيا وعلم الأحياء، والفلسفة، كان أصحاب هذه الحركة يبحثون في هذه العلوم ويكتبونها في شكل رسائل ويوزّعونها، لا يعرف المرء فيما يخصُّ من عَمِلَ على تطوير هذه الحركة، الأمر غير واضح، لكن ثمة أمور مثيرة للاهتمام في تلك الرسائل.

مثال، يقولون: عيسى باتَ ابن الله عبر العلم، وبالعلم تُزاح عتمة أهريمان وتشرق شمس الله، أي أن كل شيء إيجابي يتم عبر العلم والمعرفة والبحث، لكن يبدو أن هذه الحركة تمّ حظرها ومنعها وملاحقتها.

متى ظهرت هذه الطريقة؟ ظهرت فيما بين القرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد، في الأعوام: ٩٠٠ ـ١٠٠٠ أي ما يقارب ٢٥٠ هجري.

سيرى المرءُ إن أمعن هنا أنَّ المتن الديني، الدوغمائيَّة أو الصور النمطيَّة، غير مسيطرين، إنَّما السيطرة للعلم والبحث العلمي، حيث أعطوا عبر رسائلهم معلوماتٍ بطريقةٍ علميَّة وليس بطريقة شرعيَّة أو طريقة الاعتقاد التامّ بالله، بل بطريقة العلوم الطبيعية كما هي موجودة في وقتنا الرَّاهن، حيث تحدَّثوا عن الفيزياء والكيمياء والعلوم الأخرى، ولكن بإمكان المرء أن يرى شيئاً آخرَ، فهذه الطريقة وعلى الرغم من أنَّ معرفتها العلمية كبيرة إلَّا أنَّها حاولت تثبيت حقيقة التقيَّة.

ما هي التقية؟ تعني أنني لا أؤمن بشيء، ولكنني أؤمن بما هو موجود لأحمي نفسي وأبقى على قيد الحياة.

متى ظهرت هذه التقية؟ ظهرت إبَّان الحرب بين علي ومعاوية، لأنّ الأمويين كانوا يلقون القبض على الناس ويجبرونهم على شتم علي، أي لا بد أن يكفروا ويشتموا عليّاً وذريَّته، ولأن من أُلقيَ القبض عليهم كانوا أتباعاً لعلي فإنَّهم لم يفعلوا ذلك، فكانوا يعذِّبونهم حتَّى الموت، بعدئذٍ توصّل شيعة علي

إلى اتفاقٍ فيما بينهم قائلين: إنَّه من الواضح لن يكون بمقدورنا المقاومة على هذا المنوال، لذا لا بدَّ أن نؤمن بعليٍّ في قلوبنا، وإن طلبوا منَا شتمهُ فعلنا، هذا ما تعنيه التقية.

إخوان مفردةٌ عربيَّة، وتعني "الأخ"، وإن لاحظنا في أيَّامنا الرَّاهنة فإنّ حركات الإخوة في المسيحية تتقدَّم، والصفا، تعني السعادة، أي إخوان السعادة، ولكن حين يقول المرء أنَّه ما من سعادة أو صفاء، فإنَّ أصحاب هذه الحركة يقولون أنَّ السعادة توجد عن طريق العلم ويستطيع عبرها أن يحصل عليها، لكن أصحاب هذه الحركة اقتربوا كثيراً من التقية.

لِمَ كانوا ذلك؟ لأنَّهم إن اقتربوا من كل شيء بطريقةٍ علميَّة فإنَّهم سيصطدمون بالطرق الدينية، والدولة تستطيع أن تقتلهم لأنَّهم يعارضون الدين، فوفقاً لأحكام الشريعة سوف يُحكمون بُعجالةٍ، لذا كانوا يقومون بتنفيذ التقية، حيث حاولوا التعبير عن الطرق العلمية وفقاً لقالبٍ ديني، والتقية كانت واضحةً هنا، ما الذي يوضّحهُ لنا هذا الأمر؟ إنَّه يوضِّح الظلم والصعوبات التي كانت تتعرَّض لها الأفكار الجديدة في ظلّ الدولة الإسلاميَّة، وعلى الأخصّ الدولة العباسيَّة التي كانت قد بدأت تنهار داخليَّاً خلال العام ١٠٠٠ في القرنين العاشر والحادي عشر بعد هجمات الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وسيطرة السلاجقة، حيث ارتأت أن طريق الحماية هو عبر الدوغمائيّة والقتل والتصفية، لذا بدأت تتحوَّلُ إلى إمبراطورية ظالمة جدَّاً.

١٧ـ تقدّم الفلسفة والعلم في الشرق الأوسط:

على هذا الأساس نرى أن الحركات العلميَّة والطرق الكومينالية والفكريَّة تقوم بإدخال الإيديولوجيا إلى النقاش، لنرى في هذا العهد كيف أنَّ تلك الحركات اصطدمت بمواجهةِ قَمعٍ جديّ، حيثُ باتت حياة الفلاسفة والعلماء أو الأشخاص الذين نطلق عليهم أصحاب الطريقة الباطنيَّة، أي: وحدة

الوجود، الاتحاد مع الله، الانصهار داخل الله، توضيح أن الله على هيئة بشر، كانوا يدّعون ذلك، بقيَت حياتهم في مواجهة حربٍ ضروس وقُتِلوا تحت التعذيب، فأغلب الفلاسفة الذين نعرفهم مثل الحلاج منصور، لم يوسّعوا مداركهم العلميَّة في ظلِّ سخاءٍ ورخاء، مثل ابن سينا، أبو بكر الرازي والكندي وغيرهم ممّن قدَّموا وأثروا في تطور العلم والفلسفة، بمقدور المرء القول أنَّه وبعد القرن الثاني عشر بدأت الخطوات خطوةً إثر الأخرى، ولا سيما في شخصيَّة ابن رشد، (ابن رشد كان فيلسوفاً مسلماً)، ومع أنه ممثلٌ لفلسفة الشرق الأوسط سوى أنَّه لم يعِش فيها بل في الأندلس حين كانت دولةً تتبعُ المسلمين، أي دولةً عربيَّة.

ظهر هذا الفيلسوف في القرن الثاني عشر في الأندلس، إسبانيا اليوم، وبدأ بترجمة الفلسفة اليونانيَّة ولم يكتفي بذلك، بل حاول أن يفهم طرق الجدل والديالكتيك، بمقدور المرء القول أنَّ الفلسفة الأوروبيَّة استفادت أيَّما استفادة من فلسفة ابن رشد، لأنّ الأخير كان على مسافةٍ قريبة من أوروبا، لذا كان تأثيره عليهم كبيراً، فلننتبه إلى أنّه وحتَّى ذلك العصر، كانت أفكار الفلسفة والعلم متطورةً في الشرق الأوسط وتأثَّرت أوروبّا بها، بمَ تأثَّرت أوروبَّا؟ بطريقةٍ ما عبر الاحتكاك بأولئك الفلاسفة والشعراء والأدباء الذين كانوا يعيشون في الأندلس، في إسبانيا، ويمارسون تأثيرهم على أوروبا عن كَثَب أو عن طريق الصليبيّين، أي الحروب الصليبية التي كانت قد بدأت حديثاً في القرن الحادي عشر، بدأت في العام ١١٠٠ مستمرَّةً حتَّى العام ١٣٠٠، حيث استفادوا أكثر من العلم والفلسفة الشرق أوسطيَّة خلال تجوالهم في الشام وفلسطين ومصر وبات ذلك أساساً للنهضة في الغرب، أي أن إحدى أهم قواعد النهضة الغربية هو التماسّ مع العلم والفلسفة الإسلامية في الأندلس، القاعدة الثانية هي الحملات الصليبية على تلك المناطق، فحين كانوا ينفّذون حَمَلاتهم يأخذون العلوم كُلَّها ومن ثم يعودون، لقد استفادوا كثيراً من الحركة المعرفيَّة في الشرق الأوسط، ترجموا الأدبيات الموجودة، وعلى هذا الأساس أخرجوا نسخاً عن تلك الأدبيات لديهم، وأسَّسوا بنيةً قويَّة للنهضة والتغيير،

والأمر الأكثر أهميَّة من كل ذلك، هو أنَّ العثمانيين وبعد انتصاراتهم بات الإسلام مسيطراً على مناطق البيزنطيين وامبراطورية روما الغربيَّة، لذا أُجبر آنذاك كل الرهبان والعلماء المسيحيون في الشرق الأوسط على الهجرة إلى أوروبا بعد سيطرة الإسلام على تلك الأراضي، وحين هاجروا أخذوا معهم في الحقيقة أفكار الشرق الأوسط، لذا باتَ هذا الأمر أساساً وقاعدةً للتغيير.

١٨ـ الزرادشتيَّة بحثٌ عن السموّ وتحسين الحياة الاجتماعية:

مرَّةً أخرى نقف عند هذه المعضلة، فطالما أنَّ الشرق الأوسط وهبَ كل تلك الفائدة إلى العالم، لِم لم يعمل لأجل نفسه!؟ لم يكن الأمر ضروريَّاً، ففي الشرق الأوسط بشكلٍ خاص لا يمكن لأفكار البشر والعلم والعقلانيَّة أن تتطوَّر، لِمَ ذلك؟ لأن الدولة تمتلك أساساً إلهيَّاً، أي تعمل على حماية نفسها بالأحكام الإلهيَّة، لذا، حين يبدأ الاجتهاد وتطرأ التغييرات في الإيديولوجيا ترتعدُ الدولةُ خوفاً وتهاجم تلك الأفكار الجديدة وتمنعها، تقتلها وتعمل على تصفيتها، لذا فإن تلك الأفكار بالكاد تستطيع الحصول على فرصة العيش خارج أرضها، لا يمكنها أن تعيش على أرضها. تلك الحركات التي تحدَّثنا عنها كانت قد نشطت بشكلٍ كبير على الأرض السامية، ولكن ثمَّة حركة ذهنيَّة نشيطة ومتقدمة أيضاً على الأرض الآريَّة ملفتة للاهتمام، ولا سيما الزرادشتيَّة، المانويَّة، فالأنبياء الذين خرجوا على هذا الشكل كان لهم تأثيرٌ كبير على البشريَّة، ولا زال تأثيرهم مستمرَّاً حتَّى يومنا الرَّاهن، لكن ثمة سببين رئيسيين منعا أن تصبح تلك الأفكار قاعدةً ومنطلقاً ومصدراً للتغيير في الشرق الأوسط، السبب الأول هو الدين الزرادشتي ولا سيما المانوية التي هي استمرارٌ لذلك الدين، وقد تعرَّض للتشهير من جانب الدين الإبراهيميّ بشكلٍ كبير، فلننتبه إلى أنَّ المسلمين لا ينعتون المسيحيين بالكفار أو اليهود بأنَّهم كفرة، لكن على النقيض تماماً، يقولون أنَّهما أصحاب كتبٍ مقدَّسة

ويقبلون بنبيّيهِمَا ومعتنقي الدينين، في الوقت نفسه ينعتون الزرادشتيين بالكفَرَة ويشهّرون بهم ويرفضون كل أفكارهم، يمنعون هذا الدين ويحظرونه وكأنَّه إثمٌ عظيم، لا يقبلون الدين الزرادشتي على إنه دين توحيدي، بل وكأنَّه خروجٌ عن المسار، وكأنَّهم يعبدون الأشياء الجامدة، مثلاً يقولون عنهم: إنَهم يعبدون النار، هكذا يقتربون من الدين الزرادشتي والتشهير به ليوفِّروا لأنفسهم أسباب القمع والإبادة والتصفية، هذا سببٌ من الأسباب. السبب الثاني هو الدولة الفارسية، ظلم الدولة الفارسية ومن ثمَّ الدولة الساسانيَّة، ظلم تلك السلطات، رغم أنَّها سمحت بالاختيار، حتَّى أنَّها في البدايات قبلت بالزرادشتيَّة كهويّةٍ اجتماعيَّة، لكن مع مرور الزمن حاولت أن تعمل على الضدّ منها. لِم ظهر هذا العِداء؟ الزرادشتية ليست دين سلطة وإنَّما دين مجتمع، ثمة فلسفة وأخلاق ودين، بمقدور المرء القول أنَّ كل تلك الأشياء موجودة، لذا فإنّ هناك نقاط مشتركة ما بين الدين الزرادشتي وبين الفلسفة والإلهيات، والأكثر لفتاً للاهتمام هو استمراريَّة أخلاقه، تقييم الإنسان، بحثه، قربه من النشاط، المقاربات الأخلاقية، كلها أمور ملفتة للانتباه. مثال: في النتيجة، الله أو الإله في الدين الزرادشتي هو الخير وليس ظالماً، ولا يرمي المرء في جهنَّم ولا يهدِّدهُ، إنَّه إله الخير واسمه دالٌّ عليه، إنه رحيمٌ ويتوافق مع سمات الثقافة في جغرافية الآريين، لذا فهو ليس دين السلطة، ثمَّة إنتاجٌ في هذا الدين، ثمة نصائح ومواعظ، ثمة تصميمٌ لحياة البشر وتحسينها، وهذا يغدو عملاً أيضاً. مثال: للعمل أهمية خاصة في الزرادشتيَّة، فقيمة المرءُ تُحدَّد عبر العمل، فكلّما استطاع المرءُ العمل سواء في الأرض أو تربية الحيوانات اعتُبر أصيلاً، فبواسطة ذلك العمل تسمو الحياة الاجتماعية، لأجل ذلك يعتبر العمل وسماته والفلسفة أفكاراً رئيسية ومتقدمة في الزرادشتيَّة.

١٩ـ أسباب تقهقر العقلانيَّة والنهضة:

بعد الإمعان سنرى أن أفضل بحوث المرء المتقدمة مُستخرَجة من هنا، أي من الأفكار الزرادشتيَّة، وهذا أساس النهضة، لكن حين يقول المرء النهضة، فإن الأوروبيين يصفونها على أساس أنّها ولادة جديدة، بعثٌ جديد، بعثٌ لماذا؟ بعثٌ وإعادة إحياء لمرحلة الإغريق وروما، ولكن كيف يوجد؟ عن طريق البحث والحركة وبالنشاط غدا بعثاً، أي أن المرء كرَّر نفسه، صامتٌ إزاء النظام، يتحرك وفق الإطار المرسوم له وحسب، لا أصالة لدى هذا المرء، إنَّه أصيل وفقاً للكنيسة، وفقاً للمسيحيَّة، ولكنَه ليس أصيلاً وفقاً للنهضة، على النقيض من ذلك تماماً، فإنَّ المرء هنا في البحث والتمحيص لا يعرف المشاكل التي يتعثَّر بها، فهو يخرج من مرحلة ليدخل إلى أخرى، يحلِّل ما حوله، يحلِّل نفسه، يعلن عن مواقفه، هذا هو المرء الأصيل والمتقدِّم، والزرادشتيّةُ نفسها تقيُّم المرء بهذا الشكل، أي المرء الذي يغوص في البحث على الدوام ولا يكتفي بشيء واحد، أن يكون نشيطاً، لذا هناك قواعد جديدة خرجت للنهضة، ثمَّة تطوير وتحديث هنا، لم تضع حدوداً أمام تقدُّم المرء. مثال: ثمة الجانب الأخلاقي، حيث يوجد في هذا الجانب أمران مثيران للانتباه: أحدهما الخيانة والكذب، الضعف، هذه أمور غير مقبولة، يقول لعدوّه: "لا تخُن، ولتكن الشروط ما تكن، لا تتنازل عن أفكارك، أي احمي أصلك، ولكن لا تكُ خائناً مع الخائنين"، لذا لننتبه إلى أنَّ السلام، التقارب، الكرم، الديمقراطية حتى ولو كانت وفقَ شكلٍ آخر غير المتفق عليه في يومنا الراهن، لا يعني أن يتنازل المرء عن أفكاره، المرء بمقدوره فعل ذلك دون أن يتنازل عن شيء، لذا فإنَّهُ وحتى الرمق الأخير، يملكُ الحرص والاحتراس في مواجهة الخيانة، وفي الوقت نفسه فإنه لا يبحث عن التنازلات لقاء حماية قيمه، فهو حتَّى في أصوله يحمل الاحتراس، وهذا يتأتى من القوَّة الأخلاقيَّة.

مرَّةً أخرى فيما يخصّ المواضيع الاجتماعية كانت قيادتنا تقول خلال فترةٍ ما: "العائلة الزرادشتيَّة"، ما هي سمات العائلة الزرادشتيَّة؟ ففي الزرادشتيَّة ليس ثمَّة وجود للعائلة الواحدة، لا توجد عائلة على أساس ملكيّتها لرجل، بل ثمَّة مساواة ضمن العائلة، ولا سيَّما في جانب المساواة بين الرجل والمرأة، لذا فإن العائلة التي نعرفها اليوم غير موجودة في الزرادشتيَّة، العائلة التي تؤسَّس من قبل صاحبها الرجل وفي إطاره، في هذا المجال ثمة أمورٌ تتوضَّح، لذا فإن تلك الفكرة بإمكانها أن تغدو أرضيَّةً للتقدّم، أي أنَّ الفكرة الزرادشتيَّة بإمكانها أن تغدو أرضيَّةً نحو التقدُّم، وفي يومنا الرَّاهن فإن إحياء أو تجديد الزرادشتيَّة كنسخةٍ أخرى يعتبر خطوةٍ جيدة للنهضة في الشرق الأوسط، التجديد بمعنى إغناء الماضي بالمعرفة العلمية الحديثة، الأمر الذي أدَّى إلى التأثير على الفلسفة، على أساس الأفكار المتقدمة، الاتحادية، الأخلاق، لذا يمكن للمرء القول أنَّ البوذية أخذت بعض الأفكار عن الزرادشتيَّة، والكونفوشيوسَّة كذلك الأمر أخذت بعض الأفكار عن الزرادشتيَّة، فلسفة اليونان الاجتماعية استندت إلى بعض أفكار الزرادشتيَّة، النهضة استندت كثيراً إلى الأفكار الزرادشتيَّة، ما هي أسباب ذلك؟ الأسباب تعود إلى أن الأرض التي ظهرت عليها الزرادشتيَّة والمانويَّة لم يتبقَّ لها وجود، مثال: أين ظهرت المانويةّ كاعتقادٍ اجتماعيٍّ واسع؟ في آسيا الوسطى أو في أنحاء الصين بين الآيغور، ثمة ادِّعاء آخر يقول: أنها انتشرت في تدمر بعهد ملكتها زنوبيا، سوى أنَّها انتشرت بكثرةٍ واتساع في أوروبا، في فرنسا وغيرها من الدول الأوروبيَّة، والآن الزرادشتيون الذين لا يزالون يعتقدون بالتعاليم القديمة أو أن أساس المعتقد هو الزرادشتية، أين يعيشون؟ في الهند، مثال ثمة مدينة في الهند تُدعى بومباي وفيها تجمُّعٌ كبيرٌ للزرادشتيين، حتَّى أن المستشرقين الأوروبيين الراغبين في جمع المعلومات كانوا يتوجّهون إلى ذلك المكان، لِمَ؟ لأنَّهم تعرَّضوا على أرضهم الأصليَّة للظلم والقمع والقتل، لذا توجهوا إلى مكانٍ غريب رغبةً في الحصول على فرصةٍ للحياة دون أن يتمكَنوا أيضاً من الحصول على تلك الفرصة هناك، لا سيما في القرون الوسطى الأوروبيَّة، فمن كانوا يعتنقون الديانة المانويَّة يتعرَّضون للمحاسبة

في محاكم التفتيش ومن ثمَّ يُقتلون أو يُحرقون، ولا أعرف مدى صحَّة هذا الأمر، يقال أن الكلمة التي يقولها الأتراك: "المعتوه" تدلُّ على معتنقي المانوية، كما فعل المسلمون حين كانوا يطلقون لقب الزنديق أو الكافر على المعرفة العلمية التي تعمل ضدّهم، كانوا يخبئون تلك المعرفة عن القراءة ويمنعونها، فقط أعطوا المعلومات وفقاً للإطار المرسوم من قبلهم، حتَّى أنَّهم اشتغلوا على بروباغاندا مضادَّة، ومن ضمنهم المسيحيَّون، بهذا الشكل كانوا يطلقون ألقاباً سيئة على الحركات التي تعمل ضدَّهم، وللأسف نتحدَّثُ عن هذا الشيء في يومنا الرَّاهن وكأنَّه أمرٌ طبيعيّ.

في تلك الفترة بقيت الحركة العلميَّة والذهنيَّة في الشرق الأوسط بمواجهة صعوبات السلطة والدوغمائيَّة، لأن الدوغمائية كانت تمتلك القوَّة، لننتبه إلى أن تلك الحركات لم تؤدي إلى أي نتيجة، وهذا ليس خطأً أو ليس عدم تضحية وافتداء، المسألة تكمن في أنَهم قُتلوا، قُتلوا ظلماً، لأنَّهم لم يقدِّموا تنازلاتٍ، أو المسيرَ بخطواتٍ إلى الخلف، لم تكن هناك تضحيات قليلة، سوى أن الدوغمائية شديدة، وعلى أساس هذه الدوغمائيَّة تدفع السلطة السياسيَّة إلى استعمال الشدَّة بدون حدود وكأَّنها بذلك ترى صنع عملية جديدة فتضعُ العراقيلَ أمامها، لأجل ذلك لاحظنا أنَّه وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة في العصر العباسي إلَّا أنّها لم تتمكَّن من تحقيق النهضة في الشرق الأوسط، بل على النقيض من ذلك تم وضع العراقيل أمام تلك النهضة، وفي العهد العثماني ليس أمراً ضروريَّاً أن يتحدَّث المرء عن عمليَّةٍ بهذا الشكل، فالدولة العثمانية بنيت على أساس وضع العراقيل أمام كل تلك الحركات، وبذلك دخلت خيارات الأفكار وتطورها في يد الغرب، أي دخلت إلى الغرب.

لذا ومنذ ذلك الوقت ظهرت معضلاتنا الذهنيَّة، فالعهد العثماني شبيه إلى حَدٍّ ما بالعصور الوسطى الأوروبيَّة في زمن سيطرة الكنيسة، محاكم قتل المرأة، كل أشكال الخراب، الدوغمائية وخلق المعضلات، لذا بمقدور المرء في الشرق الأوسط أن يسمّي ذلك العهد العثماني، فقد عمدت إلى خلق المشاكل

لتمنع التقدُّم. آنذاك تقدَّمت الفكرة في الغرب، سوى أنَّها كانت فكرةً بشريَّة، أي أنها تُعتبر مرحلة جديدة لتطور البشريَّة، والمراحل لا تحصل بشكلٍ يوميّ في التاريخ، لا يمكن أن يتمّ وضع نظمٍ اجتماعيَّة كلَّ يوم.

٢٠- مرحلة تطور المجتمع النيوليتيكيّ:

ثمَّة في تاريخ البشر ثلاث أو أربع مراحل أساسيَّة من الممكن للمرء أن يعثر عليها، إحداها النيوليتيكيَّة، وهي المرحلة التي تأسَّست فيها اجتماعيَّة المرء وعلمه، حيث كان بإمكان المرء بواسطة يده وفكره وجهده أن يضع حياته ضمن نظامٍ معيَّن، أن يزرعَ ويربي المواشي ويبني البيوت والقرى ويوفِّر الأدوات اللازمة على هذا الأساس، وأن يأخذ من الفخَّار والنّسجِ دلائلَ، هذه تعتبر مرحلة، ومُذ ذلك بدأت المقادير في الازدياد من ناحية التغيير، إلَّا أنَها كانت هي ذاتها في جوهرها.

استمرَّ تأثير الاكتشافات والأشياء الأخرى هكذا في تلك العصور إلى مئات وآلاف السنين، وإن اضطر المرء فسوف يقول امتدَّ حتَّى عصر الإغريق وروما أيضاً والتي تعتبر المرحلة الثانية، حيث ثمَّة العديد من الدول والإمبراطوريات التي تأسَّست، ممالكُ عديدة بُنيت وهُدِّمت كذلك، لكن ليس بمقدرو المرء أن يطلق عليها لقب عصرٍ اجتماعيّ تاريخي، لأنّها في الأساس لم تعتمد على أسلوب الحياة الفعليَّة ولم تقم بذلك، ثمَّة بيوت ولكن تم بناء أخرى أكثر اتّساعاً، ففي زمن روما والإغريق يمكن أن يتقابل المرء مع العديد من التغيّرات العميقة، تغيرات تمتلك سماتٍ ثوريَّة، لذا قلنا إن ركّز المرء فإنه بإمكانه أن يطلق عليها المرحلة الثانية بعد آلاف السنوات.

كانت النهضة، أو لا سيَّما على الخصوص حركة العمل الصناعيَّة العلميَّة الفكريَّة في القرنين السابع والثامن عشر هي المرحلة الثالثة، لِمَ كانت العصر الثالث، ولِمَ نقول العصر الأول والثاني والثالث؟ لأنَّ ما يظهر في تلك

العصور يقلب حياة البشر رأساً على عَقِب، حيث يبدأ المرء آنذاك بالنظر إلى محيطه ويأخذ معلوماتٍ حول نفسه، ويغدو بمقدوره أن يوسّع من أرض حياته أو يضيّقها، إنَّها أمورٌ مصيريَّة ولها جذورها، فنسمّيها المراحل الجديدة، لذا فإنّ ما حصل في أوروبا خلال القرنين السادس والسابع عشر كان مرحلةً جديدة في تاريخ البشر، حيث ازدادت قوّة البشريَّة وتضاعفت معرفته ووصل إلى معلوماتٍ جديدة حول ذاته وما يحيط بها، أي من جديد، فحين يقول المرء النهضة فإنّها في الحقيقة تعني انبعاثاً جديداً وهو اسمٌ صحيح، ولكن كما أن أوروبا هي المركز، وكأنَّها نهضةٌ وانبعاثٌ جديد للإغريق ولروما، فهي في الحقيقة تفجيرٌ للنشاط الداخلي لدى البشر، حيث توضَّح أنَّ المرء حين يتم تغييره فسيكون بمقدوره فعل المستحيل في ذلك العصر، أين تأسس هذا العصر؟ تأسس في أوروبا، حيث باتت أوروبا في ذلك الحين المركز وباتت المصدر، وخرجت المعلومات من عندها، الصناعة والعلم بدأتا من عندها، الفلسفة تطوَّرت هناك، ما الذي فعله هذا الأمر؟ منح شكلاً للنظام السياسي، الأخير الذي ظهر على أساس الإثباتات والمسلَّمات في ذلك العصر، المسلَّمات تعني الأشياء المُثبتة والتي يتمّ تقبُّلها وفهمها من قبل البشر، أو مثلاً حين يقال المسلَّمات العلميَّة أي الأمور التطبيقيَّة التي توضَع، أي تلكَ التي يقوم بها البشر، أي الأمور البعيدة عن الشريعة وعن معلومات الله، بعيدة عن خارج إرادة البشر أو ما يدوِّنه البشر، هذه هي المسلَّمات.

السلطة السياسيَّة أيضاً بُنيت على هذا الأساس، وهدمت الملكيَّة لتظهر عوضاً عنها الحقوق والانتخابات والقانون، وظهرت الدولة الحديثة التي أرادت في البداية أن تطلق على نفسها لقب دولة العقل، وعلى هذا الأساس نظر إليها الجميع على أنَّها دولة العقل، ولكن مع مرور الزمن تبيَّن أنَّها على النقيض تماماً ولها مشاكلها وتعمل ضدَّ العقل، لا بل تعمل على إيقاف العقل، وإنَّها في الأساس تعمل على إرساء دعائم دوغمائيَّة جديدة تحت إطار المسلَّمات والبديهيَّات، وقد توضَّح هذا الأمر، وهذا ما يمكن تقييمه عبر مواضيع مختلفة.

ما هي الأمور التي نودَّ أن نفهمها في موضوعنا هذا؟ توجَّه البشر نحو أوروبا خلال القرن التاسع عشر، ذهبوا إلى أوروبا ليدرسوا هناك، إلى فرنسا، إنكلترا بهدف الدراسة هناك، من أين ذهبوا؟ ذهبوا من الشرق الأوسط، من تلك الأنحاء، كانت الملكية موجودة في الشرق الأوسط، والدوغمائيَّة كذلك الأمر، لكن ليس ثمَّة طرق علميَّة في النقاشات حول المسائل، أي أن الحُكم يُدار وفق إرادةٍ إلهيَّة، وليس للإنسان الحقَّ في الانتقاد أو تأسيس آليَّة تُراقب الحكم، أي لا وجود لشيءٍ يُدعى مجلس أو شرعيَّة. لذا، كل من ذهبوا إلى أوروبا، مهما كانوا أثرياء أو مثقّفين أو متديّنين رأوا كل الأشياء التي ذكرناها آنفاً، أي الديمقراطيَّة، العلم، تعرَّفوا إلى العلم المجتمعيّ على اعتبار أنَّه كان متطوّراً في أوروبا، تعرَّفوا على التغيير، عرفوا كل تلك الأشياء، وحين عادوا إلى الشرق الأوسط، وبخاصَّةً في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أرادوا نشر كل تلك الأشياء التي عرفوها محاولين تغيير الإيديولوجيَّة، سوى أنّهم لم ينجحوا في ذلك، وهذا صحيح، فالنظام السياسي كان حجَر عثرة، لم ينجحوا في الأمر ذا طبعاً ليس على إثر أنَّ النظام السياسي كان حجر عثرةٍ دائم، إنَّما لأنَّهم أرادوا صنع ثوراتٍ وفق القيم الغربيَّة ووفقاً لنشر قيم الغرب، كانوا مغتبطين جدَّاً لتلك القيم، وهذا صحيح، لكن في الوقت الذي تحاول فيه أن تنشر تلك القيم في الشرق الأوسط كما هي موجودة فلن يستقبل أحدهم تلك القيم، حيث أن التقدّم هناك مصنوعٌ وبإمكان المرء مشاهدته فعلاً، ولكن إن أتيت وأدخلت ذلك التقدُّم إلى الشرق الأوسط في حالته الموجودة في الغرب، وتنظر إليه فلن ترى له مشجّعين في الشرق الأوسط، أي أن تلك القيم لا يمكن لها أن تغدو جسماً أو مجتمعاً، فإن حصل واستطاعت أن تغدو اجتماعيَّة فإنَّ النظام السلطويّ آنذاك ما كان بمقدوره أن يتحوَّل إلى حجر عثرة. لكنَّها لم تغدو مجتمعيَّة، لِمَ؟ لأنَّهُ تَوضَّح مرَّةً أخرى عدم إمكانيَّة صنع ثورة في الشرق الأوسط على أساس القيم الغربيَّة، ومن فعلوا ذلك لم يكونوا أشخاصاً ضعفاء بل علماء وعارفين، كانوا قد رأوا التجربة الأوروبيَّة وأجادوا اللغات المختلفة وألَّفوا كتباً، كما أنَّهم لم يروا أنفسهم تابعين لشعبٍ معين، مثال على ذلك: كان جمال الدين الأفغانيّ

يعرف العرب بحكمه عربيَّاً، ويعرف الفرس وكأنَّه فارسيّ، يعرف الأفغان وكأنّه أفغانيّ، ويعرف الأتراك كأي تركيٍّ كونه رجلاً شرق أوسطيَّاً ويودّ أن يؤسس لنهضةٍ في الشرق الأوسط، كان ضدَّ الأشياء المُطلقة، ضدَّ الملكيَّة، ومضحيَّاً لأجل الشرق الأوسط، كان يقول: "يا ليتني أملك هويَّةً أميركيَّة كي يكون بإمكاني التجوُّل بحريَّة"، كان يرى قيمة المرء في كونه شرق أوسطيَّاً، أي أنَّ مشروعه لم يكن رغبة في الحداثة، فحين يغدو المشروع شرق أوسطيَّاً فإنّه يقاوم رافضاً القيم الغربيَّة دون أن يفسح لها المجال، آنذاك إن حصل وتمكَّن اولئك الأشخاص من تقييم أنفسهم حسب القيم الحديثة الموجودة فإنَّهم كانوا سيحدِّثون تلك القيم الحديثة الموجودة. دعوكم من تحديث القيم الموجودة، بل إنهم كانوا ينتقدون بلغة النظام، أي أن الحركات العلمية التي نتحدَّث عنها نظرت بعين السوء إلى النظام السياسي، أي أنَّ الشرق الأوسط كان المصدر بالنسبة إليهم، سوى أنَّهم أرادوا جلب قيم الغرب التي يعشقونها، جمال الدين الأفغاني، المصريّ محمد عبده، رفاعة الطهطاوي، عبد الرحمن الكواكبي، عبد الغني أريسي، ميرزا مالكوم خان، إلخ، ثمَّة الكثير من اولئك الشخصيَّات الذين كتبوا في مجال الديكتاتوريَّة والديمقراطيَّة، كتبوا في كل المجالات لأجل التغيير، سوى أنَهم تعلَّموا التغيير من الغرب، لذا يقولون أنَّ المسألة تكوَّنت هكذا في الغرب، فحين تقول الغرب، هذا يعني أنَّه لا يهتمّ بالتاريخ الممتدّ لآلاف السنين، لا يقبل الانصهار، لا يقبل القبول بحدِّ ذاته ويقاوم، لأجل ذلك تقدَّمت النهضة التي بدأت في القرن التاسع عشر، في بدايات القرن العشرين، صحيح أن الإمبراطورية العثمانية والدوغمائيَّة كانتا حجرا عثرة، حيث بدأت المحاكم والبحث والتحقيقات، الفرار والسجون إلخ، لكن لم تكن هذه هي الأسباب الكبيرة التي أرادوا عبرها تطبيق إدخال أفكار الغرب، بل غدا الأمر سبباً لعدم نجاحهم، رغم أنَّ اولئك أتقنوا اللغات ودرسوا الفلسفة وامتلكوا معلوماتٍ كثيرة جدَّاً، يملكون خطاباً خاصَّاً بهم، يكتبون ويؤلِّفون، سوى أنَّهم على الرغم من ذلك لم يصبحوا قاعدةً لتغيير المجتمع.

٢١ـ نضال القائد عبد الله أوج آلان في مواجهة اعتداءات النظام:

الشرق الأوسط أيضاً يكون حجر عثرة في وجه الحركة الفكرية المستقلَّة ويسدُّ أمامها الطريق ليعلن عنها بطريقةٍ خاطئة، مثال: إن انتبهنا في يومنا الرَّاهن إلى أنَّ القائد يطوِّر حركةً وجدانيَّةً ذهنيَّةً جديدة، وحقيقةً يُغيِّر الكثير من الحقائق المنسيَّة ليبدأ مراحل جديدة، ليس فقط في كردستان، بل إنَّه يبدأ مراحل جديدة في العالم، لكن قوة السلطة في المقدِّمة هي لأوروبا في الشرق الأوسط حيث كانت هي المُسيطرة، إنَّها تقترب من المجهول وكأنَّه غير موجود، وحين يقال اسم القائد بإصرار يُقال عنه: ماركسيّ، لينينيّ، أرثوذوكسي، أو أنَّهُ يأخذُ قالباً لينينيًّا كلاسيكيًّاً، لكن في الحقيقة الانتقادات التي يطرحها القائد ضدَّ الماركسيَّة كثيرة، حيثُ يقول: "المرء الظالم يسلك طريق الظلم والتسلّح ليصل إلى هدفه" لِمَ هذا الأمر؟ لأنَّها اللعبةُ القديمةُ نفسها، كما فعلت الإمبراطورية، الدولة العباسيَّة حين وقفت ضدَّ المعتزلة وإخوان الصفا وفلاسفة ذلك الوقت مثل ابن سينا والحلاج منصور وروّجت عن أفكارهم على أنَّها خارجة عن الطريق وسيئة، في يومنا الرَّاهن تستمرُّ هذه اللعبة، يوضّحون النقيض، لِمَ يفعلون ذلك؟ لكي يقبل الجميع أفكارهم دون أي مقاومة أو ردَّة فعل، فحين تُقبَل الفكرة يغدو المجتمع ميداناً لسيطرتهم، لكن لو انتبهنا فإنَّ القائد هنا ذو حركة ذهنيَّة وفي الآن نفسه حركة وجدانيَّة، إنَّها حركة ذهنيَّة لأنَّها تشرح المجتمع والبشر بأسلوبٍ علميّ مستنداً إلى درجةٍ عالية من التقدُّم في المعرفة والعلم، يفهم من خلال الكمّ، الكمّ الفيزيائي، قائدنا يشعل ثورةً في الذهنيَّة، أو يجعل الطريق سالكاً أمام تجديد العقل، أي ألَّا يكون العقل صندوقاً مليئاً ومغلقاً، لا بل يجعله مفتوحاً ويعمل على تكوين نفسه على أساس دخول الحركة والنشاط الذهنيين.

فإن انتبهنا، القائدُ لا يبقى أسيرَ ما قاله في الأمس، وإن انتبهنا إلى ذلك في وقتنا الرَّاهن أيضاً، فلننظر إليه فيما يخصُّ حماية شعبٍ كامل، ثمة إثباتات للقائد، لكن حين نقرأها في حمايتنا ضمن إطار يومنا الرَّاهن سنعثر على

تغييراتٍ، أي أنَّها لا تشبه بعضها البعض، حيث كان بإمكانه التعبير فقط حسب الإطار الموجود آنذاك، ومن ثم الإطار الجديد في الوقت الرَّاهن، لذا لا يقول قائدنا أنَّه قال شيئاً في الأمس ولا بدَّ أن يبقى على ما هو عليه، لا شيء من هذا القبيل لدى قائدنا الذي يطوّر حركةً وجدانيَّةً واسعة، مثال: موقف القائد إزاء الدولة القوميَّة حركة وجدانيَّة، لأن الدولة القوميَّة تبتلع كل شيء: المذهب، الدين، الجماعات الإثنية، العشيرة، القبيلة، كل الألوان التي بحاجة إلى حياة، وكل الألوان التي يحقّ لها الحياة، تلك الألوان التي تُبتلَع وتُنكَر وتُمحى من قبل حركة الدولة القوميَّة عديمة الرحمة والظالمة.

القائد يجعل حساسيَّة الحماية في المقدِّمة، لذا فإنه هو من ينبِّه إلى الاعتداءات التي يقوم بها النظام ضدّ حقوق الإنسان وليست أوروبا، الاعتداءات تحصل، مثال: القائد يتحدَّث عن الانصهار على كونه اعتداءً، يتحدَّث في مستويات عالية عن اسم القوميَّة، المذهب، الجنس، الصغير، الكبير، ليتمَّ إقرارها في المرء ويقبل بها، وأن يُظهِرَ المرءُ ردَّاتَ فعلٍ في مواجهة الاعتداءات على تلك الحقوق، هذه حركة وجدانيَّة لمنع تلك الاعتداءات، سوى أن النظام السلطوي يظهر تلك الاعتداءات على أنها غير موجودة البتّة، يظهرها حسبما يروق له، أو يظهرها على النقيض مما هي موجودة، وبمواجهة هكذا سلطة لا بد من حركةٍ دائمة تظهر كل الأمور وتقوم بتصفيتها. لكن ما هي المشكلة الأساسيَّة؟ لِم لَم تُثمِر محاولات النهضة في الشرق الأوسط خلال بدايات القرنين التاسع عشر والعشرين؟ أسباب هذا الأمر هو أنَهم أرادوا فعل ذلك عبر قيمٍ بعيدة عن حقيقة هذا المجتمع، أو أنَّهم أرادوا ذلك عبر قيمٍ بعيدة عن المجتمع ولا تستند إلى الإرث الثقافي والمجتمعي في المنطقة، بل جلبوها على أساس الإعلام الخارجي، أي أنَّهم أرادوا أن يحقِّقوا الهجرة، وعلى الرغم من معرفتهم وإصرارهم وعِنادِهم وشجاعتهم، إلَّا أنَّهم لم ينجحوا في أن يكونوا جُسيماتٍ، لم ينجحوا في أن يكونوا أصحاب المجتمع، لذا لم يفلح التجديد، وحين لا يحصل تجديد فإنّ القديم يبقى مُستمرَّاً.

٢٢ـ تأثير الذهنيَّة في ميادين الحياة:

حين نناقش الذهنيَّة، فلأنّ لها تأثيراً على مناحٍ كثيرة في الحياة، لذا يودُّ المرء أن يفهمها أكثر، فإن لم تعمل المشاريع الاجتماعية على صنع الوضوح من الناحية الذهنيَّة ولم تستقرّ على منطقٍ صحيح سيكونُ التطبيق العمليّ صعباً، أي أن تطبيقها بحدّ ذاته سيخلق الكثير من العُقَد والمعُضلات الأكثر جديَّةً، تظهر الأزمات، لذا فنقطة الذهنيَّة أمرٌ مهم لا بدَّ للمرء أن يقف عندها.

إن انتبه المرءُ بشكلٍ عام فإنّ الثقة والمعرفة العلمية توضِّحان شكل الحياة، مثال: إن كانت أوروبا في يومنا الرَّاهن متقدِّمة من الناحية المادية فإنَّ الأمر عن كَثَب له علاقة بالإيديولوجيَّة، فالحركة الذهنيَّة التي بدأت هناك في القرنين الرابع والخامس عشر تمّ حمايتها بشكلٍ شخصيّ، لكن كان الغذاء، الشراب، الصحة، التربية على درجةٍ عالية في الشرق الأوسط أكثر مما كانت عليه في الغرب، ولكن التغييرات الذهنيَّة التي حصلت في الغرب كان لها تأثيرها أيضاً على الحياة الماديَّة، في أي مكانٍ يريده المرء أن يفهمه فليفعل، فالإنسان يتفرَّج: تتوضَّح أساليب الحياة وأفكار البشر بعضها عن الآخر، مثال: فلنقل في بلدٍ ما ثمَّة مسيحيّون، يهود، مسلمون، عرب، كرد، روم وإلى آخره، يستطيع المرء نفسه ووفقاً لأسلوب حياتهم أن يعرف مكانهم وأن يميّزهم عن بعضهم البعض، وبمقدور المرءِ التخمين إلى أي درجة تؤثر الفلسفة التي يعيشون بها على أسلوب حياتهم أيضاً في جانب النظافة، الصحة، الغذاء، وجوانب أخرى كثيرة، لكن حين تتحدَّث عن تطورهم في الجانب المادي، فإنَّه قد يجوز أن يكون مسلمٌ أغنى أو أثرى من مسيحيٍّ من الناحية المادية، ولكن حين تنظر إلى درجة حياته فإنّه أقلّ منه، لِمَ؟ لأنّ ثمة فرق في الإيديولوجيَّة، لأجل ذلك نتوقف عند الإيديولوجيا.

الطرق العلمية واقترابها من المسائل تمهّدُ الدربَ أمام تقدُّم البشر، فلنمعن النظر، من أين يأتي التكرار لدى الكِريلَّا؟ التكرار هو عدم الانقطاع، أي ألَّا يغيّر المرء نفسه، قد يفكِّر في موته لكنّ لن يفكر في أن يغيَّر نفسه، هذه هي

الدوغمائيَّة، هو منطقٌ نوعاً ما، ووقفت الكثير من شعوب العالم عند هذه النقطة. مثال، هكذا قالوا أيضاً: ما هي درجة تأثير العقل الصحيح والعقل الخاطئ في الحرب؟ العقل الصحيح، هو العقل الذي لا يكرِّر نفسه أبداً ولا يبقى محاصراً وعالقاً في مكانٍ ما بل يعمل على الدوام وفقاً للمقاييس الجديدة، هكذا يفهم المواضيع، فيما العقل الخاطئ هو الذي يبقى عالقاً في مسألةٍ بعينها فيكرِّر نفسه ولا يستطيع أن يعمل بشكلٍ مختلف، هذا الشيء أثبته العالم منذ آلاف السنوات ويجلب معه الخراب الكثير، لكن إن تمعَّنا النظر، سنرى أن محاولات التغيير لا تحصل كثيراً في أغلب المجالات، لِمَ ذلك؟ لأنّه موضوعٌ ذهنيٌّ جدَّاً، حيث يكون الأساس هو التعلُّم والحفظ دون مساءَلة العقل، لذا متى تكون الإيديولوجيا صحيحة؟ حين تؤمن بشيء ويكون بمقدورك أن تتحدَّث إليه عن طريق العلم، عندئذٍ تكون الإيديولوجية صحيحة ومن الضروري معرفة حقها في الوجود أو اللا وجود، يعني مثلاً إن كنتُ أؤمن بشيءٍ فمتى سيكون إيماني ذاك صحيحاً؟ حين تثبت الحقيقةُ نفسها عبر العلم، أن تثبت جوهرها عبر الأشياء الموجودة، ونعمل وفقاً لها، العلم لا يثبتها، ولكن نبحث عن الحقيقة ونحميها على اعتبارها قيمة، حتَّى أنَّنا لا نقبل الانتقادات ضدَّها، وهذه المعضلة ليست معضلة الكرد وحسب بل معضلة الشرق الأوسط بأكمله.

نحن نفهم هذه الأمور برمَّتها في الشرق الأوسط، فقد باتَ جليَّاً أنَّ المرء في الشرق الأوسط حتى وإن فهم الأمور بطريقةٍ علميَّة فإنَّ الأمر ليس صحيحاً، لأن ثمَّة أمورٌ هنا لا يمكن تحليلها عبر العلم وحسب، لأجل ذلك فإنّ تَمَّ حَلُّ العِداء ما بين الماديَّة والطبيعيَّة، بين الإيمان والعلم كما حصل في أوروبا عبر النقاشات والردود بين الطرفين، لو أن المرء يحاول أن يثبت هذا الأسلوب في الشرق الأوسط، بيَد أنَّ الأمرَ صعبٌ للغاية.

٢٣- الشرق الأوسط لا يمكنه العيش دون قوَّته الروحيَّة:

ربَّما قد يكون بإمكان المرء أو اثنين أو ثلاثة أن يعملوا على وضع توضيحاتهم لهذا الجانب، وهي تبقى، النخبة لا يمكن لها أن تتَّحد مع المجتمع، لأنّ قوة الروحيات ملفتة داخل ذلك المجتمع، ولا يمكن له أن يعيش بلا روحيات، لِمَ؟ الروحيات تؤمَّن له الأخلاق وتوفِّر المقاييس الأخلاقيَّة، أي أنه حين يفهم الأمر عن طريق العلم والطرائق العلميَّة تنعدم المقاييس الروحية والوجدانيَّة والأخلاقيَّة.

هذا الأمر يتقدَّم في أوروبا ويسير حتَّى يومنا، منذ خمسمائة عام وهذا الأمر يسير، حيثُ تدافع قيم المجتمع الأخلاقيَّة عن نفسها بشدَّة، لكن السيطرة الاساسيَّة هي للعلم الإيجابيّ، ولكن لا يحصل هذا الأمر في الشرق الأوسط، لِمَ؟ لأن التجارب أثبتت استحالة حصوله، فبعضهم أنكر الدين، وحقيقةً حاولوا التقرُّب من المجتمع عبر خطاب الانتصار، حتَّى أنَّهم دمَّروا المساجد ومنعوها، مثلما فعل مصطفى أتاتورك، فعلوا هذا الشيء، لكن إن تمعَّن المرء فإنهم لم يحصلوا على نتائج كثيرة.

لا أعرف إن تمّ رفض العشيرة أو القبيلة؟! فثمة سلطات كثيرة في الشرق الأوسط باتت كذلك على أساس رفض العشائرية والقبيلة والدين، لكن بعد سنواتٍ عشرين أو ثلاثين أو خمسين من السلطة عادت مرَّةً أخرى إلى العشائريَّة والقبيلة والدين، وحين يطبّق المرء هنا هذه المقاربة الإيجابيَّة للذهنية الأوروبيَّة الغربيَّة ويقول عنها أنَّها ثورة أيديولوجيَّة، فإنَّ الأمر لا يمكن تطبيقه وليس بمقدوره النجاح.

٢٤- لا بدّ ألّا يفصل المرء بين العلم والروح:

لذا، لا بدَّ أن تسير الأمور الروحيَّة والعلميَّة جنباً إلى جنب، في الجانب الروحي الأخلاق وليس الدوغمائيَّة، وفي الجانب العلمي لا يمكن لها أن تغدو شيئاً دينيَّاً بل أن تغدو كبحثٍ عن الحريَّة، أي ألَا يتحول العلم إلى شيءٍ رسميّ في خدمة السلطة، أو أن يكون لخدمة مصالح السلطة وتأمين وطنٍ متجانسٍ مميَّز وفقاً للسلطة، العلم على أساس إنكار نفسه، على أساس أن يُصنع ويخرج من مرحلة إلى أخرى دون أن يعلَق وينحصر في مكانٍ معيَّن، وأن يكون في كفاحٍ دائم بغية أن يعمل على تقريب المجتمع إلى الصواب والحقيقة، فإن لم يكن هناك اتِّحادٌ ويكون في خدمة فلان فلن يتقدَّم الأمر.

لذا كيف يمكن أن تندلع الثورة الذهنيَّة في الشرق الأوسط؟ تُرى هل الثورة الذهنيَّة هي التي يحاول البعض أن يقوم بها عن طريق الإسلام السياسي أو عن طريق بعض التنظيمات الليبراليَّة التي تودَّ أن تقدَّم الحداثة على إنَّها مشروع مبنيّ على أساس الأنانيَّة، الليبراليَّة، وأن يطوِّروا الشعوب بهذا الشكل؟! هذا لا يؤدي إلى أي نتيجة، بل يولِّد الخراب ويتسبَّبُ في ظهور مشاكل ويقسِّم المجتمع، لِم؟ لأن هذه القيم غريبة وليس بمقدور المرء أن يجعلها جزءاً من نفسه ولا يستطيع أن يتعايش معها، يبقى ناقصاً، تلك القيم لا تعطي الأمان ولا تُغني عن جوعِ أحد ولا يمكن أن تحلَّ مشاكل الأشخاص المجتمعيَّة، بل على خلاف ذلك، إنَّها تتناقض مع الكثير من الأشياء. مثال: المجتمع يقاوم في يومنا الرَّاهن، أي أن المجتمع لا يمتلك تنظيماً أو دولةً وبالتالي لا يملك قوَّةً عسكريَّة بطبيعة الحال، لكن المجتمع يقاوم ويستنجد، لِمَ؟ لأنَّ الحداثة الرأسماليَّة وضعته في أزمة وجعلته في اغترابٍ عن ذاته، حيث أنَّ ثمَّة فرضٌ لأساليب حياة غريبة عنه، أساليب بعيدة عن الأخلاق وعن المقاييس الأخلاقيَّة، حتَّى أن المجتمع يعلن عن نفسه بردَّة فعلٍ شديدة تصل أحياناً إلى الانتحار، هكذا يعلن المجتمع عن نفسه، لكن ثمَّة نقطة أخرى، يقولون: ما من ضرورةٍ لنقوم بالتغييرات، حيث أنَّنا نملك الأخلاق

والدين والأفكار الخاصَّة بنا ولأنَّنا ابتعدنا عنها ظهرت المشاكل، فإن أعدنا النظر بتلك الأخلاق والدين والأفكار فلن تبقى لدينا أيَّة مشاكل، في الحقيقة هذه النقطة سيئة كما قبلها، لِمَ؟ هذه المرَّة يتمُّ الدنوُّ من المجتمع بطريقةٍ جاهلة، فالمجتمع حركة، أجيال، فتوَّة، ولادة، أي دائماً ثمَّة جديد، يقترب من هذه الحركة بشكلٍ لا مرئيّ وكأنّ به يريد أن يعيد الزمن إلى الوراء، محاولاً إحياء المجتمع وفق مقاييس ٢٠٠٠ سنة منصرمة، وهذه رجعيَّة، فما هي الرجعيَّة؟ الرجعية مفردة عربيَّة، تعني العودة إلى الخلف، إلى أي خلف؟ العودة إلى الجذر، الأصل والسَلَف، العودة إلى هناك، ولأجل هذه الحركات الراديكاليَّة نقول أنَّ: الحركات الدينيَّة، الرجعيَّة، السلفيَّة تملكُ مسمَّىً واحداً. ما الهدف من العودة إلى ما ذكرناه آنفاً؟ يقولون: نحن لسنا بحاجةٍ إلى تغيير، هذه الحركة لن تجلب الحل ولا يمكن إيقاف الغرب بهذا السلاح، فيوماً ما حين أخرَج صلاح الدين الأيوبي الصليبيين من القدس بالراية الإسلامية كان لذلك مدلولاً معيَّناً، كان الشرق الأوسط أكثر تطوَّراً من الغرب آنذاك، وهذا التطور الأكبر أعلن عن تأثيراته في ميادين الحرب المختلفة، حتَّى في الجانب العسكري والسياسي والاجتماعي، لذا لم يكن بمقدور الصليبيّين البقاء والاستمرار كاحتلالٍ أبديّ في المنطقة، لهذا كان بإمكان صلاح الدين بكل سهولة إخراجهم من المنطقة، ولكن أسامة بن لادن لا يمكنه إخراج الأميركيين من المنطقة، لِمَ؟ لأنّ غرب اليوم ليس مثله زمنَ الصليبيّين، فالغرب في يومنا الرَّاهن له اليد الطولى في العلم والفلسفة والآلات والسلاح، أي أن المرء لا يستطيع المحاربة باستخدام سيفٍ كما كان عليه الحال قبل ١٤٠٠ عام، ليس بمقدوره الحصول على مقاومةٍ ناجحة، وحين يتمعَّن المرء بطريقة صحيحة أو غير صحيحة في تلك الحركات، سيرى أنَّها على علاقة مع الإمبرياليَّة، لذا يقول القائد: "نضالهم بالكاد يُمكِّنِهم أن يكونوا كلاباً باحثة عن عِظَامٍ أمام أبواب الحداثة الرأسماليَّة، أو أن يحصلوا على حصَّةٍ ما، لكن ليس كمشروعِ بناء مجتمعٍ خالٍ من الأزمات"، حينذاك ماذا سيحصل؟

كثيراً ما نتحدَّث عن الموالفة، فالموالفة ضروريَّة، وفي يومنا الرَّاهن ما هي الأطروحة؟ الأطروحة هي أوروبا، أي الغرب، والأطروحة هي الحداثة الرأسماليَّة، هذه الأطروحة كيف توضِّح عن نفسها؟ توضَّح عن نفسها عبر الكثير من سماتها وخصوصيَّاتها، بطرائقها العلميَّة، أي أفكارها العلميَّة، الأنانيَّة، الليبراليَّة، والسياسة الخارجيَّة، ولكن في الأساس هي تحاول أن تطوَّر من علمها، لأجل ذلك نرفض حماية العلم، فنحن وإلى الدرجة الأخيرة نعتمد على العلم والنشاطات العلميَّة كأساس، نعرف النشاطات المقدسة، سوى أنَّنا نرفض حماية العلم، ما هو حماية العلم؟ حين تُلحق مفردة حماية بتلك المفردات يتغير معناها، كيف؟ يصبح في خدمة النظام، فالعلم في أصله هو بحثٌ عن الحقيقة، أو الحرية، لذا العلم لا يعرف حدوداً، ولأجل ذلك لا يقبل البتَّة ان يصبح عبداً للنظام، لأن النظام مؤقَّت وليس أبديَّاً، فيما العلم بحثٌ دائم لا منتهٍ وراء الحقيقة، فكلَّما عرف المرء شيئاً، نظر إلى ذلك الشيء دون أن يمتلك معرفةً عن أشياء أخرى أكثر، لذا فهو دائم المحاولة.

ماذا تفعل الدولة؟ تحاول أن تعمل على إقرار العلم وترويضه لخدمة أن تبقى هيَ مستمرَّة وباقية، فمهما ساعد العلمُ الدولةَ على تأسيس جيشٍ، أن يصنع الأسلحة، أن يؤمِّن النقود، أن يبني المصانع، سوى أنَّها تفهم العلم في إطار استمراريتها، لذا فإن الدولة تعمد إلى إخراج العلم من الأرضيَّة المجتمعيَّة والسيطرة عليه، هذه هي حماية العلم، إنها الدوغمائية، الدين الجديد، أي دين الرأسمالية الجديدة، حتَّى أنَّ الأضرار التي تلحقها اليوم في جانب الانصهار، الخراب، لا تعادل الأضرار التي كان يتسبَّب بها رهبان السومريين، أي أنَّ ضرر حماية العلم أكثر من ضرر رهبان السومريين في هذا الإطار، لكن هذه الأطروحة تخرج في النتيجة، ما هي الأطروحة ككلمة، هي جلب شيء، مطلب، مسألة موجودة في الأساس وتوضّح عن نفسها، تعبِّر عن نفسها، وثمَّة من يقف في وجهها نسميهم بـ ضدّ الأطروحة، ومن ناحية الحضارة بمقدور المرء في يومنا هذا أن يفهم الشرق الأوسط على أنَّه ضد الأطروحة، سواءُ من ناحية اعتقاداته، وضعه الجغرافي، نظامه السياسيّ، يمكن للمرء أن

يفهمه على أنَّه ضد الأطروحة، لأنَه على النقيض من ذلك. ولكن ماذا تعني الموالفة؟ ليس ثمَّة إعلاماً ميكانيكيَّاً للموالفة، مثال: هنا، في أوروبا ثمَّة أطروحة، ونحن ضد الأطروحة، إن جلبنا بعض الآليات من أوروبا إلى هنا وقمنا باستعمالها بالإضافة إلى بعض الأمور التقنيَّة الأخرى، نترجم بعض الكتب، حينها تُحلّ المعضلة؟ هذا دنوّ متناقض، تقارب ميكانيكي، أمّا الأطروحة فهي مطلب، وضد الأطروحة هو مطلبٌ على الضدّ، حينها تكون الموالفة على علاقة، إنّه المزج، أو تكون المحبرة، أو تآلفٌ بين أمرين.

لكن هذه المحبرة ليست ميكانيكيَّة، أي لا يجوز أن أنتقي شيئاً من هنا وآخرَ من هناك وأمزجهما، هذا لا يجوز، فالمركَّب لكي يغدو حلَّاً لا بدَّ وأن يؤمن بضرورة منطق الخروج من الأزمة أو اجتياز الفوضى، فلكي يتم الحل لا بد أن تتوفَّر هذه المسائل.

الآن ثمَّة أشياء إيجابيَّة في الشرق الأوسط، مثلاً القوَّة الأخلاقيَّة الاجتماعية، بعض تأثيرات الكومينالِيَّة، المسؤولية الجَمعاء، روح التشاور، كل هذه أشياءٌ تعتبر إيجابيَّة، ولكن ثمة أشياء أخرى مثلها، حيث توجد الدوغمائيَّة، الخراب، الاستبداد، هذه الأمور كلها سيئة، ولا بد على المرء ألَّا يقبل بها كحقيقة مطلقاً وليس عليه أن يتّخذ موقع المدافع والمحامي عن تلك الأشياء.

في الغرب ثمَّة علم وعلميَّة، ولكن حينها ماذا تعني الموالفة؟ الموالفة تعني بحث القيم المجتمعيَّة، الكومينالِيَّة، التشاور، الأخلاق، الروح في المسؤولية، حيث يتمّ من خلال البحث دمج علم الرَّاهن، أي الوقت الذي نعيش فيه، مع علميَّته، وتوحيدهما، لا بد أن يحصل شيءٌ من هذا القبيل لكي يحصل التجديد بشكلٍ تامّ، هذه النقطة أقبلَت من أوروبا، مع إنَّها آتية من الشرق الأوسط، لا أعرف كيف حصل ذلك! لا يجب أن تتوضِّح ها هنا، لأنها إن توضَّحت فهي إعلامٌ ميكانيكي، كما يودُّ الأتراك فعل ذلك أحياناً، وأحياناً العرب، أو اللبنانيون يودُّون فعل ذلك، حيث تتفرُّج إلى شيء ما سترى أنَّه قادم من أوروبا، والشيء الفلاني قادم من الغرب، الأمر يحصل بهذه الطريقة، هذه

ليست موالفة، الموالفة تجديد، شيء جديد، فمجتمع البشريَّة ليس مُلكاً لأحد، قيم طبيعية واجتماعيَّة كوميناليَّة، إنَها مسؤوليَّة، فالأخلاق والوجدانيَّات التي لا تزال تقاوم في الشرق الأوسط تمثِّل سمات وخصائص المجتمع الطبيعي والبشريّ، كيف سنُحيي تلك القيم؟ ليس عبر القديم، وإنَّما كيف سنوحِّدها مع الطرق العلمية الحديثة. كيف يمكن بهذه الطريقة ظهور منهج جديد للحياة، لا ضرورة في أن تكون هناك ثورة ذهنية في الشرق الأوسط عبر الإعلام الأوروبي، بل لا بد أن يتجاوز الإعلام، فديمقراطية الشرق الأوسط لا بدَّ لها بكل تأكيد أن تتجاوز ديمقراطية أوروبا، لا بد أن تتجاوز حقوق الإنسان ولا بد من إدخال مقاييس جديدة، لن نستطيع حل المشكلة طالما أنَّنا نسير وفقاً لمقاييس أوروبا، لأجل ذلك فإنّ الطريقة هي التجديد، أي نهضة الشرق الأوسط، فللعثور على طرقٍ للحلّ هذا لا يعني أن تجرَّب كما أوروبا، فأمورهم تصلح هناك لديهم، بغية الخروج من الفوضى، وما جرَّبته أميركا سيكون مختلفاً تمام الاختلاف، فهي تتم على أساسِ نسجٍ مختص يجمع بينَ القيم المجتمعيَّة الكومونياليَّة للبشريَّة المتأتِّية من سمات وخصائص المجتمع الطبيعي وبين الطرق العلميَّة التي تعرف على أنَها هويَّة في يومنا الرَّاهن، لأنّه بدون العلم لا حقَّ لنا في العيش ضمن الرَّاهن، فالرَّاهن ليس زمناً للميثولوجيا، ليس زمناً لدين الإله الواحد، ليس زمن الفلسفة وحدها، إنَّه زمن العلم، وهذا الزمن يلعب دوره، فالعلم والتكنولوجيا تطوَّرا كثيراً في عصرنا وباتت السبب في أن تعيش دول الشرق الأوسط المستبدَّة والتوتاليتاريَّة في أزمة، لِمَ؟ لأنَّ تطوّر العلم في الأساس ضمن الشرق الأوسط وضمن أوروبا أيضاً كان سبباً رئيسيَّاً في فقدان الدول والمؤسسات التابعة للدول قدرتها على الاستجابة لمستلزمات المجتمع، حيث أنَ ذهنيَّة البشر متطوِّرة، العلم البشري متطوِّر، طلباته أيضاً، وهذه كلها من تقدِمة العلم، الأخير الذي قدَّم التكنولوجيا، لأجل ذلك فقدت الدولة والمؤسسات التابعة لها قدرتها على الاستجابة، وبالتالي العيش في أزمة، لذا ما عاد بمقدورها المقاومة إزاء ردَّات فعل الشعوب، لذا تحاول الدولة والمؤسسات المرتبطة بها مرَّةً أخرى أن تعمل وفقاً لمصالحها وأن تحتوي كل شيء ومن ثم ترميه، أن تلعب كل

أنواع اللعب، لكن في النتيجة النظام مهزوز على أساس التقدُّم العلمي، لأجل ذلك فإنَّ رفضنا للهوية العلميَّة في هذه الأثناء يعني فقدان حقِّنا في الحياة وعدم المقدرة على عيشها، على المرء أن يتخذ من هذا الأمر أساساً.

٢٥- سيطرة فكرة قوميَّة الدولة في الشرق الأوسط:

حين نقول أنّ الدوغمائيَّة هي المشكلة الأساسيَّة في تلك البلاد، فهذا هو الأسّ، فالدين الآن هو الحاكم، وثمَّة أشياء أخرى غير الدين هي الحاكمة، مثال: فكرة الدولة القوميَّة، الإيديولوجيا الدوليَّة، حتَّى أنَّه للأسف في أكثر الأماكن ثمَّة الإيديولوجيَّة اليساريَّة، والآن ماذا تفعل الدوغمائيَّة؟ لنعد إلى مثال الإمام الغزالي في القرن الثاني عشر، في العام ١١١١ حيث من ظهروا ووجَّهوا ضربةً قويَّة للاجتهاد وأغلقوا الباب أمامه، أي أغلقوا الأبواب وسدُّوا الطرق أمام البحث والتنقيب، فهم من يضعَون المقاييس، ولا بدّ لمقاييسهم ألَّا تتأثر بحركة الزمان والمكان، أي لا بدّ أن يكون الأمرُ سريَّاً، شيئاً إلهيَّاً وألَّا تكون له علاقة بحركة الزمان والمكان، أن يكون مطلقاً في كلِّ الأمكنة، هذه كانت مقاييس الإسلام، والآن يُفرَض الأمر بهذا الشكل، وعلى هذا المنوال تؤسِّسُ الدولة مؤسساتها وتحكم وتصدر القوانين على أساس الشريعة، فمن أين أتت الشريعة؟ من تلك المقاربات الدوغمائيَّة التي أخذتها الأفكار الإسلامية من الزمان والمكان بشكلٍ غير مرئي، أي يقول لا تتأثَّر بها، مثال: أين كان وفي أي زمن لا بدَّ أن يبقى كما هو عليه، وهكذا يحصل على مشروعية عبر قوَّة الدولة التي بدت في الشرق الأوسط مثل قالبٍ يُعرقِل كل أشكال البحث وتصفيتها وقتلها، لذا فالدوغمائية تعتبر خراباً، وحين نقول أنَّها خراب ذلك يعني أنَّ على الإنسان أن يبتعد عنها إلى درجةٍ بعيدة، لكي لا يُمهَّدَ الطريق لأشياء أخرى.

الليبراليَّة في يومنا الرَّاهن تقول: "لم يبقَ شيءٌ ثمينٌ يحميه المرء، لا شيء ثمين بإمكان المرء حمايته"، لكن الليبرالية تعرف ماذا تحمي، إنّها واضحة، لأجل ذلك يقول القائد: "التضخّم هو من يصنع الأفكار، لكن، يأخذ بالأفكار التي تخدم مصالحه وحسب، فيما يُبعِد الذي لا يخدم مصالحه ويصهره في داخله، يدخله في خدمته، ومن يرفض الخدمة يبقى خارجاً، يجرَّد، يحرم من الحياة".

آنذاك تعرف الليبراليَّة أفكارها وتعرف ما الذي تخدمه تلك الأفكار، هنا نقول أكثر الأحايين: الإيديولوجيا، إيديولوجيتنا تغيَّرت أو لم تتغير، إنَّه أمرٌ ضروريّ، أن تتغيَّر أم لا، هذا الأمر يعيقُ نقاشنا ويفتح الباب أمام أن تذهب قوَّتنا وتُهدَر سُدىً، لا شكّ في ألَّا شيء مُطلق في الإيديولوجية، فالإيديولوجيا ولا سيَّما بشكلٍ خاصّ الإيديولوجيا الثوريَّة ضدّ الدوغمائيَّة لا بدّ أن تتناسق دائماً بشكلٍ هارمونيّ مع الزمان والمكان وأن تجدَّد نفسها على الدوام، أن تكون أبوابها مفتوحة دائماً وألَّا تكون مقولبة ومؤطَّرة وتغدو دوغمائيَّة.

لكن، ما هي الإيديولوجيا؟ الإيديولوجيا نظامٌ للأخلاق، للاعتقاد، للفكرة، للثقافة، ولكن الأهمّ من كل ذلك، الإيديولوجيا تخدم دائماً مشروعاً اجتماعيَّاً. ما هو ذاكَ المشروع وعلى أي أساس يستقرّ؟ يستقر على أساسٍ فردي شخصيّ، الكومينالية تفصح عن هذا الأمر. لذا حين نفهم أنفسنا وننظر إلى نظامنا الأخلاقي والعقائدي والثقافي والأفكار، ولا سيَّما الأهداف، أي أنّه لا وجود لتغييرات في الأسّ الراديكاليّ في مشروعنا المجتمعيّ، حيث نعتمدُ مرَّة أخرى على أساس مقاييسنا في رفض ما هو ضدّ القيم المجتمعيَّة، وآنذاك كنَّا نعتمد على ذلك لأجل أنفسنا، حيث أنّنا نمتلك ثقافة قائمة على أساس المساواة، فمشروعنا يلتفت مرَّةً أخرى إلى القيم الكومينالَيَّة، لأجل ذلك نقول: إيديولوجيّتُنا لم تتغيَّر، سوى أنَّ نموذجنا تغيَّر، ما هي الفوارق بين الإيديولوجيا والنمذجة؟ النموذجية رأي، أي أنَّها مقاربة فكريَّة، تشبه أن يتصوّر المرء أنَّه على أرض ويتأمل الأمور الأساسيَّة، هذه هي النمذجة. إلى

أين ينظر المرء ويتأمل على تلك الأرض الفكريَّة؟ إنَّه ينظر إلى المجتمع والدولة، يوضِّح رأيه إزاء الدولة والمجتمع، يوضِّح المقاييس، أي ما الذي نختاره؟ مقاييسنا المختارة واضحة، أي أن الفارق بين الجيد والسيء يُفصِح عن أسلوب الوصول إلى الأهداف، لذا نقول إننا قمنا بتغييرات أساسيَّة في النموذج، تغيَّرت مقارباتنا إزاء الدولة والمجتمع، تغيَّرت نظرتنا إلى الشخصانيَّة والكومينياليَّة، تغيّرت مقارباتنا إزاء النضال، تغيَّر حبُّنا وكرهنا للكثير من الأمور، أي أن ترجيحاتنا متغيّرة. لكن مشروعنا الاجتماعي يهتمّ مرَّةً أخرى بالقيم الكومينياليَّة، لذا حين نقول أنَّنا قد تغيَّرنا من ناحية إيديولوجيّتنا، قد يكونُ في الأمر صعوبةً، لكننّا أغنينَا الكثير من الأشياء داخل تلك الإيديولوجيَّة إلى درجة أنَّ بنيتنا الثقافيَّة والروحيَّة والأخلاقيَّة والوجدانيَّة اتسعت أكثر وكبُرَت، في الوقت نفسه بتنا نمتلك حساسيَّةً تجاه بعض المشكلات كمشاكل المرأة، الأطفال، التعليم، المشكلات الداخليَّة، وفي مشاكلَ أخرى أيضاً، هذا هو غنى الإيدولوجيا، عمق الإيديولوجيا، وذلك يثبت أنَّنا لسنا دوغمائيين ولا نحمي القولبة، لكن يا تُرى ألا يوجد بيننا من يحمي القولبة؟ بلى يوجد، بيننا اليوم العديدُ من الرفاق بهم رغبةَ أن يصحّحوا مقاربات القائد الجديدة عبر مصافيهم النموذجية القديمة، يقولون: القائد يفكر مثلنا، ثمة أمثالهم، أمثال من يحاولون أن تُشلَّ الأمور، وثمَّة من يسخر، ومنهم من يقترب عبر الثرثرة، هذه هي الدوغمائيَّة، وهذا هو التعلُّق بالماضي، لا يعلمون أنّ أيديولوجيتنا ليست تلك الإيديولوجية المطلقة التي كانت في السبعينيات، إنّها تحمل النظام نفسه سوى أنَّها ومنذ العام ٢٠٠٠ عملت على إغناء نفسها عبر أبوابها المفتوحة على مصراعيها، وليس في مواجهتها في الزمان، بل أنّها تسير مع روح الزمن، روح الزمن معلومة، تجديد، إنّه الجيل الجديد.

بهذا الشكل لا بدَّ على المرء أن يفرِّق المقاربة ما بين الأصل والدوغمائيَّة على هذا الأساس، إنَّه أساس وليس حفظاً أو تلقيناً، أي لا يوجد له شكل معيَّن، ليس ثمَّة تلقين، إنَّها حياة، استقرار، وعلى هذا الأساس متى يرى

المرء تغيير الذهنيَّة؟ حين يعبّر عن نفسه في الحياة الماديَّة، ولأجل هذه المسألة ثمة أشخاص من الممكن أن يقولوا: "سوف نستطيع تغيير الذهنيَّة عبر قراءة الكتب"، هذه طريقة، ولكن التغيير لا يحصل، إنَّما هو حفظ، حفظ بعض العبارات، بعض الأشكال، هذا لا يُمكِّن من التغيير، الأمر لا يمكن عبر الحفظ والتلقين وحسب، فحين تحصل على الأشياء التي تؤمن بها ليس فقط عبر التلقين، لكي تغدو لك إعادةُ توجيهٍ داخليَّة، أي أنَها توضِّحُ حركتك اليوميَّة ومدى مقاربتك للخير والشر، وكأنّه محرّكٌ في داخلك ويتولى توجيهك إمَّا نحو الخير أو الشر ويوضِّح لك الأمر، يوضِّح لك مقارباتك من المسائل، لذا حتّى وإن كنت قد قرأت آلاف الكتب وإن تعثَّرت بمشكلةٍ ما فإنك تتطرَّق للحلول وفقاً لطريقة الآباء والأجداد، هذا يعني أنَّك لم تقُم بأيِّ تغييرٍ ذهنيّ، ليس بمقدورك أن تتحكَّم في نقمتك، فأنت لم تفعل أي تغييرٍ ذهنيّ، ولأجل ذلك ثمة خطأٌ هنا، العديد من رفاقنا يقرأون على مدار اليوم، سوى أنَّهم لا يستطيعون التحكُّم في نقمتهم، وفي الوقت ذاته لا يمكنهم وضع الطريق إلى الحلول، ولا يستطيعون العيش وفق تلك الأصول، كما أنّ هذا الأمر لا يمكنه أن يتّحد مع الذهنيَّة، هنا مَكمن المشكلة.

لذا ثمَّة جذورٌ متفرّعة لهذه المشكلة، ولا بدّ أن تكون هناك محاولات شخصيَّة، أن نكون في حركةٍ يوميَّة، ولكن حين تكون تلك الحركة أنانيَّة وليبراليَّة ورجعيَّة دوغمائيَّة، فحتَّى إن كانت المعلومات جديدة فإنّها لا تملك أي فائدة تُرجى منها، أي أنَّها لا تلعب الدور أو التأثير سواء في الثورة الذهنيَّة أو في تغيير الذهنيَّة، كانت هذه مشاكل تتعلّق بالذهنيَّة، لذا ثمَّة أرضيَّة مُمكنة للتغيير اليوم، ثمَّة فرص للتغيير، لِمَ هناك فُرَص للتغيير؟ لأنَّ العديد من القوالب لا تستطيع أن تفرض نفسها، على سبيل المثال، حماية الدين على اعتباره مشروعاً لإعادة صياغة المجتمع، فأينما كان هذا المشروع مسيطراً وحاكماً جلبَ معه الأزمات، هذا المشروع جلب معه الأزمات في أفغانستان، إيران وغيرهما، ما عاد بإمكان الاشتراكية المنهارة الانتصار، لم يعد بمقدور حداثة الرأسماليَّة أيضاً أن تنتصر، يعني إن تمعَّنا اليوم ثمة العديد من

النشاطات المختلفة في الشرق الأوسط بَدَا ادِّعائها بتحقيق المجتمع وإدارته يتقلَّص، لأجل ذلك فإن الأرضيَّة متوفرة للثورة الذهنيَّة، لأنّ الأشخاص الذين يمنعون لم تعد دلائلهم كافية ليدافعوا بها عن أنفسهم، أي لم تعد تكفي الأسباب التي يعلنونها لكي يقاوموا ويروا في أنفسهم الأحقيَّة وأنَّهم هم المطلق، وعلى النقيض من ذلك، كل ما يفعلونه في يومهم هو دليلٌ على إفلاسهم، لذا وعلى هذا الأساس، فالثورة الذهنيَّة تحتاج إلى زمنٍ معين، وكما قلنا، هي بحاجة إلى كَدٍّ وتنظيم وإيمانٍ وتضحية، تحتاج هذه الثورة على كل الصُّعُد إلى نضالٍ منقطع النظير حتَّى تغدو نموذجاً، إن لم توجد هذه الأمور لا يمكن للثورة أن تتحقّق، **مثال**: الأشخاص الذين بمقدورهم أن يؤثِّروا على المجتمع بنضالهم لا بدَّ وأن يكونوا على مستوى عالٍ ويكون بمقدورهم جذب انتباه المجتمع ويصبحوا مقياساً له، وكأنّ المجتمع سيرى الأمان حين يقلِّدهم، ويعثروا عبرهم على حلقاتهم المفقودة، أن يعثروا على ما يبحثون عنه، أن يروا فيهم ما تاهوا عنه في أنفسهم، آنذاك بمقدور المجتمع أن يتغيَّر، حين لا تتوفَّر تلك الأمور لا يمكن للمجتمع أن يتغيَّر، نستطيع قول هذه الأشياء فيما يتعلَّق بالذهنيَّة.

ثانياً: دور السلطة والدولة في الشرق الأوسط

سنفهم هنا دور السلطة والدولة في منع تقدُّم الشرق الأوسط وتطوره ونشوب الأزمة وتعمّقها. بلا شكّ أن كل نظريَّة اجتماعية تُفهَم على أساس كيفيَّة فهمها للمجتمع وللسلطة والمشاكل، الأمرُ متوقِّفٌ على ذلك في الأزمان كلِّها، لأنَّنا حين نقول نظريَّة فإنَّها تعني رؤية المشاكل وتفسيرها. لأجل ذلك فإن كل نظريَّة اجتماعيَّة تُظهِر محور المشاكل حسب علمها وإثباتاتها، لذا حين نفهم النظريَّة الاجتماعية الماركسيَّة سنرى أنّها في محور الطبقة ولا سيَّما في الأدب الماركسي، أي يكمن ثقلها في محاولة الإقناع وتفسير النظرية الاجتماعية، نظرية المشاكل الاجتماعية، ولكي يقبلها المجتمع وتصنع إقناعاً على هذا الأساس، أظهَرَت كلَّ حججها وأسبابها وفقاً لنفسها بطريقةٍ منطقيَّة.

لِمَ نقول منطقيَّة؟ تحدَّث القائد في مرافعاته عن الفوارق بين المنطق والحقيقة، المنطق ليس حقيقةً على الدوام وإنَّما منظومة، شكل، ويربط وفق ما يشاء فيما بين الأسباب والنتائج، بهذا الشكل ثمَّة تناسق للمنطق ولكنَّه ليس حقيقةً على الدوام، لأجل ذلك نقول أنَّ الماركسيَّة أرادت شرح المشاكل المجتمعيَّة من خلال محور الطبقة، وعلى هذا الأساس عثرت الماركسيَّة على أسبابها وشواهدها وبراهينها، أي أنَّها عثرت على الأشياء التي تستقرَّ عليها النظريَّة وأقنعت قسماً كبيراً من المجتمع. كانت الماركسيَّة منطقيَّة، سوى أنَها كانت بعيدةً عن الحقيقة، لأنّها بالشكل نفسه أنكرت الكثير من الأشياء الأخرى، أي أنَّها غضَّت النظر عن عناصر أخرى تسبَّبت في تعميق المشاكل المجتمعيَّة

وتنكرها، بل تقترب منها بشكلٍ مزدوج، لأجل ذلك توضَّح بعد فترة أن النظريَّة الماركسيَّة، -أي النظريّة الاجتماعية الماركسيَّة-لا تكفي للتعبير عن المجتمع وبالتالي تحليله أو تفسيره.

لذا، في يومنا الرَّاهن ثمة قسمٌ من نظريتنا الاجتماعية نحاول أن يستقر المنطق فيها على الحقيقة وأن يقترب أكثر من الحقيقة، لذا فإنَّ الشرق الأوسط هو منبع للكثير من المفاهيم، أو يلعب دوراً مؤسساتيَّاً، أو أنَّ الشرق الأوسط هو منبع العديد من المفاهيم التي نعرفها في يومنا الرَّاهن كالسلطة أو الدولة، وعلى هذا الأساس نستقرّ، الفتات، الانكسارات الجنسيَّة، لذا نحن دائماً نعلِّق على ذلك، هذا حتَّى الآن على الرغم من تطور العلم المجتمعي والأركيولوجي والتاريخي، إلَّا أنّنا لم نعثر على شيء يناقض هذه الحقيقة، أي أن نظريتنا الاجتماعية -لا سيما ممَّن يتأمّلون في مصادر المشاكل ويتابعون تاريخ الشرق الأوسط- لا توجد نظرية ظهرت لتناقضها أو تنتقدها بشكلٍ جديّ، والنظريات التي تنتقد إمَّا أنَّها تغضّ النظر، أو أن منظّري تلك النظريات موجَّهون ويُدارون على أساس المصالح الإمبرياليَّة والرأسماليَّة، لذا فإنّنا لا نفهم من هذه المحاولات أنَّها تناقض، أو شلل، أي أنَّهم لا يمكنهم أن يشلّوا نظريتنا كما أنَه لا يوجد أيَّ انتقادٍ جديّ، لأنّها لا تستند أساساً إلى الحقيقة، بل أنَّها ترى في نفسها المركز، وتعتمد على العنصريَّة البيولوجيَّة، فأوروبا تعتبر المركز بالنسبة لكل شيء، ولكن هذا الأمر لا يمارس تأثيره، فكلما ظهر شيءٌ جديد، أي اكتشاف أو أي إثبات، فإنَّها تؤكِّد أكثر على حقيقة ما قلناه، حقيقة ما قالته حركتنا، وما قاله القائد.

في هذا الإطار سنفهم أيضاً مسألة السلطة والدولة، لأنّ السلطة والدولة شيئان مختلفان البتَّة، فالسلطة موجودة قبل الدولة، فما هي السلطة؟ حين يفقد المجتمع تناسقه الطبيعيّ وأساسه الذي يكوّنه، يمحى ذلك التناسق الطبيعي، ويظهر محل ذلك الصمت، الظلم، وفي كل الأشكال: الإنكار، الطرد، الأمر الذي يفتح الطريق أمام السلطة والنفوذ.

لذا فإن النفوذ هو مرحلة من السلطة، أو مرحلة وشكل للحكم ما قبل الدولة، تلك السلطة أو خصائص السلطة بدأت في الشرق الأوسط، فمنبع السلطة كأرضيَّة وزمان هو الشرق الأوسط، ففي التاريخ القديم أي منذ ٤٠٠ عام قبل الميلاد أو حتَّى أبعَدَ من ذلك، على هذه الأرض التي نسمّيها ميزوبوتاميا الأعلى وخطوةً إثر الأخرى نحو نهر النيل أو مصر، بدأ التوازن المجتمعي من هنا بالخراب وذلك على إثر الظلم والسيطرة على القيم المجتمعية الكثيرة، لتظهر السلطة بهذا الشكل، لذا وعلى أساس سيطرة السلطة البدائيَّة أي سلطة الرجل على المرأة، سلطة ملَّاك العبيد على العبيد، سلطة الرهبان على الشعب، بهذا الشكل وخطوةً إثر الأخرى تتطوَّر مفاهيم السلطة ضمن المجتمع، لذا فإنّ تلك السلطة تتوضَّح لدرجة أنّه لا يمكن فهمها بطريقة إيجابيَّة، أي أن السلطة لا يمكن أن يتقبَّلها الجميع بدون أي تردُّد وبدون أي ردَّة فعل، ثمَّة اعتراض، كيف للمرء أن يعرف ما هي تلك الاعتراضات؟ والآن كيف لنا أن نعرف وجود هذه الاعتراضات؟ لا وجود لتاريخٍ مدوَّن، نحن نعرف من خلال الأشياء المحفوظة على شكل الميثولوجيا التي وصلت إلينا ونفهم من خلالها أن تلك السلطة لم تصل إلى المجتمع وانسجامه عبر قبولٍ طبيعيّ.

ثمة اعتراضات، اعتراض من المرأة، أيضاً الرجال بشكل عام، وسواء كانت هذه الأمور واضحة أو مخفيَّة داخل الميثولوجيا فإن المرء يشعر بها، وإن حصل هناك شرحٌ اجتماعي بطريقة علمية حول تلك الميثولوجيا دون أن تُفهَم على شكل قصصٍ وحكايات أو على شكل قوالب، إن حصل بحثٌ جيد وتحليلٌ جيّد، فبإمكان المرء أن يحصل على النتيجة ذاتها، أي أنَّ السلطة لم تأتي أو تظهر دون ردَّات فعل أو اعتراضات.

وما هو الشيء الأكثر خراباً؟ هو جماعة السلطة، أي شبكة السلطة: الرجل، رجل العائلة، الراهب، الأغنياء الذين استولوا بشكلٍ من الأشكال على القيم الزائدة، هؤلاء في الأصل شبكة للمصالح الشخصيَّة، في الأصل اشتراكٌ

لشبكة المصالح الشخصية التي تجمعهما السلطة ببعضها البعض، وفي نتيجة اشتراكهم تتقدَّمُ الدولة وتظهر، وحينئذ تكون شبكة المصالح الشخصيَّة هي الأساس في الدولة وفي داخل المجتمع الذي ابتعد عن توازنه وانسجامه.

أين حصل ذلك؟ حصلَ في الشرق الأوسط، ولأجل ذلك فإن الشروحات حول الدولة تبدو مثيرةً للانتباه، ومنذ سنوات نحاول أن نفسِّر ونشرح، ولكن كما قلتُ، فإن النظرية الاجتماعية لا بدَّ أن تُمعِنَ النظر في الدلائل وتستند إلى أي واحدة من تلك الدلائل وأيها أُخذت الأساس وأيُّها في المجتمع أُخذت بغية تثبيت المشاكل، ففي كل وقت لا بدَّ للمرء أن يتوقف عند هذه الأمور، هذا أمرٌ طبيعي، فحين يقرأُ المرء الماركسيَّة من البداية وحتَّى النهاية ويرى ما الذي قاله ماركس، أو ما قاله أنجلس، أو لينين، ومن بعدهم ما الذي قاله واحدٌ مثل ماوتسي تونغ، ستالين إلخ، سيرى أنَّ الكلام كله يدور في فُلك محور الطبقة، حيث دائماً يقولون هذا، فيما يقول البعض: توجد اليونان، روما، آسور، بابل، وهذه كلها في النتيجة قصص وحكايات، في المحصِّلة ثمَّة نظامٌ واحد، سواء إن كانت جمهوريَّة، مملكةً، إمبراطوريَّة، فلتكن ما تَكنهُ، في النتيجة ثمَّة نظامٌ واحد، وهو نظام العبوديَّة، اي أنَّها تُفهَم ضمن محور الطبقة، لا يقولون عنها حضارة الإغريق، أو روما، ولا يقولون الحضارة الغربيَّة، بل يقولون أن اسمها هي العبوديَّة، لِمَ؟ لأنّ تلك النظرية الاجتماعية تأخذ الطبقة ومشاكلها كمحورٍ أساسيّ، لذا فالاسم ليس ضروريًّا جدّاً لها، إنهم يُحصونَ وحسب، يقولون: روما، إغريق، إلخ، هذه أمور فارغة لا تهتمَّوا بها، إحداها تحمي جمهوريَّتها، فيما الأخرى لها مجلس، والأخرى لها نوَّابها، هذه الأشياء تعتبر قصصاً، الأمر الهام هو الجوهر، وجوهرها هي العبوديَّة، ثمَّة عبيد، هذا الأمر مهمٌّ بالنسبة إليهم لأنَّ النظريَّة بُنيت على هذا الأساس.

لذا يقولون بصدد الإقطاعيَّة والبرجوازيَّة أنَّ كل النظريات الاجتماعية، ولا سيَّما التي تتبع السلطة، ترى دائماً أنَ الدولة هي محور الحضارة، فالتقدُّم في تاريخ الاجتماع البشريّ حتَّى وإن كان بطريقةٍ مطلقة، فإن البعض من الأكثر

ديمقراطيَّة ومن أكثر من يفكِّرون في الجانب الاجتماعي، يقولون هذا الأمر بشكلٍ نسبيّ، سوى أن البعض الآخر يقولها بشكلٍ حقيقيّ ومطلق، ونتيجةً لذلك فإنَّ جميع النظريات الاجتماعية تحمل الفكرة ذاتها بأنَّ الدولة -سواء كان بشكلٍ نسبي أو مطلق- تعتبر تقدُّماً في تاريخ البشريَّة، على الرغم من السلبيَّات التي جلبتها معها أو كل المشاكل التي رافقتها، إلَّا أنَّها تعتبر تطوَّراً بشريًّا ولا يمكن الاستمرار بدونها، فإن لم تكن الدولة موجودة أو الطبقات موجودة، إن لم تكن الحرية أو العبوديَّة موجودة، كانت حياة المرء ستكون حياةً مكرَّرة، مُرهَقة، جافَة، دون أي نتاج، ولم يكُ للتقدُّم ان يحصل، ثمَّة إصرارٌ على هذا الادعاء.

وتوجَّه البعض على أساس هذه الحقيقة نحو نظرياتٍ أخرى، فما الذي قالوه: الدولة شيءٌ إلهيّ، أي أنَّها قانونٌ إلهي، ولا إرادة للبشر فيها، لِمَ؟ لأنّ الإنسان ساديٌّ وعدوٌّ في داخله، أي أنَّه يحمل في داخله مفاهيم العِداء، إنَّه مهاجم، ولأجل ذلك فالمرءُ ذئبُ المرء، لا بدّ من وجود مؤسسة تمنع البشر من التهام بعضهم البعض، ما هي تلك المؤسسة؟ إنَّها الدولة، لذا فإنَّ الدولة تُفهَم على إنَّها نعمةٌ وَهِبة من الله، ثمَّة أشخاص مثل توماس هوبز يمضون في سياق الحديث بشكلٍ أكبر: "الدولة المطلقة هي دواءٌ لآلام البشر، أي أنَ الحكم المُطلق أو الدولة المطلقة هي الدواء لعلل البشريَّة، لأنّه إن لم توجَد سلطة أحاديَّة وقويَّة ومُطلقة فلن تقوم للمجتمع البشري قائمة".

ما كلُّ تلكَ الأشياء؟ هذه كلَّها أسباب الطبقة المُسيطرة، فلأجل أن تعثر على أسبابها في سرمديَّة سلطتها، فإنَها تفرض هذه الادعاءات وتُجبرُ البشر على القبول بها، سوى أنَّ البشر وصلوا في يومنا الرَّاهن إلى درجةِ ألَّا علاقة لهم أو تواصل مع الدولة، فلا شيء غير الضرر يأتيهم من جانب الدولة، لا قواسم مشتركة لهم مع الدولة، يحصلون على الضرر منها وحسب، يكونون لها عبيداً وجنوداً، يدفعون لها الضرائب، وهؤلاء البشر أيضاً في يومنا الرَّاهن هم أنفسهم حماة الدولة ويصفِّقون لها، يحمون الدولة وينظرون إليها

على أنَّها الحريَّة، أي أن الدولتيَّة والحرية يفهمونها على أنَّها تحصيل حاصل، ولا سيَّما بين الشعوب التي بقيت بلا دول، مثل الشعب الكرديّ، هذه حقيقة.

لذا من الضروري التوقف عند الدولة، فهل نفهم الدولة في التاريخ البشري على أنَّها تقدُّمْ؟ أم نفهمها بوصفها خروجاً عن الطريق؟ الادعاء الذي يقول: إن لم تكن الدولة موجودة لم يكن للتقدم أن يحصل في المجتمع البشريّ، هل هذا ادِّعاءٌ صحيح أم زائف؟ هل كان للمرء أن يديرَ أموره بلا دولةٍ أم لا؟ هل كان بمقدوره أن يتقدَّم أم لا؟ لا بدَّ أن يعلّق المرء على هذه الأسئلة، فلكي يصل المرء إلى إيمانٍ حقيقيّ لا بدَّ وأن نعلِّق على هذه الأمور.

١ـ الدولة وتاريخ البشريَّة:

لأجل كل ما سبق، يمنحُنا تاريخ الشرق الأوسط دروساً وعِبَر جديَة في هذا الجانب، قبل كل شيء فإن الإثباتات التي تقول: "إن لمْ توجَد الدولة ما كان للتقدم أن يوجَد، تلكَ إثباتاتٌ خاطئة، لأنَّ البشريَّة لم تتطوَّر عبر الدولة، بل على النقيض، الدولة عملت دائماً على منع التطوَّر وسدَّ الطريق إليه، لأجل ماذا؟ إن تمعَّنا في تاريخ البشريَّة ما قبل الدولة، فالدولة تاريخها يعود إلى ما قبل خمسة آلاف سنة، بأشكالها المختلفة، فيما يعودُ تاريخ البشريَّة إلى أكثر من ذلك بآلاف السنين، هذه البشريَّة التي توصَّلت في وضعٍ صعب إلى مرحلة بناء القرى، الزراعة، تربية المواشي، توصَّلت إلى أن تعبِّر عن نفسها بالكثير من الرموز، ثمَة العديد من الأماكن التي كانت بلا دولة تُثبت ذلك، مثل تل حلف، أو ثقافة تل جوبلكي علاوةً على ثقافات أخرى، إلى درجة أنَّ البشر أصحاب أدب، اقتربوا من تطوير اللغة الرمزيَّة، وكلُّها أمورٌ حصلت بمعزلٍ عن وجود الدولة، فالتطوَّر آنذاك لم يحصل عبر الدولة بل إنَّه في أسِّه موجودٌ قبل الدولة، لأنَّ التطور سمة طبيعانيَّة مرافقة للبشر، وذهن

المرء المتطور هو السبب الرئيسيّ في كل الأزمنة في أن يكون معرفته التاريخيَّة على أساس استخلاص العِبَر والاستنتاج، أي بمقدوره على أساس الاستنتاج أن يرفع مستوى أساليب حياته، أي أنَّه على الدوام ينتقل من مرحلة متطورة إلى أخرى أكثر تطوّراً.

الدولة كانت كمثل قوَّةٍ بنيت على أساس المنتجات الاجتماعية التي جمعها البشر، لذا فإنّ الدولة ليست مؤسسة طبيعيَّة، كما أنَّها لا تعتبر ضرورة، وليس لها أي مساعدة أو عون في الجانب التطوريّ، بل على العكس، إنَّها على النقيض من كل تلك الخصائص، لذا إن لم يتم مناقشة الدولة فلن تغدو هناك ديمقراطية ولن تتأسَّس ولن تقوم الثورة أيضاً، فلكلِّ ثورةٍ تبدأ لا بدَّ عليها وقبل كل شيء أن تناقش الدولة، فثورات الشعوب خلال القرنين السابع والثامن عشر في هولندا وإنكلترا وأمريكا وفرنسا ومن بعدها ألمانيا أيضاً انطلقت من نقاش الدولة، الثورات تلك ناقشت الدولة الإقطاعيَّة والدولة المُطلقة، الحكم المُطلق، وعلى هذا الأساس بنت في داخلها فكرة الدولة الديمقراطيَّة ودولة الشعب، سوى أنَّها لم تكن على أي تواصل مع الشعب، والأسباب كانت في أنَّ هذه الدولة -وعلى الرغم من حملها صفة الانتخاب والأصالة، ومع أنَّ الدماء لم تسِل في السلطة- سوى أنَّها لم ترفض الاستعمار ولم تمحي الملكية الخاصة، فالدولة التي تأسست، الدولة البرجوازيَّة، على الرغم من أنَّها روّجت لنفسها على أنّها دولة الشعب، سوى أنَّها في أُسِّها وجوهرها كانت تحتوي على الاستغلال، حيث أنَّ الملكية الخاصَّة تعتبر فيها قانوناً من قوانين تلك الدولة، هذه الدولة التي تأسسَّت على أساس حماية الملكيَّة، لذا، مهما ادَّعت أنَّها دولة الشعب، ومهما ادَّعت أنَّها ليست دولة الطبقات وليست دولة التسلُّط على المجتمع، فإنَّ هذا كلَّ ُه افتراءٌ وكذب ولا يمكنهم أن يخدعوا البشرَ بتلك الادعاءات، ولا سيَّما أنَّ هذه الدولة التي ادَّعت أنَّها دولةُ الشعب، حين أعلن العمَّال عن ردَّات فعلهم إزاء جهدهم، فإنَّها بشكلٍ ظالمٍ وبقوّتها الأمنيَّة والعسكريَة ارتكبت المجازر، وتشهد الأعوامُ المئة المنصرمة في التاريخ على هذا الأمر.

٢ـ نقاشُ الثورةِ الاشتراكية على الدولة:

ناقشت الثورةَ الاشتراكية الدولةَ كذلكَ الأمر لتصل إزاءها إلى بعض الإثباتات، وآمنت أنَّ الدولة لم تكن موجودة، ولكن بغضّ النظر عن هذا الكلام، فإنَّها فهمت الدولة بوصفها مرحلةً متقدِّمة في تاريخ التطور البشري، وهذا تناقض.

النقطة الثانية: الدولة محكومة باللا وجود، أي ثمة لا وجودٌ أمحاها، أي فعلوا كما فعلت جماعات الآنارشيَّة، أرادوا أو طلبوا، لا، بل قالوا بانطفاء الدولة وتصغيرها إلى أن تنطفئ، لكن كي يتحقَّق ذلك رأوا ضرورة الدولة البروليتاريَّة بشكلٍ مطلق، أي ضرورة دولة الطبقات وليس دولة الشعب، ولأجل ذلك فلتكن الدولة على ما تكون عليه، فحين تمثِّل الدولة الطبقات فإنَّها ستكونُ ضدَّ الديمقراطيَّة، لأن الدولة تأخذ اسمها من ذلك، فالدولة حين تكون لأجل حكم طبقة على أخرى ستكون الدولة البروليتاريَّة على هذه الشاكلة حينذاك.

حين نفهم النظريَات الاجتماعية الخاطئة في الماركسيَّة وكيف قسّمت الشعب بشكلٍ خاطئ فيما بين البروليتاريَّة والرأسماليَّة، وكانت تقترب من الطبقات الاجتماعية وكأنَّها غير مرئيَّة وتُنكرها، حتَّى أنّها كانت تنظر إليها بطريقة سيئة، حينذاك سيبدو الوضع أخطر.

بذلك لن تكون الدولة البروليتاريَّة ضدَّ البرجوازيَّة وحسب وإنَّما ضدَّ كل الأشكال الاجتماعية الأُخرى، لذا فإنَّ الدولة بمنطقها هذا وعلى الرغم من أنَّها كانت في البداية كمثل بِـِـِشَارةٍ للشعوب، إلَّا أنَّها خطوةً إثر أخرى بدت تتجّه نحو شكل الشموليَّة، نحو حماية المركز، الأمر الذي باتَ سبباً رئيسيَّاً في أن تنهار المحاولاتُ الجديَّة للمجتمعات العليا التي بإمكانها أن تحلَّ المشاكل، تلك المحاولات باءَت بالفشل وتمَّ تصفيتها مع انهيار الاتحاد السوفييتي.

نقاشُ الدولة أمرٌ في غاية الأهميَّة، ونحن الآن نعيش حالة ثورة، ولأجل ذلك لا بدَّ أن نناقش الدولة، يعني طالما أننا نعيش مرحلة الثورة، فإننا إن لم نناقش الدولة فلن يكون بمقدورنا القيام بثورة، بهذا الشكل سنصنع الثورة، تلك الثورة ستخون نفسها، كما فعلت كل ثورات تحرُّر القوميَّات في الفيتام، الصين، الجزائر وإلخ، تلك الثورات التي لقّنتنا دروساً واعتبرناها نماذجَ تدرّبنا عليها، خانت نفسها لأنّها لم تناقش الدولة بالشكل الصحيح، أي أنَّ تلك الثورات لأنَّها لم تناقش بالشكل الأنسب السلطة والدولة، المقاربات بين السلطة وحماية الدولة، خانت نفسها، كانوا ضدَّ الديمقراطيَّة، سوى أنَها الآن العثرة الأساسيّة أمام الشعب، وأكثر من تضرّ الشعوب وتمارس عليها القمع.

لذا سنناقش الدولة، نقاش الدولة ليس محلَّاً للفخر، أحياناً بمقدور بعض الرفاق أن يقولوا: لا دولة لنا فلِمَ نناقش الدولة؟! لا توجد لدينا مشاكل في هذا الجانب، تُرى طالما أنَّنا لا نملك أي مشاكل في هذا الجانب، فهل نرى الدولة من ناحية المنطق كضرورةٍ طبيعيَّة؟ هذا الأمر موجود ويسيطر علينا، إنّه يوجَّهنا نحو أمورنا العمليَّة، لذا يعتبر النقاش ضروريَّاً.

الآن حين نناقش الدولة في الشرق الأوسط فإنَّها تعتبر ظالمةً ودوغمائيَّة ومنفردة، حيث أنَّها مؤسَّسة ومبنيَّة على فهم السلطة ومليئة بها، مستحقة، أي أنَّها توفِّر لنفسها الكثير من الاستحقاق بأسبابٍ إلهيَّة، إنها ترى نفسها تستحق كل شيء، وبعيداً عن السلطة والطبقاتيَّة فإنّها قضت على كل الأشكال الاجتماعية.

أكثر من كل مكان، ترى الدولة نفسها في الشرق الأوسط ممثِّلةً للمجتمع وتدّعي ذلك، مثال: دول الغرب ليس بمقدورها أن تدّعي هذا، يريدون فعل ذلك ولكن الشعب لا يقتنع ولا يصدِّق، أما في الشرق الأوسط فإن الدولة تعتبر نفسها إلى درجةٍ كبيرة بديلاً عن المجتمع ويقبلُ الأخير بذلك، فكل انتقاد أو محاولات أو مواقف إزاء الدولة يعتبر إثماً عظيماً، وهذا الإثم لا يمكن تثبيته عبر المحكمة والجيش والشرطة والقانون والإيديولوجيَّة لوحدها

فحسب، ذلك الإثم يتمثَّل على شكل مرضٍ نفسي داخل كل فردٍ في تلك الدول، فحين يعبِّر عن ردَّة فعلٍ ضد الدولة وكأنَّه يرتكب إثماً عظيماً، الفرد نفسه يشعر بذلك، وهذا المرض النفسي انتشر كحركةٍ في نهايات القرن العشرين على مستوى العالم، كما وانتشر ضمن حركةٍ ثوريَّة مثل حزب العمال الكردستانيّ، حيث أن بعض أعضائها لم يتخلّصوا بعد من هذه الحالة النفسيَّة.

مثال: موضوع العفو، طَلَبُ العفو، أوضاع العديد من رفاقنا الذين اعتقلوا ومن ثم خرجوا، باتوا في الخارج ويعيشون، إلَّا أنَّهم يعيشون حياة الشعور بالإثم، لقد وقفتُ ضدَّ الدولة، والدولة حاسبتني وعاقبتني، لقد تعادلنا، والآن أنا جالسٌ في منزلي وليمضي كلٌّ منا في حال سبيله، نرى أنَّهم في هذه الحالة ينهون كفاحهم، ثمَّة أمورٌ أخرى أيضاً، لذا فإنَّ هذه المسألة تعتبر جديَّة، مسألة الفرد المستعبَد وليس مسألة الفرد الحرّ، فالفرد الحرّ يعتبر نفسه ممثَّلاً بالدولة ولا مشكلة لديه، ولكن الفرد المستعبَد حين يقول دولتي، أي أنَّه يحسب الدولة تمثيلاً لحقوقه، هنا مكمُن المشكلة، وثمَة أمرٌ شبيهٌ بين الكرد في وقتنا الرَّاهن، مثال: حين ترى فرداً فقيراً في إقليم كردستان العراق لا يملك كسرة خبزٍ ليأكلها، حين تنتقد السلطة، يَنبري ليقول لك: هذا لا يجوز! لِمَ يقول ذلك؟ لِم يقول دولتنا، عن أي دولة يتحدَّث؟! فمن يديرون دولته تلك يمتلكون حساباتٍ مصرفيَّة في سويسرا، إنكلترا، فرنسا، ويَجلبون لأنفسهم أموالاً من إيطاليا بطرقٍ غير معروفة، يمتلكون طائراتٍ خاصَّة بهم ومعامل خاصَة، فليخافوا هم على دولتهم، لِم تخافُ أنت؟! أنت الذي لا تملك كَسرةَ خبزٍ لتأكلها، لِمَ تخاف أنت على الدولة؟! ما الذي تملكه في هذه الدولة، لكنه يقول: دولتنا، لقد غدونا دولة!

هذا الاتحاد بين الدولة والشعب خروجٌ عن الطريق القَويم ويعتبر خراباً، هذا الأمر موجودٌ بيننا أيضاً، قد لا يكون الأمر ذا تأثيرٍ كبير بين "الكادرو" وبين القوى القياديَّة، ولكن رغم ذلك له تأثيره، لا يمكننا أن نعتبر أنفسنا طبيعيين

كثيراً، إنه يملك تأثيراً، لكننا منذ سنواتٍ عشر نعيش على التدريب، نتناقش، ثمة انتقاداتٌ تُعطى، هذه الأمور كلها تغدو أسباباً رئيسة لكي يَضعُفَ تأثير حماية الدولة أو حماية السلطة رويداً رويداً.

لكن حين نفهم كفاحنا الكليَّ سنرى أن هذه المعضلة لا تزال جديَّةً أمامنا، معضلة فهم الدولة على أنَّها مرادف للحريَّة أو للاستقلال، هذا الأمر يؤلمنا بجديَّةٍ أكبر، لكن في الحقيقة الدولة ضدَّ الاستقلال، الدولة ضد الحريَة، هذا الأمر يمكنُ للمرءِ تثبيته في نماذج الدول العربيَّة أو في الدولة التركية إلخ. بإمكان المرء العثور عليه في نماذج أكثر من دولة، للأسف لا تزال ثمَّة نظرة شبيهة موجودة بين الكرد أيضاً، حيث أنَّهم يعبِّرون عن الدولة وكأنّها تعني الحريَّةً والاستقلال.

٣- الفارق بين دولة الشرق الأوسط ودولة الغرب:

قلتُ قبل قليل، الدولة في الشرق الأوسط ظالمة، عنيفة، مسيطرة كثيراً، ما الذي نريد قوله بهذه الطريقة؟ نودّ فهم ومعرفة الفرق والاختلاف بين دولة الغرب وتلك التي في الشرق الأوسط، الغرب دولتهُ مرنة، لِمَ هي مرنة؟ لأنّ الشروط التي تأسست وفقها كانت مرنة، فيما الدولة في الشرق الأوسط ظالمة لأنَّ الشروط التي تأسست وفقها كانت ظالمة.

فالدول التي تأسَّست في البداية ضمن الغرب تعتبر مدنيَّة لا توجد فيها حكومة مطلقة، توجد بها أرضيَّة للحريَّة، ثمَّة مجالس وأساليب للإدارة، أين يمكن أن يعثر المرء على هكذا دولة؟ في مدينة ليونا، الواقعة على أطراف البحر الأبيض المتوسِّط وبحر إيجة، إزمير الآن، لذا نرى أن حركة الرومانيين تقدَّمت في تلك المدن، حيث ظهر فيها وتطوَّر كُلٌّ من: طاليس، بارمنيدس، فيثاغورث، وغيرهم.

٤- تطوَّر ونهوض الديمقراطيَّة:

في ذلك الزمن وهناك، لا وجود لطمسٍ أو ملكيَةٍ مطلقة أو ديكتاتورية على مستوى أن تبدوَ حجر عثرة أمام الفكر أو حرية الفرد، وحين دخل هذا الأمر إلى أثينا كانت المرة الأولى التي تُدعى أو تعبِّر عن نفسها باسم الديمقراطيَّة، فما هي هذه الديمقراطية؟ اسمها دالٌّ عليها، أي حكم الشعب، ولكن الديمقراطية لا تعني الشعب الذي يحكم نفسه بنفسه، لِمَ؟ تعريف الشعب ناقص وخاطئ، لانَّ الشعب لا يحوي في داخله كل الأفراد ضمن المجتمع، لا عبيد في تلك الديمقراطيَّة، لأنَّ العبيد فيها لا يُحسَبُونَ من البشر، لا وجود للمرأة في تلك الديمقراطية لأنَّها ليست محسوبةً على البشر، إذن فما هي هذه الديمقراطيَّة؟ الديمقراطية أو حكم الشعب، أي شعب؟ مواطنو أثينا الأحرار وليس العبيد، وليست المرأة، الديمقراطية ملك هؤلاء، لكن رغم من ذلك تعتبر هذه الديمقراطيَّة مثيرةً للاهتمام، فكل شخص له الحقّ في الانتخاب، يصوّت، ويخرجون بمجلس لأثينا مكوَّن من ٥٠٠ شخص عبر الانتخابات، ليقوم المجلس باختيار مجلس الإدارة، فما الفائدةُ من ذلك؟ في الغرب لا تعتبر مصادر السلطة والدولة مصادرَ استبداديَّة، فالاستبدادية المطلقة هي التي تحكم دون رقابة، ولكن ثمة مجلس في أثينا، فما هو ذلك المجلس؟ إنَّهُ مجلسٌ يراقب السلطة، لذا فإن القائد أو المدير يعيّن حسب المجلس، ويتحكَّمون به وفقاً لهم، آنذاك، حين يكون هناك في مكانٍ ما رقابة على السلطة السياسيَّة ستكون الدولة مرنة، أي حين يتم مراقبة حركة الشخص الذي يحكم، أسلوبه في القيادة والحكم، كما يلزمه في بعض الأحيان التوجيه، وفي بعض الأحيان المحاسبة، حتى أن هناك أمثلة مثيرة للاهتمام، هذا الأمر كان السبب الرئيسي لنجاحهم وانتصارهم إلى أن بلغوا في حكمهم الهند ومصر، وكأنَهم حكموا العالم كله.

هذا صحيح، لعلهم تمكَّنوا من تحقيق طَفرةٍ وتقدُّمٍ في المجال التقني، الحديد، المِزراق، وإعادة تدبير أمور الأحصنة، لعل هذه الأمور كانت ذا تأثيرٍ أكبر

على انتصاراتهم العسكريَّة، لكن في الأساس المرءُ الذي يشعر بوجوده داخل ذلك النظام المجدَّد كانَ جاهزاً بأفكاره وثقافته لفتح العالم، رأى المرءُ شيئاً جديداً، هذا الأمر كانَ خطوةً متقدِّمة ضدَّ الملكية والفاشيَّة التي بدأت تعيش في الشرق الأوسط بشكلٍ نسبيّ، حتَّى بالإمكان سَوقُ أمثلةٍ مثيرةٍ للاهتمام في هذا المجال.

حاصر الفرسُ أثينا في أعوام الـ ٥٠٠ قبل الميلاد وبدأوا بفتوحاتهم صوبَ الغرب، استولوا على آناتوليا وباتت كل الأماكن تحت حكمهم، ومن ثمَّ وصلوا إلى أثينا واستولوا عليها، اليونانيُّون ما كان بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم، آنذاك يقوم مقاتلٌ شابّ بإظهار خطَّةٍ وإطلاع المجلس عليها ليوافق الأخير، حيثُ ودَّ عبر تلك الخطة وعلى ثلاث مراحل أن يقف ضد الجيش الفارسي لكي ينتصر بهذا الشكل، آنذاك كان المجلس فاقدَ الحلول والأمل، والخطَّة تعتبر منطقيَّة أو تكاد تدنو من المنطق، وعلى هذا الأساس يقبل المجلس بالخطَّة ويوافق عليها، وفعلاً توضَع الخطَّة في سياقها التنفيذيّ، في البداية أظهرت الخطَّة مقاومةً غير متماسكة ضدَّ الفرس، ورويداً رويداً تبدأ مرحلة الهجوم على الجبهات وتظهَر المقاومة، أي في ميدان الحرب، ومن ثم تأتي المرحلة الثالثة حيث يبدأ الهجوم بشكلٍ واسع وبهذا الشكل يقضون على الدائرة وتتخلَّص أثينا من الحصار.

فما العمل الأول الذي يقوم به المجلس بعد الانتصار؟ يُقيلون ذلك القائد، ما السبب؟ السبب: إن لم يتم إقالة ذلك القائد من منصبه فإنه وبالقوة التي يملكها والتي هَزَمت الفرس بمقدوره صُنع قنواتٍ عسكريَّة، ويمكن له أن يفرض نفسه كمستبدٍّ ومسيطر، ولأجل أن يسدَّوا الطريق أمام كُلِّ ذلك أقالوه من منصبه، هذا شكلٌ من أشكال الدفاع عن النفس والحماية، وفي الأساس شكلٌ من أشكال حماية الديمقراطيَّة حسب المفاهيم في تلك الأزمان، ولكن هذه الديمقراطية لم تستمرّ على هذا المنوال، فأحياناً كان يمكن للبعض بقوَّتهم العسكريَّة وقوَّة المحيطين بهم وقوّتهم الماديَّة أن يغدو مطلقين، لكن، ووفقاً

للتقاليد في كل الأزمان فإنه لا وجود لدولة مستبدَّة كما هو الحال في الشرق الأوسط.

٥ـ ديمقراطيَّة روما:

رغم ذلك كان ثمَة ديمقراطيَّة جمهوريَّة في روما، جمهوريَة الأرستقراط، جمهوريَّة الشعب، **مثال**: كيف كانت الجمهوريَّة الأرستقراطيَّة؟ كانت الجمهوريَّة أحياناً تتأسَّس على هذا النحو: ينتخبُ الأشخاصُ الأغنياء نوَّاباً لهم، ليصبح اولئك النوَّاب أعضاءَ في إدارة روما، وأحياناً كان الأمر يبدو متطوِّراً أكثر، هذه المرَّة ليس الأرستقراطيون وحسب إنَّما الشعبُ كلُّه، طبعاً باستثناء العبيد والنساء، كان الشعب كله ينتخب نوَّابه ويغدو رقيباً، بعدها كان الأمر في أوروبا على هذا المنوال، مثال على ذلك: نظام "ماغنا كارتا" أو الميثاق الأعظم، هذا النظام الذي بدأ خلال العام ١٢٥٠ ولا يزال مستمرَّاً في إنكلترا كآليَّةٍ للتحكُّم ومراقبة السلطة، أي أنَّ السلطة ليس بمقدورها الحكم لوحدها بل ثمَّة قوى ومؤسسات تتحكَّم بها وتراقبها.

حين تأسَّست الدولة في الشرق الأوسط بشكلٍ استثنائي أُنشئت مؤسَّسات تتحكَّم بالسلطة وتراقبها، فالسلطة دائماً كانت بلا رقيب، إنَّها مُطلَقة، لِمَ؟ لأنَّ الحضارة الطبقيَّة في الشرق الأوسط جوهرها مؤسَّسٌ بشكلٍ دوغمائيّ، مقولَبٌ ومؤطَّر، أي أنّ تقسيم المجتمع مُفسَّر بحكمة وإرادة إلهيَّة وعلى هذا الأساس تمَّ صنع الميثولوجيا.

مثال، يقال: الله هو من خلق الأرض والسماء والإنسان، وخلق ذلك الإنسان لأجل الخدمة، وأوضح أنَّ الإنسان هو خليفتهُ على الأرض وممثِّلٌ له، لأجل ذلك تأسست إمبراطوريَّات الله، إمبراطوريَّات تشبه الله أو نصف الإله، أي إمبراطوريَّات أخذت موافقتها السلطويَّة من الله ولم يتغيَّر هذا الأمر حتَّى يومنا الرَّاهن، مثال: إن تمعَّنا في شكل السلطة فإنَّها لم تتغيَّر إلى يومنا هذا

في الشرق الأوسط، حيث أنَ الإمبراطوريَّة هي الله ولا تقبل رقابةً عليها من أي مؤسسّة، وإنَّما تسيرُ بشكلٍ مطلق، لكن حين تتعرَّض إلى القليل من الضعف فإنّها تقبل بعض المؤسسات، لكن خطوةً إثر أخرى تُخضع تلك المؤسسات لحكمها ومراقبتها، تُفقِدُها الحركة ومن ثم تقوم بتصفيتها وإمحائها، ولكن إن اقتضت الضرورة فإنَّها تُنشئ مؤسساتٍ فقط لتقبل بقراراتها، مثال: في يومنا الرَّاهن، فإن المجلس في الشرق الأوسط الأكثر ديمقراطية هي تركيا، ما الدور الذي يلعبه المجلس، ينفّذ توصيات لجنة الأمن القومي، وفي سوريا، مصر، العراق، إيران، يكون الأمرُ ذاته أيضاً، أي على أساس توحيد كل السلطات في يد سلطة واحدة ومن ثمَّ إدارة المجتمع.

المجتمع وإزاء كلَّ ذلك لم يستطع صنع تنظيمه الخاصّ به، أي القوة الخاصة التي من الممكن لها أن تصنع التوازن إزاء الدولة ويكون بمقدورها الحفاظ على حقوق المجتمع في مواجهة الدولة، لا شيء من هذا القبيل، ثمَّة مقولة متداولة لدى الأتراك: إن كانت الكومونياليَّة جيدة كانت ستصنع الدولة"، أي أن المجتمع لا حقوق له كي يصنع شيئاً لنفسه، إن كان جيداً كان سيصنع دولةً، فالدولة تفكِّر عوضاً عن البشر وتقول عوضاً عنه أيضاً.

لكن في البلدان العربية لا يقولون هذا، بل يقولون: المجتمع يحتاج إلى منظمة نسائيَّة، فتقوم الدولة بتأسيس منظمة نسائيَّة، يريد المجتمع منظَّمة للعمال فتؤسس الدولة منظَّمة للعمال، نقابات، تعاونيَّات، تنظيمات نسائيَّة، وتكون جميعها على ارتباط مع الدولة، ويقولون هذه هي الديمقراطيَّة بدون إفساح المجال للمجتمع للتعبير عن نفسه.

لذا كانت هناك محاولات إزاء هذا الأمر على إثر تفسير الدولة لنفسها بأسبابٍ إلهيَّة، ولأجل أن نعطي نماذج حقيقية أكثر على ذلك، فلنتحدَّث قليلاً عن أسطورة إبداع بابل.

٦- أسطورة رقيّ وعظمة بابل:

بُنيت بابل على أنقاض الأكاديّين نتيجة التعاون مع القلّة المتبقيّة من السومريين والبابليّين، أي من العِرق الساميّ، حيث اتّحدوا وحاربوا ضدَّ السيّئين لتتأسَّسَ بابل حوالي العام ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بابل دولة كبيرة، أكبر من الدولة الآكاديَّة، وأكبر بكثير من دول السومريّين، حيث احتوت على شعوبٍ من أعراقٍ كثيرة وسيطرت على جغرافيَّةٍ واسعة وسارت وفق سلطةٍ مركزيَّة لم تأتِ مصادفةً، وإنما ثمَّة نظامٌ مبنيٌّ بداخلها، ولا سيَّما إن تم فهم حمورابي كبشريٍّ. دوَّن حمورابي مجموعةَ قوانينٍ وضَّح عبرها العلاقات البشريَّة والطبقات الموجودة داخل بابل ووضَّح آراء تلك الطبقات، أي من هو ذا واجب ومن هو غير ذلك، وضَّح مكانة العبيد، مكانة المرأة، قانون الأحوال المدنيَّة، ثمَّة كل شيء داخل تلك القوانين، انطلاقاً من الزواج، القتل، الطلاق، وانتهاءً بالعديد من النقاط الأخرى التي تمَّ تدوينها، بعد ذلك ينهي قوانينه ويقول: "أنا راضٍ لأنّني قمت بتثبيت القوانين في بلدي، أسَّستُ الاستقرار والحماية، لذا فإنَّ هذه الدولة ستمشي على خُطا صولَجاني" فمن يمدّ يده سوف تتيسَّر أموره تحت حكمه.

لأجل ذلك ماذا يفعل؟ إنَّه يهتم بالميثولوجيا في هذا المجال، أي ما فعلهُ إمبراطور روما بالمسيحيّين فعلهُ حمورابي بميثولوجيا السومريين والآكاديين، فإله السومريين في ميثولوجيتهم هو "إنليل" "إنكي" "آنو" "تياميت" إلخ. هؤلاء، كلُّ واحدٍ منهم يمثّل شيئاً مختلفاً، وكل منهم يمثِّلُ قسماً من المجتمع، حيثُ تمثِّل المشاكل بينهم سلطة أحدهم على الآخر ويمثِّل وضع المجتمع، مجتمعٌ متعدِّد الأشكال، وحتَّى الآن لم تغِب كل أشكاله عن الوجود، السلطة، الدولة، السيطرة، العبوديَّة، الاعتداء على حقوق المرأة، ولكن لم تشتدّ كثيراً، سوى أنَّ إبداع أسطورة بابل يُعتبر شيئاً مختلفاً وفارقاً لأنَّه يُخرِجُ إلهاً جديداً، وهو رجلٌ مُطلق، مسيطرٌ بالمطلق، حيث أنَّ كل الآلهة المتبقيَّة يسيرون وفق نظامٍ محدَّد، أي أنَه يعتبر سلطتهُ مرادفاً لتأمين الاستقرار، لِمَ؟

يقول: لأنّه كانت ثمَة فوضى ولا استقرار بين الآلهة القديمة، لذا لم يكن "آنو" مطمئنَّاً، ولأجل ذلك خرج الآلهة ضدَّه وسلبوا منَه خاصيَّاته وسماته الإلهيَّة، الأمر الذي غدا السبب الرئيسي في أن يكون "تياميت" غير مرتاحاً ويدخل في حربٍ ضدَّ كلِّ الآلهة، حينها تجلس الآلهة جميعاً وينتخبون من بينهم واحداً يدعى "ماردوك" بغية أن يوقِف هجمات "تياميت" ضدَهم.

اصطدمَ "ماردوك" قويَّاً بـ "تياميت" ليحوّله إلى أشلاء، فيتحوَّل جزءٌ منه إلى أرض، فيما الجزء الآخر إلى سماء، ومن ثمَّ بعدها وضع نظاماً، وكلَّف كل إلَهٍ بمهمَّةٍ معيَّنة ليقوم بها، هذه الملحمة تحقَّقت استناداً إلى حركة النجوم، فكما أنَّ كل نجمٍ يدور في فلكه، هكذا هي الملحمة أيضاً.

ثمَّة تجسيدٌ على وجه الأرض لـ "ماردوك" وهو حمورابي، الطبقات الاجتماعية كلٌّ منها ستقوم بواجبها وتسير وفقاً للمخطَّط ولا يجب على أحدٍ أن يتحدَّث في الأمر، الدولة الآشوريَّة كان لها إلهها الذي يدعى "آشور" وهو من يحكم، ومن ثمَّ يحكُمُ الإسلامُ الفرسَ إلى يومنا الرَّاهن، المسيحيَّة، كلُّ شخصٍ في الشرق الأوسط حكَم وكأنَّه ممثِّلٌ لله، يحكم وكأنَّهُ الله، هذا الأمر باتَ عُرفاً للسلطة.

مثال: يقبِل اسكندر فيرى أن العالم يسجدون له، بعد أن وضع بلاد الفرس وأماكن أخرى تحت سيطرته، فيقول ما هذا؟ يقولون له: لأنَّك الملك، إسكندر متسلِّط، مُستعمِر، أقبل من بلادٍ بعيدةٍ ليحكم بلاد الناس، ولكن لأنَّه هوَ الملك وهو الدولة فإن الناس تسجد له ولا يمكنهمُ الخروج ضدَّه، في البداية يبقى متعجّباً، لكنه رويداً رويداً يقبَل الأمر، لأنّ هذه عادة وعرف السلطة، أو أنَّ الاستبداد هو الأساس. السلطة المطلقة التي لا تملك أيَّ رقيب، سلطة إلهيَّة وتسير على هذا المنوال حتَّى يومنا الرَّاهن، ولكن في المقابل وإلى جانب ذلك كانت السلطة تمارسُ أنشطةً ديمقراطية كومينياليَّة اجتماعيَّة متطوِّرة، وهذه الأنشطة مستمرة، بيد أنَّه وللأسف لم يكن لتلك المحاولات على مدى التاريخ فرصُ النجاح والانتصار، لكن في يومنا الرَّاهن وعلى إثر التطوّر العلمي

والتكنولوجي ومع ظهور الديناميكيَّة المجتمعيَّة الجديدة باتت فرصهم وحظوظهم في الانتصار أكبر.

٧ـ طبيعة العنف في الشرق الأوسط:

العنف هو المسيطر في دول الشرق الأوسط، حيث أنَّ تلك الدول قضت على كل المحاولات التي ظهرت ضدَّها عبر العنف وقامت بتصفيتها، بإمكان المرء أن يصادف الكثير من هذه الطرق عبر التاريخ، ولا سيَّما مقاربات الآكاديين، وخاصَّة في عصر "نارنسين" الذي ارتكب القتل ضدَّ البلاد العليا أو بلاد "إيلام" وصنع قلاعاً من رؤوس المقتولين، هكذا كان يُفصِح عن نفسه ويعلن عنها. من الممكن مرَّةً أُخرى أن نتذكَّر ملوك الآشوريين وكيف كانوا يطلقون على أنفسهم الألقاب: "ذهبنا إلى البلد الفلاني، قتلنا فتيانهم، قطعنا رؤوسهم وصنعنا منها قلاعاً غطّيناها بجلود أجسامهم، اقتلعنا عينا رئيسهم وهو على قيد الحياة، قطعنا أنوفهم، والبقية جلبناهم معنا ليغدو عبيداً لنا، أخرجنا أمواتهم من قبورهم ورميناهم"، كل تلك الأشياء كانت مدوَّنَةً ومحفوظة إلى يومنا الرَّاهن، وهذه الطبيعة مستمرَّة حتَّى يومنا الذي نعيشه، هذه الطبيعة مستمرَّة في أشكال الإبادة والتصفية في تركيا، إيران، العراق، وسوريا، حيثُ قتلوا الناس بأسلحةٍ محرَّمة ومارسوا الكثير من العنف، من أين يتأتَّى ذلك؟ من سمات الدولة الإلهيَّة. في الشرق الأوسط حين نقول السمات الإلهيَّة هذا لا يعني أننّا نقبل بها، كي لا يحصل هنا سوء فهم، البعض يقولون: الدولة إلهية، أي لكي تقوم تلك الدولة بإحقاق التنظيم بين البشر، فالبشر لا يمكنهم فعل ذلك بمفردهم، ولأجل ذلك ارتأى الله أنَّه من الملائم أن توجد الدولة، هذا التفسير كذب، ولكن دولة الشرق الأوسط دائماً تستمدّ أسباب سلطتها من الله، أي أن الملك هو إله، ومن ثمَّ ملك الخَدم هو إله، ومن ثم النبي إله، ومن بعدها الخليفة هو الله، هؤلاء كلُّهم آلهة، لذا فإن كل ردَّة فعل إزاءهم يفهمونها على أنَّها ردَّة فعل ضدَّ الله، بهذا الشكل يوفِّرون السبب

والأسباب لممارسة الطمس، أو في النتيجة ما نفعله هو لأجل الله ولأجل حماية الحكم الإلهي، العدالة هي الدولة، القانون هو الدولة، الأساس هي الدولة، لذا من يخرج ضدَّ الدولة سيُحاسَب أشدَّ حسابٍ آنذاك لأنّه آثِمْ، وهذا الأمر كله يمارسونه كبروباغاندا وترويج، لكي يغدو الأمرُ عبرةً للجيل القادم لئلَّا يجرّب أحدٌ أن يقف ضدَّ الدولة أو يقاوم ضدَّها، شكل التشهير هذا، التشهير بدون حق، وبالتخوين والتفكير وبكل أشكال العنصريَّة ظهرت أمام الحركات التي وقفت ضدَّ الدولة، الأمر الذي فسح المجال أكثر أمام سيطرة الإبادات الجماعيَّة، وباتت عبرةً للشعوب لئلَّا ترفع رؤوسها مرَّة أخرى وأن يرضوا بما كُتِبَ لهم وبحالتهم، أن يقبلوا الظلم وكأنَّه قانونٌ إلهي وبمثابة حلٍّ بالنسبة إليهم.

لا ريب أنَّ الدولةَ في الشرق الأوسط خلال يومنا الرَّاهن باتت استبداديَّة بشكلٍ أكبر مِمَّا كانت عليه في الماضي، لا سيَّما إن نظرنا إلى المعارضة وإلى أي مستوى وصلت وكيف أنَّها بدت صامتة بلا حراك أو إرادة وقوَّة، فإنَّنا سنستنتج الحقيقة، هل لأنَّ الدولة عادلة، هل يوجد فيها العدالة الاجتماعية وثمَّة مساواة ولا توجد معارضة؟ لا، ولكن لأنّ المعارضون تم تصفيتهم على مرِّ السنوات، تعرّضوا للتعذيب، القتل، السجن، إلى درجةٍ يستسلم فيها المعارضون، لا توجد معارضة في تركيا وسوريا وإيران والعراق، ولكن تحت الأرض ثمَّة مقابر جماعيَّة، من هؤلاء؟ لقد ارتكبت تلك الدول دائماً إباداتٍ جماعيَّة لئلّا يجرّب أحدٌ مرَّة أخرى أن يرفَع رأسه.

٨- ملامح مقاومة الشعوب ضدَّ الدولة:

في عادات المقاومة ضدَّ الدولة بشكلٍ خاصَّ بإمكان المرء أن يفهم بعض النماذج في الشرق الأوسط، وهي نماذج تعتبر مثيرةً للاهتمام. كثيراً ما نتحدَّث عن "سبارتاكوس" الذي خرج ضدَّ روما قبل ٢٠٠٠ سنة من الآن،

قام بتنظيم العبيد ولكنه لم ينتصر، اعتُقلوا جميعهم، من قُتِل قُتِل، ومن أعتُقِل قُتل تحت التعذيب، ولكن هذه الانتفاضة بتنا نعرفها على إنَّها انتفاضة العبيد، من الممكن أن نرى هذه الأمور في الأفلام، هذه الأمور كلَّها موجودة، حتَّى أن حركة "سبارتاكوس" كانت نشِطةً في الغرب، مثال: الحزب الشيوعي الأول بعد الحرب العالمية الأولى في أوروبا، في الغرب وتحديداً في ألمانيا كان حزب "روزا لوكسمبورغ" كان اسم الحزب: "الحزب السبارتاكي"، أي أن الحزب أطلق على نفسه اسم "سبارتاكوس"، حيث رغبوا بهذا الشكل تنشيط تلك الانتفاضة، وفي الوقت ذلك ظهرت حركات مقاومة حاولت أن تقف ضدَّ الدولة باسم العبيد أو باسم القروييّن في ألمانيا وأماكن أخرى ضد السلطة، الأحزاب الشيوعيَّة اليساريّة، كتَّاب الحركات، كان بإمكانهم تنشيط تلك المحاولات، ولكن للأسف لا شيء من هذا القبيل في الشرق الأوسط، على الرغم من أنَّ ثمَّة نماذج عن المقاومات التي خرجت وتعتبر ذا أهميَّة ومُلفتة للانتباه أكثر من "سبارتاكوس" واستغرقت أمَداً أطولَ، وحتَّى يومنا الرَّاهن تحافظ بعض من هذه الطبيعة على نفسها وتحميها، المواظبة على المقاومة ضدَّ الدولة، ولكن ليس بمقدورنا أن نتحدَّث عنها أو نستحضرها كثيراً، حتَّى أننا نخاف في بعض الأماكن أن نتعرَّف إليها، ما هو السبب؟ لأنّها تعرَّضت للتشهير من جانب النظام الرسمي، لذا حين تتعرَّف إليها ستتعرَّض للتشهير أيضاً، ثمَّة من يقفُ ضدَّ المقاومة، ووقفت المقاومة نفسها وجهاً لوجه في محاولات قلبها رأساً على عقب، وهذه المرَّة عبر الباحثين التاريخيين المسلمين الذين يعرفهم الناس على أنَّهم مُحدِّثون، من جانب الشيوخ، الملالي، الطرق الدينية، ومن جانب الناس ذوي الصيت، المحكومون من قبل الإيديولوجيا الرسميَّة، لذا من يودّ أن يتعقّب قِدَمَ المقاومة في يومنا الرَّاهن لا يستطيع إبقاءها على قيد الحياة أو على الأقل تجديدها، وهذا خطأٌ كبير، لذا لا بدَّ أن يتوقَّف المرء عند هذا الأمر ويبحث جيداً في يوميات المقاومة ضدَّ الدولة في الشرق الأوسط.

٩ـ تحديث الكفاح ضدَّ الدولة في الشرق الأوسط:

ظهرت هذه الأنواع من الحركات في العصر العباسي وفي عهد الأمويين كذلك الأمر، العباسيون استفادوا منها وباتوا هُم السلطة، ولكن هذه المرة خرجوا ضد العباسيين، حركة القرامطة، الزنوج، البابكيين، الخراسانيين، هذه كلها حركات مقاومة أُنشئت على أساس العدالة الاجتماعية وخرجت ضدَّ الظلم والاستبداد وأسِّست لتحقيق المساواة، وآنذاك كانت ثمة مقاومة ضدّ تلك الحركات، فالنصوص الشعريَّة التي كُتِبَت ضدهم، التعليقات التي دوَّنت حولهم في التاريخ الرسمي تُعتبر خروجاً عن الطريق أو صنعاً للتغيير.

حين بدأت الحركة الشيوعيَّة في الشرق الأوسط وبغية تحريض الإمبريالية، ظهرت الحركة الدينيَّة وبدأت بتفسيراتها حول الشيوعيّة على أنَّها خروجٌ عن المألوف وعلى أنَّها سيّئة، فكيف أنَّهم يجعلون كل شيءٍ مَشاعاً فإنّهم يجعلون النساء أيضاً مَشاعاً، أو أنَّهم لا يملكون أخلاقاً أو شرفاً، بتلك الطريقة كانوا يروّجون ضدَّ الشيوعيَّة، لذا يقول ماركس وأنجلس في بيان إعلان تأسيس الحزب الشيوعي -ثمَّة بيان تأسيسيّ للحزب الشيوعي، كتابٌ صغير جدّاً دُوّنَ خلال العام ١٨٤٧ - يقولان: البرجوازية تقول عنَّا نحن الشيوعيّين بأننا "سنجعل النساء أيضاً مشاعاً"، هذا الأمر صحيح ولكنهم يفسِّرون الأمر وفق ما يروق لهم، لِمَ؟ لأنّهم يرونَ النساء مُلكاً لهم، ونحن نودُّ أن نجعل الملكيَّة الخاصَّة مَشاعاً، نجعلها مُلكاً للشعب، لأجل ذلك يقولون: "سيجعلون النساء مشاعاً" لأنّهم يفكّرون وفقاً لمنطقهم ويحسبون النساءَ مُلكاً لهم ويفهمون الأمر على هذا النحو، ولكن في الحقيقة إنَّنا: "لا نرى النساء ملكاً لنا"، فحين تزول الخلافات الطبقيَّة، حين يزول الفقر، آنذاك ستزول الأسباب التي تدفع بالمرأة إلى المتاجرة بجسدها وتتحرَّر" بهذا الشكل ردَّت الشيوعيَّة.

في الشرق الأوسط توجَد هذه المقاربة منذ مئات السنين، منذ العام ١٩٢٠ وحتَّى الآن، بعد أن دخلت الأفكار الشيوعيَّة إلى المنطقة، بدأت تلك البروباغاندا تروَّج ضدَّهم، ولكن، تلك البروباغاندا نفسها تمَّ استخدامها منذ

آلاف السنين ضدَّ تلك الحركات الاجتماعية، ضدَ القرامطة، الزنوج، البابكيين، الخراسانيين، وضد العلويين، وهي مستمرَّة حتَّى يومنا الرَّاهن، سوى أنَّ ما يقولونه أو يدَّعونه لا ارتباط له بالحقيقة، إنَّما على النقيض، فقط لأجل التشهير أو لأجل توفير أسبابٍ للمذابح والإبادات.

١٠ـ تقدُّم حركة القرامطة:

الحركات العلميَّة التي تحدَّثنا عنها سابقاً، لا سيَّما تلك التي في العهد العباسي كانت تعتبر تقدُّماً، ومن بين هذه الحركات لا بدَّ أن يفهم المرءُ حركة القرامطة، ما هي هذه الحركة؟ ظهرت ٨٦٠ـ٨٧٠ هجري، أي في القرن التاسع ما قبل الميلاد، القائد الأوَّل لتلك الحركة يُدعى "حمدان الأشعث"، نعتوه بـ "قُرمط"، وقُرمط مفردة عربيَّة تعني: "قِصر القامة"، وعُرفت هذه الحركة باسم القرامطة، خرجت هذه الحركة ضدَّ أمرين، أحدهما: زيادة تقسيم الدولة وتجزئتها وانهيار النظام السياسيّ خطوةً إثر أخرى في الإمبراطوريَّة العبَّاسيَّة، والثاني وهو الأهمّ: لأجل تحقق العدالة الاجتماعية، أي أنَّ انعدام العدالة الاجتماعية في النظام السياسي كان السبب الرئيسيّ لأن يخرج هؤلاء ضدَّ العباسيين. إنَّها حركة شيوعيَّة تقدَّمت على أساس المساواة وحاربت الإمبراطوريَّة العبَّاسيَّة وحكمت في أكثر من مكانٍ، كانت نشطةٍ في البحرين التي تشهد حرباً الآن، ومن ثم توزَّعت في كامل أنحاء الخليج: عمان، البحرين، الإمارات، لذا لم يكن هذا الاسم موجوداً ذي قبل، ولكنه انتشر في كل الأماكن السالفة الذكر، محت الإمبراطوريَّة العباسيَّة عن الوجود، فعلت كل ذلك عبر القتال، سوى أنَّ حربهم مُلفتة للانتباه، مثال: بعض المعارك التي جرت بين القرامطة والعباسيين كان عدد القرامطة فيها حوالي ألفا شخص فيما يبلغ عدد المقاتلين العباسيين ثمانون ألف، أي ثمانون ألف مقاتل في مواجهة ألفي مقاتل، ولكن على الرغم من ذلك انكسر العبَّاسيُّون، وذاع صيتهم بهذا الشكل، ففي تلك الأزمان كان ثمَّة إيمان، كانوا

مؤمنين بنظامهم الاجتماعي، وفي تلك الأوقات ومع هذا الخروج عن الطريق القويم وتحوُّل السلطة العباسيَّة إلى أنقاض لم تكن بمقدورها إجبار الناس على القتال، لأجل ذلك هُزم ثمانون ألف مقابل ألفي مقاتل. كانوا مسيطرين على الخليج ومنعوا كلَّ الأشياء المشلولة، ولم يكونوا ليفعلوا أشياء بلا داعٍ أو معنى، مثال: لم يكونوا ليذهبوا إلى الحجّ، حتَّى أنَّهم لم يودَّوا أن يذهب أحدٌ إلى الحجّ، محوا كل تلك الأشياء الرمزيَّة، مثال: في فترةٍ ما انتزعوا الحجر الأسود، أخذوه وأخفوه، كان يعتبر بالنسبة إليهم أمراً خالياً من المنطق، ومن ثم بعدهم ادَّعى الحلاج منصور هذا الأمر والذي كان يقول: "عوض أن يذهب أحدهم إلى الحجّ فليتولَّى تربية اليتامى، وهذا أفضل"، إلى أن تم الحكم عليه بالموت على إثر ذلك، قالوا له: لِمَ قلت ذلك؟ -لأن الحج بالنسبة إلى المسلمين ركنٌ أساسيّ ويعتبر قاعدة ولا بدَّ لأي أحدٍ مُقتدر أن يذهب إليه- سوى أنَّ الحلاج منصور قال: "لا، من بمقدوره الذهاب إلى الحج ليس عليه أن يفعل ذلك، بل عوضاً عن أن يذهب إلى الحج عليه أن ينظر حوله إلى الفقراء ويشبعهم، هذا أفضل".

القرامطة خرجوا ضدّ الحجّ، أي أنَّهم في ذلك الوقت أعادوا تفسير الإسلام وشرحه وخرجوا ضدَّ النظام الاجتماعي، أعادوا شرح الدين، انتقدوا وبنوا عوضاً عن ذلك نظاماً إيجابيَّاً، في الخليج وبشكلٍ خاصّ في البحرين ومن ثمَّ في عمان ومن بعدها في بلاد الشام، ليس فقط الشام، لا، وإنَّما بلاد الشام التي كانت تحوي ضمنها كل سوريا وقسماً من العراق، حكموا في تلك الجغرافيَّة ما يقارب الثلاثين عاماً، سوى أنَّ التفرقة التي حصلت بينهم ولا سيما في ظل الهجمات المتتالية بمساعدة الأتراك، وهجمات العباسيين الشديدة ضدَّهم تمَّت تصفيتهم، سوى أنَّ آثار ذلك النظام الاجتماعي لا تزال موجودة في بعض الأماكن مثل عمان والبحرين وفي أماكن كثيرة أيضاً، ولكن في التاريخ الرسمي تمّ الإخبار عنهم بشكلٍ سيء، إلى درجةِ أنَّ أكثر من ساهم في التشهير بهم لا يستطيع الادعاء أنَّها لم تكن حركة مساواة، يقولون: "إنَّها حركة بُنيت على أساس المساواة" لكن يشهّرون بهم هكذا: "كانوا يتشاركون

فيما بينهم كلّ الاشياء"، هذه المرَّة تحدَّثوا عن الأخلاق، حيث قالوا عنهم: "كان ثمَّة اتصالٌ ما بين الفتيات والآباء، بين الولد والأم" وهي أمورٌ بعيدةٌ عن الحقيقة، لكن على الرغم من ذلك فقد أعادوا تفسير الإسلام، حيث أنَهم كانوا يعلنون عن الأشياء التي لا يعتقدون بها في الإسلام وهي الأساس، ولكن عوضاً عنها كانوا يثبتون قوَّة أخلاقيَّة وثقافية مبنيَّة على أساس العدالة الاجتماعية ويقبلون بها، لم يكونوا على النقيض من الله والنبيّ، يقبلون الدين الإسلاميّ، يُقيمون الصلاة ويصومون، سوى أنَّهم لم يكونوا يؤمنون ببعض الأشياء الأخرى، مثل النظام الرسميّ.

١١ـ تَقدُّم حركة الزنج:

هي حركة ملفتة للانتباه في أساسها وبمقدور المرء وصفها بالحركة الطبقيَّة، تأسست ما بين الأعوام ٨٦٩-٨٨٣م، أين تأسست هذه الحركة؟ تأسست في البصرة، في أنحاء البصرة، بقيادة شخص يدعى "علي بن محمَّد" وهو من أصولٍ فارسيَّة وليس عربيَّاً، ولكن لأنَّ الدولة كانت إسلاميَّة آنذاك فإنَه لا ضيرَ في أن يكون ثمَّة فارسيّ يعيش في دولةٍ عربيَّة، أو أن يعيشَ عربي في أي بلادٍ أخرى، استمرَّ هذا الأمر لفترةٍ طويلة.

رجلٌ أديب ومُلمٌّ بالشعر والخَطابة، تتبَّع عن كَثبٍ السلطة وبقي طويلاً في سرايا العباسيين، راقب عن كثبٍ أيضاً السلطة السياسيَّة، ومن ثم بعد ذلك افترق عنهم واختلف معهم وخرج ضدَّ الممارسات على العبيد. كان ثمَّة عبيد، وأغلبهم عبيدٌ سود، أي من كانوا سوداً بلون بشرتهم، ولأجل ذلك سمّيت هذه الانتفاضة باسم الزنوج، ولكن لم يكونوا جميعاً زنوجاً، بل كان بينهم عربٌ وفرسٌ وآخرون، لم يكونوا فقط زنوجاً، أي لم يكونوا فقط عبيداً، كانت الحركة تضمَّ بينها قروبين أيضاً.

يُقال: في انتفاضة تونس أضرمَ شابٌّ النَّارَ في بَدنه، لتبدأ الثورة على إثر ذلك، هذا يعني من أين بدأت؟ أين ظهرت نقطة الانكسار؟ ثمة مستنقعاتٌ في البصرة، حيث يلتقي نهرا دجلة والفرات ليشكّلا مستنقعاً كبيراً، قام العبيد بتجفيف تلك المستنقعات وتحويلها إلى أراضٍ صالحة للزراعة، هذا الأمر كلَّه كان بفضل كَدّ العبيد، كان ثمَّة ظلمٌ كبيرٌ يمارَس، وفي الحقيقة كان عملاً شاقّاً إلى درجةٍ كبيرة، حينها ظهر ذلك الشخص الذي يُدعى "علي بن محمد" ذو الأصول الفارسيَّة ليرفض هذا الظلم المُمارَس ضدَّ العبيد، أي الإسلام والعبوديَّة؟! لا يجوز كل هذا الظلم، ظهر لأجل ذلك واجتمع حوله العبيد ومن ثمَّ انضمَّ القرويّون إليهم أيضاً ليبنوا مدينةً بالقرب من البصرة، ومن ثمَّ قاوموا ضدَّ الإمبراطوريَة العبَّاسيَّة، الأخيرة التي حاولت كثيراً وأرسلت جيشها إليهم بغية تصفيتهم، سوى أنَّهم قاوموا ودافعوا عن أنفسهم بعددٍ قليل أمام أعدادٍ هائلة وبجسارةٍ لا مثيل لها، كل ذلك وفقاً لتكتيكاتٍ عسكريَّة كانت مثاراً للانتباه في ذلك الوقت ليهزموا الجيش العباسي في كل هجوم، كبروا رويداً رويداً ومن ثمَّ بنوا دولةً، لم تكن دولةً قياساً إلى الدولة العباسية، ولكنّهم أنشأوا دولة، سوى أنَّها كانت دولةً اتحاديَّة وتتخّذ من المساواة أساساً، دولة تنعدم فيها العبودية والظلم، كان الجميع يعمل لأجل نفسه، لذا إن انتبهنا إلى أن توفّر الديمقراطية في مكانٍ ما يجعل المساواة متوفَّرة كذلك الأمر، يجعل الشجاعة متوفرة أيضاً وبالتالي الانتصار، وقفوا بعددهم القليل وجهاً لوجه مع الأعداد الهائلة للعباسيين وهزموهم في المعارك، قُتل الكثير من قادة العباسيين العسكريين في تلك المعارك، أي قادة الجيوش المُرسَلون من قبل الخليفة. توسَّعوا في أنحاء البصرة، منطقة العراق، لذا بدأت الدولة العباسيَّة تَضعف وتتضاءَل، ما الذي فعلته الإمبراطورية العباسية لأجل هذه الحركة بهدف إمحائها عن الوجود؟ ارتكبت الخيانة، كيف ذلك؟ مثال: كانت مصرُ آنذاك غير مرتبطة بالإمبراطوريَة وأسست لنفسها خلافةً خاصَّة بها، خلافتهم كانت مختلفة، حيث كانت للفاطميين وليست على ارتباطٍ بالخلافة العباسية، كانوا يحكمون الشام ومصر، ذهب الخلفاء العباسيون لإبلاغ قادة الدولة الفاطميَّة المرتبطة بالخلفاء المصريين: "تعالوا لمساعدتنا كي نمحي هؤلاء

الزنوج ولتحموا هذا المكان"، قَبِل الفاطميون ونفّذوا هجومهم لتنهار حركة الزنوج على إثر الهجمات الشديدة، قُتل ما يربو عن ٢٥٠ ألف شخصٍ في تلك المعارك.

حكمت حركة الزنوج حوالي ثلاثة عشر عاماً، وكان حكمها قائماً على الاتحاديَّة والمساواة. بالطبع ظهرت بعد ذلك حركات أخرى في أذربيجان، خراسان، أبو مسلم الخراساني، البابكيَّون، هذه الحركات قاومت ضدَّ الدولة المركزيَّة على أساس تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية، ولكنَّها هُزِمَت لتبقى آثارها مستمرَّة إلى عهد الإمبراطوريَّة العثمانيّة، لقد تطوَّرت حركات المقاومة تلك رويداً رويداً وبأشكالٍ مختلفة، سوى أنَّها لم تنتصر بشكلٍ عام، وسبب هزيمتها يعودُ إلى سمات وخصائص الدول، تلك السمات التي لعبت دوراً بارزاً في الهزيمة، فالدولة كانت ترى نفسها مقدَّسة وتحكم بالشرع، تجعل كتاب الله وأحاديث محمَّد بالنسبة لها مصدراً لكل شيء، وفي مجتمع إسلامي وبقوّتها في التشهير، ولا سيما على الصعيد الأخلاقيّ، وقفت ضدَّ تلك الحركات، وفي أكثر الأحايين هزموا تلك الحركات عبر تجييش القوى العسكريَّة، وأحياناً أخرى عبر الفتن والحِيَل، خنقوها في بِرَك الدم وأدخلوها إلى التاريخ بشكلٍ سيء، ومع دخول تلك الحركات إلى التاريخ بهذا الشكل السيء أسهم الأمر في التأثير على المجتمع بشكلٍ كبير، حيث ساهم في إضعاف روح المقاومة ضمن المنطقة بشكلٍ سلبيّ وتقديس واستمرار الدولة بشكلٍ إيجابيّ.

١٢ـ انتحار الحركات في الشرق الأوسط عبر ذهنيّة الدولة:

لأجل ذلك ثمة حركات تتقدَّم في المنطقة، ولكن هذه الحركة الاجتماعية إن عملت لأجل السلطة فإنَّها لن تمتلك لحظاتها في الانتصار، والآن تودّ الإمبرياليَّة وحُماة الثبات والسكون توجيه تلك الحركات الاجتماعية نحو

السلطة، أي أنَّ الأمر شبيهٌ بمراضاة تلك الحركات الاجتماعية عبر إشراكها في السلطة، مثال وهذا هو الدليل لأجلكم أيضاً، أي أن الديمقراطيَّة ومطالبات الديمقراطية على اعتبارها مطلباً اجتماعيَاً يعتبر حاجةً ضروريَّة، وكأنّهم يودّون الإعلان عن حربٍ مشتركة بهذا الشكل، ولا سيَّما قادة الحركات الاجتماعية حين يحصلون على حصَّةٍ من السلطة ويتمّ مراضاتهم، تغدو الثورة في الشرق الأوسط كرَّةً أخرى ضدَّهم. لأجل ذلك لا بدَّ أن نناقش الدولة ولأجل ذلك يعتبر نقاش الدولة أمراً ضروريَّاً، فإن لم تُناقش الدولة بشكلٍ جيد، فإنَّ الحيل والمؤامرات التي تقوم بها الإمبرياليَّة وحماة الثبات بغية تصفية تلك الحركات الاجتماعية ستنجح، لأجل ذلك لا بدَّ أن نتعرَّف إلى الدولة جيداً، وهل الغاية من ذلك أن تستقرّ تلك الحركات الاجتماعية ضمن الدولة وتحصل على حصتها؟ لا، بل لأجل أن تستطيع توفير أرضيَّة لتنظيمٍ اجتماعيّ، أي أن تدير مجتمعها بنفسها، المجتمع القائم على أساس العدالة والمساواة، أن يدير مجتمعها على أساس مصالحها.

في الشرق الأوسط، يُعتبر المجتمع وجميع شرائحه: الشباب، الأطفال، النساء، جماعات العمَّال، وسائلَ لدى الدولة بغية الحصول على ما تريد وتحقيق أهدافها، مثال: الأطفال، النساء، الشباب، كيف يتمّ تربيتهم، هذه آليَة أساسيَّة لتربية كل الشرائح المجتمعيَّة على أساس حماية النظام وحماية مصالح الدولة، أن يكونوا فقط أدواتٍ لتحقيق أهداف الدولة، إذن ما هي الأمور الأساسيَّة التي لا بدَّ أن نفهمها في الحركة الاجتماعية ضمن الشرق الأوسط؟ خطأ هذا الأمر، سوء طريقة التفكير هذه، ولكن عوضاً عن ذلك وخطوةً إثر أخرى نحو أن يتم استخدام تلك الحركات الاجتماعية في سبيل تحقيق أهداف الدولة، لا، وإنَّما المجتمع كجوهر، أي لا بدَّ أن تتمَّ التربية في إطار مصالحهم، ولأجل ذلك فإن الحركة الاجتماعية المبنية على أساس المحاصصة، أو الحصول على حصَّة من الدولة، إن تقدَّمت فإنَّها تخون ذاتها، تخون منهجها، الحركة والثورة في الشرق الأوسط كانتا على الدوام تخونان نفسيهما على ذلك المنوال وقتلتا نفسيهما، بِمَ فعلت ذلك؟ عبر الدولة،

لذا تكرَّرت تراجيديا الشهداء الذين سقطوا والحرب التي قامت ضد الإمبرياليَّة مرَّةً أخرى وبشكلٍ أشدّ.

لكن لنُمعن النظر في إننا نتحدَّث أكثر الأحيان عن سياسة الديمقراطية، ولكن مقارباتنا تدنو من حماة السلطة وليست سياسة الديمقراطيَّة، الدنوّ من حماة السلطة لا يعطي الاعتقاد بأنَّ هذه الثورة لن تخون ذاتها، لكن السياسة الديمقراطية هي يقين أن الثورة لن تخون ذاتها، السياسة الديمقراطيَّة ليست سياسة الدولة وإنَّما سياسة توفير قوَّة إدارة المجتمع، ولأجل ذلك لا بدَّ أن نطوِّر كفاحاً قويَّاً ضد الثقافة السلطويَّة، بلا أي تردِّد لا بدَّ أن نطوِر هذا الأمر وبدون أي شعورٍ بالخجل.

لا شكَّ، حتَّى يومنا هذا فإن تنظيمنا أيضاً خجولٌ في مجال انتقاد الدولة، مترددِّ، لِمَ؟ لأنَّ ثمَّة اعتقادٌ شائع داخل المجتمع الكردي بأنَّ الدولة الكرديَّة هي حريَّة كردستان، الدولة الكرديَّة هي استقلال كردستان، نحن نقول النقيض من ذلك، فالدولة لا يمكن لها أبداً أن تجلب معها الحريَّة والاستقلال، لكن على النقيض تماماً من ذلك، الدولة تجلب معها العبوديَّة، فاللا دولة إن كانت قد مارست ضرراً على الكرد وفتحت الباب أمام الانصهار، فإنَّنا اليوم كاستفادة نتوجَّه بدون أي عقبات نحو بناء نظامٍ اجتماعيّ ديمقراطي، نستطيع أن نتحرَّك كمستفيدين.

في أغلب الأماكن لا تزال دبلوماسيّتنا محصورة في مرحلة الدولة، المرء يقول له: يا رفيق لِم تصرخ هكذا؟ يقول لك: إن لم أصرخ هكذا فإنَّ العالم لن يسمعني" لكن ليس لأنَّ العالم لا يصغي له، ولكن لأنَّه بنفسه لا يريد أن يُصغي إلى ذاته، أي أنَّه لم يوضّح موقفه بعد. أو في أماكن مختلفة كما يحصل، سوى أنَّه يصغي إلى حقيقةٍ واعتقاد، مثال وبكلامٍ بقليل من الأخلاق، يأتي بعض الرفاق ويقولون: "الحقيقة أن الأمر لم يكن في متناول أيدينا لذا لا نريده" أو لا أعرف يتحدَّثون عن الأمر بكلامٍ غريب، أو أن الذئب لم يصل فمه إلى لا أعرف ماذا فقال لتكن صدقةً لروح أبي!! أي أنَّهُ كلام غير

ممنهج، ولكن الحقيقة هي أنَّ الهجمات ازدادت ضدَّنا بعد دخولنا النموذج الجديد، ففي الماضي كانت ساحة نضالنا في العالم ذا اتّساعٍ أكبر، وكانت كذلك في الشرق الأوسط أيضاً، ثمَّة دولٌ كثيرة فتحت الطرق أمامنا، وكانت أوروبا لا تنظر إلينا كإرهابيين، لم تكن المسألة في ذلك الوقت عدم مقدرة أو دفع تنازلات، المسألة أنَّ المنهج، المعنويات، العلم، التحفيز، تعتبر أموراً ضروريَّة، ولكن حين نقترب أساساً بشكلٍ خجول وبريبة فكيف سنعمل على تحفيز الشعب وتنشيطه، هذه كلها عقبات ومشاكل لا بدَّ أن نتجاوزها، وفي هذا الإطار لا بدَّ أن يتم شرح الدولة بشكلٍ جيّد، وأن يتم انتقادها بشكلٍ جيد أيضاً، لكن في السياق نفسه لا يجب على المرء أن يغض النظر، فثمة بعض الأمور في يومنا الراهن لا يمكننا تصوّرها، مع أنَّ الخيال موجود، لا يمكننا القول أنَّ الدولة غير موجودة، أو أن نقترب وكأنَّها غير موجودة، أو أن نتجاوز الأمر، التجانس موجود والدولة الديمقراطيَّة موجودة، أحياناً نقول عنها ديمقراطيَّة، بهذا من الممكن أن تقوم، ولكن على المرء أن يكون جديَّاً، لا بل متطرّفاً في الانتقاد، وعليه أن يتّخذ من تنظيم المجتمع أساساً، لقد تاهَ ذلك التنظيم الذي يمتدّ عمره إلى خمسة آلاف عامٍ، فلكي يكون بمقدورنا مرَّةً أخرى أن نُظهر إرادتنا في الإدارة، تلك الإرادة التي بمقدورها أن تجعل المجتمع ممثِلاً لمصالحه لا بدَّ أن ننتقد الدولة، لأنّ الدولة ليس بمقدورها منح الإرادة إلى المجتمع، بل على النقيض، الدولة تستلِب إرادة المجتمع، فهي تُنشأ على أساس استلاب الإرادة من المجتمع، فلا مجتمع بإرادة في مكانٍ به دولة، فالدولة تكون قوية ضمن المجتمع مستلَب الإرادة، لا بدَّ أن يتعمَّق المرء في هذا الأمر، ولا بدَّ بهذا الشكل أن يحمي نهجه.

ثالثاً: مُعضلَة المرأة والعائلة في الشرق الأوسط

تصطدم هذه المُعضلة في كل بلدان العالم مع التقدُّم، سوى أنَّها مركز الأزمة، أو بطريقةٍ أخرى يمكن للمرء أن ينظر إليها في الشرق الأوسط على أنَّها مركز الأزمة، ولا سيما مقاربة المرأة والعائلة لأسبابٍ عدَّة، لأجل ذلك نحن مُجبرون على العودة إلى نقطة سابقة وهي أن الشرق الأوسط منبع هذه المشاكل، فدائماً حين نفهم المعضلة نعيدها إلى مصدرها، أي إلى الشرق الأوسط، لا يجب أن ننزعج من الأمر، لأنّ أساس نظريتنا الاجتماعية مستقرٌّ على هذا الأمر، لأجل ذلك نفهمها هكذا بأنَّ كل مشاكلنا اليوم مختبئة في ذلك المصدر، فكلَّما شرحنا تاريخ الشرق الأوسط كلما ازدادت معرفتنا بحلول مشاكلنا في الرَّاهن، سنكتشف الكثير من الأخطاء ونتعرَّف إلى أسبابها، لأنَنا حين نقول: دولة، يقول أحدهم: الدولة أمرٌ واجب، ضرورة، الدولة هي من أسست التقدم وما إلى هنالك، ولكن حين نعود إلى تاريخ الشرق الأوسط لنرَ أين تأسست الدولة، سنعرف أنَّ الدولة تأسست بعد انعدام الحقوق، من النهب والسرقة والخيانة والأكاذيب والاستيلاء على القيم الزائدة، وحين نصل في هذه النقطة إلى وضوحٌ خالص فإنَّنا نعرف اليوم الأسباب التي تجعل الدولة مسيطرة ومن ثم نقوم بتجميد تلك الأسباب، ولكن في الوقت الذي لا نكون فيه على إطلاع كيف تشكّلت الدولة فإننا سننظر إلى الأمر على أنَّه مطلق، مثلنا مثل الآخرين مجبرون على التفرُّج، سننظر إليه على أنَّه أمر مشكَّل، سنكون مرتبطين به ونكافح لأجله، هذا الأمر يجعل من نشاطنا خاطئاً ويسير في

طريقٍ غير قويم، لذا يقول القائد في هذا الصدد: "السير في الطريق نفسه لا يأخذنا إلى قريةٍ أخرى"، أي إن سلكت الطريق نفسه فلن تصل إلى القرية الأخرى، لأنَّك ستذهب إلى القرية نفسها، فإن أردت الذهاب إلى قريةٍ أخرى لا بدَّ وأن تسلك طريقاً مختلفاً، فلأنَّنا نودُّ بناء المجتمع الأخلاقيّ والسياسيّ، فإن حصلَ وسلكنا الطريق نفسه الذي سلكته السلطويَّة ووضعت النظام تحت مراقبتها فإنّنا حينئذ لن نصل إلى المجتمع الأخلاقي والسياسي المنشود، إلى أين سنصل حينها؟ سنصل مرَّة أخرى إلى السلطويَّة، لذا فإن كفاحنا سيكون غير مفيداً، أي لن يؤدي إلى نتيجةٍ في إطار الأهداف التي وضعناها نُصب أعيننا، وفي مسائل المرأة والعائلة لا بدّ أن نعود إلى هنا، فبلا شكّ أنَّ مكانة المرأة والعائلة تختلف أشكالها من رقعةٍ جغرافيَّة إلى أخرى، سوى أنَّها لا تزال أصليَّة في الشرق الأوسط وبمقدور المرء تحليلها والحصول على نتائج في سياقها لتغدو مشروعاً في معرفة التاريخ والمجتمع.

إلى زمنٍ ما كانت المرأة محطَّ احترام، كما أنّها كانت تقدّس في الكثير من الأزمنة، ففي التاريخ كان ثمَّة عصرٌ على المنوال الذي ذكرناه حيث فكَّر فيه الجميع، لذا فإن الجماعات الدينيَّة، المتدينّون، لا يوافقون على هذه النظرة، لكن بشكل عام المعرفة الاجتماعية، ولا سيَما على الخصوص الشيوعيّون، حتى البرجوازيون منهم، يقبلون هذه الحقيقة وأنَّ ثمة عصرٌ كان فيه احترام المرأة أمراً مقدَّساً، سوى أنَّه ثمة مشاكل في منحى التفسير والإثباتات. مثال، النظرية الموجودة تقول: لِمَ المرأة مقدسة؟ ليس فقط القداسة، ثمَّة البعض يقيِّمونها على أنّه عصر لحكم المرأة، إلى أي درجة الأمر مثبت أو مستند إلى حقيقة علميَّة؟ بمقدور المرء أن يناقش هذا الأمر، لكن في النتيجة فإنَّ ذلك الاحترام، القداسة، أو الحكم، حين نقبل به لِم كان موجوداً؟ يقولون: "في ذلك العصر لم يكُ ثمَّة العائلة الأحاديَّة، لذا فإنَّ العلاقات البشريَّة التي كانت موجودة لا أثر لها في نظام علاقاتنا الرَّاهنة.

بالكاد كان الرجل عائداً إلى المرأة ويتم إثباته عبرها، كان واضحاً أنَّ المرأة هي أمُّ فلان وهذا الأمر وفَّر لها احتراماً، ولكن هذا لوحده لا يكفي لفهم سبب احترام المرأة، ثمة أشياءٌ أخرى، فما هي تلك الأشياء؟ بلا شكَّ أن العلاقة بين الطفل والأم تجلب احتراماً، هذا أمرٌ جيد، ولكن المرأة مَلَكَت في ذلك العصر دوراً في النشاط الاجتماعي، كانت في الإدارة، كانت المرأةُ محوراً في التنشيط الاجتماعي فكان احترامها موجوداً، لذا كيف يكون الادعاء، لأن ما من أحدٍ بمقدوره تثبيت هذا الأمر، من هو الأب، لم يكن بالإمكان التثبيت، فقط كانت الأم تُثبَّت، لذا حامَت حولها القداسة، ومُنِحَت الاحترام، لكن هذا الأمر لا يكفي، حينئذ ثمَّة أشياء أخرى لا بدَّ أن تكون موجودة، فما هي تلك الأشياء التي تدفع إلى القبول بتلك القداسة أو ذلك التقديس؟ الدور في بناء المجتمع، الاجتماعية، تصميم المجتمع وإدارته، وفي هذا المنحى يقول القائد: "الثورة النيوليتيكيَّة هي ثورة المرأة، ففي تلك الفترة لا ترتبط فقط بالمسألة الجنسيَّة، لا ترتبط بتثبيت النسب والأجيال وإنَّما مرتبطة بالمسألة الاجتماعية، هذا الأمر كان السبب الرئيسي في القداسة، وهذا أمرٌ واضح وحقيقي، كيف سنوضِّح، ببعض الذكريات، أي بعض الذكريات الاجتماعية التي لا تزال مستمرَّة حتَّى يومنا الرَّاهن، مثلاً حق الأمومة، قداسة الأمّ، هذا الأمر يحمي نفسه، هذا من جهة، من جهةٍ أخرى، توصَلت الأبحاث والتنقيبات الأثريَّة إلى بعض النتائج، والتي تقول أنَّ الآلهة الأنثى سَبَقَت الآلهة الذكر، ثمة إله واحد ولكنه بهياكل مختلفة، وتم العثور على الكثير من الدلائل، لا سيَّما على تراب ميزوبوتاميا العليا، في المكان الذي نقول عنه اليوم كردستان، وهذا دليلٌ آخر، ففي المجتمعات التي لم تكن قد دخلت الحضارة الطبقيَّة بعد وعلى الأخصّ بعد اكتشاف أميركا، في العام ١٤٩٧ حين تمَّ اكتشاف أمريكا الشماليَة والجنوبيَّة لم يكن ثمَّة نظام سلطوي ذكوري، ولا تزال حتَّى الآن بعض القبائل تعيش وفق قيمها الطبيعيَّة، على سبيل المثال قبائل "الآبورجيين" في استراليا لا تزال تعيش على المنوال نفسه، أي لا وجود لشيء اسمه السلطة الذكوريَّة أو السيطرة الذكوريَّة أو نظام السلطة الذكوريَّة، هذا الأمر واضح في كل حركةٍ ونشاطٍ للمجتمع، أي أنَّه يتوضَّح

من خلال المقاربة في علاقة المرأة مع الطفل، علاقة المرأة مع الرجل، لا وجودَ لشيءٍ يدعى ملكية، أو أن تكون المرأة تابعةً للرجل، لا شيء من هذا القبيل، فهي تمثِّل جوهراً في بناء المجتمع، جوهرٌ مختلف. كل ما سبق يوضِّح أنَّه لا وجود لادِّعاء وجود نظامٍ للسلطة الذكوريَّة، أي وفقاً لما يقال عن تلك السلطة على إنَّها إلهيَّة، طبيعيَّة، على إثر الخصائص العقليَّة والجسدية للرجال، الأمر الذي رسم له هذه الصيغة ووضحّها، ولكن ما سبق من ادِّعاءات خاطئة، هي ادعاءات اجتماعية، إيديولوجيَّة تمَّ فرضها والتدريب عليها، ووصل الأمر إلى درجة وكأنَّها أمور طبيعيَّة، لذا لم يتم مناقشة هذه المسألة منذ أكثر من مئتي عام، لا سيَّما أنَّ هذا الأمر يعتبر في جدول البحث منذ أكثر من مائة وخمسين عام، لكن العلم الرسمي يغضّ النظر عنه، وعلى وجه الخصوص تلك الدراسات الخاصة بالمجتمعات، أبحاثُ شخصٍ مثل العالِم التاريخي الأميركي "مورغن"، وأيضاً العلم الرسمي في غرب أوروبا، فإن الأشكال التي توصَّلوا إليها والإثباتات فيما يخصّ تاريخ المجتمعات والعلاقات الاجتماعية المنقطعة المختلفة، كلها تغضّ النظر عن الأمر، لِم؟ لإنّ إثباتات "مورغن" آنَ الاقتراب منها، أمحَت ادعاء طبيعية سلطة وسلطوية الرجل، أي الادعاء الذي يقول بأنَّ المجتمع لا يمكن له أن يسير دون سلطة أو أن الدولة لا يمكن لها أن تُدير نفسها أو أنَّ المجتمع بدون سلطة ذكوريَّة لا يمكن له أن يدير نفسه، وقد عمل "مورغن" من خلال بحوثه على العشائر والقبائل في أميركا القديمة، وظهرت نتائج البحوث تلك ضمن كتب، ولا سيما كتابه المعنوَن بـ: (تاريخ المجتمعات) الذي يتضمّن موضوعاً ملفتاً للانتباه بشدَّة، سوى أنَّ العلم الرسمي يغضّ النظر أو أنَّها بحوثٌ وطريقة علميَّة تدريبيَّة، ولا يعطيها الأهميَّة، لِمَ؟ لأنَّ "مورغن" يمحي السلطوية وسلطة الذكور، لأجل ذلك فإنَّ العلم الرسمي لا يتوقَّف كثيراً عند هذه النقطة، حتَّى أنَّها لا تعير اهتماماً للأبحاث المُنجَزة حول طبيعة قاعدة المساواة بين الرجل والمرأة، أو أنَّ النظام الذكري الموجود ليس أمراً طبيعيَّاً، لا بل وتغض النظر عن تلك الأبحاث أيضاً، سوى أنَّه يطوَّر من أشكاله الخاصَّة بالمساواة، كما تفعل الرأسمالية التي

تدّعي أنَّها تساوي بين الرجل والمرأة وتحمي هذا الأمر، أو أنَّها تحمي المرأة، ولكن بطريقتها وسماتها الخاصَّة بها، تلك السمات البعيدة عن الطبيعانيَّة، كأنَّ الأمر لطف على أساس أنَّها سلطة ذا قوَّة ذكوريَّة، لذا فإنَّها أنقذت المرأة من خرابٍ وأدخلتها إلى مرحلةٍ أفضل، ولكن في الأساس كلها طرق مُخادعة، سنقِفُ عند هذه الأمور.

١- إثباتات العلوم الاجتماعية الاشتراكية:

في البداية لم يكن الاشتراكيون الأوائل واضحين بما فيه الكفاية في هذه المسألة، فـ "أنجلس" يعطي انتقاداته في هذا المنحى، حيث أنَّه في كتابه: "أصل العائلة، الملكية الخاصة وملكية الدولة" يقول: "حين دوَّنت هذا الكتاب أمعنت في بعض النماذج التي كتبتها أنا ولينين في زمنٍ ما، تصادفتُ مع إثباتٍ هو أنّني وماركس كنا قد قلنا بأنَّ التشارك البدائي الطبيعي في العمل بين الرجل والمرأة بُني على أساس الإنجاب، ولكنني الآن أرى بأنّ إثباتنا ذاك خاطئ، لا شيء من هذا القبيل الذي أتينا على ذكره، وإنَّما هي السيطرة البدائيَّة، حيث أنَّها كانت أولى بذور تشكُّل سيطرة العائلة الأحاديَّة، أي العائلة الواقعة تحت سلطة سيطرة الرجل والمبنيَّة على أساس ملكيَّة الرجل للمرأة، ومن بعد ذلك يتقهقر التاريخ"، هناك أراد "أنجلس" تصحيح إثباتاته القديمة، لذا فإنّه لا يوجد هنا أي تشاركٍ طبيعيّ بل ثمَّة سلطويَّة، وكل ما قُيل عن المرأة كان بغرض تخليد واستمراريَّة تلك السلطويَّة وأن يعلن عن الطبيعانيَّة على إنَّها مقدَّسة. لأجل أن تُفهَم هذه المسألة بشكلٍ أوضح، نودّ أن نبدأ ببعض الأمثلة، فإن انتبهنا إلى يومنا الرَّاهن، فإن المسيطرون على الكرد، كيف يعلنون عن الكرد، مثال: القوميَّون العرب، حكَّام العرب كيف يقتربون من الكرد؟ فلكونهم ينطلقون من الانصهار والإنكار والإمحاء، فإنّهم في تقييمهم للكرد، ثمة أمور مساعدة تظهر لإثبات سياسات الإنكار بحق الكرد، ما هذه الأمور المساعدة؟ الكثير منهم يقولون ذلك: "الكرد ليسوا بشراً، إنَهم من

ذريَّة الشيطان"، ليسوا بشراً؟! كيف يقولون ذلك، إنَّهم يفسّرون الأمر وفقاً لأهوائِهم، فالنبي سليمان كان متزوّجاً من أربعين امرأة، من بينهنّ ثمَّة تسع وثلاثون زوجة أقاموا علاقاتٍ مع الشياطين وأنجبن أطفالاً، ومن ثمَّ أتينَ إلى النبي ليسألنه ما الذي يمكنهنّ فعله بهؤلاء الأطفال؟ ليردّ عليهم النبيُّ هكذا: "اطردوهم إلى الجبال" فسمَّوا كرداً، وبهذا الشكل خُلِق الكرد، هذه ليست دعابة من طرفهم، وإنَّما يتحدَّثون عن الأمر بشكلٍ رسميّ، الأتراك ماذا يقولون، أي القوميَّون التُرك، الحكَّام الأتراك ماذا يقولون؟ حين يتحدَّثون عن الكرد يقولون إنَّهم بلا عقولٍ ولا يفهمون ويملكون أذنابَاً وما إلى هنالك، يقولون آلاف الأشياء، لِم يتفوّهونَ بمثل هكذا أشياء؟ لأنهم إن قالوا عن الكرد بشراً ويَعقلون وإنَّهم إخوتنا، آنئذ لِمَ سيكونون حكَّاماً ومسيطرين؟! فلكي يؤمّنوا أسباباً للسلطة والسيطرة لا يقبلون بالكرد على أنَّهم بشر، ليس ذلك فحسب، بل إنَّهم يدفعون الكرد للنظر لأنفسهم على أنَّهم ليسوا بشراً، لأجل ذلك الآن ثمة أمر يدعى الانصهار، ما هو الانصهار؟ إنَّه إنكارٌ للذات، يقبلون سيطرة الإيديولوجيا هذه المرَّة، أي القبول بالأمر، وها هنا يكمن الخطر الأساسي، حيث أنَّ علم السلطة الرسميَّة لا يقبل بأشياء جيدة للخاضعين والعبيد، مثال: توجَّه العديد من الغربيين نحو أفريقيا وتجوَّلوا بها وأجروا بحوثهم خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، رأوا أنَّ تلك الشعوب قد عَمِلَت و بنت أبنيةً وأسواراً وامتلكوا نظاماً خاصَّاً بهم، لذا عاد البحَّاثُ إلى أوروبا وقالوا أن النتائج التي توصَّلت إليها بحوثنا هي أنّ ثمة حضارة في أفريقيا، ولكن المسيطرين قالوا أنَّ هذا الأمر أكذوبة، لكن لِم قالوا ذلك؟ النظام ردَّ عليهم مرَّةً أخرى وقال لهم: "ليس في الأمرِ ضرورة أن تقوم أفريقيا بصنع حضارة، لأنَّهم عبيد، لذا لا يجب أن تكون لهم خصائص بشريَة"، فتمّ رفض تلك الأبحاث وخرجوا ضدّها في ألمانيا وإنكلترا على الرغم من أنَّهم كانوا في ذلك الوقت برجوازيين ويتحدَّثون عن أمور مثل الإنسانيَّة والديمقراطيَّة، ولكنّهم تحدَّثوا لأجل أنفسهم وحسب وليس لأجل بقيَّة الشعوب، فحين يقولون عن اولئك أنَهم ليسوا بشراً وإنَّهم حيوانات فإنَّهم يوفّرون لأنفسهم أسباب العبوديَّة وبيع وشراء البشر وتكون الفكرة مسيطرة،

ولكن إن قالوا عنهم بشراً، فحيئنذ لن يحصل أي شيء من الذي ذكرناه، لذا فإنّ الحكَّام أو المسيطرون لا يتقبلون الأمور الجيدة للواقعين تحت سيطرتهم.

٢ـ الإنكسارات الجنسيَّة للمرأة في الشرق الأوسط:

على هذا الأساس، فإنّ العلم الرسمي والنظام السلطويّ بشكلٍ عام، والذي يسمّي نفسه بالمهيمن الذكوري لن يقبل أبداً أن تكون المرأة عبر التاريخ فعَّالةً في محور تنشيط المجتمع، لأنّه إن قبل بذلك، فإنّ وضع المرأة لن يكون مشروعاً وحقّاً في يومنا الرَّاهن، فإن كانت دائماً تعيش الوضع الذي تعيشه في يومنا الرَّاهن بمشروعيَّة فإنّهم يغمضون أعينهم عن هذه المرحلة، والأشياء الأخرى التي قيلت عن المرأة قبلوا بها، فما هي تلك الأشياء التي قُيلت عن المرأة؟ المرأة لا ماضٍ لها، لا روح، لقد خُلِقَت من الرجل، من أضلاع الرجل، هذا الأمر بدأ مع السومريّين ليستمرّ مع دين الإله الواحد إلى يومنا الرَّاهن، لأجل ذلك ثمة انكسارين اثنين حصلا ضدَّ المرأة في الشرق الأوسط، الانكسار الأوَّل: انكسار حضارة الدولة الأولى الطبقيَّة، حيث كانت المرأة هي الأولى من ضمن الطبقات الخاضعة للسيطرة، وهذا الأمر تمَّ شرعنته عبر الميثولوجيا، كيف تمَّ شرعنة الأمر؟ فالمرأة التي كانت مقدَّسة وسُمَيت بالآلهة، فقدت مكانتها خطوةً إثر أخرى ضمن النظام الإلهيّ وخطوةً إثر الأخرى بدت وكأنَّها فاحشة أو خراب، أو تحرّض على الخراب، أو على أنَّها أساس شيوع الخراب، هكذا تمَ تصويرها، ولأجل ذلك باتت تشبه اللَّعنة، أي أنَّها باتت لعنةً في الميثولوجيا القديمة وباءت كل محاولات المرأة في أن تعيد وضعها الاجتماعي القديم بالفشل، هذه الميثولوجيا استحضار، وهي تعلن عن أشياء أخرى، وهذا انكسار، فلنمعن النَّظر، ما هو هذا الأمر؟ إنَّهُ إمحاءٌ لحقوق الأمّ وتوفيرٌ لحقوق الرَّجل. تمَّ تجسيد هذا الأمر بشكلٍ أكبر في الميثولوجيا اليونانيَّة، وتمَّ التعبير عنه على شكل مسرحيَّةٍ مدوَّنة، وهي خالدة إلى يومنا الرَّاهن، ومن كتبها يدعى: "إسخيليوس"، فكما دوَّن "هوميروس"

الإلياذة، تلك أيضاً ملحمة تشبهها، فما هي هذه الملحمة؟ يقال أنَّه بعد حرب طروادة وبعد عودة "آغا ممنون" إلى المنزل قُتِل على يد زوجته، قتلته لأجل عشيقها، ولأجل أن ينتقم "إرنست" ابن "آغا ممنون" لأبيه قتل أمَّه، لِمَ؟ لأنَّ تلك الأمّ قتلت زوجها وأبيه في الوقت ذاته، انظروا كيف يتغيَّر المنطق، لقد قتلت في الوقت نفسه زوجها فتضاءلت حقوقها خطوةً إثر الأخرى، وقتلت أباه وفي الوقت نفسه زوجها، هذا دليل العبور من حقّ الأم نحو الأب، إله يونان الكبير "أبّولو" في الأساس هو من حرَّض ابن "آغا ممنون" ليقتل أمَّه، ولكن، كان في الميثولوجيا اليونانيَّة آنذاك ما يسمَّى بـ "إرينوس"، فمن هم الـ: "إرينوس"؟ شيءٌ شبيهٌ بـ الملائكة، تلك التي تحمي حقوق الأمّ ولا تقبل قتل النساء بأي شكلٍ من الأشكال وينظرون إلى الأمر على إنَّه إثمٌ عظيم ولا بدّ من المعاقبة مهما كانت الظروف وليحصل ما يحصل، آنئذ يهرب ابن "آغا ممنون" من هؤلاء، لأنّ من واجب الـ: "إرينوس" حماية حقوق المرأة والدفاع عنها، سوى أنَّ "أبَولو" قرَر ذات مرَّة أن يساعد، يساعد مَن؟ أن يساعد ابن "آغا ممنون"، يساعد قاتلَ أمَّه، لذا يأمر بأن تقام المحكمة، ويكلِّف آلهة اليونان "آثينا" مسؤولةً عن المحكمة، وبهذا الشكل يحمون ابن "آغا ممنون" الذي يقول: لقد قتلت أبي ورئيسها، لذا عاقبتها، كنت صاحب حقّ، يسانده "أبَولو" في كلامه هذا، ولكن إلى أي درجة من الممكن القول عن كل ما ذكرناه على أنَّه حقيقة؟ أمر أن هذه الحادثة هي حماية حقوق الأمّ وأنَ قتلها يعتبر إثماً عظيماً، لذا، مهما كانت الأسباب وبأي شكلٍ من الأشكال لا يجب أن تُقتَل الأمّ ولا يمكن الصَفحُ عن القاتل، النقاشات تستمرّ على هذا المنوال. بعد ذلك يدخل القرار إلى النقاش الذي ينقسم إلى قسمين، قسمٌ يؤيَد ابن "آغا ممنون"، فيما القسم الآخر يساند الـ آرينوسيين، بهذا الشكل ماذا تعني حقيقة هذه الملحمة أو المسرحيَّة؟ إنَّها بداية دخول حقّ الرجل، مرحلة إنهاء حق الأم وبداية مرحلة حق الرجل، الإرينوس يبقون سوى أنَّ دورهم يتراجع، وبالتالي يقعون في خدمة النظام الموجود، فأولئك كانوا قد فرَّغوا أنفسهم لأجل حماية حقوق المرأة، لكنَّهم هذه المرة باتوا في خدمة النظام الموجود. ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أنَّ المرأة التي تنكر نفسها بنفسها نتيجة إنكار

النظام لها فإنّها رويداً رويداً تقبل الوضع الموجود لتغدو بهذا الشكل جزءاً من ذلك النظام، فالممارسات التي كانت تُعتبر في السابق ضدَّها إثماً عظيماً تغدو هذه المرَّة حقّاً اعتياديَّاً، لتخرج بهذا الشكل من القداسة وتبقى شيئاً جامداً وتابعةً الرجل، حصل هذا الانكسار في الأزمان الغابرة ضمن الشرق الأوسط، بإمكان المرء أن يرى الأمر في ميثولوجيا "إينانا"، وفي الشرق الأوسط ثمة حقائق أخرى، لذا استعنا بالمثال السابق.

٣- تعميق الانكسار الجنسي في دين الإله الواحد:

عمَّق دين الإله الواحد ولا سيَّما الدين اليهودي، المسيحيَّة والإسلام بشكلٍ أكبر، انكسار المرأة، ومهما بقي القليل من قداستها في العصر القديم، من العصر القديم وحتّى عصر بابل، آشور، سومر، ولكن في عصر دين الإله الواحد امّحت تلك القداسة كليَّاً.

غدت المرأة بشكلٍ تامٍ شيئاً جامداً، غَدَت مُلكاً، مثال، الإسلام يعتبرها حقلاً أو أرضاً للرجل، اليهودية تُشهر بالمرأة، أي أنَّها تتعامل مع المرأة على أنَّها مُلكيَّة خاصَّة ولا تقبل بحقٍّ من حقوقها الإنسانيَّة، حتَّى أنَّها تشير إلى كل شيءٍ في المرأة على أنَّه حَرام، مثال، ثمة في إسرائيل الآن جماعات متطرّفة لديها صحف، في تلك الصحف لن تعثر على صورةٍ واحدة لامرأة! لكن أحياناً يضطرون إلى ذلك حين يضعون بعض الأخبار، فمثلاً إن كان هناك خبرٌ ما في الصحيفة عن تشكيل حكومةٍ في إسرائيل فإنَّهم مجبرون آنذاك على وضع صورة الحكومة المُشكَّلة، وإن كان ثمَّة امرأة في الصورة فإنَّهم يقتطعونها حتَّى لا تظهر المرأة بوضوح، لا يسمعون صوت النساء، لا يشاهدون التلفاز، بهذا الشكل يقتربون من الموضوع، أو أنَّهم يحسبونَ كل تلك الأشياء حراماً، هذه تصرفات بعض الجماعات المتطرّفة، بالطبع ليس اليهود كلُّهم هكذا، إنَّما السبب في ذلك هو الدين. المسيحية أيضاً هكذا، مثال:

ثمَّة رجلٌ مسيحيّ ملفت للانتباه ويعتبر مقدَّساً إلى حَدٍّ ما، يدعى العزيز باول، ماذا يقول؟ يقول: "الرجل لا يأتي من المرأة، بل بالمرأة، أي أنَّ الرجل ليس جزءاً من المرأة، الرجل يأتي بالمرأة، المرأة أداة من أدوات إنجاب الرجل، المرأة ليست فاعلة ولا تعتبر مستقلَّة، لذا فإنَّه يقلل من قيمة المرأة إزاء الرجل، وله العديد من الأحاديث حول هذا الموضوع. الأمر على الشاكلة نفسها في الإسلام أيضاً، لِمَ نطرح هذه الأمثلة؟ لكي نصل إلى نقطةٍ مُعيَّنة هي: الآن ثمَّة كفاحٌ ضدَّ السلطويَّة، فقبل أن يقع العبيد والفلاحين والعمال تحت السطوة، المرأة وقعت تحت السطوة، ولأجل أن تستمرّ هذه السطوة إلى الأبد وفَّروا لها أسباباً، كيف وفَّروا الأسباب؟ عن طريق الأحاديث، المرأة ليست فاعلة، لقد خُلِقت لأجل الرجل، خُلِقَت من الرجل، كل المصائب في العالم تمّ تفسيرها عبر المرأة وبها، والأمر مستمرّ حتَّى يومنا الرَّاهن.

تلك التفاسير لأجل ألا ترفع المرأةُ رأسها أبداً وألَّا تطالب بحقوقها أو تعلن عن نفسها كقوَّة مستقلّة وتكون مقموعة أبداً، مثال: في يومنا الرَّاهن ثمَّة العديد من الممارسات القمعيَّة ضدَّ المرأة بغية أن تبتعد عن سماتها الطبيعيَّة، أن تكون تابعةً وحسب، مُلكاً، مثال: في العديد من بلدان الشرق الأوسط وللأسف حتَّى في كردستان ثمَّة العديد من الاعتداءات الجسديَّة على المرأة، مثال: الختان، هذه كلها تعتبر ممارسات قمعيَّة ضدَّ المرأة.

لأجل أن تبقى سلطة الرجل واضحة فإنَّها تبدأ في العائلة التي لا بدَّ أن تكون تابعة له، لذا لا بدَّ أن يكون واضحاً في موضوع الأطفال، لا بدَّ أن يكون الأطفال له، مُلكاً له، يجب على المرأة ألَّا تخرج وتبقى محكومةً به، لأنها إن تحرَّرت فإنه من الضروري أن يتم مناقشة موضوع الأطفال وتبعيتهم لها، لذا يجب أن تكون الأمور في هذا الجانب مُطلقة، واضحة، ولأجل أن يحقّق الرجل هذا الأمر لا بدَّ وأن يواظب على الممارسات القمعيَّة، ولكن كيف يحصل ذلك ولأجل ماذا؟ عبر القوَّة الإيديولوجيَة، عبر القرآن الكريم، التوراة، الإنجيل وبالميثولوجيا، والأمر يسير على هذا المنوال حتَّى يومنا

الرَّاهن لئلَّا يرى أحدٌ الحقيقةَ. هذا هو طريق الطمس والقمع، في الحقيقة ما من ضررٍ كثير في هذا الأمر، أو أن الطمس والقمع ممارسان على الشعوب، يُنفَّذ القتل على البشر، هذه كلُّها أمورٌ طبيعيَّة، حيث أنَّه ثمة قتلٌ وظلمٌ على البشر، ولكن ثمَّة مقاومة أيضاً ضد تلك الممارسات، ولكن ما مشكلة المرأة؟ مشكلة المرأة هي أنَّها أضاعت خصوصيَّات المقاومة وسماتها، باتت ضعيفة، ليس فقط نهبها من جانب السلطة أو من الجانب السياسي والاقتصادي ولكن أيضاً من الجانب الإيديولوجي، هذه الأخيرة التي تسببت في أن تتوه المرأة عن هويَّتها، وقد قبلت هيَ بذلك. كثيراً ما يسوقُ القائد نماذجَ وأمثلة: "قالت عائشة: ليتني كنتُ حجراً ولم أكن امرأةً" بهذا الشكل تنفرُ المرأةُ من نفسها وتقبل حكم المجتمع لها، آنذاك لن يمثَّل حماية الجنس الرجل وحده، بل ويمثِّل المرأةَ أيضاً، في أي شيء يتمّ التمثيل؟ يتمثَّل في إنكار المرأة لنفسها، ثمَّة نماذجُ عديدة في هذا السياق، "عائشة قالت: ليتني كنتُ حجراً ولم أكن امرأةً"، لهذه المرأة مثيلاتٌ في كل العالم، أوروبا، الصين، أفريقيا، مثال: تتضرَّعُ المرأة الحامل إلى ربها على مدار اليوم أن يكون الجنين الذي في بطنها ذكراً وليس أنثى، هذا بحدّ ذاته إنكارٌ للذات، وهنا مكمن الخرابُ الأساسيّ في الفكرة. حصلت تلك الأمور التي تحدَّثنا عنها في الشرق الأوسط، لذا يقول القائد: "الشرق الأوسط بحاجة ماسَّة إلى ثورةٍ أخرى"، الثورة الأولى كانت ثورة المرأة، النيوليتيك هي ثورة المرأة، لا بدَّ وأن تندلع ثورة المرأة الثانية، لأنَّ السلطوية في الشرق الأوسط مبنيَّة على أساس التسلّط على المرأة ووُضِعَت سلطة الرجل بهذه الطريقة وتمّ إحقاق هذا الشيء في الشرق الأوسط عبر الأسباب الإيديولوجيَّة، النتيجة التي تكررت عبر آلاف السنين، وللأسف قَبِلَت المرأة بهذا الأمر، حيث نظرت إلى نفسها ضعيفةً ومسلوبَة الإرادة، لذا اختارت العَجز وقَبِلَت بالرجلِ منطَلَقاً وأساساً، حتَّى أنّها قلَّدت الرجل في محاولاتها الأكثر حريَّةً، تلكَ إشاراتٌ إلى الاغتراب الإيديولوجيّ، أي أنَّ المرأة رأت نفسها غريبَةً من الناحية الإيديولوجيَّة وهذه مشكلةٌ عميقة.

٤ـ حل مشكلة المرأة في الشرق الأوسط:

ما الذي يحصل الآن في الشرق الأوسط؟ إن لم يتم حل مشكلة المرأة فإن كل مشاكل الشرق الأوسط ستبقى بلا حلول، لأن المرأة في الشرق الأوسط تعتبر نصف المجتمع وهذا النصف مَفلوج، كما أنَّ النصف الآخر مفلوج أيضاً وعاجز، هذا نظام، فإن كان جانبٌ ما من النظام عبداً، فلن يكون بإمكان الجانب الآخر منه أن يكونَ حرَّاً، لأن الجانبين هما جانبا النظام الأساسيّين.

لذا إن كان ثمَّة عبوديَّة للمرأة في نظامٍ ما فلن يكون بمقدورك أن تتحدَّث فيه عن حريَّة الرجل، لا بد أن يُفهَم هذا الأمر، الآن إن فكَّرنا في أن نصف المجتمع ليس عاجزاً كما أسلفنا، يقولون: المرأة خُلقت من أضلاع الرجل، ولكن هذه ليست الحقيقة، المرأة لم تُخلق من أضلاع الرجل، لكن على النقيض، الرجل هو من خُلِق من أضلاع المرأة، حتَّى وإن فكَّر المرءُ بالأمر من ناحيةٍ جسديَّة فإنَّ الأمر حقيقة، لا بد أن يتمَّ التعبير عن هذه الحقيقة إيديولوجياً واجتماعيَّاً، لا بدَّ أن تندلع ثورة المرأة هكذا، أي أن تعود المرأةُ إلى نفسها وتمتلك ذاتها، أن تغدو جوهراً ليكون بمقدورها الوجود في مختلف أشكال الحياة، ولا سيما الأمور الإيديولوجيَّة، السياسيَّة، الفنون التي تعبر عن الأنثى، وألَّا تقلِّد الرجل، بهذه الأمور لا بدَّ من إعادة تصحيح المساواة. لكن ما هو الوضع القائم؟ هو أنَّ نصف المجتمع مفلوج، بيدَ أنَّه وفي الوقت نفسه فإن النصف المتبقّي يتم تربيته من قبل النصف المفلوج ذاك، فلنمعن النظر إلى من سيتولَّى تربية مجتمعنا، إنَّها المرأة، ولكنها مشلولة، مسلوبة الإرادة، لذا فهي تلعب دوراً بارزاً في استمراريَّة صنع منتوجات السيطرة، أمَّهاتنا كيف تربين أخواتنا؟ عن طريق النصيحة والمواعظ، فلتعملي كذا، ولتجلسي كذا، كوني مطيعة، بهذا الشكل تخلق منهنَّ تابعات، ولكن كيف يتم تربية الذكور؟ لأجل السلطة، مثال: حين يساعد أحد الذكور أمَّه في أعمال المنزل، تكون الأمّ قلقة من هذا الأمر فتقول له: أنت تتشبَّه بالنساء. لِم تقلق الأم من

ولدها، لأنّ المرأة تكرُّر النظام ذاته، تربّي الابن على السلطة، فيما تربّي الأنثى على أساس الإذعان.

لأجل ذا إن لم يتم حل هذه المشكلة فلن نجد مجتمعاً سليماً من الناحية النفسيَّة، وعليه فإن هذا الموضوع جدّيّ، لكن سيقول أحدٌ من الرفاق لِم نناقش مثل هكذا أمور؟! إنَّها نقاشات فارغة!! ثمة نقاشاتٌ غير مريحة للمرء، نقاشاتٌ تحمي مفهوم الجنس، نقاشاتٌ غير متقدِمة ولا صلة لها بجوهر المسألة، ولكن النقاش الذي لا بدَّ أن يُجرى هو كيف سنقوم بتثبيت هذا الصمت، حين نتحدث عن الحرية، لا يجب علينا التحدّث عنها بهذا الشكل، فالرجل وُلد وعثَر على ذاته، فهِم، زاد من علمه، ازدادت قوَّة الشعب، لذا أمسك بيد المرأة رافعاً من شأنها ومن ثم حررها، هذا لا يفسح مجالاً للتطوّر ولا يمكن حلّ المشكلة بهذه الطريقة، لا مجال للخطأ هنا، لا مجال للخطأ في الخنوع والخضوع، ففي الخنوع ثمّة خطط للسلطويَّة تمَّ وضعها بمعرفة، ثمَّة ظلم، ولأجل أن يبقى هذا الظلم مستمرَّاً وخالداً تمَّ تفسيره على أساسٍ إيديولوجي وتمَّ توفير الأسباب له، وتمَّ تربيةُ أجيالٍ على هذا الأمر، لكن، الموضوع لا يمكن حلَّه بمقاربة أحادية الجانب، فلأجل الحل لا بدَّ للمرأة أن تعبِّر عن نفسها كامرأة وألَّا تقلِّد الرجل، أي لا بدَّ أن يكون لها أيديولوجيَّةً للحريَّة في كل جوانب الحياة، أن تمتلك سياسةً معيَّنة، يعني الأمر كيف يمكن لها أن تُدير نفسها وأمورها بشكلٍ ديمقراطيّ، أن يكون لها فنَّها الخاص بها، أغنيتها الخاصَّة بها، صورتها، لوحتها، تعبّر عن نفسها في الفنّ والاقتصاد، لكن شريطة أن تكون الإيديولوجيا هي الأساس، ألَّا تخجل في الشرق الأوسط من كونها امرأة، أو ألَّا تنظر إلى أنوثتها على أنَّها خصوصيَّة سيئة أو نقصاً ما، بل على النقيض من ذلك بغية وضع اتزانٍ صحيح، لأنَّ هذه المسألة في الشرق الأوسط جلبت معها مشاكل أخرى أيضاً.

٥- ثورة المرأة وتطوّرها في الشرق الأوسط:

كيف سيُعثَرُ على طريقٍ للخلاص في هذه النقطة؟ للأسف، مجتمعنا ينظر لخصوصيات المرأة بشكلٍ سيء ويتم أسرها وتقييدها، فعوضاً عن مقارباتٍ جوهريَّة، تظهر مقارباتٌ مطلقة، فما هيَ تلك المقاربات المُطلقة؟ لنتمعَّن قليلاً في الغرب، سنرى أنّ المرأة ليست مقيَّدةً هكذا، ففي أوروبا المرأة ليست ملكاً، نقول لأنفسنا آنذاك أن هذا هو الطريق الصحيح، وعلى الفور نأخذ ما يحصل في أوروبا كأساسٍ لنا، نريد أن نتعقَّب النموذج أو الأسلوب المتّبع في أوروبا وأن نبني مشروعنا على هذا الأساس، لكن لا يجد الأمرُ لنفسه طريقاً للنجاح، بل على العكس تتعقَّد الأمور أكثر، حيث تغدو المرأة ملكيَّةً أكثر وبلا قيمة ولا يتحقق مشروع الحريَّة، سأسوقُ مثالاً: ثمَّة تقليدٌ لأوروبا في لبنان، تركيا، وبعض الأماكن الأخرى، لكنَّ الحريَّة في الحقيقة غير موجودة، لذا لا بدَّ أن نتوقَّف عند الإصرار على محاولات الحريَّة من جانب الرجل والمرأة في سبيل تحقيق المشروع عبر قواعد ومناهج الحداثة الرأسماليَّة التي تمّ حلها على أرضها، أن ننتقدها ونبحث فيها، ولا بدَّ أن نفهم إن كانت تلك حريَّةً أم لا. الرأسماليَّة هي سلطة، عبوديَّة حديثة، فالنظام السلطوي الذي بُنيَ في الشرق الأوسط منذ آلاف السنين هو نفسه اليوم، ربما غيَّر لونه، ملامحه، أرضه، ولكنها سلطة، إذن ما هي هذه السلطة. اسمها دالٌّ عليها، السلطة الأولى هي سلطة الرجل على المرأة، فيما السلطة الثانية هي سلطة الطبقات على الطبقات الأخرى، آنذاك تقبل السلطة هيكليَّاً استعباد المرأة وإخضاعها، والرأسمالية لا تختلف في ذلك، بل أنَّها رأت ذلك، حيث فقدت قدرتها كما الماضي في السيطرة على المرأة والتحكُّم بها من خلال الاعتقال والضرب والتعذيب، فتطوُّر المجتمع أفسح المجال أمام المرأة أن تشعر بفنِّها ومعرفتها وقوَّتها وأن يكون باستطاعتها توفير أشكالٍ لنضالها بغية الوصول إلى حقوقها، لقد فهمت الرأسماليَّة هذا الأمر بشكلٍ كبير، لذا ما الذي فعلته؟ نصبت فخاخها أمام نضال المرأة لحريتها، ووجَّهت ذلك النضال إلى قنواتٍ أخرى، نضالها لكي تعبِّر عن نفسها كقوَّة اجتماعيَّة، أن تغدو ملكَ نفسها وألَّا

تعبَّر عن نفسها كرجلٍ في جميع مناحي الحياة، وفتحت الطريق أمامها لكي يكون لها حصَّة في السلطة. طريقة لبسها ومكياجها، الذهاب إلى المدرسة، لقد فعلت المرأة ذلك، ولكن توضَّح بعد ذلك أن ثمة إثباتات لكل النشاطات في هذا المجال ضمن الشرق الأوسط، حتَّى أنّه ثمة نساء في العالم مارسوا تلك الإثباتات، أمور ملفتة للانتباه كثيراً، ثمة امرأة تدعى "بنازير بوتو" دوَّنت مذكَّراتها، حيثُ قالت: "لقد استفدت من كلّ شيء، لقد غدوتُ كلَّ شيء، لكنني بعد ذلك فهمت أنني لم أغدو امرأة، أو ربمَّا أنني خرجت من الأنوثة" فهنا حيث تتوضَّح الحريَة، لكن بعد ذلك يتوضَّح أنّها في الحقيقة ليست حريَّة، وإنَّما ابتعادٌ عن الأنوثة وانضمامٌ إلى نظام الرَّجل.

قد يكون عدد النساء في بعض برلمانات الدول العربية أكثر من الرجال، لكن هذا لا يعني أنَّ المرأة حرَّة، لأن النظام هو السلطة، فشخصيَّة السلطة هي ذاتها شخصيَّة الرجل البدائيَّة، لذا فإنَّ تقليدها وكأنَّها منهاج للحرية يجعلنا تائهين عن أشياءَ كثيرة، في كردستان، تركيا، حتَّى في الدول العربيَّة تتوه الفكرة، وهذا ليس طريق الحريَّة، فطرق الحرية تعتبر أكثر جوهريَّةً، لأنَّ المرء قبل كلِّ شيء لا بدَّ عليه أن يُرجِعَ النهب الإيديولوجي إلى بداياته، أي أنَّ المرأة تابعة للرجل ولا يجوز أن تصبح مقاييسها للنجاح كمقاييس الرجل، فلا بدَّ أن يؤخذ أمرُ أن تغدو المرأةُ نفسها بعين الاعتبار وهذا يعتبر نشاطاً إيديولوجيَّاً. أي أن تكون المرأة قادرة على أساسٍ أيديولوجي أن تطوّر من اقتصادها وسياستها وفنِّها، ففي يومنا الرَّاهن لا يوجد شيء يدعى فنّ المرأة، أي فنٌّ يعبَّر عن المرأة، لا وكأنَّ ذلك إثم؟ هذا الأمر ضروريٌّ في الشرق الأوسط ولا يمكن أن تقوم ثورة المرأة إلَّا بذلك، لذا فإن ثورة المرأة هي عبر تقليد المنهاج الذي تحصر نفسها من خلاله بين مخلَبين في أوروبا وتتحرر عبره، ولكن بتعقّب ذلك المنهاج لن يكون بمقدورنا الوصول إلى الدرب الصحيح ولن نستطيع صنع الانتصار.

فهم حقيقة السلطة في هذا المنحى أمرٌ هامٌّ جدّاً ومن الضروريّ أن نصل إلى هذا الإيمان بالحرية الموجودة التي تعتبر نسبيَّة، والتي لا بدَّ وأن نبحث فيها، أو أنها وجه آخر للعبوديَّة، لا بدَّ أن نؤمن بذلك، بهذا الشكل بالكاد أن يتطوَّر الإيمان بالحريَّة، ثمَّة حراكٌ اجتماعي وهي النسويَّة، ولا يمكن لنا أن نتّحد معها مهما كانت حركةً اجتماعيَّة ذات تأثير، ولا سيَّما بشكلٍ خاصّ أنَّها طوَّرت انتقاداتٍ ضدَّ نظامٍ قومي، ولكن فيما يخصّ الحلول فإننا لن نستطيع أن نكون مؤيّدين أو نتّحد، ما سبب ذلك؟ النسويَّة تستند في موضوع الحريَّة إلى الحرية الجنسيَّة، إنّها تحمي الجنس بشدَّة وتتّخذه أساساً لتسدّ بذلك الطريق أمام تعبير المرأة عن نفسها في مناحي الحياة الاجتماعية تحت إطار حماية المرأة، ولكننا كتنظيم فإن مقارباتنا تعتمد أكثر على الاجتماعية وتستند إليها، أي تصحيح مسار المجتمعيَّة عبر المساواة بين الرجل والمرأة، بمعنى أن تكون المرأة فاعلة وتابعة لنفسها وتعبَّر عن ذاتها بنفسها، كما قلنا آنفاً: أن تعبّر المرأة عن نفسها إيديولوجيَّاً، اقتصاديَّاً، سياسياً، ثقافيَّاً وفنيَّاً، وتؤمَّن هذه الحقوق ويعبَّر عنها بالعهود الاجتماعية، أو أن يتمّ الدفاع عنها وحمايتها.

٦ـ العائلة أحاديَّة الجانب والدولة الصغيرة في الشرق الأوسط:

العائلة في الشرق الأوسط تعتبر دولة مصغَّرة، لأجل ذلك، الدولة تدير نفسها عبر العائلة، الدولة البدائيّة هي العائلة، العائلة أحاديَّة الجانب، قلنا حين تحدَّثنا عن الدولة: الدولة هي نتاج محاصَصَة شبكة المصالح، الدولة في حقيقتها شركة، شركة اجتماع الحكومة، السلطة، السلطة البدائيَّة هي العائلة، العائلة التي أُنشئت على أساس حقّ الأب، حق الرجل، أو ما يعبَّر عنه بـ العائلة أُحاديَّة الجانب. الآن ماذا تعني العائلة أحاديَّة الجانب؟ العائلة أحادية الجانب هي تلك التي يكون فيها السلطة لصالح الرجل وبيده، بيد الأب، حيث يرى العائلة مُلكيَّةً خاصَّةً له، وفي الأساس تغلق الأبواب أمام المرأة التي لا تملك الإرادة، إنَّها ملكيَّة، وهي من تصنع نسل الرجال، أو أن تنجب الأطفال

وتحافظ على شرفها، إلى ما هنالك، وتحمي كل شيءٍ متعلِّقٍ بها، لذا يقال أنَّ ثمة شكلان لقتل المرأة في الشرق الأوسط، أحدهما قتل المرأة لنفسها بنفسها لتحمي شرف الرجل، والثاني هو قتل الرجل للمرأة، وأيضاً لأجل حماية شرفه، نحن الآن نسمع أنَّ المرأة تقتل نفسها، فلِمَ تقتل نفسها؟ المرأة تقتل نفسها في مواضع كثيرة، ربما تكون هناك أزمات اجتماعية، ولكن قد يحصل أنَّها قد نظرت إلى رجلٍ في الخارج، أو ابتسما لبعضهما البعض لتكتشف العائلة الأمر فتقتل المرأة نفسها، لِم تفعلُ ذلك، ليس لأجل نفسها، لا تفعل ذلك لأنّه يُشهَر بها وتسيءُ سمعتها، إنَّها تفعل ذلك لكي تحمي شرفَ أبيها وأخواتها، إنَّها تقتلُ نفسها لأجل الرجل، الرجلُ أيضاً يقتل المرأة، فإن أخطأت ابنته، خطأ من وجهة نظره، فإنَّه يرتكب خطأً أيضاً فيقوم بقتلها، لِمَ؟ لكي يقول الناس عنه أنَّه رجلٌ شريف، ولكن إن أمعنَّا النظر، ثمة أمور متناقضة، يقولون: "المرأة الفلانيَّة فاحشة"، ولكن لِم هيَ فاحشة؟ لأنَّها تقيم علاقاتٍ مع الرجال، لكن حين يقيم الرجلُ علاقاتٍ مع النساء لِم لا يقال عنه ذلك؟!! لذا فإن حماية الجنس موضوعٌ عميق في الشرق الأوسط. لدينا أيضاً، مثلاً إن حصل وتقهقه رجلٌ فإنّنا لا ننتبه إليه، ولكن إن حصل وضحكت امرأةٌ بصوتٍ عالٍ فسيكون ذلك محطّ اهتمام، وإن لم نقل علناً، فإنَّنا نقول في ذواتنا: "ألا تخجل من نفسها!"، إن حصل وكنَّا جالسين في مكانٍ ما ومرّ فتاةٌ وشاب وهما يسيران إلى جانب بعضهما البعض، نقول لأنفسنا: "ألا يوجد أهلٌ لهذه الفتاة؟!" ولكن لن يقول أحدٌ: "ألا يوجد أهلٌ لهذا الفتى" هذا يسمَّى حماية الجنس في المجتمع، ما هي حماية الجنس مجتمعيَّاً؟ حقٌّ طبيعيّ استفاد منه الرجل، ولأجل ذلك يعتبر نشاطه حقَّاً في هذا المجال، لكن في الوقت عينِه يتمّ مواجهة حركة المرأة ونشاطها في هذا المنحى بالقتل، هذا الأمر متوفَّر في الشرق الأوسط، سوى أنَّه خَفَّ في أوروبا، وهذا متأتٍ من منطق العائلة، لذا لا بدَّ أن تكون العائلة ديمقراطيَّة في الشرق الأوسط وتخرج من إطار خصائص السلطوية والملكيَّة الخاصَّة. مثال: ثمَّة الآن بيننا رفاقٌ يبلغون من العمر عشرين أو ثلاثين عاماً يعيشون في الجبال، يقولون أنَّنا ابتعدنا عن العائلة والمجتمع وبتنا ثوَّاراً سوى أنَّ علاقاتنا ضمن العائلة ليست

ديمقراطيَّة، توضَّح هذا الأمر لدى العديد من القياديّين، حيث توضَّحت الملكيَّة، يقول: "أنا من العائلة الفلانيَّة"، لذا فإن ما يحصل للعائلة بسبب ثوريَّته يمارسُ تأثيراً كبيراً، كان لنا العديد من الرفاق ولا سيَّما في الأعوام ٢٠٠٣-٢٠٠٤ كانت تأتي أمهّاتهم/ن يذرفن دموعاً عليهنّ دون أن يتفكَّروا في الثورية أو الثورة أو أي شيء آخر ومن ثم لتغادرنَ.

تلكَ تبعيَة وعلاقات ملكيَّة، لا يقول أنني امرئ حُرّ وفاعل وحدّدت لنفسي طريقاً وبحثاً وإنني أعيش لأجل الوصول إلى ذلك الطريق، وحياتي ليست لأجل العائلة، ليس بمقدوره التغلُّب على هذه الفكرة، مثال: ثمَّة الكثير من الرفاق تركوا أعمالهم ورحلوا، لِمَ؟ يقول: "أمي مريضة، أو أنَ عائلتي تُعاني من مشاكل اقتصاديَّة وذهبتُ لمساعدتهم" هذه ملكيَّة، لا يقول لنفسه أنَّه صحيحٌ أنني من أفراد العائلة، ولكنني لزمنٍ آخر، بحثي مختلف، ولا بدَّ أن أفكر هكذا أو أن أحيا وأعمل، أنا لستُ محكوماً كي أكون نسخةً عن العائلة، لأن العائلة تلك هي السلطة، متملِّكة، وتودّ أن تجذبك باتجاه دائرتها وتغدو مثلها وتربي الفتاة كما تريد هي، فتنويم الأطفال بالنسبة للعائلة هو فعلاً في حقيقته تنويم. مثال: الأب ينجب طفلين أو ثلاثة، إلخ، لِمَ؟ لكي يكونوا عوناً اقتصاديَّاً له، أن يحموه، وما إلى هنالك، هذا هو التنويم، هذه ليست عائلةً ديمقراطيَّة، ثمَّة ملكية ضمنها، حيث أنَّ الأطفال فيها لا يقومون بتقرير مصيرهم بأنفسهم ولا يعملون وفق رغباتهم، بل دائماً ثمَّة مراسيم وأوامر تسيّرهم وفق الأشياء الموضَّحة لهم.

المرأة في العائلة مُلكيَّة، أي أنَّها بلا إرادة، لذا فإنَّ هذه العائلة أحاديَّة الجانب، ولأجل أن يتم حماية هذه العائلة مُورِس الحكم على أعضائها بشكلٍ سيء حتَّى يومنا الرَّاهن، فلكي تحمي هذه العائلة نفسها باتت بذرةَ السلطة في هذا المجتمع، لذا فإن دمقرطة العائلة أمرٌ ضروريّ، ما هي دمقرطة العائلة؟ أي تحوُّل العائلة إلى أطراف عدَّة، هذه الأمور التي تُفرَض هنا على سبيل المثال ليست مقارباتٍ برجوازيَّة، بل أن مقاربات البرجوازية تعتبر خطيرة في هذا

المجال، ولا سيَّما فيما يخص مقاربة العائلة، أي العلاقة بين الرجل والمرأة، تظهر على أنَها حريَّة، سوى أنَّها في الحقيقة عكس ذلك، يقول المثال: "الحب الحر، العائلة الحرَّة"، هذا الأمر يحمي الخراب الأخلاقي داخل المجتمع ويخدم البرجوازية أكثر الأمر وتحت إطار الحب الحر، أي أن تتحول المرأة إلى مِطية، ناضلَ لينين قبل مئة عام ضدَّ هذه الفكرة على أنَّها أسلوب المجتمع المقموع رافضاً المجتمع السفليّ، وفي يومنا الرَّاهن نحن نرفض الكثير من الأمور معتبرين إيَّاها لا تعني لنا شيئاً، فما هي تلك الأشياء التي نفرضها وننظر إليها على إنَّها لا تعني شيئاً؟ مقاربات الملكيَّة، سلطة الرجل، المقاربات على أساس عصور متخلِّفة وبعيدة عن الحريَّة، والتي تضع أحكاماً ومراسيم فيما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة، يضعون علاقة الأطفال مع العائلة، نحن نريد أن نتخلَّص من هذه الأشياء، لكن هذا الأمر يدَّعي البعض ويصفه بالتحرير الجنسي، لا، التحرير الجنسي ليس من مطالب المجتمع السفلي ولا مطلباً للعمال أو للفلاحين ولا للمرأةِ أيضاً، أكثر من ذلك، العائلة الديمقراطية لا يمكن لها أن تكون ذا اتجاهٍ واحد، بل تتواجد فيها إرادة الطفل والمرأة ولا مُلكيَّة فيها، آنذاك تعتبر دمقرطة العائلة خلاصاً من سيطرة الرجل والملكيَّة والسلطة، هذا ما تشيرُ إليه دمقرطة العائلة، هل ستتطوَّر عصر العلاقات في هذه المنطقة بذلك؟! بلا شكّ، الأمر مرتبط بديمقراطية المجتمع وبوضوح تلك الديمقراطيَّة ومن الممكن أن تتطوَّر عبر تعميق فلسفة الحريَّة، لذا فإنّ تقييم ونقد ودمقرطة العائلة تعتبر أموراً هامَّة للغاية وتم نقاشها على فترات طويلة، لذلك كثيراً ما يتمّ التوقف عندها.

رابعاً: المُلكيَّة، الدين، المذهب، القَبيلة، العَشيرة في الشَّرق الأوسط.

١ـ تأثير الدِّين والمذهب والطُّرُق في الشرق الأوسط:

ثمَّة حاجةٌ ماسَّة للنقد في الشرق الأوسط لأنَ المرء فيه ليس بمقدوره العيش بلا دين، التاريخ يتغيّر، الأزمنة تتغيَّر، ولكن الشرق الأوسط لا يمكن له أن يعيش بدون دين أو بدون الحياة الروحيَّة، إنها سمات البشر، لأجل ذلك يقول القائد في مرافعاته الأخيرة: "المرء يعيشُ ميتافيزيقيَّاً"، فما هي الميتافيزيقيا؟ المرء يمتلك على الدوام جانباً روحانيَّاً، هذا الأمر يوضِّح الفرق بين الكائن البشري وغير البشريّ، أي أنَّ المرء يعيش ميتافيزيقيَّاً، ثمة حياة روحيَّة له، ثمة يوتوبيا له، فالمرء لا يمتلك وجوداً جسدَّياً وحسب وإنَّما روحيَّاً أيضاً، وعلى أساس تلك الحياة الروحانيَّة تتأسس العلاقات في الأخلاق وأنماط الحياة، لذا لا يمكن للمرء أن يعيش بدون دين، وعليه فإن محاولات النظريات في أن تحلَّ محلَّ الدين في الشرق الأوسط باءَت بالفشل، العالميَّة والاشتراكية أرادتا أن تكونا بديلتان عن الدين عبر محاولة استبدال الحياة الروحيَّة ولكن فشلتا أيضاً في الشرق الأوسط، لكن والحال هذه فإنّ الرفض أو الإنكار لا يمكن لهما أن يزيلا هذه الفكرة عن الوجود، فالدين لم يتأسس قبل ١٤٠٠ أو ٢٠٠٠ سنة وإنَّما موجودٌ منذ الأزل سوى أنَّه غيَّر من اسمه، من نظامه، مناهجه ونماذجه.

الروحانيَّة أيضاً كانت ديناً، الطبيعة الحيَّة والأحجار والأشجار المقدسة كانت ديناً أيضاً، حيث نظرت الروحانية إلى كل شيء على أنَّه حيّ، كانت الطوطميَّة أيضاً ديناً وخلقت لنفسها الطَّوطم مستمِدَّةً منه قوَّتها الروحيَّة، صنعوا منه تمثالاً، ومذ ذلك أتى دين الإله الواحد ليستمرّ إلى يومنا الرَّاهن، وحينذاك لا تتغيَّر الميتافيزيقيَة بالنسبة إلى الروحانية للمرء كون الأخير لا يمكنه العيش بدونها، لذا فإن ثمة محاولات فعليَّة لزرع شيء ما مكانَ شيءٍ آخر غصباً، أو أن تحاول بطرق شتَّى أن تحقِّق ذلك، لكن هذه المحاولات من قبل الدول البعيدة عنَّا وتجارب الأحزاب العالميَّة في منطقة الشرق الأوسط لم تنجح وأفلِسَت، حيث هوجِمت وتم إنكارها ورفضها ومن ثمَّ إفلاسها.

في الشرق الأوسط لا يعتبر الدين حاجةً أساسيَّة، الدين هوية، هويَّة المرء، مشاعره، حبّ وكره، الدين مقاييس أخلاقيَّة، أي أنَّه يأخذ شكله من الدين لذا ليس بمقدوره العيش بدونه. لأجل كل ذلك لا بدَّ وأن نفهم أن الدين مشكلة جديَّة ويلعب الدور البارز في أزمات الشرق الأوسط، لِمَ؟ لأن الدين -حتَّى يومنا الرَّاهن- لم يُمنهَج بالشكل الصحيح ولم يأخذ شكله وفقاً لاحتياجات المجتمع ولم يبتعد أبداً عن السلطة، لذا يكون سبباً رئيسيَّاً في الأزمات.

لقد بات الدين ذا تأثيرٍ كبير على الأزمات في الشرق الأوسط، فالسلطة تعبِّر عن نفسها بالدين، لذا فإنّها تقوم بتصفية المعارضة الاجتماعية، السلطة قدَّست الدين وجعلت منه المطلق ولا سيَّما القرآن والأحاديث، وصف الله، وصف النبي الأخير، الله الكبير الذي يمتلك كل شيء، يسمع كل شيء ويعرفه، وهذا ما أدَّى إلى أن يكون سبباً رئيسيَّاً لأن يكون نقاشه إثماً ومحت السلطة هذا النقاش عن الوجود، لِمَ؟ لأن السلطة حين قدَّست الدين قدّست نفسها أيضاً، وهذا الوضع قائم حتَّى يومنا الرَّاهن، فالإمبراطوريات فرضت كل شيء على الشعب عبر الدين، الإمبراطورية العثمانيَّة استغلَّت الدين الإسلامي بشكلٍ كبير، لا سيَّما أنَّها اتَّخذت المذهب السنّي أساساً معتبرةً إيَّاه هويَّةً إيديولوجيَّة، لتتمكَّن بهذا الشكل من الحصول على تأييد الشعب المسلم

في المنطقة وتخرج ضدَ أوروبا وضدَّ المسيحيين ولتغدو امبراطوريَّةً كبيرة، لذا لم تخدم السلطة السياسيَّة مفاهيم التغيير أو الدمقرطة، بل خدَمت على الدوام الدوغمائيَّة الدينيَّة، لتوفِّر لنفسها من خلالها أسباب الوجود، هذا الموضوع قابل للنقاش في كل الأوقات ولا يجب أن نقترب منه على أنَّه غير موجود، بل يُعتبر مشكلةً جديَّة، يعني أنَ رجلاً ثوريَّاً لا يمكنه التفكير بتلك الطريقة، أي أنَّنا اقتربنا منه وكأنَّه غير موجود بدون أي انتقاد وبتنا على علاقة مباشرة معه، ولكن إن أمعَّنا النَّظر، إن واظبنا على ذلك، الآن ثمة الملايين من البشر يخرجون إلى الشوارع تحت شعار: "يعيش القائد آبو" ولكن هذه أمور ماضية، ثمة محاولات في أن توجَّه هذه الحركة نحو قنوات ومواطن أخرى، وهو الدين، هذا الأمر له تأثيره العظيم، فإن أنكرت الدين لن تستطيع المواجهة، لذا ولأجل الدمقرطة لا بد أن نصرَّ على تغيير الدين ونعطي القوَّة لذلك التغيير، لا نستطيع فعل ذلك بأنفسنا، لكن لا بدَّ وأن نعطي القوَّة لنشاط هذا التغيير ودمقرطته، لأنه على النقيض من ذلك ثمَّة الإسلام السياسي، فما هو الإسلام السياسيّ؟ الإسلام السياسي يحمَّل بعض القيم على أساس الدين، يزرعها، ليغدو سلطةً بهذا الشكل، أي أنَّه إسلامٌ له مقاييسه وشروطه الخاصَّة، ومن ثم يغدو سلطةً، أي أنَّ الدين يغدو أداةً للسلطة، نحن لا نفهم الدين على أنَّه أداةٌ من أدوات السلطة، إنَّما نودُّ أن نفهمه على أنَّه قوَّة أخلاقيَّة اجتماعيَّة، لذا لا بدَ أن يمرّ بتغييراتٍ لدمقرطته وألا يتوحَّد مع السلطة، بل أن يؤمّن القوَّة الأخلاقيَّة داخل المجتمع، ويتحكَّم أخلاقيَّاً بحركة ونشاط المجتمع، على الدين أن يأخذ هذا الدور، ولا بدَّ أن نعمل على هذا الأساس لكي نُزيد قوَّة هذا النشاط ونطوّره. ما كانَ للدين في الشرق الأوسط أن ينفصل يوماً عن السلطة، فحتَّى الآن ثمة دول تحكُم بالدين وتراهُ يليق بحكمها، وعلى هذا الأساس تحكم تلك الدول مرَةً أخرى وفقَ نمطٍ دينيّ وبشكلٍ دوغمائيّ، سوى أنَّ الإمبرياليَّة استغلت الدين مؤخَّراً لأجل نفسها كثيراً، السلطة استغلَّت الدين كثيراً لأجل نفسها وكوَّنت الطرق والمذاهب الدينيَّة، سنتوقف عند هذه المذاهب والطرق ولو باختصارٍ واقتضاب.

٢ـ ظهور المذهب الشيعيّ:

من هم الشيعة؟ الشيعة أو حزب علي بن أبي طالب، لكن هذه مقاربة دينية وسياسيَّة فقط، هذا صحيح، كان لعليّ أنصار، ولكن الشيعة من ناحية الملكيَّة موجودة لدى الفرس وبعض الناس الآخرين أكثر من أنصار علي، أي أخذوها كملكٍ لهم، اتخذوها أساساً كي لا يدعوها في أنظمة العرب السياسيَّة، لذا اتخذوا الشيعة كهويَّةٍ قوميَّة، مثلاً الشيعة الآن هي من تحكم في بلاد فارس.

لا شكَّ وأنَّ لها أهدافاً سياسيَّة ومنابع أخلاقيَّة، لقد ندم البعض لأنَّهم لم يمدُّوا يد العون إلى حسين حين قُتِل، ولم يخرجوا ضد هذا الظلم، لذا يعذِبون أنفسهم وجدانيَّاً، ولأجل ذلك يضربون أنفسهم أحياناً وما إلى هنالك من طقوس، لكن الفرس ولكي يظهروا خصوصيَّاتهم وسماتهم لشعبٍ مثل العرب أعلنوا عن هذا مذهبهم من الناحية الدينيَّة، أي أحيوا عبر ذلك خصوصياتهم القوميَة، لذا ثمَّة مختلفون ضمن الشيعة أنفسهم، ثمة شيعة الإثني عشر إماماً، كما في إيران، فمن هؤلاء؟ إنَّهم في الحقيقة يعلنون عن طريقةٍ دينيَّة قديمة ويتّبعونها، ينتظرون الخلاص، فماذا هو الخلاص؟ من هو الذي سيخلّصهم؟ إنَّه المهديّ، فمن هو المهديّ؟ المهديّ هو الإمام الثاني عشر الذي تاهَ منذ العام ٨٧٠ اسمه محمد المهدي، حسبما يُشاع، وسيحيا مرَّةً أخرى، يقولون عنه أنَّه قد تاهَ ولا أحد يعرف إلى أين ذهب، لكنه سيعود ليخلِّص الشيعة، لذا كلَّما خرج شخصٌ مشهور أو يذيع صيته، يقول الشيعة على الفور: "أيعقُل أن يكون هذا هو المهديّ؟!" لذا حين عاد الخميني من فرنسا وحطَّت طائرته قال البعض على الفور: "قد يكون هذا هو المهديّ"!! كان ثمَّة متديّنٌ ديمقراطي إيراني يدعى آية الله طلقاني، طلقاني يقول في سرّه: "إن لم يأتِ المهديّ بطائرة، فإنه من المؤكَّد سيأتي بشيءٍ آخر"، ثمَّة بحثٌ دائمٌ عن عودة المهديّ ليخلّصهم، ثمة البعض يأخذون سبع أئمَّةً أساساً وهم من ذريَّة علي، والإسماعيليَّون من بينهم يأخذون سبعة آئمَّة أساساً ومنطلقاً، وتلكَ طريقة، مذهب، لكنّه ليس مذهباً أو

طريقةً للسلطة، بل على العكس هي دائماً خارج السلطة، سريَّة، تعمل في الخفاء، أو تنظِّم نفسها بنفسها، حتَّى أنَّها تملك بعض الجوانب التنظيميَّة الكونفدراليَّة، لها عدلها، ثمة محاكم عدل إسماعيليَّة، ولها أساليبها الاقتصادية، ينفقون على رجالها ويفتتحون لهم دكاكينَ للعمل، ويعلّمونهم، بهذا الشكل تعتبر جماعةً عالميَّة، موجودون في سوريا، إيران، أوروبا، باكستان، وينظّمون أنفسهم على ذلك المنوال. ثمَّة البعض منهم مختلفون، فعلى الرغم من كونهم شيعة، لكنهم مختلفون عن شيعة إيران، مثال: ثمَّة البعض منهم الآن في اليمن يسمَّون بالزيدية، هؤلاء الذين في عصرنا يحاربون الدولة أحياناً، هؤلاء شيعة، ولكنّهم يختلفون عن شيعة إيران، ولا يقبلون الخلفاء أيضاً ويقولون: أبو بكر رجل جيد، وعثمان وعمر أيضاً، إنَّهم جميعهم خلفاء، لكنَّهم يحبَّون عليَّاً أكثر، سوى أن الشيعة في إيران لا يؤيّدون أبو بكر وينفرون من عثمان ويرفضون عمر، لا يذكرون اسمه حتَّى، بهذا الشكل يحمون في الحقيقة خصوصياتهم القوميَّة والاجتماعية عن طريق الدين. العلويّون مختلفون عن الشيعة بشكلٍ مطلق كما أن سماتهم الدينية أيضاً مختلفة تماماً، حيث يفسِّرون نضالهم ضد الظلم عبر علي، بالقبول به وحبّه، ليغدو بهذا الشكل ديناً للطبقة المقموعة التي دائماً ما يُمارَس ضدَّها الاستغلال، نستطيع القول في يومنا هذا أنَّ السلطة تقوم باستخدام هذه المذاهب مهما كانت مصادرها بشريَّةً أيضاً، سوى أنَّها مذاهب يتم استخدامها عبر السلطة السياسيَّة.

٣- نشاط الحركة الوهابيَّة في يومنا الرَّاهن:

سنقف عند بعض الخطايا في يومنا الرَّاهن، ومن بينها الحركة الوهابيَّة التي تأسست نهايات القرن الثامن عشر، أي خلال العام ١٧٨٠ ومن بعدها في الجزيرة العربية التي تعني الآن السعوديَّة حيث ظهرت الحركة على أساس نسل شخصٍ يدعى محمد عبد الوهاب وتطوَّرت. تَعتبر هذه الحركة نفسها

ضدَّ الغرب، أي أنَّها سَلَفيَّة لا تقبل المذاهب ولا الطرق ولا الصوفيين والشيوخ أو الأسياد، بل يقبلون الدين والقرآن والأحاديث فحسب، إنهم سنَّة، لذا يكفِّرون كل من يخرج عن السنَّة، غاضبون من الشيعة ومن بقية الطرق الدينيَّة الأخرى، وينفرون منها ولا يقبلونها، وفي الآن نفسه هم ضدَّ الغرب، ما الذي قالته هذه الحركة، قالت: العثمانيَّة ضعيفة وتعيش في مشاكل لأنَّها ابتعدت عن الدين فيما أوروبا تتقدَّم من ناحية الفلسفة والعلم والصناعة والتقنيَّة وسوف تهاجمنا، لذا ظهرت هذه الحركة باسم الوهابيَّة لتصحيح الخراب الذي حصل في عهد العثمانيين ولكي يواجهوا أوروبا، وهي حركة مستمرَّة حتَّى يومنا الرَّاهن عبر شخصيَّات مثل أسامة بن لادن، كما أن المسؤولين السعوديين اليوم هم كلهم وهابيَّون، إنَهم سلفيَّون أو يرجَعون إلى المصدر أو النبع الأصليّ، وبالنسبة إليهم يُعَدُّ القرآن والنبي هما الأساس ولا يقبلون بشيءٍ آخر فيما عدا ذلك، منغلقون ومتشددّون ومتطرّفون وتكفيريَّون، ينظرون إلى من هو خارج الإسلام على اعتبارهِ كافراً، لذا فإنَّهم يستندون إلى التطرُّف. لكن إن أمعَّنا النظر سنرى أنَّ هذه الحركة استُغلَّت دائماً من قبل الإمبرياليَّة والرأسماليَّة. كيف استفاد الإنكليزيَّون من هذه الحركة؟ تلك الحركة في عمقها ضدّ أوروبا، لكن الإنكليز رأوا أنَّها تنتقد العثمانيين وبما إن الإنكليز يقفون ضدَّ العثمانيين فقد استغلَّوا الحركةَ تلك واستخدموها ضدَّ العثمانيَّة وبدأت مقاومة العرب الأوّليَّة ضدّ العثمانيين في السعودية، حيث لعبت الحركة الوهابيَّة دوراً وتأثيراً أساسيَّاً وبعونٍ من الإنكليز، في يومنا الرَّاهن فإن هذه الحركة تحت مراقبة من الاستخبارات الأميركيَّة وعبر أشخاص مثل بن لادن وطالبان حاربوا السوفييت، إنَّها حركة دينية، الأهمّ هو أن نفهم هذه النقطة، كيف كان لهذه الحركة أن تجمع لها مؤيّدين؟ هل كان الأمر طبيعيَّاً أن تطالب الاستخباراتُ الأميركيَّة السعودية: "فلتعثروا لنا على رجلٍ ينظِّم المقاومة ضدَّ السوفييت في أفغانستان"؟ لقد تمَّ الأمر بسابق تخطيطٍ ومعرفة، حيث كان باستطاعتهم الخروج ضدَّ السوفييت عبر شيء واحدٍ، ألا وهو حماية الإسلام، لذا توجَّهت الاستخبارات الأميركية إلى السعودية بعد احتلال السوفييت لأفغانستان خلال العام ١٩٧٨مطالبةً العائلة

المالكة: "نريدُ منكم رجلاً يُطالب بالمقاومة ضد السوفييت باسم الإسلام وأن يطوِّر من الجهاد، نريد أن يكون واحداً من بينكم وأن يُكلَّفَ بتنظيم تلك المقاومة" لم يخرج أحدٌ من العائلة المالكة للذهاب إلى أفغانستان، فيما خرج سليلُ عائلةٍ غنيَّة تعود بأصولها إلى اليمن وتعيش في السعودية، كانت عائلةً ثريَّة كملوك السعوديَّة وكانوا خدماً لهم، وكل الأبنية التي تُبنى في بلاد الخليج تُبنى تحت اسم شركتهم، ووهابيَّون بالطبع، سليلُ تلك العائلة كان أسامة بن لادن الذي أبدى استعداده ودخل إلى أفغانستان لأجل ذلك، جمع المسلمين والعرب من مختلف الدول هناك واستخدمهم كحركةٍ إسلاميَّة ضد الاحتلال السوفييتي، وفي بواطنهم عملوا على أساس تحرير أراضي المسلمين، هكذا استفادت الإمبرياليَّة من هذه الحركة. من الممكن الحديث بشكل واسع عن الطرق الدينية كالنقشبنديَّة، القادرية، وغيرها، ومن الضروري أن نفهم نقطة الاستفادة، حيثُ لا يمكن إهمال المذاهب أو الطرق الدينيَّة في الشرق الأوسط.

فلنمعن النظر إلى أنَّ البعث لم يكن حزباً دينيًّا حين حكَمَ العراق، لكن بعد استلام صدام حسين سُدَّة الحُكم بثلاثين عاماً دوَّن على العَلَم العراقيّ: "الله أكبر" فبالكاد بإمكانه أن يعود إلى الدين ليقف في مواجهة الخارج، فالحركة قبل ذلك كانت حقيقيَّة حتَّى أنَّها كانت اشتراكية، سوى أنَّها عادت مرَّةً أخرى إلى أحضان الدين، ثمة قوى أخرى على هذه الشاكلة، فلِمَ؟ لأنّها في الحقيقة هكذا ولا يمكن المرء أن يغضَّ النظر عنها. لننظر إلى العراق الآن، فلتقم أميركا طوال اليوم ببناءِ مشاريعٍ وإجراءِ انتخاباتٍ أو شراء نفوسٍ ودفع أموال وأن تدخل بأسلحتها وجيوشها معتقدةً أنَّها غيَّرت التصميم والشكل، سوى أنَّه وبفتوى واحدة من السيستاني -الذي يعتبر مرجعاً للشيعة في العراق ويبلغ عددهم ستون في المائة من المجموع العام-يستطيع أن يُقلِبَ مشاريعَ أميركا رأساً على عقِب، فالسيستاني هو المرجعيَّة الروحيَّة للشيعة، هذه قوَّة مذهبية ولا يمكن للمرء أن يتغاضى عنها.

القوَّة الدينيَّة هي من أسقطت شاه إيران وأنهكت سلطته، فما هي القوَّة الدينيَّة؟ القوَّة الدينية بالنسبة للشيعة هي المرجعيَّة الدينيَّة، وقوَّتها رجال الدين، آيات الله الذين يجتمعون في مكانٍ ما ويتولَّون إصدار الفتاوى، لذا فإن هذه النقاط في الشرق الأوسط ليست مجرَّد أمور سهلة للعثور على بدائل لها أو أن يُغَضّ الطَّرف عنها وألا يُحسب لها حساباً، لأنها تستطيعُ تسيير الحركة الاجتماعية، هذا أمرٌ صعب، لذا فإن دمقرطة المذاهب، معرفتها، دمقرطة الدين وتغييره، تعتبر مشاكلَ أساسيَّة، وكيف يمكن لنا أن نطوّر من الإسلام الثقافي وليس الإسلام السياسي، أن نطوّر ونقبل بقوّته الأخلاقيَّة وليس قوَّته السلطويَّة، أن نجعله قوَّةً بغية التخلَّص من الأزمة الموجودة، هذه الأزمة التي تلعب فيها المذاهبُ دوراً أساسيَاً في مشاكل الشرق الأوسط.

٤ـ تأثير القوميَّة في أزمة الشرق الأوسط:

من المشاكل الهامَّة التي تلعب دوراً بارزاً في أزمة الشرق الأوسط، مسألة القوميَّة، وهي كمقاربة وفهم ليست نتاجاً من نتاجات الشرق الأوسط بل غريبة عنه، هذا لا يعني بأنَه لا وجود للأقوام أو الشعوب أو القوميَّة في الشرق الأوسط، لكنَّ القوميَّة أمرٌ آخرٌ مختلف، القوميَّة المبنيَّة على أساس قوميَّة الدولة القوميَّة، أو الدولة القوميَّة، التي تعبَّر عن جماعة بشريَّة لها عاداتها وتقاليدها وثقافتها ولغتها وأكثر من جغرافيتها، فما الذي تفعله؟ الصَّهر عبر الإكراه داخل قوميَة أخرى، أي التعبير عن السيطرة والحكم، إعلاء شأن شعب أو قوميَّة على حساب أخرى، على هذه الأُسس: الانحلال، الانصهار، على الرغم من أن الطريقة فكريَّة، سوى أنَّها بثقلٍ تُمارِسُ الإكراه والإجبار. هذه الفكرة ليست فكرةً للشرق الأوسط، لكن حين نقول ذلك فإننا لا نعني أنَّه ليس ثمَّة شعوباً أو قوميَّاتٍ في الشرق الأوسط لها خصائصها المستقلَة، لغاتها، آدابها، ثقافاتها، وثمَّة جغرافيَّة خاصة بها استقرَّت ضمنها، كل هذه الأشياء كانت موجودة، ولكن دائماً كانت النماذج السياسيَّة أو

التنظيمات السياسيَّة في الشرق الأوسط منفتحةً على الآراء، ماذا يعني هذا الانفتاح؟ أي لا إكراه على الانصهار والإجبار على عدم القبول، بل أنَّ ثمَّة قبول لتاريخ ولغات وعادات وتقاليد الأشخاص الآخرين وثمَّة فرصة للحياة المشتركة دائماً.

ورغم الظلم والعنف في بعض الأحيان، لكن دائماً كانت هناك فرصة للحياة المشتركة، لأجل ذلك ثمة فسيفساء ملوَّنة وُجِدَت في الشرق الأوسط قبل تأثير الحداثة الرأسماليَّة، فسيفساء غنيَّة وثريَّة جدَّاً، ونادراً ما توفَّرت صعوبات أمام أن تعبِّر تلك الألوان المختلفة عن ذواتها، كان ثمَّة مسيحيَّون، مسلمون، مذاهب مختلفة ومتنوّعة، ثمة أديان مختلفة، الدين المسيحي، الإسلامي، اليهوديّ، حتَّى أنَّ الأديان القديمة كانت موجودة مثل البهائيَّة، الزرادشتيَّة، الصَّابئة، ثمة أديان ومذاهب أخرى مختلفة، ولكن السمات التي ظهرت مثل الإبادة، الكسر، والإمحاء بكافة أشكاله والانصهار التي ظهرت خلال المئة سنة المنصرمة، لم تكن موجودةً في تاريخ الشرق الأوسط، لم يسبق وأن ظهرت العنصريَّة الدينيَّة الموجودة الآن في تاريخ الشرق الأوسط القديم، أي لم يحصل مطلقاً في تاريخ وجغرافيَّة الشرق الأوسط القديم ما حصل في المائة عام الأخيرة من إمحاء وانصهار قسريّ، مثال: وضع المسيحيين في العراق، وضع الأديان الأخرى في مصر مثل البهائيَّة أو الزرادشتيَّة وغيرها. هذا كلَّه تأثير الحداثة الرأسماليَّة، وبشكلٍ خاصّ يقول القائد:" من يجعل الحداثة الرأسماليَّة واقفةً على قدميها هي الرأسمالية الصناعيَّة والدولة القوميَّة"، هذه منتجات الدولة القوميَّة والقوميين أو القوميَّة التي صنعتها الشرق الأوسط.

٥ـ القوميَّة هدفاً للسلطة:

هل القوميَّة هدفٌ من أهداف السلطة أم مطلب للسلطة؟ لقد تطوَّرت مع البرجوازيَّة، كيف حصل ذلك؟ البرجوازيَّة ولكي تسيَّر أمورها بشكلٍ أكبر وتكون مسيطرةً على رأس المال وتوزَّع كل ما تنتجه في كل مكان فإنَّها بحاجة إلى السوق، إلى الجغرافية الموَّحدة، لأجل ذلك أعلَت راية القوميَّة ونادت بالقوميَّة، لأنَّه إن توفَّرت في بلدٍ ما نشاطات حياتيَّة وثقافات مختلفة لن تستطيع الرأسمالية السيطرة في ذلك البلد كونها نظاماً مركزيَّاً، نظامَ البلد الواحد، الباب الواحد، الجمركة الواحدة، الثقافة الواحدة، اللغة الواحدة، حتَّى العادات والتقاليد الواحدة، أي أنَّها تصنع شكلاً متجانساً لكل المواطنين كي يكون بإمكانها فتح الطريق أمام المواطنين والسلطة، ويكون الطريق مفتوحاً أمام استهلاك منتجات رأس المال، أن يكون الذوق موحَّداً، الموضة هي نفسها، أنماط الحياة موحَدة، اللغة واحدة، العلم يكون واحداً ويقدّس كل تلك الأشياء، كأنَها أمورٌ موجودة منذ ملايين السنين وهي في الحقيقة ليست كذلك، بل إنّها وجدت خلال الثلاثمئة أو الأربعمئة سنة التي ظهرت فيها سلطة الرأسمالية وتطوَّرت معها.

٦ـ نظرية القوميَّات في النظام الرأسماليّ:

النظريَّة القوميَّة في النظام الرأسماليّ مرتبطةٌ دائماً بمصالح السلطة، نريد أن نتحدَّث عن هذا الأمر باستخدام أمثلةٍ قصيرة وسريعة، ما هي تأثيراتها على الشرق الأوسط؟! حين نفهم النظرية القوميَّة الخاصَّة بالألمانيين، ما الذي نرى فيها؟ نرى أنَّها تؤكَّد على قاعدة اللغة، فيما أنَّ النظرية القومية في فرنسا تجعل من الإرادةِ قاعدةً، في وقتٍ نرى فيه إنكلترا أكثر انفتاحاً وليبراليَّةً وتأخذ صيغة مصالح الإمبراطوريَّة التي تُمكِّنها أن تكون حاكمة على قوميَّاتٍ كثيرة. الألمان يتّخذون اللغةَ أساساً، لكن لِم يفعلون ذلك؟ الآن

فلنمعن النظر، إن فهمنا الأمر وفقاً لحقيقة المسألة، الألمانيون كقوميَّة وشعب كان ضروريَّاً لهم أن يكونوا أقرب بشكلٍ أكبر إلى الاتحاديَّة والديمقراطيَّة، فهي ناضلت منذ الماضي ضد إمبراطوريَّة روما إلى أن باتت سبباً رئيسيَّاً من أسباب انهيار الإمبراطوريَّة، أي أنَّها مقاومة عشائريَّة قبليَّة ولأجل ذلك اعتمدت السلطةُ في منهاجها بشكلٍ أكبر على المحليَّة. لم تكن ألمانيا دولةً قوميَّةً واحدة عام ١٨٧٠، لكن مع "بسمارك" باتت دولةً قوميَّة واحدة، ففي الماضي كانت اتحاداً لمئات الدول أمَّا بعد ذلك تكوَّنت من عشرات الدول، فحين أدخل "بسمارك" اتّحاد الدولة الألمانية ضمن أجندته كانت آنذاك تتكوَّن من ثمانية وثلاثين دولة، سوى أن السلطات بحاجة إلى دولة ألمانيَّة قويَّة، ليس فقط دولة ألمانيّة قوية بل إمبراطوريَّة ألمانيَّة، لأجل ذلك كان لا بدَّ عليهم في البداية أن يؤسِّسوا دولةً ألمانيَّة قويَّة، فعلى ماذا استندوا لتأسيس هكذا دولة؟ اعتمدوا على اللغة أساساً لتأسيسها، ثمة العديد من الدول التي تستخدم اللغة الألمانيَّة سوى أنَّهم ليسوا ألمانيين ولا داخل الدولة الألمانيَّة، لذا جعلوا اللغة في المقدِّمة كي يتمكَّنوا من جمع كل تلك الدول الألمانيَّة داخل دولةٍ واحدة، كي يجعلوا النمسا جزءاً ألمانيَّاً كونها تستخدم اللغة الألمانيَّة، جزءاً من سويسرا، جزءاً آخر من فرنسا، مثال: ثمَّة في بعض الأماكن الفرنسية ألمانيون، حيثُ ثمة منطقتين هما الألزاس واللورين وهؤلاء ألمانيَّون في لغتهم ولكنهم يعيشون خارج الجغرافيا الألمانيَّة، فلنمعن النظر هنا كيف أنَّ مصالح السلطة تمارس تأثيرها على شكل النظرية القوميَّة. فرنسا لم تأخذ اللغة منطلقاً، بلا شكّ اعتمدت على اللغة الفرنسيّة كشكلٍ رئيسي لقوميَّتها، سوى أنَّها ركَّزت أكثر الأمر على الإرادة، لأجل ذلك ثمَّة أشخاص بقوميتهم فرنسيَّون ولكنَّهم ليسوا كذلك بلغتهم، سوى أنَّهم يريدون العيش تحت ظلِّ العَلَم الفرنسيّ، ولا سيَّما بشكلٍ خاصّ قسمٌ منهم يعيشون في المناطق الألمانية في فرنسا.

ومرَّةً أخرى، في دولة أخرى أو نظريَّةٍ قومية أخرى، تستطيع أن تقول عنها نظرية طبيعيَّة لم تتطوَّر على أساس مطالب الشعب إنَّما على أساس مصالح

البرجوازيَّة، لأنَّ دولة هكذا بلغةٍ واحدة، شكلٍ واحد، تأخذ الضرائب بشكل موحَّد، وبرايةٍ واحدة، غايتها أن تكونَ مسيطرة وتَتحكَّمَ في جغرافيَّة البلاد برمَّتها، هذه الدولة القوميَّة تُخرج المجتمع عن مجتمعيَّته وتأخذ الدولة أساساً ومنطلقاً، فالدولة تقيم علاقات فرديَّة مع المجتمع وعلى هذا الأساس ارتبط كل فردٍ بالدولة، لا ارتباط يمكن ذكره بين الأفراد ولا يتحمّلون مسؤولياتهم إزاء بعضهم البعض، وبهذا الشكل تُخلِّد السلطة نفسها، كل هذا طبعاً بالإضافة إلى أقسام الرأسماليَّة التي من الممكن الحديث عنها بإسهاب.

٧- تطوير القوميَّة عوضاً عن الأمَّة في الشرق الأوسط:

لكن ما الذي يعنيه ذلك للشرق الأوسط؟ الشرق الأوسط لم يعلم جيّداً بهذه النظريّة ولم يكن له علاقة قويَّة بها، لِمَ؟ لأنَّه احتوى بداخله العديد من الأديان الأخرى والقوميَّات المختلفة، كان ثمة الإسلامويَّة لولا انهيار الإمبراطوريَّة العثمانيَّة خطوةً إثر أخرى، فالأشخاص الذين كانوا يذهبون إلى فرنسا أو إلى ألمانيا وبلدانٍ أخرى للدراسة يعودونَ جالبينَ معهم هذه الفكرة القوميَّة كفكرة متطوّرة ناظرين إليها على أنَّها طريقٌ للخلاص، وعلى هذا الأساس دوَّنوا كتبهم ومارسوا أنشطتهم النظريَّة والعمليَّة وطوَّروها وأسسوا تنظيماتٍ وساهموا في تطوَّر الأشخاص، وعلى هذا الأساس تطوَّرت فكرة القوميَّة في القرن العشرين، لا سيَّما في مرحلة ما قبل الحرب العالميَّة الثانية وبعدها، ومهما كانت الفكرة القوميَّة التركية والعربيَّة والفارسية ضعيفةً في الجزء الكردي إلا أنَها لم تجد لنفسها مجالاً تنظيمياً وتطورت أفكار أخرى بهذا الشكل، لذا في أوروبا حين نتحدَّث عن فرنسا فإنَنا نصفها بالجمهوريَّة الخامسة، في ذلك الوقت ومنذ العام ١٧٨٩ حين تمَّ الإعلان عن الجمهوريَّة ومن ثمَّ بعد ذلك المشاكل التي عاشتها، فإن فرنسا عاشَت حتّى يومنا الرَّاهن خمسة عقودٍ من الجمهوريّة، لا وجود للنموذج السابق، ففي ذلك الوقت كانت كل جمهوريَّة مرحلةً وعهداً، الجمهورية الأولى، الثانية، وهكذا دواليكَ

وصولاً إلى الخامسة، حيث خطوةً إثر أخرى كانت تغيّرُ قوالب الديمقراطيَّة وأشكالها وتُمرّرُ مناهج الدول القوميَّة في ميزان التغيير، مثال: إن كانت فرنسا يوماً ما قد منعت لوناً مختلفاً خارج فرنسا فإنَّها جعلت منهم اليوم أحراراً ومستقلين، ففي راهنِ الأيَّام ثمَّة مناطق خاصَّة للمستقلّين، ثمة بيوتٌ خاصَّة لهم ويتم قبولهم في فرنسا، حينذاك فإن الدولة القوميَّة أو الجمهوريَّة تعبُر في التغيير، ثمَّة دول مختلفة في أوروبا كانت أحاديَّة السلطة وبلونٍ واحد إلَّا أنَّها أُجبرت على تقبُّل الوضع القائم كما هو الحال مع بلجيكا والفلمنكيين، ألمانيا التي قبلت الكثير من الأقوام الأخرى، إنكلترا ومشكلة الإيرلنديين، الغاليين، الويلز، أسكتلندا، أو مثل مسألة الباسك في إسبانيا، هذه البلدان أجرَت تغييراتٍ كبيرة بداخلها، رأت أنَّها لن تستطيع الاستمرار على المنوال الذي بدأت به، ولكن هل تقبَّلت الجميع؟ بالتأكيد لا، لم تتقبَّل الجميع سوى أنَّها أدخلَت التغييرات، وهنا تكمن مشكلة الشرق الأوسط، فكما أنَّه حصل واتّخذ الدين أساساً، فقد اتخذ من الشعب أساساً هذه المرَة، أي العنصريَّة تحت مسمَّى الحرب التي نخوضها ضدَّ الاحتلال، الصهيَنة، حيث دائماً تتقدَّم مسألة القوميَّة لدى الفرس أو العرب، وهؤلاء درسوا في أوروبا ومن جلب تلك الأشياء؟ مثال: مصطفى كمال نسخة كاملة عن حركة أوروبا القوميَّة من كل جوانبها، ولا سيَّما موضوع الدولة القوميَّة، الفيدراليَّة، المركزيَّة، النموذج الواحد انطلاقاً من اللباس، اللغة، الأحرف، وكل شيء، كما أنَّ حركة الناصريَّة التي ظهرت مع جمال عبد الناصر كانت تحت تأثير أوروبا أيضاً، فالأشخاص الذين بنوا تلك الحركات درسوا جميعاً في فرنسا، ألمانيا، أسسوا مشاريعَ فيما يخص القوميَّة وقبلوا القيم القوميَّة على هذا الأساس، وبمقابل الدينيَّة أو الاشتراكية وكل الأنشطة والحركات الأخرى، كانت هذه القوَّة المثقفَّة المتعلِّمة تحوي كل تلك الأشياء بداخلها واهتمَّت بالطبقات المتوسِّطة وباتت سلطةً في أكثر من دولةٍ بالعالم بعد الحرب العالميَّة الثانية أي بعد العام ١٩٤٥، هذه السلطة، أو سلطة هذه الفكرة القوميَّة كانت مسيطرةً في تركيا، ربما لا تكون مسيطرة في إيران كما في تركيا، سوى أنَّها كانت فكرةً مسيطرة لدى العرب برمَّتهم.

٨- حال الدول في الشرق الأوسط:

الدولة القوميَّة تعتبر مشكلةً جديَّة، لِمَ تعتبر مشكلةً جديَّة؟ الآن لا توجد بشكلٍ طبيعي ومتجانس في الشرق الأوسط، فلننظر إلى سوريا، ثمَّة في شمالها الكرد، وعدا عنهم ثمَّة شعوبٌ أخرى مثل الآشوريين والأرمنيين، وفي جانبٍ آخر من سوريا ثمة الدروز، ثمَّة العرب، العرب السنَّة، العرب العلويُّون، التركمان، السريان، هؤلاء كلهم موجودون، لكن سوريا الآن اسمها: "الجمهوريَّة العربيَّة السوريَّة" ويحكمها حزب البعث، فما هو حزب البعث؟ تأسس الحزب على أساس الشعب الواحد، لكن هذا الفهم متناقض مع الوضع الطبيعي القائم، لذا فقد استند هذا الحزب إلى الانصهار، يصهر الكرد، يصهر الشعوب الأخرى بهدف تحقيق ما يريده. ثمَّة في العراقِ الكرد، إلى جنوبه الكرد، وإلى شماله الشيعة، الآشوريون، التركمان وشعوب أخرى، ثمة الفرس، كما أنَّ التاريخ يقول أنَّه وحتَّى العام ١٩٧٠ كان لا يزال ما يقارب الثلاثين ألفاً من الصَّابئة موجودون ولكن خِفيةً، فدينهم ولغتهم مختلفان، لغتهم هي الآراميَّة القديمة، كانوا يحمون أنفسهم، ولكن الآن لم يتبقَّ من الثلاثون ألف سوى ستَّة آلاف، كل تلك الشعوب موجودة، ولكن الدولة تُدار من قبل مَنْ؟ من قبل حزب البعث، وحزب البعث بِمَ يُعرَف؟ يعرف بالحزب الذي يحوي شعباً واحداً: وهُم العرب. في دول الخليج: السعودية، عمان، اليمن، الكويت وقطر والإمارات والبحرين، ثمة العديد من المذاهب والقوميات التي تعيش فيها دونَ أن يسمع المرءُ بها ذي قبل، مثال: في عمان حين يقال عنها أنَّها دولة العرب، لكن ثمَّة في داخلها وبشكلٍ خاص في منطقة تسمَّى "ظفار" شعبٌ يسمى الشعب الشعاري، وهو شعبٌ مختلف من حيث لغته وعاداته وتقاليده، لكنه شعبٌ غير معروف، ولا يتم تقبُّلهم، وعلى إثر نتيجة إبقائهم خارجاً -كما يفعل الأتراك مع اللازيين-باتوا عرباً، بالكاد قد يستطيع المسنَّون منهم أن يتحدَّثوا بلغتهم الخاصَّة. ثمَّة أشخاصٌ في دول الخليج ينتمون بعرقهم إلى الهند وثمة فرسٌ أيضاً، وربما قد تكون هناك شعوبٌ لم نسمع بها حتَّى الآن، لكن يظهرون للخارج فقط على أنَّهم عرب.

إن حصل إحصاءٌ مناسب في بلاد شمال أفريقيا، ليبيا، الجزائر والمغرب وفاس وتونس، قد تكون النتيجة أنَّ أعداد العرب قليلة جدَّاً، لأن تلك البلاد تاريخيَّاً كانت بلاداً للبرابرة، والبربر شعبٌ معروف بلغته الأمازيغيَّة -وفي السنوات الأخيرة ولا سيما في العهد الأموي- دخلوا الإسلام وتعرَّفوا إلى الثقافة العربيَّة، العرب كانوا قد دخلوا تلك البلاد، ولكننا نرى الآن أن تلك الشعوب الأصليَّة في بعض الأماكن يُمنعون من التعلُّم بلغتهم الأمّ، يتمّ منعهم عن تعلُّم لغتهم الأمازيغيَّة، ليغدو الأمر في أغلب الأحيان سبباً رئيسيَّاً للفوضى. كنَّا نعرف السودان كدولةٍ عربيَّة، ولكن القسم الأعظم من شمال السودان ينتمون إلى شعوبٍ أخرى مختلفة، وهم الإفريقيون، مثال: في "كارفور" تعيش قبائل أفريقية من الزنوج وليسوا عرباً، وهذا هو الوضع القائم في الصومال وأريتريا ودول أخرى، لأجل ذلك، فإن الشرق الأوسط وضع لنفسه قالباً شبيهاً بالدولة القوميَّة التي كانت نسخةً عن الفكرة الأوروبيَّة، فكرة القومية الأوروبيَّة بسماتها الاستبدادية والدوغمائيَّة، الأمر الذي نتج عنه ضررٌ عظيم ومهَّدَ الطريق أمام وقوع المجازر والإبادات والقتل العنصريّ وإمحاء الألوان المختلفة، فالنظام القوموي الواحد أراد أن يفعل هذا الشيء عبر الأعلام والقَسَم المختلف.

٩- ضرورة النظريَّات:

ضروري على المرء في هذا المنحى أن يقف عند النظريَّات، فالنظريَّة حين لا يُروِّجُ لها بطريقةٍ إبداعيَّة تنقلبُ إلى ضررٍ كبير، تغدو نصَّاً ينظِّم المجتمع على أساسه، مثال: يُحكى أحياناً عن كمبوديا -كمبوديا بلدٌ هندي طبقي على مقربةٍ من فييتام- كانت محتلَّةً حتَّى العام ١٩٧٥ مثلما كانت فييتنام، وحين تحرَّرت فييتنام تحررت كمبوديا أيضاً، وبعد تحريرها حكمها حزبٌ يدعى (الخمير الحمر)، الشعب هناك يطلق عليهم اسم الـ"خمير"، وكان يترأس الحزب شخص يدعى "بول بوت"، كان قد درس في فرنسا، كانت أطروحته

في الدكتوراة ومشروعه التخرّجي من الجامعة حول الشيوعيَّة، ووفقاً له فإن الشيوعيَّة لا يمكن لها أن تحصل في المجتمعات، أي لا يجوز أن ينظّم المجتمع نفسه على أساس الشيوعيَّة، فما هي الشيوعيَّة؟ الجميع متساوون فيها، لا آمر فيها، لا أموال فيها، لا متعلّمين أو طلبة فيها، الجميع يفهم هكذا، والمجتمع لا بدَّ أن يدخل إلى هذا النظام، وفي الحقيقة لقد فعل ما يريد، هدم المصارف المركزيَّة، وهدم أشياء أخرى أيضاً، أدخل المسؤولين جميعهم إلى الحقول وفرض الشيوعية على المجتمع، ولم يفسّرها وفقاً للمجتمع، ليغدو هذا الأمر سبباً رئيسيَّاً بشكل فعليّ في حصول المجازر، حيث تقول الإحصائيَّات غير الرسميَّة أنَّه خلال سنواتٍ ثلاث من حكم "بول بوت" قُتل أكثر من ثلاثة ملايين كمبودي، إلى أن اضطرت فييتنام إلى احتلالها وانتزاعه عن الحكم، أعتقد أنَّه مات في السنوات الأخيرة. القوميَّة في الشرق الأوسط تشبه إلى حدٍ ما "بول بوت"، أو فعلت ما فعلَه، لم تنتبه إلى حقيقة المجتمع البتَّة، غضَّت النظر عنه وفرضت ما تراه، مثال، ما الذي يقوله الأتراك؟ يقولون: "من يعيش على هذه الجغرافيا يقال عنه تركيَّاً" فتقول: "انظر، أنا لست تركيَّاً، تاريخي مختلف ولغتي كذلك" سوى أنَّه يقول: "هذا هو المكتوب في إيديولوجيَّتنا الرسميَّة، وأنت ستسير وفق المكتوب وليس وفقاً للحقيقة" لذا ليس عليك أن تكون موجوداً! وفي سوريا يقولون لا وجود لأحدٍ خارج المكوّن العربيّ، وإن قال أحدهم: "لكن ثمة عددٌ لا يستهان به من الكرد"، يردّون: "إنَّهم كردٌ عرب"!! بيد أنَّه في الحقيقة لا يوجد شيء اسمه "كردٌ عرب" ولكنهم يكررون القول: "كردٌ عرب"، كما يقول الأتراك عن الكرد: "أتراكُ الجبل"، مثال: في انتفاضة قامشلو عام ٢٠٠٤، خرج وزير الإعلام السوري ليقول: "صحيح ثمَّة مشاكل، فإنَّ مواطنونا الكرد العرب..." كيف من الممكن أن يفهم المرء هذه الجملة أو يفكِّكها؟ ليس ضروريَّاً، لكن الوزير ليس بمقدوره أن يقول غير هذا الكلام، لأنّه إن قال: هؤلاء ليسوا كرداً فهذا مبالغٌ فيه، وإن قال الكرد فذلك يعارض منطقهم الذي يقول أنَّه لا وجود لغير العرب في سوريا، لذا لا بدَّ من توفير نموذج، فما هو هذا النموذج؟ الكرد العرب السوريَّون! وفقاً لوزير الإعلام السوريّ، أو ليقول أنَّ الأتراك

ظلموهم في فتراتٍ زمنيَّة وثمة البعض من الكرد الفارّين من الظلم التركي إلى سوريا، وهم مهاجرون أو لاجئون وليسوا من سكَّان هذا البلد. على هذا النّحو تصنع العراق والسودان ومصر الأزمات وتخلقُ العداوات بين الشعوب، لأجل ذلك ثمَّة العديد من الألوان والأديان والقوميَّات تعيش خطراً محدقاً، خطر الإبادة، تصنع سياساتٍ قوميَّة لأجل تصفية تلك الشعوب ولأجل تغذية العداوات أكثر وتغذية نظريتهم الخاصَّة وتوفير الحجج والذرائع.

١٠ـ الأمَّة الديمقراطيَّة تسميمٌ للقوميَّة:

لذا فالأُمَّة الديمقراطيَّة عدوَّة القوميَّة ولا بدَّ لأجل ذلك اتّخاذها أساساً كحلّ، هذا الشيء لا يُطلب من الشعب الحر وحسب، بل أيضاً من الشعب المقموع والمحتَّل، لأن الشوفينية والقوميَّة دائماً ما تستفيد منها الشعوب الحرَّة، لذا لا يمكننا اليوم أن نطوَّر من قوميّتنا كبديل في مواجهة القوميَّة لدى الأتراك والعرب، لأنَّنا إن فعلنا ذلك فإننا آنذاك نقدِّم الأسباب إلى القوميَّة الموجودة والمسيطرة، تسميم القوميَّة هي الأمَّة الديمقراطية، الأمة الديمقراطية يوجد بداخلها حب القوميَّة، حبُّ الجغرافيا، ثمة قبول كقيمة تفرض حمايتها، ثمة نداءٌ للحرية، كل هذه الأشياء موجودة بداخلها، لكن لا يوجد بداخلها الانصهار عبر الإكراه، الأمة الديمقراطيَّة ترفض الإصهار ولا ترى نفسها أعلى شأناً من القوميات الأخرى، أي لا يوجد بها انتقاداتٌ بيولوجية جغرافية أو على أساس اللون واللغة، وهذا هو الفارق بين الأمة الديمقراطيَّة والقوميَّة، ولأجل ذلك فإن الأمة الديمقراطيَّة تسميمٌ للقوميَّة ولا بدَّ أن تؤخَذ أساساً، القوميَّة أفلسَت في يومنا الرَّاهن، أفلست الأمَة التي أُسِّست على القوميَّة حيث لم يعد بمقدورها إقناع الشعب، فمع تطوُّر المعرفة والعلم توضَّح أن ثمَّة أمورٌ غير جائِزة، مثال: الكرد لا يموتون! لا بدَّ أن تبقى بعض الأديان حيَّة! لا بد ألَّا تموت بعض الألوان في المجتمع! مثال: في السودان،

في شمال أفريقيا، في بلاد الخليج، حين نمعن النظر في هذه البلدان سنرى أنَ ثمَّة العديد من الألوان ضمن المجتمع والتي تقوم بتنظيم نفسها بنشاط وتقاوم ولا يجب أن يموتوا، لذا لم يكن بإمكان المشروع القومي القائم على أساس الانصهار في الشرق الأوسط أن ينتصر، لكن في ذلك الوقت طُوِّر لونٌ شبيهٌ بالليبراليَّة، أي قوميَّة وفقَ شكلٍ مختلف، وأكثر من ذلك، الأمَّة الديمقراطيَّة، أي العلاقات والتواصلات بين الأديان، الشعوب. المذاهب داخل هذه المنطقة لا بدَّ وأن تتموضع على قواعد أخرى مختلفة، قواعد موضوعة على أساس الاحترام والقبول، ليتمَّ حلُّ المشكلةِ آنذاك، لذا فوقتنا الرَّاهن بحاجةٍ أكثر من أي وقت مضى إلى أن يكون المرء بمقدوره حمايةَ الأمة الديمقراطية كمشروع ويبدأ به تطبيقاً في أماكن مختلفة من كردستان، لقد حان الوقت، حان وقت إفلاس الانصهار والإكراه الذي جلبته الأنظمة والمشاكل التي تعيشها تلك الأنظمة، لكن القومية ستقاوم ولن تغادر بسرعة، فلننظر إلى أوروبا التي قالت لنفسها لقد انتهت الدولة القوميَّة، لقد تخلَّصنا منها وسنتّحد وتتحقق المساواة وستغدو جغرافيَّة أوروبا موحَّدة، لكن حين جرى الاستفتاء على توحيد الدستور في أوروبا لم تقبل أكثر الدول الأوروبيَّة بذلك. ثمَّة حاجة إلى عملٍ كبير، لكن الشرق الأوسط يحوي ألواناً كثيرة ولا يقبل الانصهار عبر الإكراه، أكثر من الدولة القوميَّة التي تحوي نهجاً واحداً في خدمة الدولة، فإن الشرق الأوسط بحاجة إلى مناهج منفتحة أكثر، لأن ثمَّة أكثر من قومية وشعب ولون يعيشون على جغرافيّتها، لذا فإن هذا الأمر سيكون واقعيَّاً أكثر.

١١ـ تطوّر تنظيمات القبيلة والعشيرة:

ثمَّة بعض التنظيمات الاجتماعية التي تطوَّرت قبل مرحلة القوموية، الشعبويَّة ونشوء الدولة، ليس فقط على أساس رابطة الدم، لا، بل أوسع من ذلك، حيث تقاسمت تلك التنظيمات الجغرافيا وعاشت على جغرافيّةٍ واحدة

وتربّت على القيم والثقافة المشتركة، وفي جانبها الأثقل تطوَّرت على أساس قيم الدفاع والحماية، لذا بإمكان المرء أن يسمي هذا الشيء بالقبيلة أو العشيرة، وهي ذات قوَّة في الشرق الأوسط، لكن ذلك لا يعني أنَّ هذه الأشكال لم تكن موجودة في الغرب، لم تكن موجودة في اليونان، لم تكن موجودة كما هي الآن تدافع عن وجودها بقوَّة في الشرق الأوسط، في الدول المسيطرة، أي الدول الكبيرة على شاكلة إنكلترا، فرنسا، إسبانيا، هولندا، أستراليا، إيطاليا، ألمانيا، هذه الدول المركزيَّة التي تأسست قبل آلاف السنين، وفي زمن المَلَكيَّة وزمن البرجوازيَّة أيضاً كانت موجودة، حيث أنَّ تلك التنظيمات بدأت تضعف رويداً رويداً.

على الرغم من نشوء الدول في الشرق الأوسط وفرضها أفكار الشيوعيَّة التي ترى نفسها فوق القبيلة والعشيرة، لكن إن أمعّنا النظر سنرى أنَّ تلك الحقيقة لم تَضِع ولم تمحى عن الوجود، وإن أراد المرء تثبيت هذا الأمر فحقيقة العراق واضحة للعيان، مثال: العراق دولة احتُلَّت من قبل الإنكليزيين وتم اقتطاعها من الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وبقيت تحت سيطرة الإنكليز إلى وقتٍ متأخِّر، ومن ثم بعد ذلك تمَّ إعلان الجمهوريَّة التي أخذت أفكار العنصريَّة المتشددة أساساً لها، ومن ثم بعد ذلك من العام ١٩٦٣ بدأت تُدار بشكلٍ فعليّ ورسمي منذ العام ١٩٦٨ وبعدها، من قبل حزب البعث، أي تم إدارة العراق عبر أفكار وقوميّة العرب، لكن في يومنا الرَّاهن ولكي يستمرَّ صدام حسين في البقاء على سدَّة الحكم انزاح نحو حماية العشيرة واتخذ من حماية القبيلة والعشيرة أساساً ومنطلقاً، حيث قوَّى من تلك الأفكار ليحمي نفسه، واليوم أمريكا لكي تعمل على استقرار مصالحها في العراق وتكون مسيطرة، قامت بتطوير منهجٍ أخير، فما هو هذا النَّهج؟ عملت على تطوير مجالس الصحوة، فما هي هذه المجالس؟ إنَّهم رؤساء وزعماء العشائر، حيث عملت أميركا على منحهم بعض الامتيازات والقليل من المال لكي تصارع من خلالهم معارضيها. لن نبتعد عن الوضع الذي نعيشه اليوم، ثمة الوضع الليبي، حيث يتم اليوم الحديث في ليبيا عن القبائل والعشائر، لكن في العام ١٩٦٩ حين

سمَّت جماعة نفسها بـ "الضباط الأحرار" الذين ترأسهم القذافي، كانوا جماعة من الضباط سمَّوا أنفسهم "الضبَّاط الأحرار"، حين نفذوا انقلابهم ضدَّ المَلكيَّة كانوا ضدَّ العشائريَّة والقبليَّة ويرفضون هذه الأفكار معتبرين أنفسهم قوميَّين جُدد، وكان هدفهم الأساسيّ وحدة القوميَّة العربيَّة ولأجل ذلك فكَّوا ارتباطهم بالأفكار العشائريَّة والقبليَّة، لكن إن أمعنَّا النظر في يومنا الرَّاهن لرأينا كيف أنَّ العشيرة بمقدورها إظهارَ قوَّتها وكيف أنَّ ثمَّة الكثير ممّن يقيِّمون حساباتهم على أساس توازن العشائر والقبائل في بلدانهم.

هذا الوضع قائمٌ في كردستان أيضاً، فمهما تحدَّثنا عن الأفكار الاشتراكية أو أفكار القوميَّة بشكلٍ عام، لكن إن حصل وأهملنا فكرة العشائريَّة أو القَبَليَّة أو تغاضينا عنها واعتدينا عليها وفقاً لمعرفتنا فمن الممكن أن تنفجر الفكرةُ ضدَّنا، حينذاك سنرى تلك العلاقة وكأنَّها لم تضعَف بعد ولا يمكن لها أن تضعف بسرعة، والخطايا التي ارتكبت في هذا المنحى لا تزال تجرُّنا أكثرَ نحو الظلم. مثال: نتحدَّث عن عشيرة "جيركان" أو عن "قاشور" أو نتحدَّث عن عشائر أخرى كثيرة، في مناطق آمد، باديكان، خيان، شَكويان، في ديرسم العشيرة الفلانيَّة، هم هكذا في كل مكان، سوى أن منطق الإثبات الذي كان مسيطراً علينا، لأننا إن كنَّا ثواراً، اشتراكيين، أو أن نقول: ما هي العشيرة، ما هي القبيلة، لقد انقضى هذا الزمن، لذا حين وددنا تصحيح بعض الأمور وإزالة بعض المعوقات من أمامنا، أهملنا تلك الفكرة، وهكذا انفجرت ضدَّنا وعلى النقيض منَّا، وأضرَّتنا على هذا المنوال، هذا الأمر مستمرّ حتَّى راهن يومنا، ففي ذلك الوقت لم نكن قد فهمنا بعدُ أهميَّة العشيرة والقبيلة في تاريخ الشعوب. العشائريَّة مؤسسة إجباريَّة فرضت نفسها عبر التاريخ، والقبيلةُ أيضاً هكذا في الوقت نفسه، حين أحسب حساب هذه الأمور فإنني أتكلَّم حسب المرويات العربيَّة بعض الشيء، أو ربما وفقاً لتركيا فإن العشيرة أو القبيلة أكبر بقليل، لكن وفقاً للعرب فإنَ القبيلة أكبر من العشيرة، حيث ثمة عديد العشائر التي تنضوي تحت لواء قبيلة واحدة. يعود تأثير القبيلة أو العشيرة على المرء -فيما يخصُّ العلاقات-إلى دورهما التاريخي، ولا سيَّما

في منحى الحماية، وبالتحديد الحماية ضدَّ محاولات سيطرة الدولة المركزيَّة، مثال: حين تتأسسّ سومر أو أكاد أو بابل أو آشور فإنَّها تتوجه نحو أماكن مختلفة لتمارس سطوتها وسيطرتها، ولن يكون بمقدور جماعات قليلة من البشر أن تقف في وجه تلك الهجمات، ثمة إجبار، أو دورٌ تاريخي نشيط على التنظيمات الكبيرة مثل العشائر أو القبائل أو الاتحاديَّات، لذا فإنَّها تمارس تأثيرها في ذلك الوقت.

ذلك الدور التاريخي يجعل الأمر مستمرَّاً في تأثيره حتَّى يومنا الرَّاهن لأنّها لن تزول سريعاً عن الوجود، لذا يقول القائد عن العشيرة والقبيلة: "يمكن للمرء أن يفهم دورهما على السويَّة نفسها حينَ يفهمُ دور منظمات المجتمع المدنيّ" لأنه لا وجود للدولة في القبيلة، فالقبيلة والعشيرة هي تنظيمات محليَّة ونشاطاتها داخليَّة، وتعمل على حل مشاكلها ومعضلاتها الداخليَّة، وأكثرَ من القوانين، فإنَّ القوَّة الأخلاقيَّة هي الأُسّ، وآليَتها في الحماية تتكوَّن من جيشٍ يحمل أفراده طوال اليوم السلاح ويتدربون وفرسانٌ مختصَّون، أي حماةٌ وفرسان، لأجل ذلك فهي ليست دولة، وإن أراد المرء أن يفهم أكثر قوَّتها الأخلاقيَّة ويدنو منها على أساس هذه الفكرة ويعطيها قيمتها ويتناقش معها، فإنَّها تلعب تأثيرها البارز في صنع المجتمع الأخلاقي والسياسيّ، لكن للأسف في يومنا الرَّاهن يتم تسيير هذه الفكرة بطريقة متخلِّفة. مثال: تركيا ولكي تؤسِّسَ لنظام الارتزاق تتخذ العشيرة أساساً، وفي يومنا الرَّاهن الإمبرياليَّة في ليبيا لكي تخرج ضدّ النظام فإنَّها تحمل الأشخاص على الأكتاف وتتّخذ العشيرة منطلقاً، وأميركا لكي تزيد من أوضاع الاستقرار توافقاً مع مصالحها فإنَها تتّخذ العشيرة منطلقاً، والدول أيضاً تفعل ذلك لتطبّق سيطرتها على كل مكان، وإن أمعنا النظر فإنَّهم يستفيدون من صلاتهم مع العشائريّة، يطلبون في إثر رؤساء العشائر ويمنحونهم امتيازاتٍ وفرصاً وتُفتح أبواب الفرص أمامهم وبهذا الشكل يربطونهم معهم. بهذا الشكل يتمُّ ربط العشيرة بالدولة وتصبح حجر عثرة أمام المعارضة الاجتماعية، هذه أمور سيئة، تُرى هل نستطيع أن نزيلها؟ لا نستطيع إمحائها، لقد توضَّح أمر عدم المقدرة على فعل

ذلك ولن تزول عن الوجود بسرعة، طبيعيٌّ أنَّه في يومٍ ما سوف تُزال بعض الأمور عن الوجود لكن ليس بالسرعة المطلوبة، ثمَّة في يومنا الرَّاهن شيءٌ ما، حقيقة، ارتباط، لذا فإن دمقرطة هذا الارتباط أمرٌ ضروريّ، مثل شكل المجتمع المدني الذي هو طريقة للإدارة المحليَّة عبر القوَّة الأخلاقيَّة. بإمكان المرء أن يقيِّم على هذا الأساس عبر بعض أساليب التدريب الديمقراطيَّة للعشائر والقبيلة بغية بناءٍ أخلاقي وسياسي، لكن على أن يكون هذا الدنوّ فيه حذرٌ كافٍ، على المرء أن يكون حذراً في هذا المنحى.

لذا فإن الشوفينيَّة المحليَّة، الخياليَّة المحليَّة، وكل شيء عائد إلى المحلية لا بدَّ أن يتم تطويرها، لا، أي لا يجب أن نطوِّر محليَّة العشائر على حساب القوميَّة أو أن نطوِّر من العشائر على حساب البشريَّة، بل أن نوصلها إلى درجةِ أَلَّا يكونا على النقيض من بعضهما البعض، أن يغدوا جزءاً من الكل، أو أن يكونا فرداً كليَّاً داخل الكلّ والكون، إن فُهم المرء الأمر على هذا النّحو سيكونُ أمراً جيّداً.

١٢ـ الاقتصاد في الشرق الأوسط ليس اجتماعيَّاً بل سلطويّاً:

يعتبر الاقتصاد في الشرق الأوسط أزمةً كبيرة، مثال: ثمة الكثير من الأراضي الزراعيَّة والأنهار والمياه والبترول والغاز الطبيعي وما إلى ذلك، ثمة منابعُ كثيرة، لا سيَّما الطبيعية منها، فإن تمَّ تقييم هذه الفرص الموجودة بشكلٍ جيد فلسوف يكون لها تأثيرها الإيجابي الكبير على مستوى الحياة وستُزيد درجة الارتياح لدى البشر، سوى أن الوضع على النقيض من ذلك، فإن تمعَّن المرء في الوضع بشكلٍ عام في الشرق الأوسط سيرى أنَّهُ سيءٌ للغاية. صحيحٌ قد يكون هناك بعضُ الثراء في دول الخليج، بيد أنَّه محصورٌ ببعض الدُخلاء على المجتمع أو من يملك تلك المجتمعات، ثمة خطورة في ذلك وشللٌ ما، فعائلات الملوك المسيطرين، الأمراء، رجالاتهم، جميعهم

يستولون على الثروات ويتقاسمونها، فيما يمنحون القسم الأصغر إلى الشعب، ولكن لأنَّه ثمة الكثير من المدخول فإنَّه ثمة الكثير من الثراء، فكما يرى المرءُ فقراً في مصر أو العراق أو سوريا أو تركيا، فإنّه لن يرى هنالك الفقر، لكن ثمَّة خطورة بداخل هذا الأمر، ثمَّة مشاكل فيما بين الأشياء التي تأتي وبين شكل التوزيع، حيث أنَّ التوزيع يأخذ شكل الظلم إلى درجةٍ كبيرة. الوضع سيء أكثر في البلدان الأخرى، من أين يتأتَّى هذا الأمر؟ الآن تنشغل تلك الدول بالانقلابات وبمساعدة الخارج، بهذا الشكل بقيت على السلطة، يبقون بفضل القوَّة العسكريَّة والاستخباراتية ويسيّرون عبرها سلطاتهم، ولأجل ذلك يستولون على المال العامّ، لا وجود لاقتصادٍ حرٍّ أو مبنيٍّ على احتياجات البشر في تلك الدول، فالدول هي من تقوم بتسيير احتياجات البشر، وتُحدِّد أين سُيزرع القمح وأين سُيزرع القطن، النفط كيف سوف يتم بيعه وما سعره، أجور العمال، الفلاحين، هذه الأمور كلها توضَع من قبل الدولة، لكن لا وجود لصناعة أو اقتصاد على أساس احتياجات البشر، السلطة في الشرق الأوسط جماعة وشركة من اللصوص، يسرقون فقط، لا علاقة لتلك الجماعات بالتطور الاقتصادي مطلقاً، فلكي توسِّعَ الدولة الرأسماليَّة من الملكيّة الخاصَّة وتخدم السوق الحرَّة والكثير من الأشياء الرأسمالية تُزيد من رأس المال، تَبني المصانع، تؤمَّن الأسواق والتجارة، تحرِّض على البدائل الشخصيَّة، لينسحب تأثير هذه الأمور إلى درجةٍ كبيرة بشكلٍ إيجابي على الوضع الحياتي للشعوب. لكن دولة الشرق الأوسط لا تفعل ذلك بل تعرقل، لذا إن أمعنَّا النظر سنرى أن نحو ٧٠ في المئة من المصريين فقراء، وأكثر من ٢٠ في المئة منهم في حدود الجوع، الآلاف من البشر ينامون بين المقابر، مثال: كيف هي المقابر في مصر؟ إنَّها تشبه البيوت، فأقارب الموتى يصنعون بيوتاً لمقابر موتاهم وينام الفقراء هناك، ثمة الآلاف من البشر الذين ينامون هناك لأنَّهم لا يملكون أماكنَ للنوم، ثمّة الجوع والظلم والفقر وانعدام الدراسة، وفي الوقت نفسه ثمَّة في مصر أكثر أغنياء العالم، تتراوح حجم ثروته بين ٤٠ – ٧٠ ألف دولار، هذا الرجل هو مبارك، فيما اقتسم صهره ووالد زوجته ومسؤولوه أموال الدولة فيما بينهم، فحين بات مبارك رئيساً ما

الذي كان يملكه؟ لا شيء، وهو على سدَّة الحكم منذ فترة طويلة وكان قبل ذلك مساعداً للرئيس قبل تسلُّمه للسلطة، فما الذي كان يملكه قبل أن يصبح رئيساً؟ كان عسكريَّاً، ضابطاً، له راتبه الذي يعتاش به، لكن لا يمكن للمرء بمرتَّبه أن يجمع ملايين الدولارات، هذا نهب وسرقة، الشعب في سوريا جميعهم تحت خط الفقر والجوع، لكن على سبيل المثال أصحاب الدولة هم من أكبر الأثرياء، فلينظر المرء إلى نشاط العائلة الحاكمة في تونس، مثال: رئيس الدولة، زوجته التي تلبس خواتم الألماس، سيعتقد المرء أنَّهما لا يعيشان في تونس، أين يعيشان؟ يعيشان في أغنى دول العالم، ثمة فوارقُ كبيرة من ناحية الحياة بين الحاكمين والمحكومين. فلننظر إلى أن بيع لحوم الحمير أمرٌ محظور في دول العالم، وإن سمعت الدولة أن ثمَّة من يبيع لحم الحمير ستقوم باعتقاله، لكن هذا الأمر موجود في تونس، لأنه إن لم يتم بيع لحوم الحمير في تونس فإن الشعب لن يتذوَّق طعم اللحم سنواتٍ طويلة، بالطبع لحوم الحمير أرخص من باقي أنواع اللحوم، هذا أمرٌ طبيعيّ وواضح، البيع مسموح وفقاً لقوانين الدولة، إلى هذه الدرجة هم فقراء، هذه المشاكل موجودة الآن ولأجل ذلك لا يوجد اقتصاد في الشرق الأوسط، بل ثمَّة نهبُ الدولة، فالشخص الذي يتولَّى السلطة غني، كما أنَّ الاقتصاد في الشرق الأوسط ليس احتكاراً فرديَّاً ولا حتَّى ملكية خاصة، كونها ملكيَّةً للدولة، والدولة تعرقل الملكية الخاصة كذلك، بالنسبة لهذه القوة في الشرق الأوسط ولا سيما قوة البعثيين والناصريين والبرجوازية الصغيرة والقوميين المتشددين، لقد ألغوا طقوس رأس المال والتجارة في الشرق الأوسط بعد وصولهم إلى السلطة، على سبيل المثال كانت ثمَّة طبقة تجارية في سوريا وكان هناك أثرياء، وعُرفت مدينة حلب السوريَّة كمركز للتجارة في العالم، ولكنها الآن غير موجودة، لِم؟ لقد تم القضاء عليها وتصفيتها، القوة الاقتصادية لا يمكن لها أن تخرج عن السيطرة، فعلى سبيل المثال، في زمنه كان هناك رئيس سوري يسمى حافظ الأسد وله شقيق يدعى رفعت الأسد وكان أيضاً قائد القوَّات الخاصَّة، كما كان له شقيق آخر رئيساً للشؤون الاجتماعية والدينيَّة، مثل العائلات الحاكمة الأخرى، كل واحد منهم يتحمَّل

مسؤولية معينة. كان في سوريا رجل أعمال معروف يسمَّى نزير هداية، كان رجلاً ثريَّاً، أراد شراء وجلب سيَّارات من نوع "سوزوكي" من اليابان، وهذه الآلات عبارة عن أربع قطع صغيرة، ولكي ينجح في مسعاه هذا كان يجب على الدولة أن تساعده، ولا بد من موافقتها، لم يستطع فعل ذلك لوحده، فاضطر إلى جعل شقيق حافظ الأسد شريكاً له، رفعت الأسد، الموجود حالياً في المنفى، حيث خرج وأقام شراكةً مع رجل الأعمال، كان رفعت الأسد مؤثِّراً في سوريا آنذاك، لم تكن حالته كما هي الآن. فلنلاحظ أنَّ الرجل ثري، لديه أموال، تاجر، يسافر إلى دولة تجارية ويكوِّن علاقات تجارية، يشتري ويبيع الأشياء بأمواله الخاصَّة، لكن لا بد أن يكون له شريكٌ من الدولة، وهذا الشريك لن يدفع قرشاً واحداً ولن يقوم بأيِّ عمل، بل يكون شريكاً للتاجر الذي يتبقَّى له نصف الفائدة فقط، مقابل ماذا؟ مقابل توقيع، على ماذا ستوقِّع الدولة؟ سوف تقلل من الضريبة، لأن القوَّة الشرائيَّة في سوريا متدنيَّة وليس بمقدور الجميع شراء أشياء باهظة الثمن، لذا لا بد من تخفيض الضريبة لتكون رخيصة وقابلة للبيع في السوق، والأمر الثاني هو عدم ترك بديل لتلك الأداة، في ذلك الوقت كانت هناك ثلاث أدوات احتكار شائعة في سوريا، حيث تم اتخاذ قرار بحظرها، أب يبيع ما لديه ولكن الدولة تأخذ نصف الفائدة. ومُذ ذلكَ ألغت دول الشرق الأوسط المحاولات المستقلة والممارسات التجارية ونهبت كل شيء، لقد تم تعزيز الاستخبارات والجيش، وهذه ليست قضية وطنية، فهي تهدف بشكل أساسي إلى ممارسة القمع ضدَّ الشعب، وعلى هذا الأساس، ما هو تأثير الحداثة الرأسمالية اقتصادياً على هذه البلدان من ناحية المكننة، الصناعة؟ إن الصناعة باسمها هي بالفعل شيء يتجاوز الضرورة البشرية، الصناعة مختلفة والصناعية مختلفة، أو أنَّ الصناعة مختلفة، الصناعيون مختلفون، الصناعة مطلوبة وضرورية لتلبية الاحتياجات الاجتماعية، فالناس بحاجة إلى أدوات ومستلزمات، ولكن ما هي الصناعة؟ لا تأخذ الصناعة الاحتياجات البشرية في الاعتبار عندما يتعلق الأمر بالإنتاج، بل تعتمد الوظيفة على مقدار ما ستكسبه، لذا فلننتبه إلى أن

التصنيع يطور مفهوم الاستهلاك، ويعزز الهدر والتخلص من المواد الخام، يعزز القضاء على العمل البشري.

فكل الاحتياجات تُصنَّع في الخارج، ومع القصف الثقافي والإيديولوجي يُحكَم على الناس بالاستهلاك، لذا ننظر إلى أن هناك طراز سيارة يظهر في بداية العام وطراز آخر في منتصفه وطراز ثالث في نهايته، سيارات مخصصة للشباب وأخرى للنساء ورجال الأعمال وما إلى هنالك، الضرورة الاجتماعية لا تفرض ذلك، بل أنه إبرازٌ للأشياء بألوان مختلفة، ففي الصناعة كلما ازداد العمل ازدادت الأرباح وهذا ما تحاول تعزيزه، لذا تتطوَّر الصناعة بشكل عام خارج احتياجات المجتمع وتُغرقه في المشقة والصعاب وتجعله مديوناً وتخلق الفوضى، مثل الأزمة الكبرى التي حدثت في العالم خلال العامين المنصرمين، تلك الأزمة كانت من خلق الصناعة، حيثُ أدى الإنتاج خارج الاحتياجات البشرية إلى إضعاف القوة الشرائية وزيادة الإنتاج وتقليل القوة الشرائية، هذا تسبَّب في الاكتئاب وزيادة الأزمة، ونتيجةً لذلك دفع الفقراءُ ضريبة الأمر مرَّةً أخرى، عانى الفقراء من المصائب، فيما موَّلت الدولةُ الأغنياء ومالكي المصانع ليكون بمقدورهم الوقوف على أقدامهم مرَّةً أخرى، في الوقت الذي بات فيه وضعُ الفقراء سيّئاً للغاية.

الصناعة في الشرق الأوسط لا علاقة لها باحتياجات الشعوب بل قائمة بالكامل على تقوية الدولة وتعزيز مصالح الرأسمالية في العالم، والتي لا تأخذ احتياجات الشعوب أساساً بعين الاعتبار، لذا فعوضاً عن جلبها للسعادة فإنَّها تجلب الفقر والبؤس والأزمات الاجتماعية وتعزز الاستهلاك. فمثلاً إن كان المستهلك غنيًا وأنفق على نفسه فلا ضرر في ذلك، لكن الصعوبة هي حين يكون الإنسان فقيرًا ومستهلكًا، الأمرُ يجلبُ العديدَ من المشكلات الاجتماعية والأخلاقية وغيرها متسبِّباً في ضررٍ كبير، ثمَّ أنَّ الصناعة تلحق ضررًا كبيرًا بالبيئة وتتطوَّر في الشرق الأوسط دونَ الشعور بمسؤوليتها إزاء البيئة، حيثُ لا وجود لنظامٍ يحمي البيئة ولا ثقافة اجتماعية حسَّاسة تجاه البيئة،

لأجل ذلك فإن المرء يتفرّج على السدود والآلات والعديد من الأشياء الأخرى التي تكون سبباً رئيسيَّاً في تدهور الانسجام البيئي الذي يتوفَّر هنا أكثر من أيّ مكانٍ آخر، ليزدهر على إثر ذلكَ الجفافُ والخراب، فالصناعة تسبّبُ أضرارًا جسيمة على الانسجام الاجتماعي والبيئي في الشرق الأوسط لأنه يحدث تمامًا خارج احتياجات الإنسان، وهي لا ترى نفسها مجبرةً على أن تكون مسؤولَةً إزاء البيئة أو أن يكون لها فهماً بيئيًا، علاوةً على ذلك لم يتمّ اعتبار الكفاح البيئي صراعاً أساسيَّاً في الشرق الأوسط حتى يومنا هذا رغم كونه صراعاً أساسيَّاً وهامَّاً، مع أنَّ تحقيق ذلك الكفاح -حتى في أماكن مُرفَّهة- أمرٌ بعيد المنال وهذا يعمّق الضرر أكثر.

الآن ضد هذا، لا خصائص اجتماعية للاقتصاد في الشرق الأوسط بل لديه سلطة، لأنَّ المُلكيَّة تتبعُ الدولة ولا مجال أمام المرء ليكتفي بنفسه، لذلك ثمَّة تحضر فوضوي ينمو خارج الطريق، حول هذه المدن ترى جميع الأشياء المنحطة: الفساد الأخلاقي، الجريمة الاجتماعية، وهي جميعها في طور التقدُّم، لذا ما من طريقٍ للخلاص من هذا حتَّى عبر تطوير الملكية الخاصة أيضًا. الآن ماذا تودُّ أمريكا فعله؟ طوّرت الملكية الخاصة والطبقة الوسطى عوضاً عن ملكية الدولة، لكن لم يستجب الشعبُ في العراق لهذا أبداً، بل على العكس يعاني الشعب العراقي اليوم من ضائقةٍ اقتصادية.

كلما زادت المسافة اتسعت الفجوة بين الفقراء والأغنياء تحت ستار الاقتصاد الليبرالي والسوق الحرة وتطوير الملكية الخاصة، لذا نرى أن المشكلة الاقتصادية داخل مجتمع الشرق الأوسط لا يمكن حلها بهذه الطريقة. بالطبع ليس واجباً علينا إنكار كل أشكال الملكية الخاصة، هذه رغبتنا، وهذا هدفنا، لكن في الوضع الراهن نحن نقبل بوجود الملكية الخاصة، سوى أنَّها ليست الطريقة أو المنهاج القويم لحل المشاكل الاقتصادية في الشرق الأوسط. جهود الولايات المتحدة في العراق تثبت ذلك. الكثير من الناس في العراق اليوم نادمون على عهد صدام. على الأقل لم يكن المأكل والمشرب في ذلك الوقت

همَّاً، ولم يكن بناء منزل مشكلة، لكن في حياتنا الرَّاهنة العثور على منزل يعتبر مشكلة، الأكل والشرب، الوقود، أصبحت كل هذه الأشياء آنفة الذكر مشاكل كبيرة، والسبب هو أن الملكية الخاصة تأخذ العمل على محمل الجد، تتلاعب بالأسعار في إطار تحقيق أرباح ضخمة وهذا يجعل الأغنياء أكثر ثراءً والفقراء أكثر فقرًا.

إذن أين الحلّ؟ لا بدَّ أن يزدهر الاقتصاد الاجتماعي والاتحادات في الشرق الأوسط كبديلٍ للاقتصاد الخاص والسوق الحرة، ما هو الاقتصاد الاجتماعي؟ هو الاقتصاد القائم على التشاور، الصناديق الاجتماعية وليست التعاونيات المجتمعية، وتلك يجب أن تمضي قُدُمَاً وثمَّة فرصٌ لتطويرها في المناطق الريفية والمدن، بيد أنَّ المقاربات الباطنية للدولة دمرت سيادتها على اقتصاد الروح الجماعية في الاقتصاد الاجتماعي، حيث كان كل شيء مرتبطاً بالدولة وغالباً تحت مسمَّى التعاونية أو الاقتصاد الجماعي، وصنعت أفراداً وفقاً لنفسها، على سبيل المثال، لنفترض أنهم لم يكونوا اشتراكيين في سوريا أو العراق، سوى أنَّهم كانوا يطورون اقتصادًا اشتراكيًا على أساس الاشتراكية، حيثُ ازدهرت التعاونيات وجمعيات الفلاحين، لكنها كانت جمعياتٍ للنهب والسرقة، لأنهم جميعاً كانوا رجال دولة والدولة هي من صنعتهم، وهكذا فُقد الاقتصاد الاجتماعي كصورة، حتى أنَّه لم يستطع مقاومة اضطهاد الدولة وقمعها، لذا المهم الآن هو إعادة البناء، ويجب أن يؤخذ هذا المبدأ ضد الاقتصاد الخاص القائم على العمل والذي يقوم بتعميق الحاجز بين الأغنياء والفقراء، الحل هو الاقتصاد الاجتماعي القائم على الجماعية والتوافق وضمن إطار الاحتياجات الاجتماعية الضرورية، لأنه إن لم يحدث ذلك سيكونُ المجتمع محكوماً بالموت. هذا الورَم غير الطبيعي الحاصل حول المدن والجوع والفقر الذي يعيش هناك، والانحلال الأخلاقي ومعدل الجريمة المرتفع بدءاً من السرقة وصولاً إلى القتل والاغتصاب وتجاوزات أخرى كثيرة، كلها تجعل الجميع يعتقدون أن هذا هو الحل، سوى أنَّ هذا لا يعتبر حلَّاً، حينئذ يتوجَّب على المرء البحث عن الحل. فما هو الحل؟ العودة إلى

المنبع الذي هو تعزيز الثورة الزراعية على أساس تطوير التعاونيات والكومونات في القرى والمدن، حيث يتم تطوير الاقتصاد المحلي على أساس الاستجابة للاحتياجات الاجتماعية التي لا بدَّ منها، يجب أن يؤخَذ هذا أساساً، فحين يتم إنشاء اقتصاد اجتماعي سيتم تلبية الاحتياجات الاجتماعية الأخرى على أساس ذلك الاقتصاد. بالإمكان حل مشاكل الصحة والتعليم والملكية والحماية، ولأجل ذلك فمثلما يجب على التنظيم السياسي لمجتمع كونفدرالي خارج الدولة أن يشكِّل نفسه وبالتالي حماية المجتمع من الدولة، فإنَّه من الناحية الاقتصادية يجب أن يقف ضد التصنيع، ويكون مع الاقتصاد الاجتماعي القائم على الإجماع والتسوية وتطوير الإرشاد الاجتماعي والصناديق الاجتماعية والتعاونيات.

١٣ـ الرأسماليَّة والصناعيَّة والدولة القوميَّة:

من ناحية الإثباتات، من المهم التحدث بشكل منطقي، ولكي يعبر الناس عن الأشياء لا بدَّ وأن يتمتعوا بقوة الإقناع، يجب على المرء أيضًا الوقوف في وجه النقد ويدافع عن نفسه حين يتعرَّض للانتقاد، يقول القائد دائمًا: "يمكن للأطفال أن يشبهوا أمَّهم، لكن الأم لا يمكنها أن تشبه أطفالها". هذا أمرٌ طبيعي، لا يمكن للمرء أن يقول لأمٍ أنَّك تشبهين ابنكِ أو ابنتكِ تماماً، ولكن بمقدور المرء القول: أن هذا الابن يشبه والدته. الآن تأتي هذه العبارة -التي قالها القائد في مرافعاته-طبيعيَّة جدًا للناس، ويمكن للمرء أن يقول: الشرق الأوسط هو الأم والجذر، حيث ولدت هنا مؤسسات اجتماعية كبرى وانتشرت، كان هناك أيضًا انتشاراً ماديًّاً، ولكن كان هناك أيضًا انتشاراً ثقافياً كبيراً، وليس بمقدور أحدٍ إنكار هذا في وقتنا الرَّاهن، لهذا السبب نقول إن النسخ، باختصار، أسلوب حياة، ثقافة، بشكل عام الحداثة الغربية لا توفر حلاً لمشاكل الشرق الأوسط لأنها تتعارض مع قوانين الطبيعة. فمثلاً كيف نريد الأم أن تشبه أطفالها! لهذا يجب على الأم أن تجد طريقةً مختلفة لحلّ

المشكلة. لا يمكن غضّ النظر عن الغرب كما ولا يمكن الاقتراب من الناس دون رؤيتهم، لكن على الناس أن يتصالحوا مع خصائصهم وقوتهم الداخلية. مرَّةً أخرى يجب على الناس أن يتصالحوا مع قيمهم الاجتماعية والثقافية، تلك القيم الإيجابية التي لا تتعارض مع واقع المجتمع. لقد دخلنا الآن في هذه المرحلة على إثر موقفنا ضد الغرب، لذا يقول القائد: "الحداثة. يجب أن نقف ضد الحداثة. ما هي الحداثة؟ لها ثلاثة أقدام. كل قدمٍ تعبّر عن أشياء كثيرة "، تلك الأقدام هي الرأسمالية والصناعية والدولة القومية، حيثُ تمثّل هذه الأقدام الثلاثة الحداثة. الآن إذا كانت إنسانيتنا وتنشئتنا الاجتماعية مبنيَّة على أساس أن نكتسب كل هذه الأقدام الثلاثة ونسعى دائمًا لتحقيقها، فقد فقدناها. لأننا ندخل هنا ضمن مقاييس خاطئة، نقول: "بمجرد أن نصبح مثل الغرب فسوف نتحرك نحو الأمام، أي عندما نتمكن من تلبية معاييرهم فسنمضي قدمًا بعد ذلك." هذا غير ممكن. لمَ؟ لأن ذلك يتناقض مع حقيقة وطبيعة الأشياء، ثانياً، الغرب لا يقبل بذلك، لأنه لا يعولم قيمه ولا يجعلها عامَّةً بل يرى الأشياء على أنها صائبة لنفسه وحسب، فيما الآخرون لا يستحقون ذلك. خرابٌ، بُعدٌ عن الطريق، وهذه المفاهيم تتغلغل في كل مكان. على سبيل المثال، حين يثبت للغرب بعد أن يسمع أن كومة من النفايات النووية تم إخفاؤها سرًا في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا فإنَّه مستعدٌ لتدمير العالم لأجل منع ذلك، لكنه في الوقت نفسه يرسل سفينةً إثر الأخرى محمَّلَةً بتلك النفايات لردمها في لبنان واليمن والسودان ومصر دون أن يهتمَّ أحدٌ لذلك، يسمع الغرب بالأمر ولكنه يبقى صامتاً. فلتنتبهوا، الغرب يرى الأشياء شرعيةً لنفسه وغير شرعيَّة بالنسبةِ للآخرين.

الغرب لا يجعل قيمه عالمية، إنها كذبة حين يقول: "سنجعل قيمنا عالمية". إنَّها ذريعة للاحتلال، يقول: "نحن نأتي بالديمقراطيَّة، ونأتي بالعلم". أين هيَ الديمقراطيَّة!؟ إنَّها مجرد أكاذيب.

لذا فإنَّ هذه الأشياء ليست مقبولة، ثم هذا لا يعني أنَّه لن يقبل أحد بالثقافة الغربية، بل ثمة الكثيرون ممّن يقبلون بها، يوجد هذا القبول في كردستان، في روجافا، شرق كردستان، في شمال وجنوب كردستان، ازداد مستوى الجنون بعد استسلام الناس من الناحية الأيديولوجيَّة، لكن هذا ليس واقع المجتمع، إنه مرضٌ في شمال كردستان، مرضٌ في جنوبه، مرضٌ في الشرق والغرب، لا توجد حقيقة اجتماعيَّة، المجتمع يقاوم ويحاول أن يتمسَّكَ بقيمه ولكن لا يرى هذا الجنون حقيقةً ولا يقلِّده.

١٤ـ التقليد اغترابٌ أيديولوجيّ:

التقليد هو اغترابٌ أيديولوجي، العدو أتى بجيشه ولكنّه لم يلحق بنا ضرراً كبيراً، ارتكب مجازرَ ولم يلحق بنا الأذى الكبير، ولكن الضرر كانَ حين تأثر مركزنا الاجتماعي واستسلم البشر من الجانب الاجتماعي، لكن لا يمكن أن تكون المشكلة بلا حلّ، لأننا عندما نقول الحل غير ممكن، فهذا لا يعني أنه لن يكون أبدًا غير فعال، هناك تنوع، حتى أنها هاجمت تنظيمنا، لقد اتّبعوا أسلوب الحياة ورغبات الحداثة. هذا صحيح ولا سيَّما بشكلٍ خاصّ في الأماكن التي على تماس مع الغرب، خاصة في المدن، وعلى رأسها اسطنبول. لكننا نتحدث عن الحلول واجتياز الفوضى. طريقة الحل هذه مستحيلة والمجتمع لا يقبله. المجتمع يقاوم. في هذه النواحي على المرء أن يتعامل مع المسائل بصبر ويلقِ نظرة أوسع عليها، في بعض النواحي الأخرى يمر الوقت، ولكن إن تحدَّث المرء ببعض الكلمات سيكون أمراً جيداً، على سبيل المثال، لا نملك رفاهية رفض الغرب كله، هذا غير ممكن وغير صحيح، هناك أيضًا تجارب ودروس يمكن تعلمها من الغرب، ثمَّة معرفة، والمعرفة ليست بالشيء الصغير، إنَّها هويَّة زمننا. عندما نقاوم المعرفة، فلا مكان لنا في عصرنا. وهذا يعني أننا سنبقى مغتربين. الناسُ أقوياء ضدَّ الدولة في الغرب، ثمَّة حساسية، ولكن هناك أيضًا أنانية وليبرالية

وتضحية بالنفس وانعدام مسؤولية، كل هذه الأشياء موجودة، لكن في بعض الأماكن ثمَّة قوة المجتمع المدني. على سبيل المثال، المزارعون والفلاحون في فرنسا أكثر تنظيماً من الفلاحين في كردستان، هم أكثر حساسية تجاه مصالحهم الخاصة، لذا يمكننا أخذ الدروس من هناك.

حصلت النساء في أوروبا على بعض الحقوق، لأنّهنَّ أكثر حساسيَّة تجاه أنفسهنّ. عندما تحدث تجاوزات جنسية ضدَّهن، فإنهنّ تقاومن. والمرء حقَّق إلى حدٍّ ما بعض المكاسب الدائمة. على سبيل المثال، يمر شرطي ألماني بجانب شخص سقط على الأرض أثناء مسيرة وركله. إنه على الأرض. عندما يظهر هذا المشهد على شاشة التلفزيون، فإنه يخلق ضجة وعدم ارتياح من المجتمع الألماني بأكمله.

في اليونان، لم يتوقف التمرد لأيام وشهور على إثر مقتل شابّ، لكننا يوميًّاً نستيقظ على قصص الاغتصاب، وعلى مقتل الأطفال، نستيقظ على كسر يد طفل، دون ظهور أي ردَّة فعلٍ جديَّة. لأن هناك أشياء نحصل عليها من هناك، ولكن هناك قيم إنسانية، بحيث تصمد أمام القيم الإنسانية. هل قُتل القليل من الشيوعيين، وقُتل عدد قليل من العمال، قُتل عدد قليل من النساء حتى كسبوا هذه الحقوق؟ إن اقتربنا من هذا الجانب من المجتمع بشكلٍ خفي، جانب المجتمع الأدنى، الجانب الإنساني، فإننا سنعيش صراعًا. لأن ثمَّة شيئان في كل مجتمع: أحدهما السلطة، فيما الآخر هو المجتمع. يجب أن نتذكر أيضًا أن هناك شيئان في كل مكان.

سيكون مفيداً أن نفهم هذه النقاط، الحداثة الرأسمالية مختلفة، والحداثة الديمقراطية مختلفة. يتوجَّب على المرء في هذا السياق أن يميزهما عن بعضهما البعض، لذا وفي هذا السياق من المهم فهم الليبرالية والدوغمائية.

١٥ـ لا تغيير في الكيفيَّة والدوغمائيَّة:

تتعلق الدوغمائية الآن بالكيفيَّة وعدم التغيير أو التشكيك، وعدم المناقشة والاستبعاد، وعدم التكرار، بغض النظر عمَّا يحدث حوله، فإنه يقرأ في مهده ما يعرفه. هذه دوغمائية. الدوغمائية ليست جهلاً وحسب، إنها المعرفة أيضاً، إنها متعلمة، تعرف اللغات، تعرف العالم. ولكنها لا تزال دوغمائية. الدوغمائية ليست دينية فقط، بل هناك أيضًا دوغمائية علمية تصرُّ على نفسها. هناك أيضا دوغمائية سياسية. على سبيل المثال، ثمَّة شخص اليوم يقول إنني شيوعي. يحترم الصور. يتحدث عن ماركس وإنجلز ولينين وستالين ومرة أخرى عن البروليتاريا وعن المشاكل الطبقيَّة، ويتحدَّث عن الأدب الذي كان سائدًا منذ مائة وخمسين عامًا، يكرره دون أن يغيَّر أي شيء فيه، يقول أنا مبدئيّ، لكننا نقول، لقد تغير العالم وخلقت الأشياء ووجد الكثير من العلم. إنه يضلل الأدبيات التي قرأناها سابقاً، آنذاك لا بد لي من الاستسلام. لكنه يقول لا! هذا الشيء الجديد خاطئ وأنا على حق. هذه هي الدوغمائية، إنها إصرار على الذات.

يمكن أن تكون الدوغمائيَّة ليبراليَّةً والأخيرة نظامٌ مغاير. تمَّ تعداد أحد عشرة سمةٍ من سمات الليبرالية داخل التنظيم. اعتدنا على الدراسة والكثير منهم يجعلنا نبكي بسببهم. حتى الآن تتبادر بعض هذه الخصائص إلى ذهني. على سبيل المثال يقولون: "عندما ترتكب الفساد فهذا ليبرالية، لا تدافع عن الخطأ، إنها ليبرالية. إن كنت في اجتماع، لا تتحدث وتعبر عن عدم رضاك خارج الاجتماع، إنها ليبرالية، تريد حقوقًا على حساب التنظيم، إنها ليبرالية "، إنها إحدى عشر شيئاً ولكن يمكننا مضاعفتها أيضاً، بإمكان المرء يوميًّاً أن يحصي أشياءَ كثيرة. لكن ما تعريف الليبرالية؟ الليبرالية هي المصالحة غير المبدئيَّة، مصالحة أشخاص لا يشبهون بعضهم البعض ويتفقون بطريقة غير مبدئية. لقد أسست الرأسمالية هذه الطريقة بهدف القضاء على معارضيها، تخبره: أنا يساريّ، يقول لك: "لا ضير في ذلك، هيا تعال" تقول: "أنا

شيوعي"، يقول "تعال لا ضيرَ في ذلك"، تقول له: "إنني كردي"، يقول "تعال!" يقول: انظر، سأقاتل نظامك، سأناضل" يقول لك: "تعال"، إنه يمنح الناس بضعة أشهر للكفاح، لكن تدريجيًّاً ومع فرصهم المادية وقوتهم الفكرية، سيجعلون من كفاحك مفرَّغاً من المعنى ويتولّون زمام الأمور، لهذا، دعونا ننتبه إلى من يمثل إعلام الأوليغارشية والعنصرية والإنكار والنظام التركي القومي في يومنا هذا؟ يمثله اليسار السابق. أوروبا نفسها هكذا.

في أوروبا وخلال وقتٍ من الأوقات كان مستشار فرانسوا ميتران هو ريجيل دوبرس، من كان هَذا؟ كتب ريجيل دوبرس كتاب "الثورة في الثورة"، وهو كتابٌ يشرح بإسهاب ثورة أمريكا اللاتينية، خلال فترة وجوده هناك التقى بجيفارا في بوليفيا، قال عند القبض عليه" "أنا آسف لأنني لست صديق جيفارا، إذا قلت اليوم إنني لست مقاتلًا، ليس ذلك لأنني خائف من أن أكون مقاتلاً، أو أن أعفو نفسي من هذا الشيء، بل لأنني لم أستطع نيل هذا الشرف" كان هذا هو الحال في ذلك الوقت، لكنَّه أصبح فيما بعد مستشارًا لفرانسوا ميتران، كان في الأصل فرنسيًا، يساريًا فرنسيًا. لكنه اهتمَّ بمسألة الثورة الأمريكيَّة. هذه هي الليبراليَّة، تصهر خصمها داخل نفسها. وهذا يعني الوحدة غير المبدئية، التي من أجلها يمكن أن تحدث الدوغمائية. بالفعل في يومنا هذا تدافع الليبرالية عن النظام، الدفاع عن النظام هو المحافظة عليه، والمحافظة هي أيضًا شكل من أشكال الدوغمائية، ولكن بما أن الدوغمائية يجب أن تكون ليبرالية، فإنَّ الليبرالية أيضًا يجب أن تكون دوغمائية، ونتيجة لذلك فإن الكلمتين مختلفتان ويتم تعريف كل منهما بشكل مختلف، سيكون من الجيد إن فهم المرءُ الأمر هكذا.

١٦- التاريخ الحقيقيّ هو لمقاومة الشعوب:

هناك ما هو أكثر من الاستسلام، على سبيل المثال يصل بعض الناس إلى نقطةٍ ما حيث إما سيموتون أو سيقبلون الأشياء الرسمية التي تُفرض عليهم. ويقال الشيءُ نفسه عن إخوان الصفاء، يريد العلم دائمًا تجاوز الأشياء الموجودة، لكن العنف الذي يفرضه النظام يجبرهم على التحقق من صحَّة بعض كلماتهم الخاصة عبر العمل في الخفاء، هذا كله تأكيدٌ وإرضاءٌ للإيديولوجية الرسمية، ومع ذلك فإن أشياء العلم وفيرة في التاريخ وليست نادرة، فمن الناحية الفلسفية والثقافيَّة ثمَّة أشياء كثيرة، ما يهم هو أسلوب العلم، كانوا يمرّرون بهذا الأسلوب أشياء كثيرة. على سبيل المثال، الخرافات، كانوا يطوّرون من هذه الأساليب، لم يعد العلم متقدمًا. هذه أمور مهمة، ولكن إذا تم أخذ شخصيتهم وطريقة حياتهم في الاعتبار، فإن أسوأ الأشخاص الذين تصرفوا كشخص وخدمة للنظام هو فرانسيس بيكون، كان قاضياً في النظام، بالإضافة إلى ذلك استخدم ابن خلدون أسلوب المُخاتلة والاحتيال في العديد من الأماكن، لكن ما تركه للتاريخ يعتبر أمراً مختلفاً، يختلف بيكُون أيضًا كشخصيَّة عمَّا تركه للتاريخ، ولكن كشخصية فهو خادم للنظام، من والده وجده إلى روجر بيكون إلى زمن فرانسيس كانوا دائمًا كذلك لكن الأسلوب تغيَّر، لقد خدموا الناس، التقييم على هذا النحو أكثر صحة.

إن أساء المرءُ فهم التاريخ، فمن الأسوأ ألا يعرفه أبدًا، من الأفضل ألَّا يعرف التاريخ أبدًا من أن يسيء فهمه، لأنه عندما يسيء المرءُ الفهمَ فهناك قوة تاريخية تمَّ تسييرها وشكَّلت شخصيتنا ومنحتنا الثقة وحددت مواقفنا تجاه المسائل، لأن التاريخ لا يحتوي على ترتيبٍ زمني وتسلسلٍ للأحداث بل إنَّه يحتوي معتقداتٍ وتقييمات وأشياء أخرى كثيرة، على سبيل المثال، لا يخلو مرور المغول من المقاومة، بلاد فارس لا تخلو من المقاومة، الدولة لم تقاوم لأن الخلفاء العباسيين استسلموا للسلاجقة وللأتراك، أي استسلموا كنظامٍ لا

يمكنه المقاومة، فمن قاوم من الخلفاء قُتِلَ بطريقة تآمرية أو عزله عن منصبه.

تعامل الفُرس بطريقةٍ مختلفة، فلم يقاوموا أو يثوروا لكنهم دافعوا عن بعض الأشياء، عن لغة الإيوان الملكيّ وعن السيادة، كانت ثمَّة مقاومة لدى الأتراك أيضاً حيثُ يتحدثون عن مقاومة قلعة ألموت ضد المغول التي استغرقت وقتاً طويلاً، كما أنَّ العرب قاوموا كثيراً وآخرون أيضاً، حتى أن هناك مقاومة حصلت ضد الإسلام، ففي تاريخ الإسلام كانوا يتقبَّلون الناس بطريقة سلبية، على سبيل المثال، الطبري، ابن الأثير اللذان كتبا عن مقاومة الكرد ضد المسلمين في هذه المنطقة بين ريزهرزور وأردلان، ولا سيما حلوان، مقاومتهم لا مثيل لها، قاوموا إلى أن بقيَ منهم واحدٌ فقط.

يُعتبر النظام عاملاً في تدهور الذهن دون الاستقرار السياسيّ والعسكريّ. دعونا نفكر، إن كانت هناك مشاكل في الشرق الأوسط اليوم فأسبابها هي حالة الطوارئ التي تعتبر لا استقراراً، فسوريا على سبيل المثال تعيش الطوارئ منذ سبعة وأربعين عاماً، فما هو سبب حالة الطوارئ؟ تقول إنها في حرب مع إسرائيل ضمنيَّاً!! رغم أنَّه ما من حربٍ مُعلَنَة، لكن ماذا تودّ سوريا فعله بهذه الطريقة؟ أن تكون الدولة غير مستقرَّة دائماً، ثمَّة حالة طوارئ، فالتجمَّعات ممنوعة، ولا توجد خطب، ولا توجد منظمات، وقد يكون هذا سببًا لعدم حدوث ذلك، لذا يختلط الأمر على الناس، وهذا هو الحال في مصر وإيران والعراق، حيث يُمهِّد اللا استقرار السياسيّ والعسكريّ الطريقَ نحوَ الشرّ والخراب، لكن إن جعل المرءُ من ذلك قانوناً مطلقاً فعليه أن ينكر التقدم الذي أحرزه كلٌّ من العلم والتكنولوجيا في أوروبا، لأن الأخيرة مهما كان الأمر صغيراً فقد وجدت الاستقرار وعثرت عليه خلال العام ١٦٤٨، كانت أوروبا في معاهدة فيستفاليا أول مؤسسة يتم تأسيسها في العالم، قالوا يجب أن نتوقف عن القتال الآن، وحتى ذلك الحين، كانت الطائفة ضد الطائفة، والدين ضد الدين، والدولة ضد الدولة، والحرب الفرنسية

البريطانية، بين إسبانيا وهولندا، بين البروتستانت والكاثوليك، حدثت مذابح ضدّ النساء باسم اصطياد الساحرات، كان عدم الاستقرار هو المسيطر، نهب، قتل، إبادة، واجهوا بعضهم البعض بشدَّة كبيرة.

معاهدة فيستفاليا جلبت معها الاستقرار!؟ لا، لم تفعل. حيث تلتها حرب المائة عام، حرب الثلاثين عاماً، إلخ، وصولاً إلى الحرب العالمية الأولى، لكن التغيير والنهضة كانا مستمرّين، واستمرّ الإصلاح والتنوير، ثم لم يكن هذا لوحده آنذاك كافياً، فالسرقة والنهب وكل شيء يمكن أن يحدث لكن الأصالة لا تزال مهمَّة في الشرق الأوسط، ففي أوروبا، ولا سيَّما في العصر الروماني، كان من الممكن أن يصبح قائدٌ ما إمبراطورًا حتى لو لم يكن والده إمبراطورًا، بيد أنَّ هذه الأمثلة نادرة في الشرق الأوسط، تمّ تحقيق الاستقرار. على سبيل المثال، لنفترض أن الفرس يكتب كل منهم تاريخه حسب وجهة نظره الشخصيَّة، ولكن ثمَّة شيء ما، بغض النظر عن الفترة من ٥٥٠ إلى ٣٥٠ حتى وصول الإسكندر، كان للفرس وقتهم وعهدهم، وحكموا حتى القوقاز وآسيا الوسطى ومقدونيا ومصر، حكموا في ثلاث قارات وفتحوا الطرق إليها، كان لديهم نظام موجود مسبقًا. على سبيل المثال، ما صنعته ممالك الشرق الأوسط، نصف الممالك صنعته في أوروبا وحدها، لكن في زمن الفرس العكس هو الصحيح، حيثُ كان العالم كله تحت حكمهم، كل برسيبوليس، عاصمتهم بنيت عن طريق البر.

تلك الجملة التي تقول: "كلُّ الطرق تؤدِّي إلى روما" غير صحيحة البتَّة، فكل الطرق تؤدّي إلى برسبوليس أيضاً، لقد حكموا من مصر ومقدونيا وآسيا الوسطى أو ثلاث قارات في العالم، لهذا فهو يتمتع بالاستقرار والقوة الأخلاقيَّة التي تدهورت في القرون الماضية كما لم تتدهور في أي سنة، بقيت هذه المجتمعات على أقدامها، حيث حدث هذا الخراب في المائة عام الماضية نتيجة لتأثير الحداثة، هذا هو السبب في أن للرأسمالية جانباً من الحداثة، وقال القائدُ عن هذا: "الحرب ضد الرأسمالية ليست هي نفسها ضد

الحداثة"، أنت تحارب الرأسمالية وهذا جانب من المسألة، لكن هذا ليس كافياً، حيث من الضروري محاربة الحداثة. ما هي الحداثة؟ الحداثة تعني الوضعية، والوضعية تقطع العلم عن التاريخ وتفصله عن الأخلاق، لذا فإنَّ المادية آخذة في الظهور بشكلٍ غير متّزن، وعلى هذا الأساس يتعمَّق التدهور الأخلاقي والاجتماعي بشكلٍ أكبر، لكن هذا لا يعني أن العلم ليس جيدًا. العلميَّة ليست جيدة لأنَّها تمحي الجانب الروحي عن الوجود. لهذا حين يقول ماركس ريبار" "الروح البروتستانتية هي روح الرأسمالية"، هذا يعني أن البروتستانتية اتخذت الدين جانباً وجعلت منه فرديَّاً. قبل العصر البروتستانتي اضطر الملك إلى اتباع معايير أخلاقية معيَّنة على إثر الخوف من الكنيسة، ولكن انتفى هذا اللجام مع البروتستانتيَّة، هذه هي الحداثة، الحداثة باسم العلم وتحت مظلَّة التغيير، فالعلاقة بين الناس في التصنيع متوتّرة وماديَّة ولا روح لها مما يساهم في إفساد المجتمع. نحن الآن ضدَّ الرأسمالية، فما الذي يعنيه ذلك؟ نقول ثمَّة استغلال فيها، هذا صحيح ثمة استغلال، ولكن كيف يتم شرعنة هذا الاستغلال؟ لقد تم إضفاء الشرعية عليها عبر الحداثة وشرعنتها بعلمها ودولتها القومية ومفاهيمها الصناعية. إن القيام بذلك بشكل إيجابي لمحاربة الرأسمالية ليست حرباً ناجحة، بل دمَّرت كل شيء، وتسبَّبَ في أيامنا بالكثير من الأشياء السيئة. يمكننا الآن وبكل فخر إعادة طبيعتنا إلى ما قبل مائة عام، حيث كانت الكردية أقوى والإنسانية أقوى والأخلاق أقوى، هذا لا يعني أننا متخلفون، بل نحن نتحسَّر على الأشياء التي كانت تُبقي المجتمع قائماً، وهذا لا يعني أننا نضفي الشرعية على الإمبراطورية العثمانية بالاستبداد، إنه فاحش، مكروه وشرير، لكن رغم ذلك كان هناك مجتمع.

إذا شرحنا تخلُّفَ الشرق الأوسط بهذا العامل وحده فلن يكونَ الأمرُ مقنعًا تمامًا، لأنَّه ومع تدهور الوضع في أوروبا أصبح انعدام الاستقرار السياسي والعسكري لديها أقوى عدة مرات مما كان عليه في الشرق الأوسط، أي تلك الأحداث التي نقول أنَّها تحدث مرَّةً واحدة كل مائة عام، حيث شهدت أوروبا

خلال قرن من الزمان حروبًا ونهبًا أكثر مقارنة مع الشرق الأوسط، احتلت إسبانيا هولندا عدة مرات خلال وقتٍ قصير! احتلت إسبانيا المدن الإيطالية: جنوا والبندقية وميلانو وروما مرَّاتٍ عدَّة! كم حرباً دارت بينهما؟ عمَّا يتحدَّث كتاب "الأمير" لـمكيافيلي؟! إنه يتحدث عن النهب والتغيير اليوميّ للحكومة من دولة إلى أخرى، لذا تبرز صيغتها، كيف ستحكُم، كيف ستسرق؟ كيف تفعل هذه الأمور إن كنت أميرًا، أو كيف تفعل ذلك إذا كنت جنديًا؟ ماذا ستفعل إذا كنت لصًا؟ تم وضع الطرق والوسائل بشكل أساسيٍ. قد تكون هناك صعوبات في هذه النقاط خلال مرحلةٍ ما. ثمَّة شيء آخر، يُقال إنَ تاريخ بلاد فارس دوّن من جانب اليهود وكل شيءٍ فيه مكتوب بشكل إيجابي، هذا غير صحيح، فتاريخ بلاد فارس معتدل ومرن إلى حدٍّ ما قياساً مع الآشوريّين والبابليّين والأكاديّين، لا بل أن هناك درجة من المبادرات المحلية، ثمَّة نظام دولة، يجب ألا يغضّ المرءُ النَّظرَ عن هذه الأمور، ومن قال أنَّ كل ذلك هدفه إظهار التاريخ بشكلٍ خاطئ، فالتاريخ كان على هذا النحو. لكنَّها كانت فاسدةً وشديدة، وقضت بقوَّتها العسكريَّة على خصومها الرُّهبان، قتلت المانويّين، وقتلت رهبان الزرادشتية، كل هذه الأشياء موجودة، ومع ذلك، إذا قارن المرء بابل بآشور، فثمة تسامحٌ نسبي، ومبادرة محلية بشكلٍ نسبيّ، ولهذا كانت قادرةً على محاربة الإغريق، وبالتالي قادرةً على الحكم من إفريقيا وآسيا الوسطى وصولاً إلى مقدونيا. إذا رفضنا كل هذه الأشياء وقلنا فقط؛ قادة، ناهبون، ليس لهم خبرة سياسية. هنا إذا قلنا؛ إنَّه تأثير الحداثة الرأسمالية، تأثير الوضعية. الأمر صحيح في هذا الصدد. لماذا؛ يقول العلماء الغربيون: "لم يكن هناك نظام سياسي في الشرق، كان الأمر مصادفةً، كان هناك لصوص والملوك هم آلهة، ولم تكن هناك معرفة ولا منهج"، بهذه الطريقة أرادوا أساسًا تأكيد سلطتهم. الناس يقاتلون إلى أقصى درجة ضد الدوغمائية، الشر والعنف الجامح، هذا أمر مهم، مع القيمة التي يمكن للناس التغلب عليها.

١٧ـ البحث عن الحقيقة التاريخية يتخذ العلم أساساً:

من المهمّ جدّاً للمرء أن يقف عند تقييم الحضارات، لمرةٍ أخرى أودُّ توضيح نقطة، الآن حين يتعامل الغرب مع المعرفة الإيجابية في الأحداث فإنَّه يستمع إلى فلسفة العلم، لكنه لا يُلقِ بالاً إلى تاريخ العلم، فما هو السبب؟ لأنه إن تعامل مع الجانب الفلسفي وحسب، فإنه سيتعامل مع قوانينه الداخليَّة ومع العقلانيَّة وما إلى ذلك، وهذا الأمر يُظهر سبباً، وهو أن العلم يظلُّ أيضًا محدودًا بأرضٍ وزمنٍ ما، أو أنَّهُ ومع حلول القرن السادس عشر وما بعده، كان يقتصر العلم على القارَّة الأوروبيَّة ولاسيَما في أوروبا الغربيَّة، هذا هو أساس الهيمنة، لذا يتمّ فعل ذلك عن عمد، أولئك الذين يكتبون غير مخطئين، ليس لأنهم لا يعرفون، ولكن لأنَّ هذا وجههم الظاهريّ، مهمَّشون إلى حدٍّ ما، ويأخذون هذا الأمر أساساً، لكننا نعتمد على تاريخ العلم، فلننظر، المرءُ التقط الحجارة أولاً ثمَّ مارس الزراعة وبنى البيوت، ثم جلب المزيد من الرياضيات والكتابة وعلم الفلك والفيزياء والكيمياء وصولاً إلى يومنا الرَّاهن، هذه قيم إنسانية وليست ملكاً لأشخاص، لهذا علينا التركيز على التاريخ. الأشياء -ولا سيَّما العلم والبحث عن الحقيقة-تتمُّ خارج إرادة النظام، لا بدَّ أن نعرف ذلك، العلماء دائما يعارضون، والفلاسفة كذلك، لأن النظام هو الدولة، والدولة ثابتة، لِمَ هي هكذا؟ إذا اتَّخذت الدولة الحركة كإجراءٍ أساسيّ فعليها أن تتجاوز نفسها، لكن الدولة لا تودّ فعل ذلك. لكن ما هو البحث عن الحقيقة؟ هو بحث التجاوز، آلية التجاوز والعبور، غير راضٍ عن مستوى فيدخل إلى مستوى آخر، حتى أنَّها وصلت في يومنا الرَّاهن إلى مستويات مختلفة.

الذرات والقنابل وما إلى ذلك، هذا حمايةٌ للعلم، هذه المعرفة تُنفق بالكامل في سبيل استمرار النظام، إنه خارج نطاق العلم وعلى النقيض منه، لذا فإنَّ الرأسمالية ليست ضدَّ الاقتصاد وحسب، فالعلميَّة أيضًا ضدَّ العلم، هذه أيضًا إثباتاتنا، وهذا هو الفارق بيننا وبين الاشتراكية البنيويَّة. لذا حين نتحدَّث عن الغرب والقتال على الجبهة فإن ذلك يتجاوز فلسفتنا، فالقائد لا ينظر إلى

القتال في الجبهة بنِيَّةٍ حسنة، على سبيل المثال، ماذا يقول القائد في مرافعاته الدفاعيَّة؟: "أولئك الذين يحاربون الإمبريالية على الخطوط الأمامية تحت اسم الدينيَّة، أي الإسلام السياسي، إنّه أمرٌ ديني بحت، ولهم حدود في معارضة النظام، وهو حدود أن يغدوا عبيداً، أي أن يقفوا أمام باب النظام في سبيل الحصول على لقمة، من غير الممكن عبور هذا الحدّ أو تجاوزه". لهذا نحن لا نحاربها بهذه الطريقة، هذه نقطة، النقطة الثانية هي أننا يجب أن نرى الكثير من الأشياء الإيجابيَّة أيضًا، ثمَّة العديد من الأشياء الإيجابية، المبدئية، فالقائد يشيد بالولايات المتحدة والمملكة المتحدة في مواضع كثيرة، مستذكِراً أحيانًا سويسرا عندما يوضّح طريق الحل، سويسرا دولة رأسمالية، وأمريكا بلد رأسمالي، إنكلترا هي مصدر الرأسماليَّة والقوة، لكن هناك بعض الأشياء على الجانب الليبرالي، هناك بعض التطبيقات على الجانب النسبي، لأنه إن كانت الولايات المتحدة دولة مستعمَرة فقد حاربت إنجلترا وأرادت الاستقلال، وهي لم تنل ذلك بقوتها العسكرية بل بقوتها الديمقراطيَّة. ماذا كانت تلك الديمقراطيَّة؟ إنها نظام الولايات، الانتخابات، حقوق الإنسان، فأول إعلان لحقوق الإنسان نُشر هناك، هذه هي مصادر القوَّة، نظام الأوليغارشية، المستبد، والمعادي للديمقراطية تمامًا، ليكون قادرًا على محاربة هذا النظام. لكن النظام لا ينتهي عند هذا الحد، حتى حين نفهم وفقاً لتقييمٍ تاريخيّ، كانت أمريكا قبل مائتي عام، أمريكا مع براهام، أمريكا جيفرسون، أمريكا فرانكلين، كانت أكثر ديمقراطية من أمريكا بوش بمراتٍ عدَّة، حتى أنَّها كانت أكثر ديمقراطية من أمريكا أوباما، حتى ما قبل مائة عام في عصر ويلسون، بمقدور المرء رؤية أنَّ حقَّ الشعوب في الاستقلال كان محميًّاً.

عمَّاذا أودُّ الحديثَ ها هنا؟ النظريَّة الاجتماعية والسياسة والتاريخ عندما يتناقش المرء معها، والتوتولوجيا، أو ربما لن يكون بمقدورنا التعميم، لأن واحد وواحد يساوي اثنان، فالممارسة هي نفسها على الطرف الآخر، لا، يجب أن نأخذ نضال الشعوب منطلقاً لنا.

في عام ١٨٨٦ خرج عمال شيكاغو ضدّ ثماني ساعات من العمل والمطالبة بيوم عطلة، قُتلت آنذاك حقوق النقابات. لكن في أيامنا هذه إن عملت شركة في أمريكا خارج حقوق النقابات العمالية فإنَّها تُعاقَب من قبل الدولة، هل هذا يعني أن الدولة ديمقراطية؟ لا، لأنَّه إن كان للدولة اليوم خطها الديمقراطي في بعض الأماكن فذلك نتيجة لأنشطة الناس، لقد أجبروا الدولة على قبول شيء معيَّن، فإن كان في يومنا الرَّاهن ثمَّة حقوق الإنسان والسلام في أوروبا، فالسبب هو انتفاضة عام ١٩٦٨ التي غيّرت النظام، حيث قال الناس للنظام: "لا يمكن أن تكون هناك قوة ولا رأسمالية بمفردها، نحن شعبكم، نحن شباب، لدينا نساء، لدينا أطفال، لدينا طبقات، يجب أن يكون لكلٍّ منهم حقوقه، لا يجوز أن تكون الأمور كلها رأسماليَّة، إن لم تمنحونا الحقوق فسوف ندمّرُ المتاجر، سنكسر الأبواب، وسنثور"، لذلك رأت الدولة أيضًا أن الأمر لا يجوز هكذا، أي أن يكون كل شيء ملكي لوحدي، "الربّ لي، كل شيء لي" لا بدَّ أن تعطي شيئاً للشعب، هذا هو نضال الشعوب، برونو وفولتير ومونتسكيو وداروين ليسوا برجوازيين، لذا ففي تاريخ الشعوب، لولا الرأسمالية، لتطوَّر العلم أكثر، ولتطوَّرَ علم الاجتماع أكثر، لأنَّ الرأسمالية ماذا فعلت؟ وضعت حدودها أمام كل شيء. لا بدَّ أن نحللّ المسألة الحضاريَّة جيداً وألَّا ننظر إليها بهذه الطريقة، فحين نتعلَّم شيئًا من أوروبا فالأمر ليس تقليدًا، عندما نقدم برونو إلى الأمام، هذا ليس تقليدًا. دعونا نضع فولتير في المقدمة، هذا ليس تقليدًا، لأنهم قالوا بـ "حرية الفكر" وتحدَّثوا عن القانون والحقوق. على سبيل المثال، يقول مونتسكيو: "كل سلطة سيئة، لكن السلطة المستبدَّة أسوأ" حين يقول المرء هذه العبارة ألن تُعتبر جيدة ليومنا الرَّاهن!؟ يجب أن يرى المرء هذه الجوانب، لكن ثمَّة شيء آخر مهمّ جدًا لإنقاذ الناس من الذلّ والتخلُّص من مشاكلهم مع الخارج، يجب على المرء أيضًا إنقاذ نفسه من تقليل شأن نفسه، كيف سيتخلَّصُ المرء من ذلك؟ لا بدَّ من الخلاص من الناحية الذهنيَّة.

الآن نقول النهضة، النهضة هي انفجار الطاقة البشريَّة، يصل الإنسان إلى مستوى يستطيع فيه النظر إلى نفسه ومحيطه وطبيعته ومجتمعه والنظام وفقاً لمنظورٍ جديد. العبودية لا يمكن النظر إليها من حيث التواضع والفقر والصمت والاكتفاء الذاتي والاستسلام. يجد المرءُ نفسه في سياق النشاط والإبداع والمغامرة والألوان الأخرى. يتفق الجميع على أنَّ النهضة بدأت مع كتاب دانتي المُعنوَن بـ الكوميديا الإلهيَّة. التغيير أقدم من ذلك، لكن يقال إنه بدأ فعليَّاً مع هذا الكتاب، لأنه بحثٌ عن الحقيقة وبه أبحاثٌ أخرى مختلفة، يناقش الإلهيَّات، الجنَّةَ والنَّار، العلم. يتعامل مع الأشياء المقدَّسة ويحللِّها متجاوزاً المحرَّمات، أي يُظهِر قوَّة الإنسان في الأشياء الإلهيَّة عبر الفكر.

لكن كان جليَّاً أن الكوميديا الإلهيَّة نسخة شرقيَّة، لا يمكننا قول ذلك في يومنا الرَّاهن، ولا القول إن هذا هو التعصب الشرقي، ولكن هذا ما يخبرنا به التحليل في الوقت الحاضر في الغرب: "هناك قصة عيسى والمعراج، وكيف ذهب النبي محمد إلى الله. على أساس تلك القصة ظهر منطق الطائر في الأدب الفارسي. إنه سيمورج، منطق الطائر الباحث عن الحقيقة، وثمة محادثات مثيرة للاهتمام للغاية في لغة الطيور، على سبيل المثال يقولون: "يجب أن نصل إلى ملكنا، حقيقتنا، فيخاطبون الطيور، قائلين للطاؤوس: " تعال لنذهب"، فيردُّ الطاؤوس: "لست في حاجةٍ إلى ذلك، أنا جميلٌ في الحقيقة ومظهري كافٍ، ولا حاجة بي إلى البحث عن شيءٍ آخر"، فتمضي الطيورُ إلى إخبار العندليب: "تعال معنا"، ليردَّ العندليب: "ليس بمقدوري فعل ذلك" فيسألونه عن السبب، "ميولي مختلفة، أنا عاشقُ الزهور" يردُّ البلبل، فيقولون له: "انظر عمر الزهرة أسبوعٌ واحد وحسب، بعد أسبوع تذبل وتختفي، سوى أنَّ الحقيقة موجودة على الدوام، دعنا نذهب معاً"، لكنَّ العندليب يرفض ذلك.

ثمَّة انتقاداتٌ للجهود المبذولة في سبيل الحقيقة دونما جهد، كما أنَّ المحاولات تكون في المقدمة، فمن يعِدون يذهبون ويقطعون مسافات طويلة ويعبرون

البحار ليصلوا إلى مكانٍ، هو مكان الملك، لكن لا يعثرون على الملك، فيخبرونه: لقد أتينا لرؤيتك، فماذا يريهم؟ يُريهم صورَهُم في المرآة، ليقول لهم: "أنتم الحقيقةُ نفسها"، ثمَّة طائر يُدعى simorg، أي الثلاثون طائرًا، نجوا جميعاً ووصلوا إلى هناك، يريهم الملكُ مرآةً فيبصرونَ صُورَهُم في المرآة مُظهراً لهم الحقيقة على تلك الشاكلة، يقال إن الكوميديا الإلهيَّة ظهرت على هذا الأساس، أي أنَّها النسخة المأخوذة عن تلك الحكاية. ثمَّة قنوات عديدة لمرور الفكر الشرق أوسطيّ والغربي بدأت منذ وصول تاليس إلى بابل، ذهب فيثاغورس إلى مصر، بينما ذهب تاليس إلى بابل، ومع هجوم الصليبيين، زادت حركة (تدفق) هذه الفكرة وانتقالها من الشرق إلى الغرب، ومع ظهور الإمبراطورية العثمانية، ازداد هروب المسيحيين من الشرق الأوسط وهجرتهم إلى أوروبا بشكلٍ أكبر، حيث اكتسب هؤلاء قوَّةً كبيرة من منطق العلم والخبرة، الأمر الذي مهَّد الطريق لعصر النهضة، لأن السلطة في أوروبا رغم عنفها وشدّتها كانت متوترة مقارنةً بالسلطة في الشرق الأوسط. من أين تأتَّت مرونتها؟ كانت هناك جمهوريات حرة في أوروبَّا، البندقيَّة كانت عصراً للنهضة في إيطاليا حيث لم تكُن هناك دولة مركزية، كانت هناك جمهورية البندقية التي يحكمها البرلمان، وكانت ديمقراطية، ولم تظهر إلى يومنا الرَّاهن جمهورية كالبندقيَّة تحكُم نفسها بإرادتها، حتى أنَّ بريطانيا حين تحوَّلت إلى جمهوريَّة أرادت أن تتّخذ البندقيَّة أنموذجاً لكنها فشلت وأصبحت مرَّةً أخرى جمهورياتٍ مركزية ولتنهارَ في أعقاب ذلك. ميلانو وجنيف وغيرها، التي كان يحكمها أيضًا أمراء، لكن رغم ذلك كانت لديهم مجالس، أي أن السلطة كانت مرَنة، فالسلطة المركزية أيضًا هي السلطة التي خلقها الإنسان بنفسه، على سبيل المثال، تم تشكيل دول متجانسة كبيرة في أوروبا من القرن العاشر وما بعده، إنجلترا، وفرنسا، ثم إسبانيا. على أي أساسٍ كانت؟ لقد تشكَّلت على أساس الاتحاد بين اللوردات والأمراء.

١٨ـ تقليد العنف الشديد:

لذا لم يكن النظام السياسيّ الغربيّ في ذلك الجمود والتقديس والعنف ليستطيعوا صَدَّ الأفكار، لكنها في الشرق الأوسط منعت ذلك عن طريق التعذيب والقتل، العنف تقليدٌ قوي في الشرق الأوسط، اندلعت المقاومة ولكن السلطة أسقطتها، ففي العراق الآن وكلَّما حفروا شبرين في الأرض تظهر لهم مقابرُ جماعيَّة، وهذه المقابر الجماعية عائدة للأشخاص الذين قاوموا، وتوجدُ مقابرُ شبيهة في كلٍّ من تركيا وسوريا، قال أحد المعارضين: "أنا أتحدَّى إن وضعتم فوَّهة المسدَّس على جبيني بأن لا ترمش عيني، لكن ليس بمقدوري دخول السجن، لأنه في سجون الشرق الأوسط استسلمت كل الأفكار باستثناء مظلوم دوغان، فإما أصبحوا معارضين لأنفسهم أو ماتوا، قوة المقاومة لم تكن كافية لإسقاط النظام السياسي الحاكم. في يومنا هذا يمكننا أن نتجاوز الأمر، لِمَ؟ لأن ثمَّة دور للعلم والتكنولوجيا، على سبيل المثال، كان العرب يصنعون الكاريكاتور مؤخرًا، يقولون ذهب حسني مبارك إلى جمال عبد الناصر والسادات، جمال عبد الناصر هو الرئيس المصري الراحل، والسادات هو الذي اغتيل، قال لسادات هل أُعدِمتَ أم قتلت وأنت على العرش؟ أي كيف متت؟ لأن السادات قُتِل وهو على العرش خلال مراسيمٍ عامَّة، فرد السادات على النحو التالي: "لا هذا ولا ذاك، لقد قُتلت على يد الفيسبوك"، آنذاك ثمة دور للفيسبوك في تدهور النظام، له دوره التقني والعلمي. إنه أمر مخرِّب ومهمٌّ أن يعرفه المرء. الشيء المهم هنا هو أن نفهم هذه المسألة التوليفيَّة جيدًا، التوليف يعتبر حضارةً جديدة وديمقراطيَّة، على أساس أنه يمكن التقاط أشياء إيجابيَّة من كلا الجانبين، أي من جانب الأطروحة ونقيضها، وهي ليست أشياءَ نمطيَّة مقولَبة، ثمة أشياء تصنع الإعاقة. على سبيل المثال ، قرأ بعض الرفاق -وليس جميعهم- كتب فرويد وضبطوا سيكولوجيَّاتهم وفقًا لتلك الكتب، لأن فرويد في الحقيقة يُحدِث ثورةً في الشخصية من الناحية النفسيَّة، لكن بالنسبة لأوروبا وفي أرضٍ تسود فيها الماديَّة والوضعيَّة، فإنها تحلل الشخصية، لكن هنا ثمَّة القوَّة الروحيَّة

للإنسان، ففي الشرق الأوسط لا يمكنك شرح كل شيء وتحليله وفقاً للجنس، إذا قمت بذلك ستغدو المشكلةُ خطيرةً للغاية، فالإثباتات على عائلة يبلغ عدد أفرادها ثلاثة لا تصلح على عائلةٍ تبلغ عدد أفرادها خمسة عشر، لذا فإنهم عبر هذا الإعلام الميكانيكي يفسِّرون مشاكلهم ويخلقون إعاقاتٍ وعقباتٍ دون أن يكون بمقدورهم حلَّ المشاكل، لكن ثمَّة مقاومة كبيرة في الغرب لا بدَّ أن يراها الناس، رغم أنَّ النظام فرض أشياءَ معينة، إلا أن هذا الأمر جزءٌ من العلم ومن الديمقراطية وحقوق الإنسان، لا بدَّ أن يخرج المرء من هذه التجربة، يقول القائد عندما يتعلق الأمر بحرية المرأة: "ثمَّة العديد من الدروس التي يمكن تعلّمها من أوروبا"، لأن وعي المرأة لجنسها قويٌّ في أوروبا، يجب أن نقبل بذلك، الآن على سبيل المثال في حياتنا اليومية ضمن الشرق الأوسط تقول معظم النساء إننا أحرار ولكن في الآن نفسه ثمة الكثير من التجاوزات التي تُرتكَب في منحى حقوقها، سوى أنَّ المرأة لا تشعر بذلك ولا تفهمه، لكن في أوروبا إن حصل شيءٌ -مهما كان صغيراً- فإن المرأة على الأقل تشعر بذلك، لذا ثمة بعض الأشياء التي لا بدَّ أن يفهمها المرء، بالطبع هذا لا يحل محلّ الاتحادية والتشاور أو محلَّ المسؤولية إزاء بعضنا البعض، على سبيل المثال، هناك بعض الأشياء في الشرق الأوسط، فعلى الرغم من أنَّ النظام كان فاسدًا ومنحلًا وسيئًاً ومستبدًّاً لكن ما كان بمقدوره قتل مسائل الضمير والوجدانيَّة، حيثُ امتلك الناسُ الضمير إزاء بعضهم البعض، على سبيل المثال، رغم أن الاستبداد ساد لآلاف السنين، القتل والذبح وقطع الرأس ولكن الرجل احترم الرجل، حيث لم يكن الإنسان ذئباً بشريًّاً في الشرق الأوسط، لعلَّ الأمر مختلف في المائة عام الماضية، لكن الإنسان لم يكن ذئبًا بشريًا، الإنسان لم ينهَب حينَ كان قويًّاً، وجد انساناً آخر عابرَ طريقٍ ولم يقتله، رأى امرأةً ولكنه لم يرتكب تجاوزات ضدَّها، ما هي قوة النبوة؟ قوَّة الأخلاق، لا يمكن للدولة أن تحلَّ محل تلك القوَّة، في أمريكا الآن هذه حالات وليست مجرد أقوال عشوائيَّة. في الولايات المتحدة، تُدفع الأموال الحكومية للشرطة، ويتم دفع معظمها من قبل حراس الأمن الخاصين، لذا حين لا تنشئ قانوناً أمنيًّاً فإنَّ القانون لا يحل محل الأخلاق، والقانون الآن

يجرّم السرقة فقط، كما أسلفنا، من الطبيعي أن ينفق الناس في الولايات المتحدة أموالاً على تعيين الحرَّاس أكثر مما تنفقه الدولة على مرتَّبات وأجور الشرطة، عندما لا يكون هناك تجريم للسرقة الأخلاقيَّة، لا يمكن الاتِّصال بالشرطة. إذن ما هو التوليف؟ التوليف هو مزيج، أو اتصال بين الأشياء الإيجابيَّة، ولكنه ذا شكلٍ علمي، لا توجد ثقافة وحسب، آنذاك يتحوَّل إلى شيءٍ جديد، يصبح حضارةً وحداثة ديمقراطيَّة. الحداثة التي تقوم عمليّتها على أساس التنظيم والعلم، أي إنَّه اتِّحاديّ وواسع المعرفة، لا يرى المرءُ مصدر هذه المعرفة من الشرق الأوسط وحسب، بل بعض مصادرها من أمريكا، فيما بعضها الآخر من أوروبَّا والصين، هذه إنسانيَّة تطوّرت خارج إرادة النظام، سيكون من الأفضل فهم الأمر على هذا النحو. قد يركِّز المرء على بعض النقاط ويعمل على تقديمها بشكلٍ أفضل لأنها نقاط ضائعة ولا بدّ من طرحها، فلا ينبغي أن يدافع بتعصّبٍ وشكلٍ خاطئ عن مثل هذه الأشياء، لا ينبغي حماية الأشياء الخاطئة، لكن من المهم نقل المسألة إلى عالم المعرفة. نقولُ على سبيل المثال: سبارتاكوس موجودٌ ومُقدَّس وأشعلَ حرباً من أجل الحقّ، لكن ثمَة العشرات من الحركات المناهضة للعبودية التي ظهرت في الشرق الأوسط التي لا نملك معلوماتٍ عنها، على سبيل المثال: حركة الزنج ضد العباسيين، وحركة القرامطة، والحركة الخراسانية وما إلى ذلك، يجب أن نستمدّ قوَّتنا الوجدانيَّة ونضالنا من تلك الحركات، أصحاب وحدة الوجود، هذه فلسفة، مولويَّة، إنَّها الخاني، الجزيري، الحلّاج منصور، السهروردي، حتى أولئك الذين مثل عمر الخيَّام، في اعتقادي أنَّ الآراء بشأن الخيَّام خاطئة، على سبيل المثال، يوجد بيننا من فهم الخيَّام بطريقةٍ خاطئة، ما علاقة هذا بـالخيام، الخيام فلسفة، علم، رياضيات، فلك، الخيام عبارة عن أشياء كثيرة مختلفة. يقول الخيام في رباعيَّاته: "لو كانت لدي إرادة مثل الله في يوم من الأيام، لقضيتُ على جميع الكواكب الموجودة، كنت سأستبدلها بكواكب أخرى تسيرُ بإرادةٍ حرَّة" هل هناك موقفٌ راديكاليّ ضدّ النظام أكثر من هذا الموقف!؟ سوى أنَّ النظام أظهرَ الخيَّام بشكلٍ سيءٍ بعيدٍ عن الحقيقة، نقوم أيضًا بتقييمهم على هذا النحو، لكن هذا ليس صحيحًا، لأننا نستطيع أن نأخذ

مصادر كفاحنا وبرامج الحلول الخاصَّة بنا منهم، لأن القائد يقول: "نهضة الشرق الأوسط إحياءٌ يوميٌّ لزرادشت"، فكما يُقال في أوروبا عن إحياء روما واليونان، لدينا أيضاً إحياءُ زرادشت، يجب علينا الآن أن نسلِّط الضوء على هذا الأمر، ثمَّة حقيقة لذلك، لكن لا ينبغي للمرء الوقوع في حالة حماية الخطأ ومواقف الرفض، الرفض يوقِع المرء في الفخّ، يقول القائد: "اولئك الذين يعارضون القمع ليسوا ضد النظام، إنما يتسوّلونَ بعضَ المال على بابه". نحن فعلاً بعيدون عن ذلك، نحن مشروع، مشروعٌ حضاريّ، ديمقراطيّون، وهذه المشاريع لا يمكن لها أن تؤسَّسَ على قيم الماديَّة، الأنانيَّة، الرأسماليَّة، التصنيع، بل على أساس المجتمع البيئيّ والاقتصادي والديمقراطيّ والكونفدراليَّة الديمقراطيَّة.

١٩ـ النظرة على السياسة:

ركَّزنا فعليَّاً وبشكلٍ جدّي على العديد من الجوانب، لكن الجانب السياسيّ يُعتبر مهمَّاً، وتتضح تلك الأهمية في ممارساتنا العملية، وإحداها في هذا المنحى تطوير القائد لبعض المفاهيم والشروحات، ولفهم هذا أيضاً، لا بدَّ أن ننظر إلى/ و/ في السياسة ونراقبها مرَّةً أخرى.

مفردة السياسة تُستخدَم في اللغة العربية والقاطنون في المنطقة أخذوها عن العرب، يستخدمها الفرس والأتراك كذلك، كما واستُخدمت خلال الفترة العثمانيَّة ومنذ العصور القديمة، والمثل القديم الذي استُمدَّ منه مفردة السياسة متأتٍّ من فكرة تربية الخيول، أو من سائسي الخيول، وبهذا الشكل تمَّ استخدام المفردة ومن ثم تناولها بوصفها تعني فنَّاً للإدارة، لكن في اللاتينيَّة هي السياسة أو البوليتيك، في السلافيَّة والإنجليزيَّة تُدعى بوليتيكا، كيف تمّ بناء المفردة؟ هذه الكلمة تأتي من المدنيَّة، الـ "بوليس"، في اليونانية هي مدينة، كلمة السياسة تأتي من المدنيَّة. إنها مرادف. لكن الجميع يعمل كسياسيّ. لا

يوجد تعريفٌ للسياسة في اللغة التركية، ويعمل الكرد منذ أمدٍ على صياغة مفردة واحدة، لكن لم يحلّ محلها الكثير، ربما قد اتخذ مكانه وفقًا للتعريف القديم للسياسة، لكن المفردة الدقيقة لم تأخذ مكانها بعد. لا يمكن إعطاء إجابة كاملة، فقد أطلق الكردُ عليها اسم Konevanî. Kone، والتي تُفيدُ معنى الرجل المجتهد والمنفتح للغاية، ويفهمون الأشخاص الذين يعملونَ في هذا المجال بهذه الطريقة، ولكن المفردة لم تأخذ مكانتها بشكلٍ جيد ولا أحد يستخدمها، اعتاد الكردُ على استخدام هذه المفردة عوضاً عن مفردة السياسة لأنه ما من فرقٍ كبير، الاختلاف الوحيد هو في اللغة، أي لا فوارق بين المفردتين.

تُظهر السياسة، حسب تعريف هذا المصطلح، نظام الدولة ومجتمعها وقوة نظام السلطة ومعرفته، يتمُّ وصف النتيجة بهذه الطريقة، يستند الجميع إلى هذا التعريف، كما يقال في الماضي، هؤلاء السياسيون لهم اسم وصوت. على سبيل المثال: ضمن إيران في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، في عهد السلاجقة، كان هناك رجل يُدعى نظام الملك، كان لديه الكثير من الملاحظات حول السياسة، وقد نشر أيضًا كتابًا بعنوان السياسة (سياسَت نامه)، حيثُ يوفّر فيه مزيدًا من المعلومات حول إدارة المجتمع، بدلاً من الإدارة وحكم المجتمع.

في القرن السادس عشر ثمَّة ميكيافيللي، وهو إيطاليٌّ من مدينة فلورنسا الإيطاليَّة، له كتاب باسم: "الأمير" ويناقش فيه السياسةَ على أنَّها العلمُ بإدارة المجتمع، كيف يأخذ هذا الأمر أساساً؟ على سبيل المثال، يعزّز وجهات النظر حول السلطة، وقد تُرجَم الكتابُ على مرّ آلاف السنين إلى مختلف لغات العالم، ويتّخذه الكثير من الأكاديميين السياسيين مصدراً لأنفسهم، إنَّه كتابٌ يوضِّح أسلوب الإدارة أو السلطة. على سبيل المثال، يذكر ميكيافيللي في الكتاب: "كيف يصبح الأميرُ أميرًا؟ كيف يحكُمُ مدينةً؟" تختلفُ الأساليبُ وفقاً لذلك، على سبيل المثال، "إن كانت تلك المدينة في حالةٍ ديمقراطية ولها

مجالسها الخاصة وتحكم نفسها، فإنّك ستحكم هذه المدينة بأسلوبٍ مختلف، ولكن حينَ تحكمُ مدينةً في ظل الاستبداد والحكم المطلق فعليك اتّباع أساليبَ أخرى مختلفة أيضاً". كيف يحدث هذا؟ على سبيل المثال، "أمة عاشت في كنف حكمٍ استبدادي، لم تعش الحريَّة الكاملة و لا تعرف ما هي الحريَّة، لا تعرف ما هو الحكم الذاتي، بإمكانك أن تحكم هذه الأمَّة كيفما شئت، بإمكانك أن تضغط على هذه الأمَّة، فالأمر سيَّان بالنسبة إليها"، سوى أنَ "المدينة التي تُدار من قبل المجالس وتعتمد إلى الدرجة العليا على حريتها، وأهل تلك المدينة حكماء، لا بدَّ أن تكون يقظاً للعديد من الأشياء حين تفرض سيطرتك، لا بدَّ أن تشاركهم معك وتهتمّ بمجالسهم، لكن إن لم يكن الأمر كذلك، لا يمكنك إدارة المدينة التي تمتَّعت بالحرية بأسلوبٍ استبدادي".

"إن كان ثمّة أمرؤ لم يكن أسلافهُ أمراءً، بل كان قائداً متقدِّماً ونصب نفسه أميراً فكيف سيمارس الإدارة؟ آنذاك لا بدَّ وأن يطوّرَ بعض الأساليب، فما هي تلك الأساليب؟ أن يقوم بتصفية الأرستقراطيَّة والأُسر الكبيرة في تلك المدينة أو يضعها تحت حمايته، وإمَّا سيقول ناسُ المدينة: "نحن أُسرٌ كبيرة، أرستقراطيّون، ملّاك أرض، بينما هذا الذي يحكمنا ما من أحدٍ يعرفُ أصلهُ ونشأته، نحن لا نقبله" لذا عليك التخلص من ذلك بأسلوبٍ ما، ونتيجة لذلك، حين يكون أسلافك أمراء، فإنك تصبح أيضًا أميراً، فما الذي ستفعله؟ سوف تُظهر للمجتمعات كلَّ أساليب الحكم والسلطة، ووفقاً لذلك الإظهار فإن الهدف هو السلطة، أو أن السياسة تظهر وفقاً للسلطة، أي أنه يوضِّح كيف سيتم تنفيذ أساليب الحكم في كل مكانٍ على حدى. يستندُ تعريف السياسة إلى علم وفنّ السيطرة على المجتمع، وهذا كُلَّهُ مأخوذٌ عن مكيافيللي، كما هو الحال في تطوُّر بعض الإيديولوجيَّات أثناء إدارة المجتمعات.

من القرن السادس عشر إلى السابع عشر والثامن عشر، وحتى التاسع عشر على وجه الخصوص، تمَّ توضيح المزيد من العلوم السياسية، ولكن في أيَّةِ مراحلٍ مرَّت تفاصيلها؟ لن نتحدث عن هذا الأمر كثيراً، لكن ثلاثة من هؤلاء

ساهموا في هذا الصدد وسنركّز عليهم. أحد الثلاثة هو هوبز (توماس هوبز)، وهو بريطانيّ الأصل، قالَ أن الإدارة لا بدَّ أن تكون مطلقة، ثمَّة آناركية وفوضى وعداء وخراب داخل الإنسان، لذا لا يجب على الناس أن يكونوا شركاء في الإدارة، للقيام بذلك يجب أن يخضعوا دائمًا لحكم الملكية المطلقة، إن كان الحكم ديمقراطيًّاً، وإن أدلى كل زعيم بصوته، وكل واحد يعبّر عن المقترحات وفقًا لرغباته، آنذاك لن يُدار المجتمع، يجب أن تكون الإدارة مطلقة، لا ينبغي أن يخضع الملك لسيطرة المجالس والمؤسسات، فإن تمَّت السيطرة فلن يكون بمقدوره ممارسة ملوكيّته، ولأجل ذلك قال بوجوب أن تكونَ الإدارة مطلقة. بعد هوبز يظهر شخصٌ آخر يدعى (جون لوك) بريطانيٌّ أيضاً، وقال أنَّه لا يمكن للحكم أن يكون مُطلقاً، لِمَ؟ تأسست جمهورية لفترة زمنية في إنكلترا، سوى أنَّ تلك الجمهورية لم تلبّي متطلبَّات الشعب الإنجليزيّ، كانت جمهوريَّةً عسكريَّة واتَّسمت بالديكتاتوريَّة بعضَ الشيء، لذا وبعد وفاة رئيس الجمهوريَّة Kown Wilbû في إنجلترا، عادت إنجلترا مرَّةً أخرى إلى النظام الملكيّ، لكن ماذا قالوا؟ يجب أن تكون هذه الملكيَّة شرعيَّة وذات دستور، أي أن تستمرّ عبر المجلس أو البرلمان، هذا يعني أيضًا أنه سيكون هناك ملك، ولكن سيكون هناك أيضًا مجلسٌ إلى جانبه، مجلسٌ منتخَبٌ يُراقب تصرُّفات الملك وطريقته في الحكم ويدعمه، لكن بعد فترة تخلى الملك الإنجليزي عن كل السلطات وألغى البرلمان، جاعلاً نظامهُ مطلقًا من جانبٍ آخر، عارض جون لوك الأمر، بدأ يكتب، ومع كتبه واستنتاجاته تلك، نشأ استياءٌ لدى الشعب ضدَّ تلك الملكية المطلقة، وعلى هذا الأساس اندلعت ثورة غير دموية وحدث انقلابٌ أبيض ضد الملك الإنجليزي خلال عام ١٦٨٨. ماذا فعلوا مرة أخرى؟ تمَّ بناء المجالس ووضع الدساتير والقوانين، أي أن المملكة ولدت من جديد، ولكن مملكة لها الشرعيَّة وليس السيادة مطلقة، أي لا يجب على الملك أن يستوليَ على كلِّ شيء، لأن المملكة الحالية من الممكن أن تغدو رمزيَّةً في بعض الأماكن، هذه وجهة نظر جون لوك أيضاً، فهو لا يرفض الملكية! لكنه يريد مملكةً تُدار عبر المجالس، لاحظوا أنه لا وجودَ لحكمٍ شعبي في آراء جون لوك، فالشعب لا

يَحكُم، من يَحكُم إذن؟ الأرستقراطيُّون الذين يتمُّ انتخابهم من قبل الشعب، فهم يحكمون نيابةً عن الشعب، لذا لا يمكن للمرء أن يقول عن هذا النظام أنَّه ديمقراطي، لكنه في الوقت عينه ليس نظامًا مطلقًا أيضاً، إنه منهج وأطروحة ومقاربة سياسيَّة قائمة على أساس آليَّة معيَّنة تُخضع الملوك للرقابة والتدقيق. ما هو خط الشخص الثالث؟ إنَّه جان جاك روسو الفرنسي. روسو لا يريد ملكيةً بل عقدًا اجتماعيًا، فيقول "يجب أن تُبنى الدولة على رغبات الشعب"، يجب أن تُمارَس السلطة على أساس إرادة الشعب، وحين تنحرف السلطات وتبتعد عن مطالب الشعب سيكونُ ذلك سبباً لاندلاع الثورة، وهذا يعني تجاوز العقد الاجتماعي وعدم تحقيق وئام اجتماعيّ وفقاً لمصالح الشعب الأمر الذي سيؤدي عندئذٍ إلى ثورة، هذه ديمقراطية، العقد الاجتماعي يُنتخَب بشكلٍ مباشر من قبل الشعب، حيث يتمُّ اكتساب القوة وممارسة السلطة بناءً على وجهات نظر مأخوذة عن الشعب، عندما يبتعدون عن وجهات النظر تلك، أي حين يتدهور العقد الاجتماعي يصبح الأمرُ مسبّبًا للثورة.

جان جاك روسو، فولتير، هؤلاء الأشخاص، مهَّدت مقارباتهم في العدالة والسياسة والديمقراطية والعقد الاجتماعي الأرضيَّةَ للثورة الفرنسية من الجانبين الروحي والفكريّ، لكن جميعًا يفهمونَ السياسة كعلمٍ وفن، وحكم المجتمعات، وهذه آراؤهم بشكلٍ عامٍّ.

نحن نواجه الآن تعريفاً جديداً للسياسة، ماذا تقول قيادتنا؟ "السياسة لا صلة لها بالمدنيَّة، اسمها السياسة (البوليتيكا) وهي مفردة يونانيّة لها علاقة بالمدنيَّة، لذا فبالتأكيد غير متصلة بالمدينة"، أي أن السياسة لم تظهر مع المدنيَّة، لِمَ؟ القيادة تربط نظام السلطة الحضاري بهذا: "السلطة هي ذلك النظام الممنوح من المدنيَّة، المصنوعة من التقسيمات الطبقيَّة، وتُدار من قبل الدولة، فالسياسة عندما ترتبط بالمدينة فإنَّها تعني في الوقت عينه الدولة والسلطة، لكن القائد يقول: "لا صلة للمفردة بـ بوليس". أي أن السياسة ليست كلمة مدنيَّة، إنها ليست مسألة قوة وضبط، السياسة ليست وظيفةً وعملاً

للدولة، فالأخيرة تحكم فقط، لكنّها لا تمارس السياسة، لأن السياسة مفهومٌ اجتماعي.

٢٠- السياسة وإدارة المجتمع:

ما هي السياسة؟ المجتمع الذي يقود نفسه هو المجتمع الذي له سياسة حقيقيَّة، وليس المجتمع الذي تحكمه سلطة، السياسة تُدير مجتمعها، ثم أنَّ السياسة موجودة قبل الدولة، ففي السابق كان نهجنا في السياسة هو هذا؛ لقد فهمنا السياسة بوضوح كدولة، كنا نقول إننا نخوض نضالاً سياسياً. ما هو النضال السياسي؟ هو النضال المرتبط بهدف الدولة، ناضلنا لنصبح دولة، كان ثمَّة شيءٌ من هذا القبيل بين العمال، يقولون: "بعض الجماعات تنضم إلى النضال النقابي، وهذا النضال ليس جيداً، فنحن نخوض نضالاً سياسيَّاً، نمارس السلطة، نستهدف الدولة، إنهم ليسوا سياسيين، بل نقابات تعمل لأجل بعض الحقوق المحدودة، كان النضال السياسي يعني النضال من أجل إقامة الدولة، كما أنَّ الدولة والسياسة كانتا مترادفتين، لكن القائد يقول: "لا، الدولة لا تمارس السياسة، الدولة تحكم وتمارس السلطة". السياسة هي إدارة المجتمع، المجتمع الذي يحكم نفسه، هذا المجتمع يستخدم السياسة بالشكل الصحيح، لذا يجب حينها أن نعرِّف السياسة بهذه الطريقة، لأجل ذلك نقول المجتمع الأخلاقي والسياسي، الأخلاق هو فعل أفضل الأشياء والسياسة هي تأمين تلك الأشياء نفسها. السياسة بعيدة كل البعد عن الاستبداد والعلمانيَّة والطبقيَّة، ثم هنا -ووفقًا للقائد-فإنَّ السياسة والدولة لا علاقة لهما ببعضهما البعض! بل على النقيض تماماً، السياسة تختفي بقيام الدولة كونها تصبح ضعيفةً، لأن السياسة تدير مجتمعها، فيما الدولة تمارس السلطة. حين تُنشَئ الدولة يختفي المجتمع الذي كان يحكم نفسه، لأنه حتى قبل قيام الدولة كان هناك مجتمع يدير نفسه بنفسه ويسترشد بمعاييره الأخلاقية وقوانينه، فجاءت الدولة وأزالتها، إذن فالسياسة ليست سلطة ولا دولة بل هي الحكم الذاتيّ

للمجتمع. بماذا تنشغل السياسة لأجل المجتمع؟ تنشغل بتلبية احتياجات وضرورات الحياة، ما هي ضرورات الحياة تلك؟ الأمن، المسكَن، الطعام، تعليم الأطفال، هذا يعني أن السياسة توفر أرضيَّةً لذلك، من الضروري أن تحمي السياسة مجتمعها، وأن تكون قادرةً على الاكتفاء بنفسها إن كانت الأرضيَّة جيدّة لتأمين احتياجات الحياة، المجتمع الذي ينظِّم نفسه، أي يوفِّر لهم ضرورات الحياة، وهذا واجب ومسؤولية السياسة، وتلك الاحتياجات هي التعليم والحماية والصحة، لكن الدولة تفعل العكس تماماً، أي أنَّها لا توفِّر ضروريَّات الحياة.

حين نتفوَّه بذلك من الممكن لأحدهم أن ينبري بالقول: لكن دولة مثل السويد أو سويسرا، ماذا تفعل تلكَ الدول آنذاك؟ هذا صحيح، يفعلون بعض الأشياء، لكن كيف يفعلونها؟ إنَّها أشياءٌ فُعِلت بصعوبةٍ بالغة، لأنَّ الشعوب ناضلت وكافحت، وكانت شاهدةً على القتل، آمنت السلطات أيضًا أنها لم يعد بمقدورها المضيَّ بهذه الطريقة، حيث يمكنها تلبية بعض الاحتياجات الحيوية للمجتمع وتوفير بعض الصحة والتعليم، وليس كل الضروريات الحيوية للمجتمع، الدولة هي أداة للسيطرة على السلطة، إنَها تمثِّل طبقة، تمثل الطبقة الرأسماليَّة. على سبيل المثال، شهد العام ٢٠٠٨-٢٠٠٩ أزمةً في العالم الرأسمالي، لِمَ حدثت تلك الأزمة؟ هم أنفسهم خلقوا الأزمة بدون أي تخطيط، لأن الإنتاج الرأسمالي لم يأخذ الاحتياجات الاجتماعية في الاعتبار، بل أخذوا في الاعتبار ربحهم وعملهم وحسب، لذا حصل انعدامُ توازنٍ في الإنتاج، حيث كانت القوة الشرائيَّة للشعب ضعيفة وحصل تراكمٌ كبير، الأمر الذي أدى إلى الأزمة والإفلاس.

إن تأملنا جيداً لرأينا أن المستثمرين وأصحاب رؤوس الأموال هم من فعلوا ذلك، حيث ثمّة أموال كثيرة في خزائن الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا واليابان لكن لم يتم إنفاقها تلك لصالح الصحة والتعليم، لكن حين دخل النظام في أزمة، شاهدنا كيف أنَّ الدولة تفتح خزينتها بمئات الملايين من

الدولارات، حتى في أماكن مثل اليابان بتريليونات الدولارات، ماذا فعلت تريليونات الدولارات تلك في أمريكا؟ تم ضخَّ الأموال بحيث يمكن للمستثمرين الوقوف على أقدامهم وعدم الفشل وبالتالي منع النظام من الانهيار، إذن، هذه الدولة ليست لحماية الشعب وإنما تعمل لحماية الطبقة المالكة، حينذاك لا تُدير الدولة شعبها وإنَّما تبني الهيمنَةَ والاحتلال والسيادة، لذا فهذه ليست سياسة بل احتلال. السياسة تحكم مجتمعها، إذن فما الذي يجب أن تنشغل به السياسة؟ يجب أن تنشغل بتلبية الاحتياجات المعيشيَّة للمجتمع، الصحيَّة والأمنيَّة والتعليميَّة والتربويَّة، لا بدَّ للسياسة أن تنشغل بهذه الأمور المجتمعيَّة، إن فعلت ذلك تصبح حينها سياسة، لأنّ السياسة هي السعي وراء تأمين الأشياء الجيدة، بيد أنَّ الدولة لا تفعل الأشياء الجيدة وتتعامل بشكلٍ أساسي مع كيفيَّة السيطرة على الناس وإفراغ عقولهم، مُنكبَّةٌ على الانشغال بإبعاد المجتمع عن الإيديولوجيَّة، كل هذا يمهِّد الطريق لخلق أرضٍ خصبة لرأسماليَّة الإنفاق، ونتيجةً لذلك يُحرم الناس من مفاهيمهم الأيديولوجية، ويطورون بواسطتها دوافع الناس المادية ورغباتهم ويزداد معها في الوقت عينه الإنفاق والنفقات، فعوضاً عن محاولة البشر في التعافي ومداواة جروحهم، فإنهم يطاردون النماذج الحديثة ليزداد الإنفاق وبالتالي يتضاعف الفشل، وهذا الأمر يتقدَّمُ الآنَ بسرعة، والدولة هي من تفعل ذلك، هذه ليست سياسة. لذلك من المهمّ أن نعيد النظر في السياسة، سياسة إنقاذ الأمَّة الديمقراطيَّة هي سياسة مختلفة، لا توجد سياسة ولا سلطة ولا دولة، السياسة تحكم مُجتمعها، وبمقدور البشر أن يطلقوا على هذا الشيء سياسة، لأجل ذلك انتبهوا إلى أننا نخوض حاليَّاً صراعاً جادَّاً على الساحة السياسيَّة.

٢١ ـ السياسة الديمقراطيَّة ليست سلطة:

على سبيل المثال، على أي أساسٍ تقوم المشاركة في العمل السياسي؟ بعض الشخصيات كأن يبقوا مدراءً، وكيف يصبحون رؤساء بلديات، أو كيف

يصبحون ممثلين للشعب، يتطور نهج مثل هذه الشخصيات في هذا الأمر، هذه المقاربات منظوراتٌ للسلطة وليست للديمقراطية. ما هي السياسة الديمقراطية؟ أي أن تكون السياسة مُطهَّرةً من الخداع والأكاذيب والسلطة والسرقة والماديَّات وتقوم على مبدأ تنظيم وإدارة المجتمع وتلبية احتياجاته الأساسيَّة، لكن دعونا نلاحظ أنَّ هذه المفاهيم لم تُزرع بعد في ذوات سياسيّينا، بعض مكوّنات الدولة تنطبق على المجتمع، ولا يزال السياسيّون لدينا صامتون إزاءَها، إلى أن يوقظهم قائدنا لينضمَّوا مجدداً إلى النشاط والحركة، ماذا يعني كل ذلك؟ السياسة الديمقراطية لم تُفهَم أو تُقبل بالشكل الجيِّد.

السياسة الديمقراطيَّة لا واجبات لديها ولا سيطرة أو سلطة، ولا أجر، ولا تمييز، ولا تمنح المرءَ مكانةً مختلفة، هذا ليس كل شيء، فالسياسة الديمقراطية جزءٌ من المجتمع، ما الذي قاله القائد في هذا الصَّدد: "ماذا يفعل هؤلاء البرلمانيون في أنقرة؟ لا عملَ لهم في أنقرة، فليذهبوا إلى الشعب". السياسة الديمقراطية هي بين الناس، السياسة التي يتمّ هندستها لدى السلطات تتوقف في العواصم، وعلى المرء الابتعاد عنها كثيراً! السياسة في حدّ ذاتها مصلحة ذاتيَّة، ولأجل ذلك لا بد على فهمنا السياسي أن يكون مُشبعَاً بالديمقراطيَّة وعلى مسافةٍ بعيدة عن السلطة والمادية والسيادة والمصالح، بهذه الطريقة ستعمل الديمقراطيَّة لصالح الناس، فالشعب الذي يُطوّر معرفته سيستطيع إدارة نفسه ويمكنه توفير احتياجاته المعيشية، والسياسة الديمقراطية هيَ من تدلُّ الشعب على هذا الطريق.

اهتمامنا بالسياسة ضعيف، يجب أن نعمل على تقوية أنفسنا في هذه النواحي وأن نتجاوز هذه المشاكل، لذا لا بدَّ أن نعرف الوضع السياسي ونقيِّم السلطة والطريقة التي تجعل بها السلطاتُ الشعوبَ بلا إرادة، دعونا ندرك هذا، كيف سيمثِّل هذا الشعب نفسه؟ نحن بحاجةٍ إلى ارتباطٍ جيد بهذا الأمر ونركِّز عليه، على سبيل المثال، لا يعرف الكثير من أصدقائنا ماهي عملة السلطة في

إيران، أو ما هي الهويَّة الإيديولوجيَّة لتلك الدولة؟ ما هي أساليبها السلطويَّة؟ ما هي المؤسسات التي تُمارس السيطرة فيها؟ ما هو الدور الذي يلعبه رجالُ الدين؟ ما هو الدور الذي يلعبه المنتخَبون؟ ما الفوارق بين هذه المؤسسات؟ لسنا على اطِّلاعٍ في هذا الصدد، ما هي السلطة في تركيا؟ إلى أي طبقةٍ في المجتمع تستند؟ ما هي أشكال سلطتها؟ ماذا يعني الإسلام السياسيّ؟ لا نملك أيَّةَ شروحاتٍ في هذا المنحى، ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ أساليب العدوّ تلك هي من تجعل شعبَنا تحتَ السيطرة. ماذا تعني السياسة الديمقراطية؟ ما هي وظيفة ممثل الشعب في بناء المجالس أو إقالة نوَّاب الشعب؟ كيف سيعملون، ما هي أساليبهم في العمل؟ كيف سيتجنَّبون تقليد السلطة؟ علينا الانشغال بهذه الأمور بجديَّةٍ تامَّة. السياسة مجالٌ واسع يفهم المرءُ من خلالها الدبلوماسيَّة، أي بمعنى مع َمن ستقيم علاقات؟ العلاقات الاستراتيجية والتكتيكيَّة والمبدئيَّة، ماذا ستفعل بهذه العلاقات؟ ماذا ستفعل مع من يعارضها؟ ما هي السياسة الخارجيَّة، ما هي السياسة الداخليَّة؟ كيف ستتمِّم السياسة الخارجية والداخلية بعضهما البعض؟ وبادئ ذي بدء ما المطلوب من المُشتغل في مجال السياسة؟ السياسيّ هو الشخص القادر على تنظيم الفرص القائمة والسلطة بطريقةٍ مثاليَّة وبمهارةٍ كبيرة تنصبّ في خدمة حلّ مشاكل شعبه، وهو الشخص الذي يعرف ما سيخلقهُ لأجل شعبه. من هو السياسيّ في كردستان؟ ما هي الفُرَص المتاحة للشعب الكردي؟ فرص الشعب الكردي هي جغرافيته، سكانه، شبَّانه، نساؤه، لكردستان فرصها الماديَّة والمعنويَّة، بشكلٍ عامّ يمتلك هذا الشعب ثقافةً تعتبر قوَّة لها، سوى أنَّ هذه القوة لا تخدم الناس في الوقت الرَّاهن. لكن ماذا يفعل السياسي؟ إنه ينظم هذه القوى وكل الفرص المتاحة بطريقةٍ مثاليَّة وفعَّالة ويَقِظَة ومبدعة وجيّدة ويخدم مصالح الشعب، أي أن السياسي عليهِ حَلَّ مشاكل هذا الشعب وإكمال مستوى النضال وإتمام التنظيم الداخلي وتطوير القوة الإدارية وتطوير المشاريع من الناحية الاقتصاديَّة، أو تلك التي على علاقةٍ بالجانب الاجتماعي، هذه هي شخصيَّة السياسيّ، ولكن يا ترى إلى أي درجةٍ نقوم بذلك فعليَّاً وبشكلٍ عمليّ؟ الحقيقة أن تطبيقنا ضعيف للغاية، فالفرص والقوَّة التي في كردستان إن كانَ

السياسيَّون مسؤولون إزاءَها لكانَ بمقدورهم خدمة القضية الكردية خلال أمَدٍ قصير وبطريقةٍ واعيةٍ ويقظة، ثمَّة بعض الإمكانات في كردستان، ولكن الآن كما نرى، على سبيل المثال، الهدف هو الإسلام المعتدل والدولة.

هذا الضعف موجودٌ في سياسة كردستان، فعدوُّنا يستخدم قوَّتنا وطاقتنا ضدَّنا في بلادنا، ونتيجةً لذلك حينَ نناقش سياسة المجتمع فبإمكاننا التوصُّل إلى اعتقادٍ بهذا على هذه الشاكلة. أفضل أهدافنا وغاياتنا -بغض النظر عن مدى قيمة القيم وعن مدى دقَّتها- إن لم تكتمل بخطٍّ سياسيّ فإنَّها ستظل أسيرةَ عالم التخيُّل الجيد وحسب ولن يكون لها قيمة كبيرة، لأننا إذا لم نتمِّم أنفسنا بخطٍّ سياسي فسيصبح كلُّ شيءٍ بالنسبةِ إلينا حلماً، إذا لم يكن لهذا الخط السياسي خطَّة وبرنامج ولم تكتمل تكتيكاته واستراتيجيته فإنه سيبقى لوحده مشروعاً لا يمكن تنفيذه، أي مشروعاً لا يمتلكُ فرصَهُ وحظوظهُ للتنفيذ، لذا يجب أن تتوفَّر لدينا خطط وبرامج وتكتيكات واستراتيجية، نودُّ فقط أن نُديرَ أنفسنا، لكن هذا لا يكفي، علينا أن ندخل ضمن المرحلة العمليَّة، أي العمل ضمن خطط وبرامج وننظِّم كل عملنا، قلنا إدارة، فما هي الإدارة إذن؟ ما هو تنظيمها؟ تنظيمها يعني المجالس، الكومونات، التعاونيَّات، التجمعات، الانتفاضات، حرب الدفاع المشروعة، لا بدَّ من توضيح كل هذه الأمور، وعبر هذا النهج سنحقق أهدافنا وغاياتنا، ولتغدو السياسة آنذاك حقيقةً لا بد أن تكون هناك خطط وبرامج سياسية، فإن خُطِّطت وبُرمجت الأيديولوجيا والسياسة دون اكتمال قوَّةٍ تنفيذيَّة سيكونُ الأمرُ فاشلاً ومفرَّغاً من أيِّ معنىً، فما هي تلك القوَّة التنفيذيَّة؟ يجب أن يكتمل "الكادر" بهذه القوة التنفيذية، الكادر الذي قَبِلَ الأيديولوجيا وجعل من نفسه جزءًا منها دون قيدٍ أو شرطٍ وبلا تردد، مستعدًا ليضحّي بدمه في سبيل ذلك، أي مستعدًا للقيام بكل عمل.

من الضروري أن يكون الكادر واضحًا ونقيًا بدون مشكلةٍ وبدون تردد، مناضلاً للقضية، بهذه الأمور من الممكن للمرء القول أنَّ الكادر اكتمل، لهذا لا بدَّ من التركيز على تأمين الكادر وتوضيحه، ومن جانبٍ آخر يعدّ توسيع

مداركه أمراً مهمَّاً أيضاً، يجب أن يكون متنوَّعاً وكاملاً وقادراً على الإنتاج، هذه مهامٌّ أساسيَّة، وفي هذه الحالة يجب أن يكون ثمّة وضوح في هذا الجانب، فإن اتّضحت خصائص الكادر في عملنا فستتحقق خطط وبرامج سياستنا، ولن يكون بمقدورنا دون ذلك إيجاد حظوظنا في الحياة. فلننتبه، ماذا تفعل الدولة؟ تستهدف الكوادر وتأسر المئات منهم وتسجنهم، لِمَ تفعلُ الدولة ذلك؟ كي لا نستفيد من تنفيذ خطِّنا الأيديولوجيّ والسياسيّ وخططنا وبرامجنا في الحياة. ماذا نفعل حتى لو كان ذلك ضد الدولة؟ يجب علينا أن نكون مثابرين ومصرّين على تنمية الكادر، لذا فإنَّ الأمر يحتاجُ إلى وضوحٍ وعدم تردد، لا ينبغي للمرء أن يسمح لأي شخصٍ أن يعبثَ بقيم الشعب ونضاله، أن نرسمَ الحدود بيننا وبين النظام ونكون متشدّدين في موقفنا إزاءه. مثل هذه الكوادر مطلوبة للنضال، فالكادر الذي يعيش حياته وفقاً للنظام، لكنه يعارض ذلك النظام من خلال نشاطه السياسيّ هذا ليس كادر حركة الحرية، بل لا بدَّ عليه أن ينفصل عن النظام ويختار لنفسه نضالاً راديكاليَّاً، يجب أن يؤخذ هذا المبدأ أساساً، بهذه الطريقة يمكن للمرء أن يُدخِلَ الخط السياسي والأيديولوجي إلى الحياة.

نضالنا ضعيف ولم يصل بعدُ إلى المستوى الراديكالي، تغيَّرت بعض أساليبنا النضاليَّة منذ المؤتمر العاشر، ولا يمكننا القول إن الأمر يشبه ما سبقَ المؤتمر، حيث تمَّ تشكيل بلاتفورم الكوادر وإقامة مؤتمراتٍ لهم وللمؤسسات، لقد تحكَّمنا بالتجاوزات، حتَّى أنه تمّ استبعاد مَن أصرَّ على عدم التوحُّد مع الصفّ والإصرار على نفسه، لذا يمكننا القول أنَّ المؤتمر العاشر كان مرحلةً جديدة حيث طُوِّرَ النضال والوضوح داخل التنظيم، لكن حتَّى هذا لا يكفي ولا تزال هناك تجاوزات، لا سيَّما أنَّه ثمَّة مشاكل في العديد من المجالات.

لدينا ميزات القيادة وهي منفصلة تماماً عن النظام ولها شخصيّتها المستقلَّة، لذا فإنَّها ترى أشياءَ لا يمكننا رؤيتها، لِمَ؟ لم يتم فصلنا بالكامل بعدُ عن النظام، في هذا السياق، تحدد تقييماتنا في جوهرها طبيعة انفصالنا عن

القيادة، هذه هي المسافة بيننا وبين القائد، وإن كان القائد يتحدَّث عن الديمقراطيَّة والفيدراليَّة والطائفيَّة والاشتراكية والفرديَّة والاستبدادية والقوميَّة والعنف، فإنه يتحدَّث أيضاً عن بدائل لكل ما ذُكِرَ آنفاً، كونه يستشعر المخاطر ويرى الأخطاء بسرعةٍ ويتجاوزها بسرعةٍ كذلك، لكن لأننا ما زلنا نعاني من نقاط ضعف، فإننا لم نبتعد بأنفسنا عن المتخلّفين، فكما يريد القائد، نحن لا زلنا نفتقد الحساسيَّةَ إزاء خطنا السياسي، لكن القيادة حساسة، بالطبع حتى تصل إلينا تلك الحساسيَّة، يجب أن نتحكَّم بالصداقة المتدنية ونعيش صداقةً حقيقية مع القائد، لا سيَّما فيما يتعلق بتصورات التنظيم، وأن نزيل تلك المسافة بيننا وبين القائد.

لنكونَ قادرين على حلِّ مشاكلنا عبر خطنا السياسي ويغدو لدينا مشروعٌ محليَّ اجتماعيّ، أولاً وقبل كل شيء، لا بدَّ من بناء الذات، لذا فإن القيادة تحذر دائمًا، ثمَّة بعض الأشياء التي يجب علينا نحن القيام بها سوى أنَّ القيادة هي من تفعل ذلك، هذه نواقص جديَّة، قد يكون لدينا رواد يجعلون الحداثة الرأسمالية موضوع نقدٍ جذريّ، لكن في البداية سنتوقف عند عيوبنا، فحين لا يكون الناس قادرين على الدفاع عن أفكارهم بشكل جيد فإن إيمانهم سيكون ضعيفًا، نحن بحاجةٍ لتنوير إيماننا بقوَّتنا الأيديولوجيَّة والسياسيَّة والاجتماعية والإقليميَّة.

٢٢ ـ عصر الإسلام وتأسيس الإمبراطوريات:

حينَ نقول الشرق الأوسط فإننا نعني العديد من الأمم والأديان والطوائف والدول والأنظمة السياسية، لكن كيف نشأت تلك الأنظمة السياسية ولِمَ نشأت؟ ما الذي جلبته تلك النشأة من نتائج معها؟ وما هي تأثير الانقسامات السياسيَّة في يومنا الرَّاهن على المجتمع؟ سنتوقّف عند هذه المواضيع، ولا سيَّما بشكلٍ خاص عند تلك الأنظمة التي لها مثل هذا التأثير المحلي، أو كثيراً

ما تكونُ في خضمِّ جهدٍ وبها رغبةُ أن تصبح قوى محليَّة. إيران على وجه الخصوص، تركيا والدول العربية، هذه الدول التي تقف في وجه الساعين إلى الحرية بالإبادة والدمار والانصهار، ولا سيّما الكرد، لكن قبل ذلك سنبدأ بطريقة تاريخيَّة، أي نقاط الانكسارات، والنقاط التي بدأ فيها الضعف في الشرق الأوسط والفترة التي فقدَ فيها الشرق مبادرته ليس كمركزٍ، بل من حيث قوته العسكرية والسياسية والفكرية، حيث فقد تلك السمات تدريجياً واتّجه نحو وضعٍ مختلف، الوضع الذي ينتظر العالم والواقِع تحت وطأة تأثير العالم، بهذا الشكل بدأت المرحلة، خاصة حتى الحرب العالمية الأولى، سيكون جيداً للمرء التوقُّف بخطوطٍ عريضة ولو كانت جوهريَّة.

مرَّةً أخرى تأسَّست مراكز الإمبراطوريات في الشرق الأوسط مع الإسلام، هذه هي الفترة الأكثر اتساعًا وقوةً في العصر الأمويّ ومن ثمَّ العبّاسي، لكن خلال العصر العباسي، لا سيَّما في القرن العاشر، فقدت الإمبراطورية دورها النشط والقوي والسيادي، وأسباب فقدان هذا الدور بلا شكّ هي أسباب داخليَّة، إحداها الحركات العلمية والوجدانيَّة والجمعيات التي فقدت روحها، لقد تم فقدان ما كان يأمل فيه المرء، هذه الأمور جعلت الناس قلقةً أملاً في الخلاص الذي يقدِّمهُ الدين الإسلاميّ في شخص الإمبراطورية العباسية، خاصة في مواجهة السلطة القائمة على السلطة، في مكان المؤامرة، ومعاداة السامية والخيانة التي حطَّمت الآمال، على هذا الأساس لم تتوفَّر قوَّة موحَّدة بمقدورها الصمود أمام الهجمات الخارجيَّة ولا قوة سياسية عسكرية، بل على العكس وبشكلٍ تدريجيّ توفَّرت قوة مجزأة، وأحيانًا غير مستقلة تعيش تحت حكم قوى أخرى، لا سيَّما في القرن العشرين وما تلاه، حيثُ تضاعف تأثير القبائل التركية التي جاءت إلى المنطقة -وخاصة السلاجقة- بشكلٍ كبير على الإمبراطورية العباسية.

الإمبراطورية عملت رسمياً، سوى أنّها كانت محكومةً من تركيا على الجانب الفعليّ والعمليّ، حيث سيبقى الخليفة الذي يطيع، فيما سيُمحى عن الوجود من

يعارض وبطرقٍ مختلفة، خاصّةً خلال معركة ملاذكرد، حيث انتصرت تركيا على روما، ووصل نفوذها تقريباً إلى المنطقة كلها ولا سيَّما مراكز القوَّة في بغداد وإيران، لتمتدَّ تدريجيَّاً نحو الأناضول وتمارس تأثيرها على السلطة، بما أن هذه الحالة هي حالة تجزئة، فيمكن القول عنها أنَّها حالة ضعف، تفكُّك، انحلال، ولكن لا وجود لمثل هكذا أمر في التاريخ، لأنّنا حين ننظر إلى تاريخ المجتمعات من وجهة نظر العصور المختلفة عن بعضها الآخر، انتهى عصرٌ ليبدأ آخر، يجب أن نفهم التاريخ على هذا المنوال. لكي نفهم، في النتيجة التاريخ أيضًا علم، ولأجل الفهم أكثر فإنَّ المرء يقسِّمُ الأشياء، على سبيل المثال، يفهمُ المرءُ الجانب العسكري، السياسي، الاجتماعي، الثقافي، العلمي، يفهمُ تلك الجوانب قسماً فقسماً، ولكن كل تلك الأجزاء لم تَسِر بمفردها، كما حين نقرأُ في تاريخ أوروبا أيضاً، تاريخ أوروبا الحديثة ونتحدَّث عن عصر النهضة والإصلاح والتنوير، فإنَّ هذه الأشياء الثلاث لم تحصل بمعزلٍ عن بعضها الآخر، أي حتى نهاية عام النهضة، لم يحدث الإصلاح ومن ثمَّ التنوير، لكن لكي يتم فهمها، يتم تمييزها عن بعضها البعض، ففي الكثير من الأحيان سارت هذه العصور جنبًا إلى جنب، وبالتوازي مع ذلك كان ثمَّة اضطراباتٍ سياسية وعسكرية كبيرة في جميع القارَّات.

ظهرت الإمبراطوريات وانهارت، نشأت الدول وانهارت أيضاً، حصلت كل تلك الأمور، وينطبق الشيء عينه على الشرق الأوسط، فصحيح أن العباسيّين كانوا ضعفاء، لكن لا يمكن إمحاؤهم تماماً، تظلُ الخلافة المركزيَّة وجهاً لوجه ضدّ الهجمات التركية، وجهاً لوجه ضدَّ المغول، وبالمقابل من الجهة الغربيَّة تبقى في مواجهة الهجمات، لا سيَّما من جانب مصر وفلسطين وسوريا، ما هي الهجمات في تلك المناطق؟ هجمات الصليبيين، اولئك القادمون من أوروبا.

٢٣ ـ البحث عن الوحدة في الغرب وتعزيزها:

تعيش أوروبَّا منذ القرن العاشر في خضمِّ حَركةٍ ونشاط، أي منذ ضعف الإمبراطورية العباسيَّة في الشرق الأوسط، ما هو هذا النشاط؟ توفَّر الثروات، تطوّرُ صناعة الحديد على نطاق واسع، فهي تُطوَّر الحديد والمحراث الثقيل لتتأثَّر الزراعة مِمَّا يجعل الأرض أكثر إنتاجيَّة، فيؤثِّر على مالكي الأراضي/اللوردات ونظامهم ويزداد الإنتاج، وحين يزداد الإنتاج تزدادُ الثروة، يزداد مستوى الرفاهية وتتراكم القيم المادية، الأمر الذي يؤدي بطبيعة الحال إلى تغييراتٍ في النظام السياسي أيضاً، إنه عصر الفروسية. حين تنمو الثروة، تتعاظمُ مخاطر النهب، وللتغلُّب على تلك المخاطر يتطوّر الجنود المحترفون، أي الفرسان، فلم يعد بمقدور كلّ لوردٍ أو مالك أرض بعد تلك الثروة أن يعيش بمفرده كما كان ذي قبل، لذا يتطوَّر البحثُ عن التجمُّع والاتحاد.

يتقدَّمُ البحثُ عن الوحدة في إنجلترا وفرنسا وبلدانٍ أخرى، هذا لأن كل اللوردات لم يعد بإمكانهم حماية أنفسهم بمفردهم، تدريجياً تظهر مثل هذه الدول المتجانسة بعلمها ولغتها الخاصة وملكها العظيم وهذا عادةً ما يخلق وضعاً جديداً على الجانب العسكري والسياسي ويبني الحجم والوزن، لكن الكنيسة الكاثوليكيَّة ومقرُّها الرئيسيّ إيطاليا/الفاتيكان، والتي تعتبر الزعيمة الروحيَّة للمسيحيين الكاثوليك في العالم، لا تزال هي السلطة الرئيسية، حيث كانت في ذلك الوقت القوَّةَ الوحيدة في أوروبا، وكان اللوردات في السابق على ارتباطٍ بها، يدفعونَ لها الضرائب، وإن كانت بحاجةٍ إلى جنودٍ توَّمنهم، لكن في هذه المرَّة بدأت الدول ترتبط بها، أي أن الدول الكبرى كإنجلترا وفرنسا وهولندا ودول أخرى في أوروبا باتت تتبع الكنيسة أيضًا. إنَّها دول، سوى أنَّها تدفع الضريبة للكنيسة ويهبونها جنوداً، كما أنَّ أسلوب الحكم في تلك الدول تحت مراقبة الكنيسة، لكن وفي الوقت نفسه ما هي الكنيسة؟ إنَّها تراقب السلطة أيضاً، فبالنسبة لها من يخرج عن حكمها من الملوك، فإنها

تقرر ما ستفعله ضدَّه، أي إن لم يكن حكم الملك شرعيًّاً فلن يكون بمقدوره الاستمرار فيه، يجب عليه أن يدع الحكم سواءُ شاءَ أم أبى وإلا سوف تُخرجُ الكنيسةُ الشعبَ ضدَّ حكمه وتلعنهُ، أي أنَّ الحاكم في الدنيا والآخرة هي الكنيسة، وكان لها حقوق أن ترجُمَ أو تلعَن، على سبيل المثال، من كان يتفوَّه بكلمةٍ سيّئة أو يقول شيئًا خاصًا عن عدم توافق العلم مع الكنيسة أو النقيض، كانت الأخيرة تطرده من الدين، أي أنَّها كانت حاكمة النفس البشريَّة والعالم، كانت شبيهةً بدولةٍ أوروبيَّة. حين ظهرت هذه القوة في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر على وجه الخصوص، أرادت الكنيسة توسيع تأثيرها بشكلٍ أكبر، لكن أين ستوسّع من تأثيرها؟ استهدفت الشرق الأوسط، لِمَ الشرق الأوسط؟ لأن الشرق الأوسط هو مركز لإمبراطورية، وهي الإمبراطورية العباسية، سوى أنَّها كانت ضعيفةً ومعتلَّة بعض الشيء، هذا أمر، والأمر الثاني هو أنَّ الشرق الأوسط مصدرٌ لأشياء كثيرة، وحين نقيّم تلك الأشياء، يجب ألا ننظر إليها بأعيننا الرَّاهنة، لأنَّنا إن نظرنا بعيون اليوم فلن يكون بمقدورنا التخيُّل، لذا حين يطرح المرء مثل هذا السؤال قائلاً: "ما الذي تريده أوروبا إذن من الشرق الأوسط؟" فإن كانت أوروبَّا وفقًا لعصرنا الحالي ثريَّةً جدًا وحكيمةً، فماذا تريد من الشرق الأوسط. لكن الوقت القديم لم يكن كما الآن بل على النقيضِ تماماً، حيث احتلَّ الشرقُ الأوسط آنذاك الصَّدارةَ في المجالات السياسيَّة والعسكريَّة والثقافية والعلمية ومستوى المعيشة وطريقة الحياة، حيثُ لا مشاكلَ تُذكَر في الملكية أو في المأكل والمَشرب، لا جوع، ثمَّة معرفة، ثمَّة مكتباتٌ ضخمة ذاع صيتها، مكتبة الإسكندرية في بغداد وغيرها، كانت توجد مدارس، ليس الدينية منها فحسب بل أيضاً مدارس العلوم المواظِبَة على تقديمِ دروسٍ في الكيمياء والرياضيات وعلم الأحياء وغيرها من العلوم الأخرى. المدارس لها تأثيرٍ فعَّال للغاية ولا تزالُ آثارها موجودةً حتَّى يومنا الرَّاهن في مصرَ ودمشقَ وبغداد، كانت كل تلك الأشياء التي ذُكرت موجودةً، امتلكَ الشرق الأوسط ثروةً على مستوى نمط الحياة سواء من حيث العلم أو من حيث مستوى المعيشة، نقولُ الآن إننا نقلد أوروبا، -على سبيل المثال- في بعض القضايا، ولاسيَّما قضية النظافة،

لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، بل على العكس، كان أسلوب الحياة الغربيَّة مختلفًا تمامًا عن تلكَ الشرقية، لا سيما من حيث النقاء وانضباط نمط الحياة في الطعام والشراب، وأين عاشوا، في الشرق كان ثمة بنية تحتية في المدن وبنائها، تم تناول هذه القضايا بعناية ومعالجتها عن كَثَب.

لم تكن الأشياء المتطوّرة في الشرق الأوسط على نفس السويَّة في الغرب حيثُ كان فيها ثروة، الآن أوروبا تتّحد وتزداد قوةً من النواحي كافَّة ولا سيَّما العسكريَّة حيث تتشكَّلُ الجيوش، ثمّة دولٌ متّحدة تظهر تحت رايةٍ واحدة، وكل ما يحصل على ارتباطٍ بالكنيسة، حينذاك ظهر البحث أو التجمع وتقوية الجانب العسكري، إلى أين ستتوجَّه تلك القوَّة العسكريَّة؟ بالطبع ستتوجَّه نحو الشرق الأوسط، والهدف من ذلك هو السرقة، لا ينبغي للمرء أن ينسى ذلك، فلكل حربٍ أسبابها، بعض الأسباب مباشرة وواضحة، وبعضها الآخر غير مباشرة، والأخيرة تعتبر من الأسباب الهامَّة، فالأسباب غير المباشرة أو تلك التي على المدى الطويل هي السرقة، فما هو المدى الطويل؟ ثمَّة ميدانٌ يتوفّر فيه كل الثروة، وأوروبا بدأت تتعافى وتودُّ أن تصبح قوَّةً مهيمنة وتسيطر على طرق التجارة التي تجلب المصالح لها، هذا هو الهدف، لذا ما الذي تفعله أوروبا؟ تتوجَّه نحو الشرق الأوسط، هذا هو السبب طويل الأمد وبعيد المدى، وهو أمرٌ أساسي.

ما هي الأسباب المباشرة لتعبئة الناس وتجنيدهم؟ إنَّها أسباب دينيَّة، مسيحيَّة، قالوا: نحن مسيحيون هنا، المسيحّيون كلهم هنا، وجميع سكان أوروبا مسيحيون، ولكن المكان الذي ولد فيه المسيح يخضع للحكم الإسلامي وهذا لا يجوز، جميع الأماكن المقدَّسة واقعة تحت سيطرة المسلمين، ولكنَّنا هنا مسيحيّون، وهذا غير ممكن، لذا قرروا -وكحكمٍ إلهي أو واجبٍ مقدَّس- بضرورة إخراج تلك الأماكن المقدَّسة من تحت سيطرة المسلمين والعرب، على هذا الأساس، ومنذ العام ١٠٧٠ فصاعدًا تم حشد الناس تدريجياً، وتجميع الشباب، وجهَّزوا الفرسان، ونظَّموا الجيش، وبدأ الفرنسيون،

والإنجليز، والإسبان، ومن جميع أنحاء أوروبا بالتوجُّه نحو الشرق الأوسط بتنسيقٍ مع الكنيسة.

لم يملك الشرق الأوسط قوَّة الدفاع، ووضعُ العباسيين كان واضحاً للعيان، حيثُ كانت الإمبراطوريَّة مقسَّمة وجزءٌ كبيرٌ منها بات خارج السيطرة، مثال: كان ثمة خلافة فاطميَّة في مصر اعتبرت نفسها علويَّة، كانوا يُدعَون الفاطميين، لم يكونوا تابعين لبغداد بل مستقلّين تماماً، كانت الحركة الإسماعيلية مؤثرة في العديد من الأماكن وحكمت، على سبيل المثال سيطروا على مدن سورية عديدة، ولا تزال لديهم بعض القلاع الموجودة حتَّى يومنا الرَّاهن، وكانت هناك مستوطنات إسماعيلية حول البحر في سوريا آنذاك، كانت الطريقة الباطنيَّة المعروفة باسم حسن الصباح، سوى أنَّها وُجِدت قبله، اشتهرت بأسلوبها الفدائيّ، طبعاً الفدائيَّة لم يصنعها حسن الصباح، بل هي جزءٌ من العقيدة الإسماعيليَّة وُوُجِدت منذ القِدَم، غالباً ما ذاع صيتهم بالاغتيالات، لقد أصيب صلاح الدين الأيوبي في ذراعه على أيديهم مرتين لكنه لم يمت.

٢٤ - الحروب الصليبية ضد الأيوبيِّين:

يوجد مثل هذا الانقسام بالفعل، ففي العام ١٠٧٠ بعد الميلاد وحين يقبُل الصليبيُّون لا يصطدمون بمقاومةٍ كبيرة، لذا يسيطرون على أماكن عديدة، يحتلون القدس، المكان الذي نسميه فلسطين الآن، ولفترة من الوقت يغزونَ مصر ويحتلُّونَ سوريا، ليحكموا في تلك الجغرافيَّات، لذا وعلى أساس الدفاع عن أرض المسلمين، يأخذ العباسيون دورهم وينظّمون حملاتٍ ضد الصليبيين، ووصلت تلكَ الحملات ذروتها في الفترة ١١٨٠-١١٩٠ مع الأيوبيين وحققَّت نتائجَ كبيرة. الأيوبيون كرد، ليسوا كردَ كردستان أنفسهم، بل كردٌ شدّاديون من أذربيجان حيث توجد منطقة كردية لكن تمَّ إفراغها من

سكَّانها بعد الحرب التي اندلعت بين الأذربيجانيين والأرمن، وهي منطقة تسمى كلبيجار، كانوا شدَّاديين وملكوا دولَةً آنذاك وتمتعوا بالسيادة وكان لهم تأثيرهم في العديد من الأماكن، والعائلة التي ينتمي إليها صلاح الدين ملكَت مكانتها في البيروقراطية، حيثُ يرسل الخليفة العباسي في إثرهم ويتوجّهونَ نحو تكريت العراقيَّة ويستقرّون فيها، وهي المدينة التي ولد فيها صدام، وصلاح الدين نفسه وُلِدَ في تكريت.

عندما تبدأ الحرب ضد الصليبيّين في سوريا تحت قيادة الخلفاء العباسيين في دمشق، بقيادة قائد، أي أميرٍ مسلم من أصولٍ تركيَّة يدعى نور الدين الزنكي، تذهب عائلة صلاح الدين أيضاً مع ذلك القائد، لأن عم صلاح الدين أسد الدين شيركو قياديٌّ كبير ومشهور، مثل العديد من القادة العظماء، كما حينَ نذكر نابليون، فهو واحد منهم، وكان مختصَّاً بقيادة الحروب ولديه القوَّة في إدارة المعارك.

والد صلاح الدين سياسيّ، لذا انتصرَ نور الدين، لا سيَّما انتصاره في إنقاذ سوريا وعديدِ المدن الأُخرى من الصليبيين، ثم تتّجهُ الحربُ رويداً رويداً ضدَّ الفاطميين في مصر، يموتُ نور الدين بعد ذلك دون أن يتمكَّن من تحرير فلسطين. بعد وفاة نور الدين الزنكيّ، يتولَّى صلاح الدين الأمر ويحرّر القدس، ومُذ ذلك غدت كل من مصر وسوريا وفلسطين تحت سيطرة الأيوبيين، وبعد موت صلاح الدين تتولى عائلته الحكم ولكنَّها لا تحكُم مثلما حكَم صلاح الدين، بل يتكبَّرون ويفقدون إحساسهم إزاء حماية حكمهم، وفي خضمِّ ذلك يرفع المماليكُ بأنفسهم إلى مستوىً عالي، وبهذا الشكل يستولون على الحكم إلى العام ١٥١٧، حينَ غزا السلطان يافوس مصر وخلعهم عن الحكم.

ينحدر المماليك في الأصل من شعوب مختلفة، لكنهم لا يتمتعون بمكانةٍ مثل الأحرار، ليسوا عبيداً ولكنَّهم على ارتباطٍ بهم، ووصلوا عبر العسكَرة في بعض الأماكن إلى مستوى عالٍ في الجانب الاجتماعي، وأخذوا طريقهم إلى

السلطة رويداً رويداً عبر التعامل مع الأسر الحاكمة مثل العائلة الأيوبيَّة إلى أن أستولوا على السلطة، حيثُ حكم المماليكُ بدون انقطاع حتى العام ١٥١٧. بما أن انتصار صلاح الدين له معناه، فإنه ليس انتصارًا فرديًا، إنَّه انتصارُ المنطقة، أي أنَّها قوة المنطقة ولا سيَما على المستوى الثقافي والاجتماعي والأخلاقي، كما أنّ الانتصار مارس تأثيره على الجانبين العسكري والسياسي، وهذا هو السبب في أن الصليبيين ورغم حملاتهم المستمرّة ابتداءً من العام ١٠٧٠ وحتى العام ١٣٠٠ لم ينجحوا، حيثُ نفَّذ الصليبيُّونَ في غضون مائتي عام الكثير من الهجمات دون أن تكون لها أي نتائج، ولكنّهم واظبوا على الاستفادة من تلك الحملات من جانب العلوم والفلسفة والكتب، فحملاتُ الصليبيِّن لم تكن مجرَّدَ حملاتٍ للتدمير والقتل والإبادة بل استفادوا من الجانب العلمي، لذا فهم يختلفون في هذا الجانب عن المغول الذين اتّخذوا التدمير منطلقاً لهم، يقال أنه عندما غزا المغولُ بغداد رموا مكتبتها بالكامل إلى نهر دجلة، الربُّ وحده يعلم كم كانت أعداد الكتب، لقد ابتلعَ النهرُ كل تلك الكتب، فيما الصليبيون لا يفعلون ذلك، لا يرمونَ المكتبات إلى الأنهار، بل يتعلّمون منها، يقرأون كتبها، ليكون لهذا تأثيرٌ كبير من لَدُن ثقافة الشرق الأوسط على أوروبا، وكان ذلك أحد أسس النهضة، وليسَ كلَّها.

٢٥ ـ تأثير العباسيِّين وصعود الدولتين الصفويَّة والعثمانيَّة:

يتوقَّفُ تأثيرُ العباسيين مع القرن الثالث عشر وما بعده، لذا ينتشرُ النظام السياسي في الشرق الأوسط، وتسيطر تركيا على السلطة رويداً رويداً لتحكُم منذ القرن الرابع عشر، ويعيد الفرس على الجانب الشرقي إقامة دولةٍ تسمَّى الدولة الصفوية، على الرغم من أن حكَّامها ليسوا فرساً في الأصل سوى أنَّ سلطتهم تقمَّصت الشخصيَّة الفارسيَّة، وعلى هذا المنوال تنشأ هناك دولة كبيرة.

ثمَّة دولة أخرى تسمى الإمبراطورية العثمانية التي تدعي أنها استمرارٌ للعباسيين وقائمة على أساس الطائفة السنية، وأطلقوا على أنفسهم ألقاب الخلفاء، أي أن سلاطينَ العثمانيّين نظروا إلى أنفسهم من خلال عيون الخلفاء، وعلى إنها مركز الدولة الإسلاميَّة، وهكذا تبدأ مثل هذه الدولة العثمانية بالنشوء في المنطقة، تتجَّه نحو الشرق لتحكم كل الأراضي التي حكمها العباسيون سابقًا، ولا يكتفون بذلك وحسب، ينتزعون مصرَ من المماليك، يسيطرون على شمال أفريقيا، ويتوجهون نحو أوروبا، يستولونَ على إستانبول، حتى أنَّها وصلت في بعض الأحيان إلى الحدود النمساوية، لقد ذهبت حتى إلى حدود فيينا.

تلكَ مرحلة، لكن في هذه المرحلة يتقدم التوازن تدريجيَّاً على الجانب الغربي، فصحيحٌ أن ثمَّة قوَّةً عسكريَّةً عثمانيَّة، دولة كبيرة، تنتصر أحيانًا في حربها العسكرية ضد أوروبا، مستفيدة من الصراعات داخل أوروبا نفسها، أحيانًا تكون فرنسا معها وتقاتل ضد النمسا، ينتصرون قليلاً فيحاربونَ المجر، مستفيدين من الصراعات داخل أوروبا، في بعض الأحيان يكسبون بعض الأشياء لصالحهم، ولكن بشكل عام يتوقَّف العلم في الشرق الأوسط، يتوقَّف الجيش، تتوقف السياسة، لم يعد هناك تقدم. أوروبا الجديدة تستيقظ وتناقش كل شيء. هناك ثورات دينية، تتشكل دول جديدة، ولا سيما دولة مثل أسبانيا، حيثُ أنَّ الأخيرة غزاها المسلمون في العصر الأموي، مرَّ عليها طارق بن زياد وموسى بن نصير وحرَّروها.

حكَم العربُ إسبانيا ما يقارب الثمانمئة عامٍ دون انقطاع، كان الأمويُّون هم من يحكمون، ومن ثمَّ بعد ذلك وخطوةً إثر الأخرى نظَّم المسيحيَّون أنفسهم في إسبانيا ودخلوا في حربٍ ضدَّ العرب في القرن الرابع عشر، أي منذ عام ١٣٠٠ فصاعدًا، لتظهر نتائج تلك الحروب في القرن الخامس عشر، فما هي نتائج تلك الحروب؟ غدت إسبانيا مرَّةً أخرى دولة مسيحية متعصبة ولا تقبل على أرضها سوى المسيحيين، ورفضت المسلمين واليهود، وهكذا تم إنشاء

دولة عظيمة. متى؟ كانت غرينادا التي يسمّيها العرب غرناطة، آخر دولةٍ عربية قاومت في إسبانيا عام ١٤٩٧ ومن ثمَّ استسلمت، حيث سلَّم أميرُ تلك الدولة مفاتيح المدينة إلى ملك إسبانيا آنذاك، كان الملوك في ذلك الوقت اثنان، واحد امرأة والآخر رجل، فرديناند وإيزابيلا، كانا زوجَين ولكن وفقَ المصالح، كانت هناك وحدة للقوى.

يقال إنه عندما يسلُّم الأميرُ العربي المفتاح للملك الإسباني تنهمرُ الدموع من عينيه، لقد غدا بلا حراكٍ أو نشاط ومحاصراً وصامتاً دون أن يبدي أيَّة مقاومة، انتقدته والدته بقسوة على إثر ذلك، حين انهمرت الدموع من عينيه، قالت له: "هذا جيِّد، فلتبكِ مثل العجائز على مُلكٍ لم يكن بمقدوركَ حمايته مثل الرجال"، قد تُعتبر هذه العبارة وفقاً لذلك العصر حمايةً للجنسيَّة سوى أنَّها كانت عبارة ذلك العصر.

تمّ استعمال تلك العبارة الأخيرة التي وُجِهت إلى آخر أميرٍ لـ غرينادا في الأدب السياسي، على سبيل المثال، حتى تشي جيفارا نفسه في نيويورك يقول هذا لأحد رؤساء أمريكا اللاتينية الذي كان مستسلماً جداً لأمريكا دائماً، اشتروه ومن ثُمَّ رموه، سوف أقول آخر عبارةٍ قُيلت لآخر أميرٍ عربيّ في غرينادا: من لا يستطيع الدفاع عن نفسه في الوقت المناسب، فإنَّه يواجه الاستسلام وجهاً لوجه، هذا ما تعنيه تلك العبارة، حينها يغادر العرب المسلمون أوروبا، ومن ثمَّ يتمّ بناء دول أوروبا الكبيرة، إسبانيا، فرنسا، إنجلترا، النمسا التي لم تكن دولة صغيرة من قبل، وإنَّما كانت إمبراطورية، هنغاريا، ومن ثمَّ انضمَّت إليها إسبانيا، حيث كانت ثمَّة أسرة تحكم فيها تُدعى عائلة هابسبورغ، كانت هذه العائلة ماهرة للغاية في الأمور المتعلقة في زيادة نفوذها، واحتضنت العديد من البلدان وبالتالي أصبحت إمبراطوريَّةً عظيمة. آنذاك لم تكن بعض الدول موجودة بعد، على سبيل المثال، مثل ألمانيا، إيطاليا، لم تكن موجودة بعدُ كدولٍ مركزية، ظهرت هذه الدول فقط كدولٍ

قوميَّة في سبعينيات القرن التاسع عشر وما بعدها، كانوا مدناً وحسب، وبسبب هذا التوازن تغيَّرت موازين الهيمنة الأوروبيَّة وظهرت تدريجياً.

انهارت تلك الهيمنة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على شكل القضاء على النفوذ التركي في أوروبا، كل دول البلقان، يوغوسلافيا، بلغاريا، اليونان، كل هذه الدول كانت حرة في ذلك الوقت وحرروا أنفسهم من نفوذ الأتراك، ففي نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين وما بعد ذلك، لم يُترك أي جزء من أوروبا تحت سيطرة الأتراك، لهذا السبب يعاني الأتراك من الغرب، زيادة الضرائب هذه المرة، أخذ المال من الجنود، لهذا تندلع الانتفاضات الكردية والعربيَّة، ويظهر عدم الرضا، كل هذه الأشياء تظهر في ذلك الزمن.

٢٦ - الحملة الأوروبيَّة الأولى لاحتلال مصر:

حصلت العديد من التغييرات في الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر، أي أن العام ١٨٠٠ عامٌ رئيسي في الشرق الأوسط. لِمَ يُعتَبَر هذا العام قاعدةً؟ بدأت الحملة الأوروبيَّة الأولى ضد مصر، وولدت البرجوازية بشكلها الجديد في مصر، حيث نفذ نابليون الحملة واحتلَّها، لقد جلب الأمر معه العديد من التغييرات، والآن توجد إمبراطورية، واسمها الإمبراطوريَّة العثمانية، كانت مسيطرةً بشكلٍ رمزيّ وباتت ضعيفةً للغاية، ظهر عدم الرضا إزاء تلك الإمبراطوريَّة. بدأت الانتفاضات الكرديَّة بعد القرن التاسع عشر، ومن ثم انتفض العرب أيضاً، وبدأ الأوروبيَّون يدخلون رويداً رويداً، حيث غزا نابليونُ مصر خلال العام ١٨٠٠ بعد ذلك ولفترةٍ طويلة، أخرجوا شمال إفريقيا تدريجياً عن سيطرة العثمانيين، وغزت فرنسا الجزائر والمغرب وتونس واستولت على كل شيء.

لِم حدثت كلُّ تلكَ الأشياء؟ على سبيل المثال، دعنا نقول كان ثمَّة ديونٌ فرنسيَّة كبيرة على الجزائر، الجزائر لديها والٍ يتبع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، لكنها مديونة لفرنسا، لِمَ؟ الصناعة تتطور وتتزايد احتياجات الناس، وهؤلاء الناس يريدون سفناً من فرنسا، وأشياء أخرى كثيرة، وكل ما يحتاجونه، كل تلك الأشياء تعتبر ضرورية، حتى من أجل الرفاه الشخصي، لأن القوَّة الحاكمة تستميت في سبيل رفاهّيتها، لذا ترى أن ثمَّة أشياء جديدة تظهر في أوروبا فترسل في إثرها أيضاً، ومع مرور الوقت ترزح القوَّة الحاكمة تحت وطأة الديون الكبيرة. على سبيل المثال، كيف تمَّ احتلال الجزائر من قبل فرنسا؟ يذهب القنصُل الفرنسيّ إلى والي الجزائر المسمى حسين قائلاً: أريدُ ديون بلادي؟ ينزعج منه الوالي (الوالي مرتبطٌ بالإمبراطوريَّة العثمانية، فيما القنصل موظَّفٌ عاديٌّ يُطالب بديون بلاده) كان بيد الوالي قتَّالة ذباب يرميها في وجه القنصل، فاعتبرت فرنسا هذا التصرُّف إهانةً لها، ليغدو الأمرُ سببًا مباشرًا لاحتلال الجزائر.

كانت تونس، المغرب وهي شمال إفريقيا، مناطقَ قريبة من أوروبا واحتلتها بالكامل على وجه التقريب في خمسينيات القرن التاسع عشر، كما وحصلت محاولاتٌ عديدة إزاء احتلال مصر أيضاً. على سبيل المثال، دخل نابليونُ مصرَ، فلنلاحظ أن ثمَّة ميّزة في الشرق الأوسط: فمن يودُّ السيطرة على العالم يتوجَّه نحو الشرق الأوسط كونهُ يلعبُ دور المفتاح، ثمَّة طرق للتجارة، ويربطُ من الناحية الجغرافيَّة بين ثلاثَ قارَّاتٍ: آسيا وأفريقيا وأوروبا، إنَّهُ مثلَّثٌ أساسي بين تلك القارَّات. طرق التجارة استراتيجيَّة بطبيعة الحال وإحدى مصادر الحضارات، لذا يتوجَّهون نحو الشرق الأوسط، نابليون أيضاً توجَّه إلى الشرق الأوسط على اعتبارهِ قوَّةً مهيمنةً في العالم، فكانت الحملة الأولى من الخارج إلى الشرق الأوسط في مصر. ماذا جلبت حملة نابليون؟ بادئ ذي بدء، أثبتت الحملة أنَّ الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ولَّى زمنها ولم يعد بمقدورها المقاومة، هذا الأمر يكاد يشبهُ تمديدَ زمن مباراةٍ لكرة القدم، فبعد انتهاء الوقت الأصلي للمباراة يتمُّ احتساب الوقت الضائع فيُمدّد زمنُ المباراة

بعض الشيء، كانت تلك الحرب شبيهةً بما سبق ذكره، لأنّ العثمانيون فقدوا القدرة على المقاومة.

ثمَّة أمرٌ مثير للاهتمام حول نابليون، حيثُ يقول: "حين ذهبنا إلى مصر، كان يمكن لجنديٍّ عربي أن يهزم جنديَّاً فرنسيَّاً بالتأكيد، فاتّحادٌ عربيٌّ صغير يشبه اتّحاداً فرنسيَّاً صغيراً، لكن فصيلاً فرنسيَّاً تمكّن من هزيمة كتيبةٍ عربية"، هذه هي الطريقة التي تظهر بها الجودة وتظهر بها الفوارق بين المؤسسة العسكرية في الشرق وبين مثيلتها في الغرب.

حين يتعلَّق الأمر بالقوَّة الفرديَّة، يمكن لعربيٍّ بالتأكيد أن يهزم فرنسيَّاً، هذا أمر مقبول حين تكونُ الحربُ على مستوى وحداتٍ صغيرة ولا تلعبُ فنون الحرب وتقنيات القتال دوراً كبيراً بعدُ ويُقال أنَّ طرفا الحرب متساويان، آنذاك تتوازن تلك القوَّة الضعيفة التي كانت تلعب دورها حين كان القتال في إطارِ فردٍ مقابلَ آخر، لكن نابليون يقول أنَّ فصيلاً فرنسياً له القدرة بالتأكيد على هزيمة كتيبةٍ عربيَّة، هنا ثمَّة المزيد من التسليح والمناورة وفنون الدفاع عن النفس والتكتيكات العسكريَّة، وهذه الأمور تلعب أدواراً هامَّة، ماذا يعني ذلك؟ كيفيَّة أوروبا، الكيفيَّة التي بدأت بها في الشرق الأوسط وتقدُّمها، أي يتضِّح أنَّ التاريخ يعودُ إلى الوراء. كان هذا مثالاً وحسب. جلب نابليون معه أشياء أخرى، حيثُ دخلت الأفكار الأوروبيَّة وما أنتجته الثورة الفرنسيَّة في جانبها الثقافي وشكلها السلطويّ ونهجها في الفن والأدب بشكلٍ مباشر؛ كما ويظهر تاريخُ مصرَ كذلك الأمر، فنابليون لم يكتفِ بإحضار الجنود معه بل جلب علماء الآثار والمؤرخين واللغويين، حيث بحثوا ليجدوا أن ثمَّة تاريخًا غامضًا في هذه الأماكن، تم العثور على تماثيل وأهرامات وما إلى ذلك، وفي غضون ذلك عثرَ جنديٌّ فرنسي على حجرٍ عليه آثارُ نقوشٍ، و فيما بعد نظرَ عالم آثارٍ مشهور يدعى شامبليون (جان فرانسوا شامبليون) إلى الحجر وقال: هذه كتابة، إنَّها الكتابة الهيروغليفيَّة"، توضَّح أمر الكتابة الهيروغليفيَّة أثناء

حملة نابليون وساعده ذلك على تغيير نشاطه الثقافي والعقلي. دخل الإنجليز بعد أن غادر نابليون وبدأوا رويداً رويداً بتسيير السلطة وفقاً لأنفسهم.

٢٧ - الفَرض وتطور الحداثة في الشرق الأوسط:

حدث تغيير جديٌّ في تاريخ مصر ولا سيَّما في الأعوام ١٨٣٠-١٨٤٠، حيثُ يتوجَّه رجلٌ يدعى محمد علي إلى مصر برفقة الجيش، ويصبح والياً هناك، وكان جيشه عمومًا من الأرناؤوط (سكَّان ألبانيا)، يحكمُ محمد علي مصر فيما يحكم ابنه سوريا ويحكم لبنانَ صديقٌ له. أراد محمّد علي بناءَ دولةٍ جديدة، أي العمل على تغيير الإمبراطورية العثمانية معلناً معارضته للإمبراطوريَّة، يقول: "لا يمكن للإمبراطورية أن تمضي على هذا النحو، فإن أردنا المضيَّ قُدُمًا، من المهم أن نبني نظامًا سياسيًا جديدًا ديمقراطيًّاً وله مجالسه، أن تكون ثمّة انتخابات كما هو الحال في أوروبا، أي أنَّه يفرض الحداثة، وكان ابنه الحاكم في سوريا يودُّ فعل الشيء نفسه وصديقه الذي يحكم لبنان كذلك الأمر، لقد كان مسيطراً على المنطقة الطبيعيَّة المؤثِّرة، لبنان وسوريا ومصر، فيقف في وجه الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. ثمّة شيءٌ ما هنا، لا سيَّما دور أوروبا في بقاء الإمبراطورية، لا بدَّ أن ننتبه إلى هذا الأمر، أوروبا غير متوازنة، ثمَّة تقدُّم سوى أنَّه غير متوازن، والسبب هو أن إنجلترا متقدِّمة كثيراً ولديها مستعمراتها في بقاعٍ كثيرةٍ من العالم وتَحكُمُ أجزاءَ كثيرة، كما أنَّ فرنسا تتقدَّم ولديها مستعمراتها، سوى أنَ ثمة بلدانٌ في المستوى نفسه لكن لا مستعمرات لديها، رغم أنَّها بلدانٌ كبيرة جدًا. تجمع ألمانيا الجديدة نفسها لتغدوَ دولةً كبيرة مركزها بروسيا، تستعيدُ إيطاليا عافيتها، تتطوَّر الصناعة والأسلحة وتُبنى الجيوش، لكن لا مكان للاستيلاء عليه، حيثُ أنَّ كل الأمكنة تحت سيطرة الدول الكبرى أو تحت سيطرة الفرنسيّين والبريطانيّين. فتغدو ميزان القوى والمصالحات والتسوية السببَ في عدم رغبة الدول الأوروبية في الإطاحة بالإمبراطورية العثمانية مع أنَّها

ستسقُط لمجرَّد دفعَةٍ واحدة، حيثُ لا شيءَ يعطيها القوَّة لتقف على قدميها، إنَّها إمبراطوريَّة مريضة، ومن المعروف أنَّ اسم الإمبراطوريَّة العثمانيَّة يُذكَرُ في التاريخ بـ الرجل المريض، حيث ستنهار لمجرَّد دفعَةٍ واحدة، سوى أنَّ الصراعات الداخليَّة لا تسمحُ بذلك.

وحين نهضَ محمد علي لتجديد الإمبراطوريَّة، رأى البريطانيون أنهم إن لم يقوموا بتجديد الشرق الأوسط بأنفسهم فلن يعودوا قادرين على السيطرة عليه، لذا خانه الإنجليز وخرجوا ضده داعمينَ الدولة العثمانية ليقضوا بذلك على حركة محمَّد علي، تم القضاء على الحركة وإفشالَ الثورة، قال ماركس عن محمد علي: "كان أول من أراد إحلالَ رأسٍ حقيقيّ محلَّ العمامة التركية الفارغة"، هذا تقييم، لكننا نحتاج حقًا للانتباه إلى ما تقوم عليه خيانة أوروبا، فإن قامت بإجراءِ تغييرٍ بنفسها فلن يكون بمقدورها الاحتلال لذا تخلَّت عن الأمر إلى أن يحينَ الأوان، ومن ثمّ اختفى محمد علي ليتابع أبناؤه الذين لم يكونوا متطرّفين مثله وإنَّما خاضعين وعلى علاقَةٍ بأوروبا لدرجةِ أنَّهم كانوا عبيداً لها وقدَّموا مصرَ لهم وباعوا كلَّ قيمها واتَّخذوا الأساليب الأوروبيَّة أساساً. على سبيل المثال، لأوروبا نفوذٌ في مصر أكثر مما هو في أماكنَ أخرى، مثل الملابس والأوبرا وغيرها، سوى أنَّ الأمر لم ينجح على هذا المنوال، لكن مع الدنوّ من الحرب العالمية الأولى نرى أن أوروبا لم يعد بمقدورها تغيير صراعاتها أو إخفائِها، حيث أنَ تلك المشاكل كانت تودُّ أن تنفجر خطوةً إثر الأخرى، الأمر الذي أدَّى إلى نتيجة وهي نشوب الحرب العالمية الأولى، ولأنَّ العثمانّيون كانوا طرفاً في الحرب فإنّ الطرف الذي كانت تستقرُّ فيه كُسِرَ وانهزَم، لأنَّ الألمانيون هُزموا فُهزِمَت الإمبراطورية العثمانية كذلك الأمر وحانَ زمنُ انقسامها.

٢٨ ـ أسباب الحرب العالميَّة الأولى:

يلعب الوضع الراهن الموجود في الشرق الأوسط دورًا في الحرب العالمية الأولى، فالخريطة السياسيَّة بشكلٍ عام، وعلى الرغم من حدوث بعض التغييرات الصغيرة في هذا القرن، هي على مستوى الحكومات المتغيّرة. لكن ضمن حدود الجغرافيا والنظام السياسي، بقيت كما كانت ونتاجاً للحرب العالمية الأولى. ما هي الحرب العالمية الأولى؟ الوضع في أوروبا الآن واضحٌ للعيان، حيثُ تتمُّ مناقشة القوة التجارية البريطانية والجيش وهيمنتها على العالم ضمن نطاق واسع، وقد توقَّف القائد بشكلٍ مطوَّل على هذا الأمر ضمن مرافعاته الدفاعيَّة.

مرَّةً أخرى تلوح في الأفق قوة الإمبراطوريَّة الفرنسيَّة، لا سيَّما في زمن نابليون وما بعده، ومحاولاتها للسيطرة على أجزاء أخرى كثيرة من العالم: الشرق الأوسط وأفريقيا وأوروبا كلها، حيثُ كانت تلك المحاولات في الهيمنة متقدَّمة، لكن في القرن التاسع عشر، تم التوصل إلى توازنٍ مغاير مفاده أن التصميم الذي تم تقديمه خلال العام ١٦٤٨ بناءً على معاهدة أو صُلح ويستفاليا لم يعد كافياً، سواء كان ذلك يتشارك مع منطق النفوذ أو تحت ستار السعي لتحقيق الاستقرار، فإن تلك المعاهدة الويستفالية لم تعد قادرة على غض النَّظر أو إخفاء الصراعات القائمة على المصالح بين الدول الأوروبية، لأنَّه خلال القرن التاسع عشر وعلى وجه الخصوص في العام ١٨٧٠ وما تلاه نشأت قوة تجميع في ألمانيا، حيث كانت بروسيا أكبر دولة في ألمانيا رائدةً في توحيد ألمانيا، وتتحقق هذه الوحدة تحت شعار: "الوحدة بين الشعوب بالكاد تحصل بالنار والحديد"، بهذا الشعار وضع الوزير الألماني الكبير موضوع الوحدة على جدول أعماله، جاعلاً من تلك الأجندة قويَّةً بقوة الحديد والنار، على هذا الأساس، أصبحت جميع الولايات الألمانية الصغيرة تحت السيطرة وتم إنشاء الدولة الألمانية الكبيرة، حيثُ تم ذلك في عهد الملك الألماني القيصر فيلهالم وتحت رئاسته. ظهر في إيطاليا ملكٌ مشابهٌ على

أساس الوحدة الإيطالية، وهو غاريبالدي، الذي أنشأ وحدة إيطاليا وإخراجها من إطار كونها مدناً مختلفة لتغدو دولة، ثمَّة بحثٌ لدى الإثنين عن الإمبراطوريَّة، يودَان أن يكوّنا إمبراطوريتان وليس مجرَّد دولتين، يودُّ كلاهما أن يكونا ذا نفوذٍ وسيطرة في أوروبا، لأنهما بنيا قوى عسكرية كبيرة، على سبيل المثال، لا يزال يُقال في الجانب الصناعي أنَّ هذا الشيء ألمانيّ، البنادق الألمانيَّة، المدفعية الألمانية، إنَّها خطوات كبيرة في مجال التسليح، وحتى راهن يومنا لا تزال الصناعة الثقيلة في ألمانيا تحتلّ المرتبة المتقدِّمة. الأمرُ ذاته كانَ في إيطاليا، حيث تتطوَّر الصناعة وتزداد الإنتاجية، تتأسس دولة كبيرة أحاديَّة الجانب وبها رغبة السيطرة على الشرق الأوسط سوى أنَ ثمَّة عقباتٍ أمامها، طمعت في القوقاز وإيران وتركيا، وإلى حدٍّ ما كوَّنت علاقاتٍ قويَّة للغاية الأتراك، لِمَ؟ كان العثمانيون والبريطانيون منافسين، وكان الفرنسيون العثمانيون منافسين، لذا تعاون العثمانيون مع الألمان بشكلٍ أكبر، فثمة انتفاضات عدَّة حصلت ضدَّ العثمانيين وساهم الألمان في القضاء عليها، حتى تلك الكرديَّة منها، على سبيل المثال، ثمَّة مارشالٌ ألمانيٌ كبير وذائع الصيت كان لديه أطروحات عسكرية، إنَّه مولتكه الذي قاتل الكرد، وكما نتحدث عن كارل فون كلاوزفيتر وعن نابليون، فإنَّ مولتكه أحدُ هؤلاء القادة الذين يملكونَ آراءً في الحرب، حيثُ حارب في كردستان لمساعدة العثمانيين ضدَّ الانتفاضات الكردية، حتى أنَّ له بعضُ الكتابات، على سبيل المثال، كيف قَتل بعض القادة الأكراد بعد قمع انتفاضتهم، كيف تم تعذيبهم ورميهم في المياه المغليَة حتى الموت، تلك الكتابات تتحدَّث عن مثل هكذا أشياء. كان الألمان أكثر إصرارًا في أوائل القرن العشرين على ادِّعاء منطق النفوذ، حتَى أنَّ لهم بعض الادعاءات التي نشرت كدعاية بهدف ربط شعوب الشرق بنفسهم، كانوا يقولون: "الألمان ليسوا ضدَّ المسلمين في إيران، تركيا، ولكن في الحقيقة يحبون الإسلام، الملك الألماني نفسه اعتنق الإسلام، حتى أنه ذهب للحج لذا سمّي بالحاج ويلهالم"، كما يقالُ أحياناً هنا الحاج بوش! كانت هذه اللعبة موجودة آنذاك، وبالفعل لعب الألمان دورًا في دعم الحركات الدينية والإسلامية حينذاك، أي

ثمَّة دورٌ ما للألمان في تشكيل الإسلام السياسيّ، حتى أنَّ الألمان ارتبطوا بشكلٍ وثيق مع أربكان في تركيا. الإيطاليون يفعلون الأمر نفسه سوى أنَّ النفوذ في الأساس هو نفوذ إنجلترا وفرنسا، الآن يختفي هذا الاحترام المتبادَل وتكون الحربُ هي الفيصَل، حيثُ بدأت الحرب العالميَّة الأولى خلال العام ١٩١٤ وشاركت العديد من القوات في تلك الحرب التي سُمّيت بالحرب العالميَّة الأولى، فمن كانت تلك القِوى؟ ضمَّ جانبٌ منها بريطانيا وفرنسا وروسيا، فيما ضمَّ الجانب الآخر الألمان والإيطاليين والعثمانيين، النمساويّون كانوا أيضًا مع الألمان، اندلعت الحرب على كل الجبهات، لكن ومع استمرارها تمَّ تشكيل تحالف خلال العام ١٩١٦ بين الفرنسيين والبريطانيين تحت اسم سايكس-بيكو، فما هو تحالف سايكس بيكو؟ يمكن للمرء أن يقول ثمَّة وفدين، أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي، حيث استُمدّ الاسمُ من لقب القائمَين على الوفدين، سايكس هو الإنجليزي فيما بيكو هو الفرنسي، حيثُ يجلسان على الطاولة ويناقشان عواقب الحرب، وكيف سيتمّ مشاركة أمور النفوذ فيما بعد الحرب، وبعد الإعلان عن الانتصار، حيث بدأت بعد عامين من ١٩١٤ لكن على جبهة المعركة كان الوضع يتحرك في اتجاههم، بدا الألمان والإنجليز ضعفاء، وكان الإنجليز ضعفاء، وفي خضمِّ ذلك، ما الذي فعله البريطانيون؟ لقد قاموا بتنظيم العرب كلّهم ضدَّ الأتراك؟ تحت قيادة مَن؟ بقيادة والي منطقة مكة المكرمة، الذي كان شيخًا يُدعى حسين أو الشريف حسين، سليلُ عائلةٍ تعتبر نفسها من آل محمد أي هاشميّون، هذه العائلة حاليًّاً تحكم الأردن فقط، على سبيل المثال، كان للشاه حسين ابناً يدعى عبد الله ويحكم الأردن، وابنٌ آخر لعبد الله سُميَ حسين أيضاً، وابن حسين سُميّ عبد الله أيضاً وهو الذي يحكم الآن في الأردن، ومن سلالة تلك العائلة. الآن ملك الأردن يدعى عبد الله، وهو الحفيد الرابع للعائلة التي حكمت مكة آنذاك، في ذلك الوقت كان ثمَّة ضابط استخبارات إنجليزي يدعى لورانس، حتَّى أنَّه لُقِّب بـ لورنس العرب على إثر عيشه زمناً طويلاً مع العرب وارتدى زيَّهم وأكلَ مثلهم وأتقن اللغةَ العربيَّة، يقول في مذكراته في هذا الصَّدد: "ليس ثمَّة شيءٌ أسوأ من ذلك، لكنّني كنتُ مجبراً لأجل

مصالح بلدي، كما قالوا لي، ولقد فعلتُ ما طُلِبَ منّي، كل ما حدثَ كانت أموراً سيّئة، لكنني كنتُ مجبراً لأجل بلدي"، كان جاسوسًا يعملُ لصالح الإنجليز، وضابط مخابرات ينظِّمُ العرب ضدَّ الأتراك، يتجوَّل في كل مكان، سواء في الدولة الخليجية، منطقة الحجاز في المملكة العربية السعودية الآن، حيث لم يكن ثمَّة اسم السعوديَّة آنذاك، ثم جاء اسم السعودية. كما تجوَّل في الشام بسوريا محاولاً أن ينظِّمَ العربَ ضدَّ العثمانيين. كيف وعد الإنجليزُ العرب؟ قالوا لهم: "لم يعد للعثمانيين الحق في الحُكُم"، وبالفعل كانت العثمانيَّة تنهار، ولأنَّها على درب الانهيار فإنَّها كانت تمارس الظلم والقمع ضدَّ العرب والكرد والشعوب الأخرى، كما أنَّ العثمانيَّة كانت بحاجةٍ إلى تمويلٍ ماديّ عبر فرض الضرائب، وثمَّة احتياجٌ إلى الجنود لأنَّها الحرب، فأجبرت الجنود على التجمُّع، الأمر الذي ضاعفَ من غضب الشعوب إزاءَها. في خضمّ ذلك قال الإنجليزيونّ: "فلتُشعلوا ثورةً ضدَّهم لتتخلَّصوا منهم وسنكونُ العونَ لكم"، وهذا ما فعله العرب بالتأكيد، "فلكي نصبح دولةً مستقلة، سوف تقومون بدعمنا" قال العرب، فوافق البريطانيون ليبدأوا على هذا النحو، حيثُ بدأت الحرب ضد العثمانيين في مكة بقيادة الملك حسين في سبيل بناء دولةٍ عربيَّةٍ كبيرة. بالتوازي مع ذلك، تقاسم الفرنسيون والبريطانيون مناطق النفوذ، حيثُ وضعوا خريطةً للشرق الأوسط تمَّ على أساسها تحديد المناطق الخضراء والحمراء والصفراء، أي توضيح حدود النفوذ، أي ما هي المنطقة التي ستكون لفرنسا وأيُّها لإنكلترا، حيث اتفقوا على ذلك ومارسوا هذا الاتفاق بشكلٍ سريّ، لِمِ كانَ ذلك الاتفاق سريَّاً؟ لأنهم وعدوا العرب بأن يصبحوا دولةً مستقلة وليس أن يقتسموا بلادهم فيما بينهم، فعلوا ذلك خِفيةً، وعلى هذا الأساس كانوا في انتظار نتائج الحرب للبدء بتنفيذ مخطَّطهم. على سبيل المثال، نصَّ ذلك الاتفاق على أن تكون سوريا ولبنان من حصَّة فرنسا، وحينَ نقول سوريا ولبنان فذلك يعني جغرافيا تصل إلى عدن، وهذه الجغرافيا كلها من حصَّة فرنسا، فيما العراق، الأردن، فلسطين، دول الخليج، فإنَّها من حصَّة بريطانيا. كانت دول شمال إفريقيا لفرنسا مثل الجزائر وتونس، فيما كانت مصر والسودان ملكًا للبريطانيين، لا

حدود جغرافية طبيعية وإنَّما حدودٌ عالميَّة، أي وضَّحوا الحدود بأكملها، فحين نقول الشرق يعني أنَّ ثمَّة مناطق موجودة فيها مثل مصر وسوريا وتركيا والعراق وإيران، فيما بينها دول الخليج، هذا معنىً ضيّقٌ من الناحية الجغرافيَّة، لكن حينَ يتمُّ الحديث عن الشرق الأوسط اليوم فإنَّه يمتدّ من شمال إفريقيا، أي تونس وموريتانيا وليبيا إلى أفغانستان. الدين يمارسُ تأثيره هنا، فمهما كانت جغرافيًّا خارجَ الشرق الأوسط، ولكن اتّساع مساحة اللغة والدين يؤثِر على الأمر، لذا حينَ تقول أمريكا الشرق الأوسط، فإنَّها تعني بذلك: الشرق الأوسط الكبير.

خامساً: على أيِّ أساسٍ تمَّ تطوير مشروع الشرق الأوسط الكبير:

يمتدُّ الشرق الأوسط الكبير -الذي يضمُّ أيضًا موريتانيا- من شمال إفريقيا إلى أفغانستان وصولاً إلى الحدود الهندية، فلنلاحظ أن الحدود بين ليبيا ومصر، بين مصر والسودان، بين سوريا والأردن والعراق، هي خطوط مرسومة بشكلٍ مستقيم، فمن هؤلاء الذين صنعوا هذا الشيء؟ الوفود التي جلست إلى بعضها البعض وقسَّمت المناطق، فالمنطقة ذات اللون الأحمر هي للدولة الفلانيَّة بينما المنطقةُ المرسومة بلونٍ أصفر تتبع دولةً أخرى، وهكذا تقاسموا المنطقة فيما بينهم. لم يعلَم أحدٌ بالأمر، حتَّى العرب أنفسهم لم يكونوا على علمٍ بل تصرَّفوا وفقاً للوعد الذي حصلوا عليه من بريطانيا، فماذا كان الوعد؟ سيبني العربُ دُولهم بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية.

بالطبع، كان ثمَّة تطوُّر لم ينتظره أحد خلال الحرب ولا سيَّما في عام ١٩١٧، فما كان ذلك التطوّر؟ انتصرت الثورة الشيوعيَّة في روسيا خلال أكتوبر العام ١٩١٧، حيث كانت روسيا إمبراطوريَّةً ونظاماً ملكيَّاً ذلك الوقت وتخوض حرباً مع العثمانيين وكانت متقدِّمةً كثيراً في الحرب إلى درجة أنَّ الروس وصلوا بجيشهم إلى بدليس. بدأت الحرب الأهليَّة الروسيَّة مع اندلاع الثورة فاضطرَّت الحكومة الروسيَّة الجديدة إلى سحب جيشها بالكامل ولا سيَّما من شمال كردستان وعقد اتِّفاقٍ مع العثمانيين لتتوقَّف الحرب بينهما على هذا الأساس، كما سلَّم الروس المناطق الخاضعة لمراقبتهم إلى تركيا مثل: قَرسى، ليخرج الروس من الحرب على هذا المنوال وتتوقُّف الجبهة

الروسيَّة فيما كانت الجبهات الأخرى مستمرَّة. لأنَّ الروس رأوا أن ثمَّة اتفاقاً بين بريطانيا وفرنسا، لِمَ؟ كان الروس في السابق حلفاء لبريطانيا وفرنسا دون أن يعلنوا عن ذلك، سوى أنَّهم أعلنوا -عقِب وصول لينين إلى السلطة، أي عقِب انتصار الثورة الاشتراكية- عن ذلك الاتفاق ووصفه على أنَّه نهب وسرقة، حيث لا فائدة تُرجى من هذه الحرب لأحد ولا قواسم مشتركة فيها، الفقراء المضطهدون، البلدان المضطهدة لا بدَّ وأن تثور ضد الإمبريالية والرأسمالية وتنقذ نفسها وألَّا يخوضوا تلك الحرب لأنَّها ليست حرب الفقراء بل حرب الأغنياء، لكن لم يصغي أحد، وبالطبع لم تكن ثمَّة ضرورة لأن يصغيَ أحد، لأن كل المشاعر نُظِّمت على أساس الشوفينيَّة وكانت الحرب أيضاً تُدار على أعلى المستويات. توقَّفت الحرب خلال العام ١٩١٨، فلِمَ توقفت؟ بسبب ضعف الجبهة الألمانيَّة التي اتّفقت واستسلمت، أي إنها اتفقت على الاستسلام متخليَّةً عن أجزاء كثيرة من أراضيها، غادرت النمسا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، حيثُ كانت كلُّ تلكَ الدول السلافية تحت سيطرتها، حتَّى أنَّها تركت جزءاً من ألمانيا لفرنسا وإنجلترا، بهذا الشكل استسلمت ألمانيا، حتَّى أنَّ قسماً من الترويج الذي كان ينفِّذه هتلر لاحقاً يتمحور حول ذلك الاستسلام، فقال في هذا الصَّدد: "كان بمقدورنا أن نحارب، لم نكن قد قرّرنا الاستسلام ولا حتَّى الشعب الألماني كان يودُّ ذلك"، فعمل على تقوية الشوفينيَّة إلى أن وصل النازيون للسلطة وبدأوا حربًا أخرى في العالم، وفي نتيجة الحرب هُزِم الألمان، حيث ما مِن توازنٍ أو أسبابٍ تدفع الفرنسيين والبريطانيين للتخلي عن خططهم حول الإمبراطورية العثمانية مرَّةً أخرى، لذا وضعوا خططهم قيد التنفيذ، مع هزيمة ألمانيا هُزمت حليفتها العثمانيَّة كذلك الأمر، وعلى هذا النَّحو بدأت المشاركة بين بريطانيا وفرنسا. كانَ العرب يأملونَ في الاستقلال لكَّنهم فوجئوا بالجيوش الفرنسية والبريطانيَّة وهي تحتلُّ بلادهم، وعلى هذا الأساس تمَّ تأسيس الدول في العالم العربيّ، حيث أنَّ كل الدول الموجودة هي من تأسيس الفرنسيين والبريطانيّين، على سبيل المثال؛ سوريا والعراق والأردن ودول الخليج مثل المملكة العربية السعودية وقطر والكويت قاموا ببنائها جميعًا، حتى أنه كان ثمَّة وزير

بريطاني آنذاك أصبح فيما بعد رئيسًا للوزراء وكان وزيراً للمستعمرات يدعى "ونستون تشرشل" ليصبح فيما بعد رئيسًا للوزراء خلال الحرب العالمية الثانية، وهكذا تمّ تداول اسم "تشرشل"، حيثُ قُيلَ عنه خالق عرش الملوك على اعتبار أنَّه من صنعَ العروش العربيَّةَ كلها، حتَّى أنَّه بنى عرش إيران كذلك الأمر، رضا بهلوي هو صنيعةُ الإنجليز لأنه لم يكن شاهاً من قبل وإنَّما ضابطاً في الجيش الإيراني.

نظام المستعمَرات: استند نظام الاحتلال في الشرق الأوسط بين فرنسا وإنجلترا بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية إلى الدول المُقسَّمة والحدود السنية، حيثُ صُمِّم نظام الاحتلال على هذا النحو، فحصلت العديد من المحاولات ضدَّ هذا النظام حيثُ كانت هناك بعض الحروب في العراق وسوريا في أماكن مختلفة ضد هؤلاء ولكنَّها بشكلٍ عام باءَت بالفشل، لأنَّهم لم يستطيعوا المقاومة أمام الجيشين الفرنسي والبريطاني، سوى أنَّ الأمر لم يمضي بسهولة واندلعت بعض المعارك الصغيرة التي لم تتّسع ولم ينهض الناس في كل الأماكن سويَّةً، وفي المحصِّلة لم تستطع تلك المعارك الصغيرة أن توقِف الاحتلال. هناك أشياء كثيرة في هذا النظام، وتمَّ أخذ العديد من تلك الأشياء في الاعتبار لمصلحة إنجلترا وفرنسا، وربما لم يتم تحقّق ما أُخذ في الاعتبار وفقاً للتمنّي، على سبيل المثال، ووفقًا لخططهم لم يكن من المفترض أن تؤسَّس تركيا كبيرة بهذا الحجم سوى أنَّها تأسَّست، ولكن من المؤكد أنه ووفقاً لخطتهم كان ينبغي إنشاء دولة كردستان، فوفقاً للقرارات المُتَّخَذة بشأن كردستان مثل قرار سيفرس كان ينبغي إجراء استفتاء في كردستان وعلى هذا الأساس كان ينبغي تحديد تفضيل الكرد في هذا الاستفتاء واتِّخاذ قرار بشأنه في غضون سنوات قليلة، تم اتخاذ القرار ولكنِّه كان لمجرد ممارسة المزيد من الضغط على القوى الأخرى، كالعرب والأتراك، لكن رغم ذلك لا ينبغي أن يكون هناك مكانةٌ ما للكرد، كان ثمَة مكانة للعرب، لِمَ؟ العرب مصدرٌ للدين الإسلاميّ والقوة الرئيسة المنظَّمة في المنطقة، أي يملكونَ تاريخاً من هذا النوع.

كان واضحاً أنَّ الدول العربية تُعتبَر المصادر الأهمّ للنفط ولا سيَّما دول الخليج العربيّ، لذا ازدادت أهميَّة النفط بالنسبة إلى العرب تدريجيَّاً، والأمر الآخر هو أنَّ القوَّة العربيَّة التي تَمّ تأسيسها كانت كمثل الحل الأنسب لتحقيق التوازن مع قوَّة الأتراك والفرس، حيث احتاج البريطانيون إلى تحقيقِ توازنٍ ما حتى لا تكون هناك قوَّة كبيرة في المنطقة، فالقوة التركية متأتّية من الإمبراطورية العثمانية القديمة وأيضاً بالنسبة إلى القوَّة الفارسيَّة التي تأتَّت من الإمبراطوريَّة الفارسيَّة، لذا فإن نظَّمت هذه القوات نفسها على أساس دولة قومية مركزية بعد الحرب العالمية الثانية لأصبحت قوَّة من غير الممكن السيطرة عليها، كانت ستصبح قوَّةً إقليميَة، لكن بالكاد وعبر العرب استطاع الفرنسيون والبريطانيون تحقيق توازن في رغبة الفرس والأتراك بتجديد قوّتيهما، ولهذا أعطت بريطانيا وفرنسا أهميَّةً كبيرة للعرب، لكن في الوقت نفسه أهملوا الكرد وتجاهلوهم إلى مستوىً عالي، فكان هذا هو السبب في استمرار معاناة الكرد من هذه السياسة حتى يومنا الرَّاهن، بالقتل والمجازر والانصهار المُمارَس عليهم المستمرّ حتَّى أيَّامنا هذه.

الآن سوف نفهم كيف كبرت القوى واحدةً تلوَ الأخرى بعد الحرب العالمية الثانية وكيف غدت أشكالها:

١- كيف كَبُرت إيران:

إيران دولة قديمة نظَّمت نفسها كإمبراطوريَّةٍ صفويَّة ومملكة، لا سيَّما بعد سقوط العباسيين واتّخذت المذهب الشيعي كهويَّةٍ لنفسها ورسّخته لحماية مصالح العرق الفارسي. وصل الصفويون إلى مستوى معين مع العائلات المالكة الأذرية (Ecem)، بعد شاه إسماعيل، شاه عباس، ولكن منذ ذلك الحين، وخاصة في القرن التاسع عشر وما بعده، وصلت عائلة أخرى إلى السلطة في إيران كانت تُدعى عائلة القاجار، كما يرد ذكرهم في الأغاني

الكردية، وبخاصّة عند ذكر الحرب في منطقة سرحد، حيث يتمّ استخدام اسم تلك العائلة. كان القاجاريون ملوك إيران، وكان النظام السياسي الإيرانيّ خلال نهايات القرن التاسع عشر يعيش أضعف مراحله على إثر الخراب والفقر والتفكك مع كل أنواع الشرور التي وصلت إلى أعلى مستوياتها، وكان استياء الناس من هذا الوضع في المقدمة إلى حدٍّ كبير. على سبيل المثال، كان ثمَّة ملكٌ يدعى نصر الدين شاه، ليأتي بعده مظفر الدين شاه، بين أعوام ١٨٩٠-١٩٠٦، قُتل نصر الدين ومظفر الدين أيضاً، الأخير الذي كان رجلاً متديّناً ويقال أنَّه كان مقرَّباً من جمال الدين الأفغاني. في ذلك الوقت كان ثمَّة استياءٌ شعبيٌّ شديد، فكيف كان يعمل ذلك النظام؟ لم يكن عوناً للشعب، ومع تأسيس بعض المدارس من قبل الدولة وإرسال بعض الطلبة للدراسة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا انقلب الأمر على الدولة وازدادت الأمور سوءاً، حيث أنَّ الموفدون للدراسة في الخارج يعودون إلى إيران ليبدأوا بنشر الأفكار الغربيَّة، ما هيَ تلك الأفكار الغربيَّة؟ إبَّان عودة الطلاب إلى إيران أرادوا انتخاباتٍ أو شرعية أو دساتير أساسيَّة من الملوك وليس الحكم المطلق والنظام الملكي والاستبداد، الأمر الذي تسبّب في خلق مشاكل لشاه إيران آنذاك، ولكي يقف اولئك الملوك على أقدامهم وقوّتهم طلبوا المساعدةَ من الخارج، فيما كان الناس جائعين وبائسين ووصل الفقر إلى درجةٍ عالية للغاية، ولأنَّ العائلة الحاكمة ما كان بمقدورها أن تقضي على هذا الغضب والاستياء قامت باتّباع أساليب جديدة، فما هي تلك الأنماط أو الأساليب الجديدة؟ باعت نفسها بالكامل إلى الخارج، لذا باتت إيران شبيهةً بمُستعمرَة، فصحيح أنَّها كانت دولة مستقلةً سوى أنَّها كانت مُستعمَرة، هل كانت مستعمرةً من جميع الاتجاهات؟ كان الروس يحرسون حدودها ويقبضون جماركها آنذاك، حيثً تولَّت وحدات من الجيش الملكي الروسي الكازاخستاني حراسة الحدود الإيرانية وهي من تأخذ عائدات الجمارك، كما أنَّ تلك الوحدات نفسها هي من حمَت المملكة واعتُبرت بمثابة حَرَسٍ لها، البريد والاتصالات والتلغراف كانت كلها في أيدي البلجيكيين وتابعة لهم، فيما النفط كله في أيدي البريطانيين، وكانت ثمَّة شركات بريطانية وبلجيكية

وروسية أخذت كل شيء، الجمارك النفط، وليس ذلك فحسب، مثلاً كان التبغ الإيراني أيضًا ملكًا للأجانب والغرباء، نظرًا لأن شركة التبغ الخاصة بالمملكة كانت تبيعه للبريطانيين بأرخص الأسعار، لقد باعوا كل شيءٍ في البلاد، لم يكن ذلك كافيًا، فهذه المرة باعوا إيران من الداخل، كيف حصل ذلك؟ كانت الدولة بحاجةٍ إلى أموال، لنقل يأتي أحدهم طالباً: أريد شراء هذه المنطقة، على سبيل المثال، أريدُ شراء منطقة Urmia أو Maku، Shino، إلخ، مناطق خراسان، أريدُ أن اشتري منطقةً بين العرب، يسألُ عن السعر ويتمّ تحديده ومن ثم دفع تلك الأموال إلى السرايا وشراء المنطقة ليتمَ تحريرها من المملكة فتغدو الضرائبَ والزراعة وتربية المواشي وكل السياسات من نصيب من دفع اموالاً للسرايا لقاء شراء المنطقة، أي أنَّ المنطقة بالكامل تقع تحت سطوته وملكه. تم بيع القصور الإيرانية للأمراء الإقطاعيين، فمن يملك المال يشتري، حيثُ كان الوضع الاقتصاديّ الإيراني سيئاً للغاية، الفقر يتزايد، تتدهور الأسرة إلى درجة أنَّ الناس باعوا بناتهم مقابل سداد القروض، كان ثمَّة قَدَرٌ كبير من الانحطاط والفساد المجتمعيّ في تلك الفترة، لذا ولأجل ألَّا تتسبَّب تلك الأوضاع المُزرية في اضطرابات كبيرة هذه المرة اتبع الملوك سياسات خاصة تمّ تنفيذها في عهد مظفر الدين بشكلٍ خاص، كيف تمَّ ذلك؟ تطورت ثقافة التجزئة والتوطين، فإيران بلد متعدِّد الأعراق والطوائف والأديان، ثمَّة فرسٌ في إيران، وهم النسبة العظمى من السكَّان، ثمَّ يليهم الأذريين والكرد والأتراك، لا سيَّما في منطقة خراسان على مقربَةٍ من الحدود مع تركمانستان، كما أنَّ ثمَّة أتراك في أماكن أخرى، وهناك أيضاً بعض الشعوب الأخرى التي لم يتم توضيح هويتها العرقيَّة بشكل كامل، فعلى سبيل المثال يرى البختياريَّون واللور أنفسهم بشكل مختلف، حيثُ لا يعتبرون أنفسهم كرداً ولا فُرسَاً، ثمَّة آشوريون وأرمن في إيران، بالإضافة إلى المسلمين بمن فيهم الشيعة والسنَّة ولا سيَّما الكرد الذين هم في الغالب من السنة، ثمَّة زرادشتيون، يهود، مسيحيون، يطلق المرءُ على هذا الأمرِ ثراءً وغنىَ، سوى أنَّ ملوك إيران استخدموا هذه الثروة على النقيض، أي صنعوا أرضيةَ الانقسام، تعزيز التجزئة ومن ثمَ التمكين، بلادٌ

ممزَّقة، الفُرس ضد الأذريين، الأذريُّون ضد الكرد، الكرد ضدَّ بعضهم البعض، الشيعة ضدَّ السنة، وعمدت إلى تعزيز هذا الأسلوب ليس عبر هذا الجانب الطائفيّ وحسب، بل وأيضاً على الجانب المناطقيّ، على سبيل المثال، دعونا نلاحظ أن ثقافة السكان الأصليين موجودة الآن بشكل كبير في كردستان الشرقية، ليس فقط في كردستان الشرقية وإنَّما في إيران كلِّها، فكانت إيران تسعى إلى عدم وجود سياسة وطنيَّة مشتركة بين الشعوب والمذاهب التي ترى الفقر والخراب المنتشر، فما الذي كان يتمُّ فعله لتأمين هذا الأمر، ولكي لا يجرؤ أحد على المقاومة ولا سيَما ضدَّ شاهِ إيران؟ كان ملوك إيران يقومون بتعيين حكَّامٍ مقرّبين منهم لإدارة الولايات، يُعيّنونَ أبنائهم حكَّاماً، كان يعيّن ابناً حاكماً لأذربيجان فيما يتولَّى ابنٌ آخر حكم كردستان وما إلى هنالك، وإن لم يكن لهم أبناء كانوا يشترون رجالاتٍ لهم من الدرجة الثانية لكي يتحكَّموا على هذا المنوال، التجزئة، التحريض، الإضعاف، لتكون هناك مقدرة على السيطرة والحُكُم.

فيما كان الأسلوب الآخر هو القوة الخارجية، القوة الروسية، رغم ذلك كان الاستياء يتزايد يوماً إثرَ الآخر بسبب المشاكل السياسيَّة والاقتصادية والانقسام، وكان المتورطّون في إشعال تلك المشاكل من ثلاث قوىً رئيسة، أحدها: المستنيرون ولا سيَّما من درس منهم في الخارج وعادَ إلى إيران، فيما الثانية: تجار الطبقة الوسطى الذين أرادوا تقليد الرأسمالية الأوروبية في منحى التجارة الحرة والملكيَّة الخاصَّة وتطوير رأس المال الوطني، لأن الشاه باع كل شيءٍ في إيران، فيما الثالثة: المتديّنون، ولا سيَّما من الشيعة، والذين شكَّلوا قوَّةً دينيَّة روحيَّة وأخلاقيَّة داخل المجتمع والمؤسسات، على سبيل المثال، فقد كانت لديهم مدارس في قُم وأماكن أخرى، يُصدرون الفتاوى ويبدونَ استيائهم عن انحطاط النظام. كانت إحدى تلك القوى الثلاث تساعد التجَّار، لأن السلطة الدينية ليس لها مصدر دخل، ما هو مصدر دخلها؟ فالأموال التي كانت تُدفع لهم من قبل التجَّار كانوا يبنون بها مدارسهم الخاصَّة ويقومون بأعمالهم، ما أدَّى إلى خروج هذه القوة الثلاثية ضدّ النظام

الملكي واندلاع الثورة الدستوريَّة في إيران خلال العام ١٩٠٦. ما هي نتائج تلك الثورة؟ تشكيل البرلمان، وذلك يعني تشكيل مجلس ومن ثمَّ إصدار الدستور الأساسيّ وتطوّر التجارة الوطنية، أي أن رأس المال الوطني باتَ قويَّاً وله شخصيَّته، كما وحدث انتشارٌ لحركةٍ فكرية كبيرة قادها المثقّفون وتطوَّرت، كانت هذه خطوةً كبيرة إلى الأمام بالنسبة للشعب الإيراني، بشكلٍ عام كانت خطوةً نحو الأمام، لكن القوى الخارجية لن تقبل بهذه الخطوة، ومع مرور الوقت وبمساعدة قوى أجنبية، لا سيَّما القوات العسكرية الروسية تمّ إلغاء الدستور الاساسيّ، والتسبّب في مضايقاتٍ للمجلس ومن ثمَّ تمَ حلُّ البرلمان ليحكم الشاه مرَّةً أخرى بشكلٍ مطلق بمساعدة الروس والبريطانيين والبلجيكيين والقوَّات الأجنبية، إلى درجة أنَّ القوى لم يعد بمقدورها المقاومة، حتَّى الثوَّار ما عاد بمقدورهم التحمُّل والاستمرار، لقد قاوموا بالتأكيد، على سبيل المثال، كانت ثمَّة مقاومة كبيرة في أماكن مثل تبريز سوى أنَّها هُزِمَت وفشلت في نهاية المطاف. لذا كانت الحركة الدستورية عام ١٩٠٦ في إيران بمثابة مرحلةٍ جديدة، حتى حينَ اندلعت ثورة الخميني كان الكثير من الناس بهم رغبةُ العودة إلى الدستور نفسه، حيثُ كانَ مثيراً للاهتمام من حيث النظام السياسي ومن ناحية الحقوق والحريَّات ورفع الحظر عن الإعلام، أي كان متطوِّراً سوى أنَّه لم ينجح. بعد اندلاع الحرب العالميَّة الأولى، أكَّد البريطانيون على أهمية النفط وسلّطوا الضوء على إيران كموقعٍ استراتيجيّ ورأوا أن العائلة القاجارية ما عاد بمقدورها الإدارة، فالناس لا يعرفونهم ولا يقبلونهم وقد باتوا ضعفاءَ للغاية ولا أحدَ يُصغي إليهم، حيثُ أنَّ الناس والمتدينون والتجَّار والمثقّفون استعادوا عافيتهم، فوجد البريطانيَّون أنه لا يمكن للسلطة أن تستقرّ عن طريق تلك العائلة، فكلَّما تمَّ تشكيل حكومة جديدة سرعان ما انهارت أو تعرَّضت للإفلاس خلال أمدٍ قصير، فما الذي فعلوه آنذاك؟ ثمَّة رجلٌ يدعى رضا بهلوي، خدَم كضابطٍ في الجيش الكازاخستاني - الذي كان تحت سيطرة الروس والبريطانيين في إيران- يمكن للمرء أن يقول عنه أنَّهُ كان ضابطًا بريطانيًا/روسيًا، جلبوه وقاموا بتعيينه رئيساً للوزراء وأنشأوا الوزارة، ولكن كان بهلوي شخصيَّةً سلطويَّة للغاية ويدّعي التجديد

والابتكار، تولَّى السلطة خلال العام ١٩٢٢ وكان متابعاً للحركة الكماليَّة في تركيا، وتمحورت مطالبهُ حولَ: إنشاء دولةٍ قوميَّة في إيران، أو حتَّى جمهورية مثل تركيا. أطاح بالأسرة القاجاريَّة ولم يعد نفوذهم معروفاً البتَّة، لكن بهلوي اكتشف بعد فترة عدم قدرته على أن يفعل ما فعلته تركيا، حيث لم يكن يملك القوَّة التي امتلكها مصطفى كمال أتاتورك، ففي تركيا، ضعفت قوة الإمبراطورية وقوة الأمميين والمتدينين مقابلَ حركة الاتحاد والترقّي، وضعفت أكثر مقابل مصطفى كمال أتاتورك، الأخير الذي حارب ضدَّ إنكلترا وفرنسا وتمكَّن من إلحاق الهزيمة بهما، وعلى إثر هذا الانتصار كان بإمكانه فرضّ كلِّ شيءٍ على الأتراك دون أن يستطيع أحدٌ الوقوف ضدَّه، لذا انتفض المتديّنون في تركيا وحدثت انتفاضاتٌ كثيرة، ليس فقط بين الكرد، حيثُ انتفض الجميع ضدَّ الكماليَّة بغية عودة الإمبراطورية لكن تمَّ قمع كل تلك الانتفاضات، على سبيل المثال، قاتل عصمت إينونو من جانب، فيما تولَّى أدهم جاركِز جانباً آخر رغبةً في قمع تلك الانتفاضات، وتمَّ قمع انتفاضات القرويين والمدنيين في المدن المختلفة في تركيا والأناضول، و نجح أتاتورك رغم ذلك وتمكَّن من إجبار الناس على القبول بما يقوله وفصلَ بين الدين والدولة وما إلى هنالك. قبل أن يصبح رضا بهلوي ملكًا على إيران رأى أنه لا يستطيع فعل الأمر نفسه الذي حصل في تركيا، لأن السلطة الدينيَّة قوية جدًا في إيران ولا يمكنه أن ينجح كما نجح أتاتورك في اكتساب الشرعية، لذا ليس بمقدوره اتِّباع الأسلوب ذاته، ففي إيران ثمَّة العديد القوميَّات وهي قويَّة وليست صغيرةً وضعيفة بحيثُ يمكن ابتلاعها بسرعةٍ وسهولة، لذا لم يكن بمقدوره تأسيس دولةٍ متجانسة من نوعٍ واحد ومركزيَّة أو جمهوريَّة، فما الذي فعله؟ قام ببناء مملكةٍ جديدة، وهو لا يعودُ في نَسَبَهِ إلى الملوك، بل كان ضابطاً في الجيش تمَّ جلبه وتعيينه رئيساً للوزراء، وبعد خلع العائلة القاجاريَّة خلال العام ١٩٢٥ أعلن عن نفسه ملكاً، حتَّى أن ألقابه التي اختارها لنفسه مثل الشاه أو عرش الطاؤوس كان أمراً مزعجاً للغاية بالنسبة إلى العرب، حيثُ قالوا لهُ مرَّةً: "كيف أصبحت ملكاً؟ على الملك أن يكون من السُلالة"، فيردُّ عليهم: "لِمَ بمقدور عرب الصحراء أن يغدو ملوكاً؟

فيما أنا لا يحقُّ لي أن أكون ملكاً" حيث كانت ثمَّة ممالكُ في البلدان العربيَّة آنذاك، حتى أنَّ البريطانيون كانوا قد حوَّلوا بلدان العرب كلها إلى ممالك، وهكذا تتأسَّسُ المملكة في إيران، مملكة جديدة مركزيَّة، وتتشكل الدولة المركزيَّة، وكل معارضة للدولة المركزية تحدث على الهامش يتمُّ تحييدها. على سبيل المثال، تم اضطهاد سِمكو شِكاكي وقمع بعض الحركات الأذرية وغيرها ممّن ودَّت استعادة دستور العام ١٩٠٦. تم إنشاء دولة مركزية في إيران معتمدة كليَّاً على البريطانييّن واستمرت في ذلك حتى العام ١٩٤١ لتحدث عقب ذلك بعض التغييرات الجديدة.

٢- الغرض من الحرب العالمية الثانيَّة وأسبابها:

في ذلك الوقت كان البريطانيون يملكون نفوذاً على إيران ولا سيَّما من الناحية الغربيَّة، ورغم إعلان رضا خان عن نفسه شاهاً رسميَّاً في عام ١٩٢٥ وما تلاه، ورغم أنه كان ينوي تشكيل حكومة مركزية، سوى أن الاستبداد والسيطرة لم يحقِّقا له أي نجاح، وخطوةً إثر الأخرى كانت المرحلة تتوجَّه نحو الحرب العالمية الثانية، وكانت لها أسبابها أيضاً، حيثُ كانت حربَ تقسيمٍ ورأسماليَّة، لا سيَّما وأنَّ ألمانيا لم تقبل بالهزيمة ومع تقدَّمها في الصناعة وبخاصَّة في المجال العسكري باتت سلطةً عبر حزبٍ عنصريّ، لذا قالت بصوتٍ مرتفع ولسانٍ سليط: "نحن لا نقبل نتيجة الحرب العالمية الأولى، إنَّه ظلم، لم تكن ألمانيا تستحقُّ هذا، لذا لا نقبل هذه النتائج، لا بدَّ أن نجهِّز تصميماً جديداً"، وبالتوازي مع ألمانيا كانت إيطاليا واليابان تمضيان على المَسار ذاته. العسكرة (العسكرية)، ولا سيَّما الصناعة العسكرية كانت تتطور في هذه الدول إلى جانب الأحزاب والقوى العنصرية والشوفينيَّة التي باتت تظهر في المقدِّمة، كما أنُّه لم يكن مقبولاً وجود دولة اشتراكية في العالم، حيثُ سيزداد نفوذها وأراضيها، دولة واحدة من كل ستة دول في العالم، ذات نفوذٍ كبير وعدد سكَّان هائل، أو الاشتراكية كنظامٍ جديد كان

أيضًا غير مقبولاً، لتبدأ ألمانيا في العمل على أساس استعادة قوتها السابقة في أوروبا، كيف حدث ذلك؟ في المقام الأول وخلال العام ١٩٣٨ غَزَت ألمانيا النمسا فاحتجَّ الأوروبيّون، لكنهم لم يتخذوا موقفاً فعليَّاً إزاء الأمر، وحينَ رأت ألمانيا هذا الموقف الضعيف استولت على تشيكوسلوفاكيا أيضاً بعد النمسا، دون أن يكون هناك أي موقف إزاءَ ما يجري، لذا كانت ألمانيا قد بدأت بذكر بعض الأماكن الأخرى، مثل بولندا وروسيا، حيثُ قالت: "سنحتلُّ تلك البلدان أيضاً فهي ملكٌ لنا وسُلبت بالقوَّة خلال الحرب العالميَّة الأولى وبدون وجه حقّ وسُنعيدها إلى سيطرتنا مجدَّداً"، فيما قال الأوروبيُّون: إن استولى الألمان على بولندا أيضًا فسنقاتل حينها، وفي الحقيقة احتلَّت ألمانيا بولندا في الأوّل من سبتمبر/أيلول خلال العام ١٩٣٩ لتندلع الحرب العالميَّة الثانية. بدأت الحرب في ١ سبتمبر ١٩٣٩ لذا تمَّ تحديد هذا التاريخ كمناسبةٍ تُدعى يوم السلام العالميّ وهو في الحقيقة اليوم الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الثانية.

في البداية لم تخض روسيا الحرب ووقَّعت اتفاقيةً مع ألمانيا نصَّت على عدم العِداء بين الدولتين، في غضون ذلك كانت روسيا على علمٍ بأن ألمانيا سوف تنتصر في الحرب، وكان تطوير الصناعة أحد أهداف هذه الحرب وإعادة ألمانيا لتصميم جيشها بعض الشيء وبها رغبة أن تتعافى قليلاً، كم من الوقت تحمَّلت ألمانيا؟ حتى عام ١٩٤١. وفي العام ذاته اندلعت الحرب على الجبهة الروسية واحتلت ألمانيا أجزاء كثيرة من الأراضي الروسية. دخلت أمريكا الحربَ أيضاً، لذا كانت هناك قوتان في العالم، إحداها ألمانيا وإيطاليا واليابان وسمّيت بـ دول المحور واعتُبِرَت جبهةً نازيَّة وفاشيَّة ومناهضة للديمقراطيَّة، ومع هذه الجبهة تمّ إنشاء الحكومات الفاشيَّة في العالم ودُعِمَت من قبل الحكومات في عديد البلدان، مثل اليونان وروما وبلغاريا والبرتغال وإسبانيا، وامتلكوا حلفاءَ في العديد من الأماكن الأخرى يتَّبعون المسارَ نفسه. في مواجهة ذلك فتح الفرنسيون والبريطانيون جبهةً دولية ضد الفاشية -ولا سيَّما بعد ضمّ الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة-مُطلقين على أنفسهم اسمَ الجبهة

الديمقراطية المناهضة للفاشية، وقد حاربت الأحزاب المناهضة للفاشيَّة وبخاصَّةٍ اليسار الشيوعي إلى جانب تلك الجبهة.

٣- المتغيِّرات الجديدة في إيران وأسباب تطورها:

تم إطلاقُ عملٍ مماثل في إيران، حيثُ تجلَّى بوضوحٍ كبير وخطوةً إثرَ الأُخرى أن رضا شاه، -والد الشاه الذي طردهُ الخميني وتمَّت الإطاحة به خلال ثورة الشعب الإيراني عام ١٩٧٩ ومن ثمَّ هرب إلى المنفى، نحن نتحدث عن والده-. كان ثمَّة رغبة لدى رضا شاه أن يتحد مع الألمان دون أن تكون هناك أي خطوات فعليَّة في هذا المنحى، ولكن علاقاته تلك دفعت ألمانيا إلى إرسال بعض الألمان إلى إيران باسم نشطاء مختلفين، يقال إنَّ عددهم بلغ مائتين أو ثلاثمائة، سوى أنَّ ادعاءات البريطانيين والأمريكيين الباحثين عن ذرائع قالت بأنَّ أعدادهم بلغت الآلاف، لكن من الواضح أنه لم يكن هناك الآلاف، مهما بلغ عددهم إلَّا أنَّ الألمان بدأوا يتحرَّكونَ في إيران وأرادوا التأثير على الشعب بطرقٍ عدَّة، على سبيل المثال؛ ثمَّة مسألتان: الأولى: المسألة الآريَّة، فيما الثانية: المسألة الدينيَّة، لأن ألمانيا اعتبرت نفسها صديقةً للمسلمين، حتى مع معارضة اليهود راغبةً بذلك زيادة تطوير الصداقة مع المسلمين بشكلٍ أكبر، وفيما يتعلَّق بالمسألة الآريَّة فإنَّ الألمان نظروا إلى العرق الآريّ بوصفه أكثر الُسلالات والأعراقِ قداسة، على هذا المنوال كان يتمُّ ترويجٌ من نوعٍ ما.

لطالما اعتبرت ألمانيا إيرانَ والقوقاز أهدافاً استراتيجيَّة بالنسبة إليها لأنَّها أرادت أن تحكم كإمبراطورية عظيمة، لذا وجَّهت أنظارها دائمًا إلى أماكن استراتيجية، وأدرك البريطانيُّون والروس هذا الخطر، ومن غير المعروف إن كانت لدى ألمانيا خطة في هذا الصدد أم لا، لكن كان ثمَّة مثل هذا العمل في إيران وتجهَّزت أرضيَّة مناسبة لألمانيا، سوى أنَّ الأخيرة لم تقم بدورها

بالكاد حتَّى غزا البريطانيون والروس إيران التي احتُلّت خلال العام ١٩٤١ بما يعرف بالغزو الأنجلو-سوفييتي وتمّ تقاسم إيران بين القوَّتين، أي وقعَ قسمٌ من إيران تحت السيطرة الروسيَّة فيما قسمٌ آخر تحت السيطرة البريطانيَّة، ولا سيَّما أماكن مثل أورميا وأذربيجان الإيرانيَّة التي باتت تحت سيطرة الجيش الروسيّ الذي كانَ له تأثيرٌ أيضاً على جزء من كردستان الذي تعتبره إيران الآن أذربيجان الغربية، حتى أنَّ الجيش الروسي تقدَّم ليصل تأثيره إلى رواندوز، ومن ثُمَّ أُطيح بشاه إيران وعزله ونفيه إلى مدينة هاسبورغ في جنوب إفريقيا، ليتوجَّه بعد ذلكَ إلى مصرَ متوفيَّاً فيها، كما عيَّن البريطانيون والروس ابنهُ محمد رضا خلفَاً له حيث بلغَ من العمر آنذاك ٢٣ عاماً بدون أي تجربةٍ في هذا المنحى أو امتلاك قدرةٍ على التمييز بين أصوات القوى الأكثر إثارةً للاهتمام والأقوى أو القدرة على الحكم في أكثر المسائل، بيد أنَّ البريطانيّونَ والروس هم من يُديرون كل شيء فعليَّاً.

انتهت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥. في غضون ذلك وبمساعدة الروس والبريطانيين جرت العديد من الأنشطة السياسية في إيران، ولا سيَّما بمساعدة الروس، حيث تطوَّرت تلك الأنشطة السياسيَّة بين الكرد والآذريين، وحين تولَّى شاهُ إيران الجديد الحُكم قام ببعض الإصلاحات ضمن الدولة، كانَ من ضمنها إطلاق سراح السجناء السياسيين، ومن بينهم العشرات والمئات من أعضاء الحزب الشيوعيّ الذين خرجوا من السجن وبدأوا بتشكيل منظَّماتهم الخاصَّة بهم، وبمساعدة الروس عمل الحزب الشيوعي في أذربيجان، فيما أسس اليساريَّونَ هناك مؤسسةً خاصَّة بهم، وتأسَّسَ في كردستان -بمساعدة الروس أيضاً- اتحادٌ أصبح فيما بعد الحزب الديمقراطي الكردستاني ليمضي بخطواتٍ تدريجيَّة نحو إعلان جمهوريَّة، وهكذا في الوقت الذي ضعفت فيه الدولة المركزية في إيران بمساعدة الجيش الروسي طوَّر كل من الأكراد والأذريين بُناهم التنظيميَّة، وتمَّ الإعلان عن هذا الأمر نهاية الحرب العالميَّة الثانية على شكل الجمهوريَّة، حيثُ تم الإعلان عن جمهورية تبريز، مهاباد على هذا المنوال، مرَّت تلك الأمور في مشاكل

كثيرة بطبيعة الحال، لكن حينَ انتهت الحرب العالمية الثانية عزَّز البريطانيُّون دورَ الشاه وقوَّته وسعوا تدريجياً إلى إضعاف النفوذ الروسي، حتى وصل الأمرُ بالشاه إلى الاستيلاء على الحركات التي تأسَّست بمساعدة الروس ومحاربتها، كما وأظهر الروسُ موقفًا خالياً من المبادئ إزاء الكرد والأذريين.

كانت روسيا تبحثُ دائماً عن صداقة إيران، لِمَ؟ لأنَّ الروس يريدون الوصول إلى المياه الدافئة، حيثُ أنَّها تعاني من مشاكل المياه، ثمَّة بحر يدعى البلطيق بيد أنَّه ليس استراتيجيًا للغاية، فيما البحرُ الأسود مغلق، مما اضطرها إلى المرور عبر مربع اسطنبول في تركيا، والأتراك دائماً ما يسببون لهم المشاكل، لذا أرادوا دائمًا الوصول عبر إيران إلى شبه القارة الهنديَّة الكبيرة ولأجل ذلك ودَّت إقامة علاقاتٍ مع الإيرانيين على أساس الصداقة والنيَّة الحسَنة، ومن خلال تلك العلاقات تمكَّنت روسيا من أخذ حصّة من النفط ومن ثمَّ عمدت إلى بيع أصدقائها في الجمهوريّتين مهاباد وتبريز، وأخذت دور المتفرّج على انهيار الجمهوريّتين دون أن يتدخَّلوا البتَّة ودعوهما في مواجهة مصيرهما.

في الواقع، وبعد عام، أي في نهاية العام ١٩٤٦ تم القضاء على تبريز أولاً ومن ثمَّ مهاباد، ليعزز شاه إيران سيادته تدريجياً على الدولة، والعفو الذي أصدره خلال العام ١٩٤١ بعد أربع سنوات من فرض الابتزاز ، ومن ثمَّ حظر الحزب الشيوعي الإيراني والقبض على جميع أعضائه وإيداعهم السجن كما وتم إعدام أكثر من ٢٥ شخصًا، فيما بقي معظمهم في السجون، ليصنع على هذا المنوال مركزيَّته وبدعمٍ من البريطانيين، كان الوضع في إيران في ذلك الوقت على نحو ما ذكرناه، لكن في ذلك الوقت كانت ثمَّة حركة ليبرالية وفكرية ووطنية نهضت ضد فردانيَّة ومركزيَّة الشاه وضدَّ نهب البريطانيين لنفط إيران، كانت بمثابة تجمعٍ في الحركة الوطنية بقيادة د. محمد مصدق، وهو عضوٌ في الطبقة الأرستقراطية الإيرانية، كان كبيراً في

العمر مستنيراً ووطنيًّاً وتطوَّرت الحركة تحت قيادته، فيما أراد شاه إيران تحديدًا إنهاء تلك الحركة وتصفيتها عبر القمع سوى أنَّه لم يكن بمقدوره فعل ذلك، لذا ما الذي فعله الشاه؟ طلب في إثر د. مصدق قائلاً له: "حسناً يمكن لك أن تكون الحكومة". لِمَ فعل الشاه ذلك؟ بغية الخروج من الأزمة التي يعيشها، أي أن يغدو مصدق زعيم الحركة الوطنية رئيساً للوزراء، أي يجعله الشاه رئيساً للحكومة لكي يقمع ويشلَّ استياء الشعب. أصبح مصدق رئيسًا للوزراء خلال العام ١٩٥١، سوى أنَّه لم يتصرَّف على أنَّه شاه بل حقَّق مبادئه الوطنيَّة، حيثُ أصدر عفواً وأطلق سراح المعتقلين من أعضاء الحزب الشيوعي، حررَّ حركة اليسار وحررَّ الصحف كلها، وخطوةً إثر الأخرى استولى على النفط الإيراني الذي نُهِب من قبل البريطانيين وأعاده إلى الدولة، بالإضافة إلى قيامه بأشياء أخرى كثيرة. استاءت كلّ من أمريكا وبريطانيا على إثر إطلاق مصدق لسراح الشيوعيين، حيثُ كانت الحركة اليسارية تزدادُ قوَّةً في إيران -في الواقع كانت قوية جدًا سابقاً في إيران-حيث سرعان ما انتشرت الحركة بين الناس بعد إزاحة الضغوط عنها، لقد تحوَّلت الحركة اليساريَّة إلى قوة خطيرة حين أصبحت قويَّةً في إيران، لأن الأخيرة تقع على الحدود السوفيتية، ومن الممكن أن يحدث انقلابٌ شيوعي في إيران بين عشيَّةٍ وضحاها.

تبلغ جغرافيَّة إيران مليون كيلومتر مربع، يبلغ عدد سكانها الملايين وتستقرُّ على بحر من النفط، فيما يحيطها الغاز الطبيعيّ، إنها استراتيجية للغاية. أراد الشاه تقييد مصدق بيد أنَّه لم يستطع فاضطرّ إلى الهرب من إيران في ذلك الوقت، فما الذي فعله البريطانيون آنذاك؟ فرضوا حصاراً، على سبيل المثال، كان النفط هو على المستوى الأوَّل في الاقتصاد الإيراني ويتمُّ شراؤه من قبل دول كفرنسا وبريطانيا وأميركا وفجأةً توقفت تلك الدول عن شراء النفط، عدا عن ذلك تمّ إدخال الطابور الخامس وقوات الفتنة والفساد ومكافحة الترويج والتنظيم وسرقة الأشياء والاستيلاء على البضائع واحتكارها لئلَّا يبقى منها شيءٌ في السوق وبالنتيجة خلق الجوع ورفع الأسعار، وفقدان

المتطلبَّات الرئيسة للناس، ولقد كان لوكالة الاستخبارات الأميركية دوراً أساسيَّاً وعلى نطاقٍ واسع، حتَّى أنَّ الوكالة كانت توزِّع الأموال في الشوارع لتعبئة الناس ضدَّ مصدَّق، الأمر الذي وصل بهذه الحركة ضدَّ مصدق إلى مستوى كسر التوازن والانسجام ومن ثمَّ انهار النظام وانتفض الشعب، واحتشد الأميركيَّون والبريطانيون وحلفاؤهم ونفَّذوا انقلاباً للإطاحة بسلطة مصدق، ومن ثمَّ أعدموا رفيقاً أو اثنين من رفاقه، وتمَّ إيداعه السجن وإعادة الشاه مرَّةً أخرى، لكن هذه المرَّة بقوَّةٍ أكبر وليس فقط بمساعدةٍ من البريطانيين فحسب، بل بمساعدة الأميركيين أيضاً، حيث عاد الشاه خلال العام ١٩٥٣، وبعد عودته تلك لم يكن الشاه ذلك الشابّ عديم الخبرة، بل كان قد كوَّن خبرةً عظيمة وقويَّة جدَّاً وتطوَّرت مساعدة الأميركيّين له، لذا أعلن الشاه خلال فترةٍ قصيرة عن برنامج، فما كان ذلك البرنامج؟ الثورة البيضاء، وكان ذلك خلال العام ١٩٦٣، فما هي تلكَ الثورة البيضاء؟ هي تحديثٌ لإيران، تحديث السياحة وحقوق المرأة في الانتخابات، حيث باتت تلك الأمور في المقدِّمة، حيث تقدَّمت الأفكار الغربيَّة تدريجيَّاً، وبعدَ الإطاحة بمصدق وعودة الشاه تم حظر الحركة اليساريَّة واعتقال جميع أعضاء الحزب الشيوعي الإيرانيّ مرَّةً أخرى ومصادرة جميع ممتلكاتهم، ومارسوا إرهاباً كبيراً ضدَّهم وضدَّ الأحزاب السياسيَّة، مثلاً وفي أعقاب هروب الشاه تمَّ العثور على وثائق خاصَّة بالـ السافاك ١٩٧٩ -وهي الاستخبارات الإيرانيَّة كما هي معروفة الآن- وقعت في أيدي قوات الخميني وقد تمَّ توزيع البعض منها، وثقَّت تلك الأوراق أشكال التعذيب المُمارَسة، بالإضافة إلى وجود أشرطة فيديو توضِّح درجة التعذيب الوحشيَّة ضدَّ أعضاء الحزب الشيوعيّ الإيرانيّ آنذاك، ليس الحزب الشيوعي الإيراني بل أيضاً مجاهدي خلق أو منظمة مجاهدي الشعب الإيراني، حيثُ كانوا يساريّين. أظهرت بعض أشرطة الفيديو مشاهد لنساء الحزب الشيوعي الإيراني وكيف أنَّ رجال السافاك يقومون بحرق صدورهن وهنَّ أحياء في سبيل الحصول على اعترافاتهنّ، تم استخدام أشكال قاسية للغاية من التعذيب، إلَّا أنَّ تلك الطرائق في يومنا الرَّاهن باتت أسوأ بكثير، مع العلم أنَّهم ينتقدون زمن الشاه على إثر

تلك الطرائق في التعذيب، فيما هم يزدادون سوءاً الآن. بدأت ثورة الشاه البيضاء خلال العام ١٩٦٣ أي تحديث المجتمع الإيراني، ولكن حين بدأت الثورة البيضاء هذه المرة حاول الشاه أن تكون ثورةً مبنيَّة على القيم الغربيَّة ليدخل في صراعٍ مع رجالات الدين ولا سيَّما حركةٍ دينيَّة كانت في المقدِّمة وستظهر في المستقبل. على سبيل المثال، الخميني روَّج ضدَّ الشاه وهذا صحيح، فتمَّ اعتقاله لفترة ومن ثمَّ إطلاق سراحه، في ذلك الوقت لم تكن مهمته كبيرة، بل كان داخل الدولة، لقد كان آية الله ولكن ليس الكبير، ولكن بعد أن أصبح آية الله الكبير لم يعد بإمكانهم اعتقاله، فقوانين إيران تمنع اعتقال آية الله الكبير لأنَّه يصل إلى مرتبةٍ مقدَّسة، كان الأمر هكذا في ذلك الوقت، لذا لم يعتقلوه هذه المرة بل نفوه، ليذهب إلى تركيا ومنها إلى النجف ومن ثمَّ فرنسا. لم يكن الخميني شخصًا مثيرًا للاهتمام سوى أنَّه كان ضدَّ النظام، وكانت المجموعة الدينية التي عارضت النظام في الأساس مجموعة مختلفة، وكان هناك على وجه الخصوص آية الله طالقاني وعلى شريعتي، هؤلاء ديمقراطيّون دافعوا عن القيم الإسلامية، سوى أنَّهم كانوا اشتراكيين. على سبيل المثال، يمكننا القول كما أنَّ فولتير وجان جاك روسو لعبا دوراً أساسيَّاً في الثورة الفرنسية فإن علي شريعتي وآية الله طلقاني كذلك الأمر لعبا مثل ذلك الدور في الثورة الإيرانيَّة، فهؤلاء مطّلعين على الخارج لذا كانوا ديمقراطيين أو حتَّى يمكن وصفهم بأنَّهم يساريُّون، أي لم يرفضوا الاشتراكية، فصحيحٌ أنَّهم كانوا متدينين سوى أنَهم لم يرفضوا الاشتراكية أيضاً، فعلي شريعتي على سبيل المثال كانت تربطه صداقة متينة مع الفرنسي فرانتس فانون وجان بول سارتر أيضاً، دعمَ الثورة الجزائريَّة، أي ينحدرون من تقاليد النضال، لذا ظهروا في المقدِّمة، فكلَّما كانَ الشاه حداثويَّاً، كلَّما دخل في صراعات مع المتدينين، على سبيل المثال ثمَّة حدثٌ ما في ذلك الوقت: ففي العام ١٩٧١، احتفل الشاه بالذكرى الـ ٢٥٠٠ للإمبراطورية الأخمينيَّة، أين احتفل؟ في برسبوليس، لا، فهي غدت أنقاضاً، حيث كانت برسبوليس هي العاصمة خلال العصور الفارسية القديمة، قام الشاه بنصب خيامٍ هناك ووضعوا مولِّداتٍ كهربائيَّة ضخمة وثلَّاجةً ضخمة، وكان قد تمَّ

دعوة جميع ملوك وقادة العالم للاحتفال بهذه الذكرى، حتى أنَّ الرئيس السوفيتي آنذاك كان موجوداً، في ذلك الوقت كان رئيس الاتحاد السوفيتي بيد أنَّه لم يكن يعادل سكرتيراً للحزب، كان اسمه بود جورني، حضر الحفل ملوك العرب من كل مكان، أقبل قادة العالم من كل حدبٍ وصوب، كانت الاحتفالات باهظة التكلفة لدرجة أن بعض الصحفيين آنذاك كتبوا أنَّها كلفت ما يقارب الـ ١٧٥ مليون دولار، حيث كانت هناك أطعمة باهظة الثمن، كالكافيار وأشياء أخرى، هكذا تمَّ الاحتفال بالذكرى السنوية الـ ٢٥٠٠ للإمبراطوريَّة، كان هذا الاحتفال مزعجاً بالنسبة إلى رجال الدين، حيث قالوا أنّ هؤلاء لم يكونوا ملوكنا، نحن مسلمون فيما هم كانوا كفَّاراً، لذا كيف يتم الاحتفال بهذا اليوم؟! تاريخنا هو تاريخ الإسلام ونحبُّ عليّاً، ولا نحب سايروس، وفي النتيجة زادت هذه الحركة القومية الحديثة للشاه تدريجياً المسافة بينه وبين رجال الدين، تعمَّق الصراع، وبحلول عام ١٩٧٨ كان الغضب العام يتزايد في أذربيجان وأماكن أخرى، إلى درجة أنَّ الشاه لم يعد بمقدوره السيطرة فغادر إيران أوائل العام ١٩٧٩، رغم أنَه كانَ قد قدَّم بعض الوعود كما يفعل القادة العرب في وقتنا الرَّاهن في أنَه سيفعلُ أموراً معيَّنة، سوى أنَّ الناس فقدوا إيمانهم به مع مرور الوقت، على هذا الأساس اندلعت ثورةٌ شعبيَّة في إيران، من شارك في هذه الثورة؟ كردٌ وأذريون وبلوش وعرب، أي الشعوب المُضطهدة، كان هناك يساريون أيضاً في هذه الثورة واحتلَّوا مكانةً واسعةً فيها. كان هناك المزيد من القوى الاجتماعية في هذه الثورة ولا سيَّما النساء والشباب، وكان للنساء الدور الأكبر في تلك الثورة، بالإضافة إلى رجالات الدين والمؤسسات الدينيَّة، حين هرب الشاه إلى فرنسا كان الخميني مقيماً هناك وله مقالات تُنشر في جميع صحف العالم تتضمَّن تحليلاته ويخاطب الشعب ويُرسل توجيهاته.

وصل الخميني إلى إيران في فبراير ١٩٧٩ وبقي في مدينة قُم سوى أنَّه كان يُدير السلطة، مثلاً، تم تشكيل حكومة في ذلك الوقت سمَّيت حكومة مهدي بازركان ولكنَّها لم يكن بمقدورها فعل شيء أو إدارة أي شيء، لأن الخميني

هو الذي كان يوجِّه الدفَّة، ولكن نحو الفراغ، لتُقبل حكومة أخرى ولكن لم يكن بمقدور أي حكومة أن تقاوم، حتى أنَّ البعض صرَّح، كما قال التجَّار بشكلٍ علني: بسبب رجال الدين هؤلاء لم نتمكَّن من الحصول على شيء، ومن ثمَّ بعدها قال الخميني: "لقد انتهى وقت التقية وسنغدو سلطة، سنغدو ولاية الفقيه، فالشيعة لا يمكنهم العيش دونَ أئمَّة، يجب أن تكون السلطة في أرض الشيعة تحت حكم الإمام، سنشكِّلُ الحكومة ونعيّن الوزراء وقادة الجيش، لقد ولَّى زمن العمل في السلطة سرَّاً، نحن الآن غدونا السلطة"، علَّق رجال الدين على هذا الكلام وقالوا: هذا نقيضٌ تماماً، فولاية الفقيه أمرٌ مختلف، فما هي ولاية الفقيه؟ يقولون أنَّ الشيعة دائماً يحكمهم الأئمَّة: الإمام الحسن، الحسين، موسى العسكري، كاظم، وصولاً إلى الإمام الثاني عشر محمد المهدي الذي اختفى، لذا فهم لا يأملون بأن يحكمهم ذلك الإمام على اعتباره مختفياً، بل أن تكون له ولاية، أي من يحكم باسمه، هذا الشيء غير موجود في المذهب الشيعي، سوى أنَّ الخميني هو من فرض ذلك، عبَّر الكثيرون مثل علي شريعتي، طالقاني، منتظري، عن أنَّ هذا الأمر خاطئ وغير قويم ولا يوجدُ شيءٌ من هذا القبيل ولا بدَّ من تقديم النصح في الأخلاق والدين وإعطاء المواعظ، لا أن نغدو سلطةً لأنَّ هذا أمرٌ غيرُ ممكن. انتصر الخميني، حيث أنَّ القوَّة التنظيميَّة التي لديه كانت قوَّةً دينيَّة، وعرضوا ضرورة التوجُّه نحو إجراء استفتاء، على أيِّ أساس؟ على أساس الاستفتاء حول إمكانيَّة تأسيس جمهورية إسلامية أو جمهوريَّة إيرانيَّة، سوى أنَّ الخميني رفض ذلك، لأنَّه يعلم تماماً إن تمَّ إدخال البندين إلى الاستفتاء سيختار الشعب الجمهوريَّة الإيرانيَّة وليس الجمهوريَة الإسلاميَّة، فمن ذا الذي له أن يختار جمهوريَّةً إسلاميَّةً آنذاك!! لذا قال الخميني بضرورة إجراء الاستفتاء على أمرٍ واحد، وهو الجمهورية الإسلامية، ومن لم يودّ ذلك لم يذهب إلى الاستفتاء، سوى أنَّ من ذهبوا للاستفتاء تعرَّضوا إلى ضغطٍ كبير بغية الذهاب، حيث بلغت نسبة عدد المشاركين خمسين في المائة من سكان إيران، على هذا المنوال تمّ تسمية الجمهوريَّة الإسلاميَّة الإيرانيَّة، ومُنحت نظاماً سوى أنَّه كان معقَّداً وفوضويَّاً إن لم يفهمه المرء فستعترضه صعوباتٌ

جمَّة، وبإمكاننا إعطاء مثال على ذلك، حين أصبح خاتمي رئيساً لإيران تعامل معه الكرد بشكلٍ خاص وبعض الأشخاص الآخرين بشكلٍ إيجابيّ وقالوا أن المشكلة سوف يتمُّ حلَّها، لأنَّه وعدَ حقَّاً ومن الممكن ألاَّ يكون ذلك الوعد كاذباً، مثلاً بالنسبة إليّ كشخص أعتقد أنَّ خاتمي كان مؤمناً بالديمقراطيَّة، قد يكون كذلك لأنّه كتب عن هذا الأمر وله مقارباتٌ كثيرة بهذا الصدد، وقد لا يكون مثل غيره، فقد وعد الكرد كثيراً ولكنَهم قالوا أنَّه سيتغيَّر فقد غدا رئيساً للجمهوريَّة وهو يقبل بالتغيير دائماً. لم يتغيَّر شيءٌ في إيران، ما هو السبب؟ حكم خاتمي لمدة ثماني سنوات، لكن لم يتغير شيء، ما السبب؟ السبب يكمن في النظام الذي تم إنشاؤه، نظام ولاية الفقيه، فالنظام في إيران قائم على أساس الوصاية، فالوالي الفقيه فوق كل شيء، في السابق كان الخميني والآن علي الخامنئي، ما الذي يمكنه فعله؟ بمقدوره عزل الرئيس عن منصبه وحلّ البرلمان ويكلِّف القادة العسكريين وينشئ الوزارات الخاصَّة على سبيل المثال وزارة الاستخبارات، الداخليَّة، لذا وعلى هذا المنوال فهو صاحب السيادة في كلِّ شيء، فمثلاً إن أراد البرلمان فعل شيء وكان هذا الشيء على النقيض من ولاية الفقيه، أي ضدَّ الإمام، فإنَّه بمقدور الأخير أن يتخّذ قراراً بحلِّ البرلمان، هذه وظيفته والإمام موجودٌ لأجل ذلك، وإلى جانب الإمام ثمَّة مجلس العلماء من رجال الدين الذين ينتخبون ولاية الفقيه، كما أنَّ ثمَّة مؤسسة أخرى تسمى مجلس تشخيص مصلحة النظام، وهذه المؤسسات لا تتحكَّم بالقوانين فحسب بل تتحكَّم بمستوى أشدّ، ثمة مؤسسات أخرى وصولاً إلى رئيس الدولة، لذا فإن القوة المنتخبة ليست مؤثِّرة وفعَّالة دائماً في إيران، متى يكون لها التأثير؟ حين تتصرَّف تلك القوَّة في إطار منظور الإمام، مثل حالة أحمدي نجاد في يومنا الرَّاهن، ولكن الأوضاع في إيران اليوم معقَّدة، أين تكمُن مشكلتها؟ تكمن في أنَّ المجتمع الإيراني لا يعرف كيف باتت السلطة هي المُسيطرة وكيف باتت مسيطرة، كيف بات النظام مسيطراً، فحين تمَّ الإطاحة بالشاه، قال الشعب للنظام: نشكرك ألف مرَّة على هذا العمل الجميل لقد أطحت بالشاه.

شرعن النظام نفسه بعد كسره لمحاولة العراق في الاحتلال، لأن العراق هاجمت إيران بغتةً وفي وقتٍ كانت تعاني فيه من الانقسام ولا تملك جيشاً، بالإضافة إلى الفوضى والآنارشيَّة والاقتتال اليوميّ، لكن العراق هاجمت سوى أنَّ النظام كسر محاولة الغزو تلك وهذا أمرٌ جيّد، ولكن في يومنا الرَّاهن لا توجد شرعيَّة، لِمَ لا توجد؟ لأنَّ المجتمع الإيراني اليوم حيٌّ ونابض بالعديد من ألوان وأشكال الحياة وبهِ رغبة التعبير عن نفسه، رغم أنَّ الناظر إلى ذلك المجتمع من الخارج سيرى أنّه مجتمع منغلق، مع العلم أن نسبة الإناث المتعلِّمات في إيران قد تتجاوز نسبة أي دولة أخرى في العالم، ولكن على الجانب الآخر فهو مجتمع ديناميكيّ وحيّ ومنشغل بالتجارة، لذا فإن أسلوب الحكم وذلك النمط من السياسة المتَّبعة يجعل من المجتمع الإيراني ضعيفاً في ثقافة حياته ونشاطه السياسي والفكري والاقتصادي وفي الجوانب برمَّتها، فالإيرانيُّون يتمتَّعون بمستوىٍ كبير في الثقافة والفن والتعليم، ولا أعرف لِمِ لا بدَّ من وضع الحجاب أو ارتداء الزي المعيَّن، فالمجتمع لا ينهض بمثل هكذا أشياء، فإن لاحظ المرءُ الآن سيرى تطوّر معارضة داخليَّة وهي معارضة جديَّة وليست لعبةً من ألاعيب الإمبرياليَّة، دعونا لا نفهم بشكلٍ خاطئ، وإن حصل ورأت الإمبريالية نفسها صديقةً للمعارضة فإن هذا يعني ضياعاً وخسارة لتلك المعارضة، إنَها معارضة داخل النظام، سوى أنَّها قُمعت بطرقٍ استبداديَّة ولا يمكن بذلك النهوض بالمجتمع، فكلَّما مرَّ الوقت تغدو إيران شديدةً أكثر وتدخل في صراعاتٍ مع الأنظمة الدوليَّة، الأمر الذي ينعكس سلباً على وضعها الداخليّ، حيث ينمو الفقر، ففي يومنا الراهن ثمَّة حصارٌ على إيران الدولة. مثلاً: دولة تحتلُّ المرتبة الثالثة في العالم من حيث إنتاج النفط، الغاز الطبيعي وعلى امتداد مساحة واسعة، فجغرافيَّة إيران ليست صحراويَّة بل غنيَّة جدَّاً لأنَّها على البحر، فعلى جانبٍ من جوانبها ثمَّة المياه الدافئة فيما على الجانب الآخر بحر قزوين الذي يعتبر الآن مصدراً للنفط، دعك من كل ما سبق ذكره، فحتَّى وإن تخلَّت عن كل ذلك واستندت إلى موارد أخرى فستكون الدولة الأغنى، ولكن الأمر غير ممكن مع هكذا نظام مبني على أساس المنع. والحظر، لذا ثمَّة صعوباتٍ جمَّة الآن، وتحاول

إيران في الوقت الحالي شرعنة نفسها عبر محاربتها الإمبرياليَّة، سوى أنَّ الأمر لم يحقق الكثير في الانتخابات الرئاسيَّة الأخيرة، وعلى الرغم من الحصار فإن الشعب انتفض ونهض، وهذه الانتفاضة لم تنتهي، لأنَّ الثورات لا يمكن أن يتم تصفيتها، لتبقى إيران وجهاً لوجه مع العديد من القوى، والإمبرياليَّة واحدة من تلك القوى، حتَّى أنَّ الاجتماع الأخير في استانبول لم يؤتِ بأيِّ ثمارٍ لها ولم تسفر عن أيّ نتائج بل تعمّقت المشاكل أكثر بين إيران ومجموعة الدول الخمس دائمة العضويَّة في مجلس الأمن: أميركا وروسيا وبريطانيا والصين وفرنسا، لدرجة أنَّه لم يتم تحديد موعد لأي اجتماعٍ آخر، الأمر الذي ضاعف المشاكل وزيادة الحصار من قبل الدول الأوروبيَّة على إيران، وهو أمرٌ له تأثيره، مثال: ما الذي فعلته إيران مؤخَّراً؟ زادت الدعم لأهمّ احتياجات المواطنين الإيرانيين، فكيف تمَ ذلك؟ على سبيل المثال حين يشتري مواطن إيراني البنزين فإنه يشتريه بدولار أمريكي واحد ولكن لأن الدولة تدعم هذه المادة فإنَّها تباع بسعرٍ أرخص، وكذلك الأمر بالنسبة إلى السكر والشاي والأرز وبقية الأطعمة التي تعتبر ضروريَّاتٍ للحياة، وكانت كل تلك المواد رخيصة لأنَّها مدعومة من قبل الدولة، وعلى هذا الأساس اتخذت الدولة مؤخَّراً قبل عدَّة أشهر قراراً أعلنته رسميَّاً: "لم يعد بمقدورنا الاستمرار، لذا نرفع دعمنا لهذه المواد"، الأمر الذي انعكس سلباً على المواطنين وازداد الفقر، كما وأدَّى إلى تقوية المعارضة والتسبّب في استمرار الحصار، هذا أمر، والثاني هو أنَّه طالما هناك تغييرٌ للشكل في الشرق الأوسط فإن تأثير أميركا على دول الخليج سيزداد، لذا فإن الولايات المتحدة بطبيعة الحال سوف تحرَّض دولاً مثل السعودية وقطر والإمارات ضدَّ إيران لتكون المنطقة دائماً مكاناً للفوضى والعِداء وستفقد إيران طاقتها بالكامل، ومن جانبٍ آخر فإنَّ الهجمات العسكرية المحتملة ضدَّ باكستان فستكون إيران كذلك الأمر في جدول الاستهداف العسكريّ المحتمل، لِمَ؟ بحكم أن المنطقة تحت السيطرة الأميركيَّة فإنَّها سوف تغمض عينيها عن الهجمات التي تنفَّذ على إيران انطلاقاً من أفغانستان، حتَّى وإن لم يتم الأمر بشكلٍ علنيّ، إلَّا أن غضَّ نظرٍ ما من قبل أميركا سيكون متوفَّراً، وتلك

النشاطات العسكرية التي تحصل في بلوشستان بين الفترة والأخرى تؤذي إيران على المستوى الأمنيّ إلى درجةٍ معيَّنة. لقد تركت الحركة التحررية الكردية خطوةً إثر الأخرى مشاكلَ بين الأذريين، ولم يعد بإمكان إيران أن تكون مستقرَّةً في شرعنة سلطتها التي استفادت منها سابقاً، والاحتمال الأقرب لهذا الأمر هو أنَّه -وفي ظل انعدام وجود سيطرة على المعارضة الداخليَّة-فإن الأنشطة الليبراليَّة جزئيَّاً ستتطوَّر بشكلٍ تدريجي داخل إيران وتعيد مراقبة وفحص هذا النظام، وإن لم يكن الأمر هكذا، فثمة احتماليَّة لهزيمة وانكسارٍ كبيرين داخل إيران، بهذه الطريقة نحاول أن نفهم إيران.

٤- تأثير تركيا على منطقة الشرق الأوسط:

تعتبر تركيا قوَّةً في منطقة الشرق الأوسط وبشكلٍ خاصّ منذ سنوات، يمكن للمرء أن يقول قبل ذلك أيضاً، ولكن على العموم تركيا لها أثرها منذ ألف سنة، حيث دخل الأتراك إلى المنطقة عبر آسيا الوسطى وقبلوا بالإسلام، وكانوا مؤثرين بشكلٍ خاصّ على الإمبراطورية العباسية ومن ثمَّ على إمبراطورية فارس، انتصروا في الحرب ضد البيزنطيين خلال العام ١٠٧٠ واستقرَّوا في الأناضول التي أصبحت مستقرَّاً للإمبراطوريَّة العثمانيَّة، ومن ثم اتَّجهوا نحو الغرب خلال أوقاتٍ، حيث استولوا على العاصمة البيزنطية خلال العام ١٤٥٣ وسمّيت باسم مدينة القسطنطينيَّة -التي تُدعى استانبول في يومنا الرَّاهن- وأصبحت عاصمةً للعثمانيين أو بعبارةٍ أخرى للمسلمين عوضَ أن تكون عاصمةَ البيزنطيين. ومع انهيار الإمبراطورية العبَّاسية باتت الإمبراطورية العثمانية عاصمةً أو مركزاً للإمبراطوريَّة الإسلاميَّة، حيث قبل العثمانيون بالسنَّة مذهباً للسلطة، وعلى هذا الأساس دعموا المسلمين في المنطقة، ولا سيَّما العرب والكرد، لينتشروا خلال العام ١٥١٤ نحو الشرق، أي وصولاً إلى حدودها الحاليَّة على مقربةٍ من الإمبراطوريَّة الصفويَّة واستفادوا منها على نحوٍ مضمون، وقد تم فعل ذلك من خلال اتفاقِ

مستمرّ وضَّحَ الحدود بينهم وبين الصفويين خلال العام ١٦٣٩ أي حدودهم نحو الشرق، وأسست الإمبراطورية العثمانية شيئاً ما يشبه مؤسسةً تحدَّد العلاقة بين الإمبراطوريتَين، وفي العهد نفسه باتَ الجنوب والغرب، لا سيَّما مصر وشمال أفريقيا تحت سيطرتهم وذلك بعد إنهاء دولة المماليك، ليتم بناء إمبراطورية ممتدة على مساحةٍ شاسعة خلال العام ١٥١٧ وصاعداً، إمبراطوريَّة تقع على الجانب الأوروبي والأفريقي ومن آسيا الصغرى نفسها، سوى أنّ تلك الإمبراطورية لم يكن بمقدورها أن تحقّق ذات الأداء بالنسبة للدولة الإسلامية السابقة من حيث القوى الاقتصادية والعلمية والتقنية، كما أنَّ تأسيسها كان متزامناً مع النهضة في أوروبا، أي أنَّها مثَّلت نموذجاً آخر موازياً للنهضة في أوروبا ولكن في قارَّة مختلفة، فبالتوازي مع تأسس الإمبراطورية العثمانية في المنطقة ولدت النهضة في أوروبا. خطوةً إثر الأخرى كانت الدول المركزيَّة المتجانسة والدول القومية، تعتمد على العلم والتكنولوجيا العلمية، وباتت قوتها تتوسع في كل اتجاه وتنمو، لذا رأت الإمبراطورية العثمانية نفسها مجبرةً بين الفينةِ وشقيقتها أن تدفع حركات الإصلاح وفق المحتوى الأوروبيّ إلى الأمام كما يحصل في أوروبا، لذا فإنَّ الشرعنة المبدئيَّة خلال العام ١٨٧٠، والشرعنة الثانية خلال العام ١٩٠٨ حصلتا في سياق التغريب، لذا فالدولة التركية لم تصبح دولةً غربيَّة مع مصطفى كمال أتاتورك، بل تمَّ إثارة مسألة التغريب تلك قبله وبأمَدٍ طويل، حيث أنَّ القوى الغربيَّة -ولا سيَّما فرنسا وبريطانيا- لطالما شكّلتا أهميَّةً لتركيا على خلفيَّة أهميَّة المنطقة، ويستمر هذا التأثير من الجانب الغربيّ على الدولة التركيَّة حتَّى يومنا الرَّاهن، ليتشكَّل ما يلي:

٥- تطور القوميَّة في تركيا:

بدأت القوميَّة في تركيا قبل الكماليَّة والجمهوريَّة، وللمفكِّرين والمستنيرين ذوي الأصول غير التركيَّة كاليهود الذين اعتنقوا الإسلام تاريخٌ مهم في هذا

السياق، لا سيَّما في الفترة الواقعة بين ١٤٩٠ و ١٥٠٠ حين أصبحت إسبانيا دولةً كبيرة وغدت إمبراطوريَّةً مسيحيَّة، حيث كان ثمَّة في ذلك الوقت عددٌ لا يستهان به من العرب المسلمين واليهود موجودين في إسبانيا، حيث اندلعت حربٌ ضدَّ العرب واليهود على أساس اعتناق المسيحيَّة، أي على أساس أن من يبقى في إسبانيا لا بدَّ وأن يكون مسيحيَّاً، ولم يعد بالإمكان قبول المسلمين أو العرب أو اليهود البتَّة بعد الآن، لذا اعتنق الكثير من اليهود الديانة المسيحيَّة من ناحية الأسلوب والنمط وحسب، أي مارسوا التقية، أعلنوا عن أنفسهم مسيحيّين سوى أنَّهم دافعوا عن يهوديّتهم وحافظوا عليها، لكن لم يكن بمقدور البعض فعل ذلك فلم يجدوا حلَّاً أمامهم غير الهرب، ولكن إلى أين؟ سوف يفرَّون إلى الإمبراطورية العثمانيَّة، لذا ثمَّة مقولة لأحد أباطرة العثمانيين، حين يقول: "إنَّهُ لأمرٌ غريب، يصِفون ملك إسبانيا بالرَّجُلِ الحكيم!، لكن بطرده لليهود فإنَّه في الحقيقة يعمل على إفقار مملكته وإغناء مملكتي" هكذا اهتمَّوا باليهود، لذا وبالتوازي مع الجوع الدائم ضمن الإمبراطوريَّة العثمانية إلى العلم والمعرفة فقد احتضنت اليهود بسرعةٍ وتمَّ القبول بهم، فاستفاد اليهود من هذا الأمر، سواء اليهود الذين تحوَّلوا إلى المسيحيَّة أو حتَّى من بقي على ديانته اليهوديَّة، حيثُ كانوا يواجهون قمعاً رهيباً في الوقت الذي عثروا فيه على الارتياح ضمن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، حتَّى أنَّهم ساهموا في صنع القرارات، وقد انتشر التغريب والقوميَّة بادئ ذي بدء في الحقيقة على يد هؤلاء ولا سيَّما في عهد الاتحاد والترقّي أي ما قبل الحرب العالميَّة الأولى، وخلال تلك الفترة تم منح اسم الاتحاد والترقّي على أساس الوحدة والسيادة، أي وحدة الدولة التركية وسيادتها.

أصبحت تركيا في عهد الاتحاد والترقّي بمثابة أرضٍ خصبة للانتشار الحرّ للجماعات الماسونيَّة دون عوائق، حيث كان بإمكان تلك الجماعات أن تنظِّم نفسها، كما أنَّ اليهود كانوا محطّ احترامٍ وعملوا دون أيَّةِ عوائق تُذكَر، وعلى هذا الأساس تطوَّرت الأفكار القوميَّة التركيَّة، سوى أنَّ الاتحاد والترقي

ومع ادّعائِها بالسيادة المركزيَّة على الإمبراطوريَّة كما كانت ذي قبل لم يعد بإمكانها فعل ذلك ولا سيَّما بعد الحرب العالميَّة الأولى، حيث لم يفسحِ العالمُ المجالَ لتلك القوَّة أن تسيطر مرَّةً أخرى على جميع القوى داخل الإمبراطوريَّة، لذا ظهرت حركةٌ أخرى في تركيا. دعونا نلاحظ أنَّ تركيا كانت مركز الإمبراطورية العثمانيَّة، انهارت الإمبراطورية، لذا كان على تركيا أن تنهار أيضاً، ولكن كيف ستنهار؟ كانت ستبقى تركيا دولةً صغيرة فقط، أو دولة صغيرة داخل الأناضول، حيث كانت الخطة تنصُّ على ذلك، فجزءٌ كبير من كردستان الشماليَّة، والعراق كان لبريطانيا، مثال: مناطق هكاري، شرناخ، بوطان، والموصل، لا نتحدَّث عن الموصل فحسب، لأنَّها كانت كلها جنوب كردستان، كانت ولايةً، كانت تلك المناطق تابعة للبريطانيين، فيما كانت تشوكورفا وأضنة للفرنسيين، بينما كانت منطقة سرحَد تحت الرقابة الروسيَّة، كان هذا جانب كردستان من الناحية الغربيَّة ولا سيَّما منطقة بحر إيجة، مرمرة، هكذا كان يدّعي البريطانيّون واليونانيون، حيث كان هناك بالفعل عددٌ هائلٌ من اليونانيين في المنطقة وفي كل الجُزُر تقريباً، كانت لديهم الفرص وكانت الدول الغربيَّة منتصرةً في الحرب، لذا أراد البريطانيون توطين المسيحيين على وجه الخصوص في تلك المنطقة، لأنَّهم لم يكونوا موجودين كما في يومنا الرَّاهن، حيث كانت أعدادهم متزايدة، كانت لهم قرى ومدن وجُزُر مليئة باليونانيين، لذا بالكاد كانت تركيا ستبقى كدولةٍ صغيرة داخل الأناضول، سوى أنَّ عوامل عدَّة حالت دون ذلك، لذا فلننتبه أنَّنا حينَ بدأنا بالتقييم قلنا أنَّ الشرق الأوسط مقبرة لجميع الخطط التي قد تم إعدادها، أي كلَّما تمَّ إعداد خطَّة لهذه المنطقة فإن مصيرها يكون الفشل، حيثُ ثمة قوى غير ماديَّة لها عواملها التي تقوم بتغيير الخطط المعدَّة مُسبقاً. أوروبا تأخذ الكثير من القضايا المادية بعين الاعتبار حين يتعلق الأمر بالتخطيط للمنطقة، على سبيل المثال، تقول أوروبا أن صدام فاشيّ وسنذهب لإسقاطه وسيصفَّق لنا الناس وسنجلس، لكنّهم لا يهتمون بأمر، فصحيحٌ أنَّ الشعب مستاءٌ من صدام لكن في الوقت ذاته لا

يودُّون الوقوع تحت هيمنة المسيحيين، أوروبًا لا تأخذ هذا الأمر في الاعتبار.

كان لدى شوارزكوف -قائد الجيش الأمريكي خلال حرب الخليج الأولى- خطة، حيثُ قال: "سوف نضرب في الحرب وسينهار الجيش، سنتوقَّف عن الضرب، سيخرج الجيش العراقي ويعود أدراجه"، حين يواجه جيشٌ ما الهزيمة وجهاً لوجه وحين يتذكَّر نقطة البداية ويعود إليها سيواجه ضربةً كبيرة، هكذا كانوا سيطيحون بصدَّام، ولكن الأمرُ لا يخطر ببال جنديٍّ عراقيّ، ولا يوجد شيء من هذا القبيل في قاموسه، فإذن كانت الحسابات خاطئة جداً، إنَّها حسابات ماديَّة وعلمية موضوعة وفقاً لها وهو خطأ جسيم، لذا فإنَّ تركيا دولة سلطوية أراقت الكثير من الدماء وتسبّبت في خرابٍ كبير للغاية، وحين تأتي القوات البريطانية والفرنسية إلى المنطقة فإن الشعوب جميعها سوف تحتضن تلك القوَّات وتتّحد معها ضدَّ الأتراك، ويتم تصفية الدولة التركيَّة، والشيء الصحيح هو أن الشعب كان مستاءً من تركيا ليس كما كان مستاءً من فرنسا وبريطانيا، بلى إنَّهم منزعجون من الأتراك لكن رغم كل شيء فالأتراك مسلمون فيما الفرنسيّون والبريطانيّون مسيحيّون، أي ثمَّة سمات ثقافية تكوَّنت بين الأتراك والعرب والكرد، في الوقت الذي لا توجد فيه قواسم مشتركة بين الكرد والفرنسيين أو البريطانيين، لذا ساهمت تلك الأفكار في المحاولة على عدم تحقّق المدوَّن من الحسابات بشكلٍ عمليّ، لكن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى حدث على الجبهة العربيَّة ما كان مخطَّطاً له من قبل الفرنسيين والبريطانيين، هذا كان صحيحاً، حيث نجح ما كان معدَّاً، فالتنظيم الذي أنشأوه بين العرب وتحريضهم على العداوة مع تركيا تحقَّق ونجح إلى حَدٍّ ما، حيث كانت ثمة قوى موجودة على أقدامها وسليمة بين الكرد والعرب على اتصالٍ وثيق مع البريطانيين، لذا كان الشيخ حسين في الحجاز بالإضافة إلى دولٍ عربية اعتبرت نفسها جزءاً من أوروبا، ولا سيَّما المستنيرون الذين توجَّهوا نحو أوروبا للدراسة هناك ومن ثمَّ العودة، حيث كانوا يُعتبرون قوى اجتماعيَّة متّحدة مع أوروبا، لذا يمكن القول

أنَّ الأمور والمخطَّطات المتعلقة بالعرب قد نجحت إلى حدٍّ ما، فبعد سقوط الإمبراطورية انتشر الجيشان البريطاني والفرنسي في جميع الدول العربية بشكلٍ يسير ومن ثم تمَّ تقسيم تلك البلاد لتغدو مستعمراتٍ للفرنسيين والبريطانيين. رفضت تركيا هذا الوضع، لم تقبل بوضع الاحتلال، كيف لم تقبَل؟ أوَّلاً: كان ثمَّة جيشٌ تركي لا يستهان به، لم يكن صغيراً، بل على العكس كان جيشاً كبيرا، رغم أنَّه هُزم في العديد من الأماكن ولكن لا يزال موجوداً، أي ثمة قوة عسكريَّة في تركيا، ثانيًا: كان لها قوتها المادية كونها مركز الإمبراطورية وليست دولةً في طور النشوء كما هو الحال لدى أي دولة عربيَّة أخرى، كما وملكت ماضياً وتقاليدَ للدولة المركزيَّة الخاصة بها، ثالثاً: الخطاب الديني كان لا يزال يحتفظُ بفعاليَّته، وهذا ينطبق على الكرد، فدعوات الحركة القوميَّة التركيَّة للكرد -ولا سيَّما الكماليَّة- لمحاربة الأجانب، وبشكلٍ خاصّ الفرنسيين والبريطانيين كانت لها نتائجها، لذا اندلعت معاركُ في أماكن متفرّقة من المنطقة وبشكلٍ منظَّم ضد الفرنسيين والبريطانيين، وبطبيعة الحال ظهرت فعاليَّتها في هجمات بعض الجماعات الكرديَّة المسلحة على القواعد الفرنسيَّة في أورفة، لم تكن حربًا منظَّمة بل عبارة عن جماعاتٍ تهاجم، فاكتشف الفرنسيُّون عدم مقدرتهم على البقاء وتقهقروا من المنطقة، كان الأمر منظَّماً عالميَّاً، مثل معركة كاناكالي، غاليبولو، حيثُ قتل فيها عددٌ لا يُستهانُ به من الجنود البريطانيين، وحتى يومنا الرَّاهن لا يزال أحفاد الجنود المقتولين يقبلون لإحياء ذكرى جنودهم من نيوزيلندا وأستراليا، لأن الجيش البريطاني كان سابقاً يتكوَّن من أفراد تلك الشعوب، أي لم يكن الجنود بريطانيّين فحسب بل بُني الجيش من أفراد الشعوب التي احتلَّتها في السابق، على سبيل المثال، الأستراليون وغيرهم، كان ثمَّة عديد الأفراد من الشعوب الأخرى أيضاً، حيث قُتل في تلك الحرب حوالي ٢٤٠ ألف جندي بريطاني لتُهزَم بريطانيا بهذا الشكل. ما هي العوامل الأخرى التي لعبت دورًا رئيسيًا في تقوية الحركة الكماليَّة ضمن تركيا؟ الوضع في روسيا، حيث اندلعت فيها الثورة الاشتراكية والتي اعتُبِرَت أوَّلَ ثورةٍ في العالم تنتصر على هذا المنوال وتستولي على الدولة، وكان ذلك خلال العام ١٩١٧، حيث قضت

الثورة على الاضطهاد الروسي للأتراك من الجهة الشرقيَّة فانسحب الجيش الروسي نحو الخلف وتصالح مع الأتراك لينتهي الخطر الروسي.

إن لم تندلع الثورة الاشتراكية لكانت حدود تركيا مع روسيا بأكملها مرتعاً لعدم الاستقرار والقمع، على سبيل المثال المناطق الكرديَّة، لأن الجيش الروسي كان قد وصل حتى إلى بدليس ومنطقة البحر الأسود، وكانت ستصبح تلك المناطق مكانًا للقمع، لذا حين انسحبت روسيا من الحرب تنّفست تركيا الصُّعداء، دعك من تنفّس الصّعداء، لقد زال القمع، وفضلاً عن ذلك باتَت تركيا تملك حليفاً حقيقيَّاً، فما هو أساس هذا التحالف؟ الحرب ضدَّ الإمبرياليَّة، حيثُ أنَّ الحركة الكماليَّة في تركيا كانت في حالة حربٍ مع الفرنسيين والبريطانيين، وكانت روسيا كدولة في حالة حرب مع الفرنسيين والبريطانيين لأنَّها كانت تحت حصار الإمبريالية أيضاً وتبحث عن حليفٍ بغيةَ فكِّ ذلك الحصار.

اتّخذت روسيا من جميع الحركات المناهضة للإمبرياليَّة والاحتلال: حركة الأمير في أفغانستان -هو أميرٌ، لكنَّهُ ضدَّ الإمبريالية- الحركة الكماليَّة في تركيا، كفائدةٍ لنفسها لأنها كانت على حدودها، تقاتلُ ضدَّ الاحتلال وتكافحُ الإمبرياليَّة، أي وبشكلٍ طبيعي وموضوعي كانت تحسبهم جزءاً من تكوينها، تطور هذا التحالف بين الروس والأتراك بشكلٍ كبير إلى أن وصل لمستوىً استراتيجي خلال العام ١٩٢٥، بعد أن تمَّ توقيع تحالف دفاعي مشترك بينهما، كما تشير المادة الخامسة على أنه يشبه تحالف الناتو الحالي، أي إنّ كان ثمَّة تهديد لدولة من دول الناتو، فإن الدول الأخرى ستدافع عنها، وهذا الاتفاق يقال عنه الحماية المُتبادَلة والمشتركة، وتم تشكيل تحالف مهم على هذا المستوى. بمقدورنا القول أنَّ تركيا أزالت العديد من المخاطر في عشرينات القرن الماضي، أحدها خطر الإغريق، وأيضاً تهديد بريطانيا وفرنسا، بالإضافة إلى القضاء على تهديد الكرد وتشكيلِ تحالفٍ معهم. وجدت الحركة الكماليَّة أن حركة الاتحاد والترقّي تطالب بإعادة إنشاء

إمبراطورية، لكن خطتها غير واقعية ولا أساسَ ماديّ لها لذا لن تنجحَ ولا بدَّ من توفُّر خطة بديلة، فما هيَ؟ بناءُ دولةٍ مركزيَّة متجانسة تركيَّة حديثة، وهذا يعني أنهم اعتبروا ذلك أمرًا مفروغًا منه عند تقليدهم للدولة القومية في أوروبا، وعلى هذا الأساس تم تحديد الأيديولوجيَّة الرسميَّة في تركيا وكان ذلك بناء الجمهوريَّة، حيثُ بمقدورنا القول أن إنشاء الجمهورية توضَّح خلال العام ١٩٢٣ وتمَّ تشكيل البرلمان في عشرينيات القرن الماضي وأُعلنت الجمهوريَّة خلال العام ١٩٢٣ وباتَ اسمها جمهورية تركيا، أي أُلغيت الإمبراطورية وتمَّ نفي الإمبراطور وحيد الدين إلى إيطاليا على متنِ باخرة وتوفي في سان ريمو بإيطاليا، أي أنه كان هناك آخرُ إمبراطورٍ تركي تمَّ الإطاحة به ونفيه ومن ثمَّ الإعلان عن الجمهوريَّة. أصبحت الأيديولوجية الرسمية للجمهوريَّة واضحةً الآن، فما كانت تلك الأيديولوجية الرسمية للجمهورية؟ كانت ذا جانبٍ أحاديّ، وظلت تركيا في جغرافيتها التي بقي اسمها تركيا، وترسَّخت العنصريَّة التركيَّة ضمن تلك الجغرافيا كأساس، أي لم تؤخَذ تلك العنصرية على المستوى الطبيعي بل على المستوى العرقيّ ذاته، لذا تطوَّرت العرقيَّة والنظرية العنصريَّة والعنصريَّة بشكلٍ أكبر داخل تركيا في ذلك الوقت، تطوَّرت ضد الكرد والعرب والمسيحيين وغيرهم، إذاً الذراع الأيديولوجية الرسمية هي الذراع العنصرية، بقي هذا الجانب لمدة ثماني سنواتٍ متتالية وبلا انقطاع حتى يومنا الرَّاهن دون أن يتغيَّر، تغيرت السلطات وشكلها في تركيا سوى أنَّ الإيديولوجية الرسمية لم تتغير. هذه هي الأيديولوجية الرسمية، لأن التهديد الوحيد في تركيا هو الكرد، ولهذا السبب تم استخدام تلك الأيديولوجية الرسمية ضد الكرد على مدى السنوات الثمان الماضية، ولطالما كان يُنظر إلى الكرد على أنهم إمكانات خطيرة وتهديد لتقسيم تركيا والقضاء على العنصرية التركية، ولأجل ذلك تم تبرير قمع وإبادة واضطهاد الكرد حتى يومنا الرَّاهن وهو فعلٌ اعتُبِر جزءاً من الأيديولوجية الرسمية، هذا ليس انتخاباً للسلطة وليس انتخاباً لرئيس، أتى كنعان أفرين وقتل الكرد ولا أعرف من ذا الذي لم يقتل الكرد!! هل هذه حكاية؟ لا، لا يوجد شيءٌ من هذا القبيل، بل هذه أيديولوجية رسميَّة تحمل في

جانب منها العنصرية التي لا تقبل إلا بدولةٍ واحدة، أمَّةٍ واحدة، لغةً واحدة وعَلَمٍ واحد، بهذه الطريقة تمَّ تنظيم العنصرية. من أين يأتي الخطر داخل تركيا؟ من الكرد لأنَّهم أكبر عددٍ من سكَّانها لذا استندت تلك الأيديولوجية إلى إنكارهم، إنَّها أيديولوجيا إذن، والأيديولوجيا مقدسة، وعلى أساس هذا التقديس تمَّ تبرير وشرعنة كل أشكال القمع ضدّ الكرد، لأنَّها لا بدَّ أن تقوم بذلك ومضطرَّة لفعل ذلك، فلننتبه في يومنا الرَّاهن، ومهما سعينا جاهدين وعملنا، لكن إن لم تتغيَّر الإيديولوجيا الرسمية في تركيا فدائماً ثمة احتمالٌ لحدوث المذابح والإبادات، وإن لم يفعلوا ذلك اليوم فلأنَّه ليس بمقدورهم، لذا لا يفعلون، ولأنّ تلك الإيديولوجيَّة تتأسَّس على العرق الواحد واللغة الواحدة فمن الضروري جدّاً على المرء أن يتوقَّف عند الإيديولوجيَّة الرسميَّة، لأنَّها إيديولوجيا لا تقبل الإصلاح والتغيير حتَّى يومنا الرَّاهن، فكما حدث التغيير مرَّاتٍ عِدَّة داخل الجمهوريَّة في فرنسا، إلَّا أنَّ التغيير في تركيا ليس موجوداً أو ممكناً، فما هو موجود في تركيا هو بمثابة نصٍّ قرآنيٍّ لا يمكن تغييره البتَّة.

٦- الدينيَّة فرعٌ آخر من فروع الإيديولوجيا الرسميَّة في تركيا:

الدينيَّة، الإسلامويَّة، السنَّة، الحنفيَّة، الدين السلطويّ، حيثُ تمّ طرد جميع الطوائف والجماعات الدينية في تركيا تقريبًا، وتم حظر دينهم رسميًا وخلق الصعوبات أمامهم، قُتِلوا من دون محاكمة وحُرِّموا من حقوقهم في العبادة. على سبيل المثال، حتى يومنا هذا توجد بعض الكنائس التي يُمنع فيها المسيحيُّ عن العبادة، فمن بقوا دون أن يقتلوهم، حاولوا القضاء على أصواتهم وألوانهم في العبادة ولا أحد يعرف إن كانوا موجودين أم لا ليتمَّ القضاء عليهم بهذه الطريقة، كيف تمَّ تسيير هذه العمليَّة؟ عبر المجازر بحقِّ المسيحيين والأرمن والآشوريين ومن ثمَّ العمل على حظر شعائرهم الدينيَّة في أماكن كثيرة، على سبيل المثال، قبل أيَّامٍ قليلة، وبعد ثماني سنوات فقط

تمكن المسيحيون من العودة إلى منطقة اختمار في وان، تمَّ حظرهم على هذا المنوال، سوى أنَّهم لم يكتفوا بذلك، بل نفَّذوا طريقةً عنصريَّة للغاية وطرحوا أسلوبا آخر وهو أسلوب التبديل، على سبيل المثال، كان ثمَّة أعدادٌ كبيرة من السكَّان الروم واليونانيين في جُزر بحر إيجة، مرمرة وغيرها من الأماكن، وهؤلاء كانوا في تركيا خلال الفترة العثمانية وخدموا الجيش أيضاً وعاونوه وكان دينهم حُرَّاً، لكن ماذا فعلت تركيا في عهد الجمهورية وقبل الجمهورية، أي أثناء الفترة الكماليَّة؟ تم التبادل مع اليونانيين، إنَّه نهجٌ عنصري في مستواه الأعلى، حيثُ وبموجب مرسومٍ من الدولة تم إرسال اولئك الذين نشأوا على أراضيهم لعشرات السنين إلى تركيا، وإرسال اولئك الذين يعيشون في تركيا إلى اليونان، وبهذه الطريقة تم تدمير الثقافة التي تراكمت على مدى مئات السنين بقرارٍ من الدولة، هذا ما فعلوه، فمن هؤلاء الذين يفعلون ذلك وما هي أهدافهم؟ إنّه توجُّهٌ تدريجيّ نحو التجانس، نحو الشكل الواحد، لذا كانت هذه الفلسفة التي تسبّبت في مذابح الكرد، فالمشكلة لا تكمن إذن في أنَّ مصطفى كمال أتاتورك قال ذلك أو غيره لأن هذا أمرٌ غير واضح، إنَّما المهم ما هي الإيديولوجيَّة الرسميَّة التي يُصغون إليها؟ أن تقتل أكثر أو أقل لا يهمّ، لكن ما هو الغرض من القتل؟ الهدف هو الإبقاء على شعبٍ واحد داخل الحدود التركيَّة وهو هدفٌ لم يتغيَّر البتَّة حتَّى أيَّامنا الرَّاهنة. اليوم، أكثر الناس ديمقراطيَّةً في تركيا، والذين هم في طليعة النظام التركي والأحزاب كحزب الشعب الجمهوري، وحزب الحركة القومية، وحزب الطريق القويم، يقولون: "إنَّه خطأُنا، لقد أخطأنا في حقِّ الكرد لأننا لم نعلِّمهم اللغة التركية" هذا هو انتقادهم، فهم لا يقولون إننا أنكرناهم أو قمنا بقتلهم وحظر لغتهم، بل يقولون لِمَ لم نعلّمهم مع مرور الزمن اللغة كي لا يتحدّثوا بالكردية كما في يومنا الرَّاهن، هذا هو الخطأ الذي ارتكبوه!!. ما الذي حدث أثناء قيام هذه الجمهورية؟ كان ثمَّة دعمٌ سوفييتي جادّ استمرَّ بلا هوادة للعام ١٩٣٠ حيث نُفِّذت هجماتٌ كثيرة على الكرد بتعاونٍ بين الروس والأتراك على جبال آغري، الأمر الذي منح زخماً كبيراً للحركة الكمالية وغدت بمثابة قوَّةٍ ماديَّة ومعنويَّة لتأسيس تركيا الكبيرة.

٧- السياسة التي انتهجتها إنجلترا وفرنسا:

النقطة الثانية هي السياسة التي انتهجتها بريطانيا وفرنسا، فما هي تلك السياسة المُنتهَجَة؟ استندت تلك السياسة إلى منطق النفوذ فضلاً عن الاستيلاء على الموارد النفطية، فحين رأت الدولتان أنَّ تركيا تودُّ التعبير عن نفسها كقوةٍ إقليمية نظرت إلى الأمر على أنَّهُ خطرٌ جسيم، لِمَ؟ بسبب وجود العنصرية في تركيا، كما أنَّ ثمَّة تقليدٌ تركيٌّ للدولة القديمة، عدد سكانها كبير ولها جغرافيا كبيرة تستقرُّ في منطقةٍ استراتيجية وتحيط بها بحارٌ عدَّة، كل هذا يؤدي إلى حقيقة أنه إذا أرادت تركيا أن تتطوَّر بشكلٍ مستقلّ -ويمكنها ذلك- ستتمكَّن حينها من موازنة النفوذ الفرنسي والبريطاني في الشرق الأوسط، أي بإمكانها أن تخرج ضدَّهما، لذا حين تمَّ اكتشاف حجم تلك المخاطر تدخَّل الفرنسيون والبريطانيون بشكلٍ غير مباشرٍ في تركيا، حيث قاما بوضع الكرد أحياناً في المقدَّمة، ماذا يقولون عن معاهدة سيفر التي تضمُّ الكرد؟ ثمَّة منطقة تخصُّ الكرد ولا سيَّما الموصل، لذا لا بدَّ أن يكون لها وضعها الخاصّ، يجب التعامل مع هذا الوضع الخاص وفقَ طريقةٍ خاصَّة، ويستمرَّ لمدة تصل إلى خمس سنوات، سيجري الاستفتاء في غضون خمس سنوات، إن أراد الناس أن يكونوا مع تركيا أو مع العراق فليكن لهم ذلك، وإن لم يرد الكرد ذلك فليكونوا مستقلِّين، هذه هي معاهدة سيفر المتمحورة حول الكرد، سوى أنَّ هذه المعاهدة على النقيض من المطالب العنصريَّة للأتراك الذين يريدون شعباً واحداً في هذه الجغرافيّة، فإن تمَّ تأسيس وضع كردي مستقل في المنطقة لن تنجح سياسة إبادتهم، فحتَّى لو كانت ثمَّة دولة كردية صغيرة فإنَّها ستظل دائمًا مَنبعَ خطرٍ على الدول، لا سيَّما تركيا وإيران كونَ الأخيرة أيضاً تعارض الكرد رغم أنَّها لم تَنفِهم بشدَّة مثل الأتراك ولكنَّها كانت ضدَّ الكرد دائماً، وهذا هو الحال منذ عهد الشاه عباس، فكردُ خراسان هم المنفيَّون، حيثُ نشأ الإسكان القسريّ في العهد العثماني ومن ثم لدى الأتراك والكماليين فعمدوا إلى نقل الكرد من مكانٍ إلى آخر وجعلهم يستقرّون فيه، ولطالما كانت هذه السياسة متَّبعة ضد الكرد في إيران، لذا كانت معاهدة

سيفر سبباً في ابتزاز الأتراك ليخضعوا لبريطانيا وفرنسا وتعزيز نفوذهما في تركيا بطريقةٍ ما، حقاً كان هناك شيءٌ من هذا القبيل، حيثُ تخلَّت بريطانيا وفرنسا عن السلطة السياسيَّة الرسميَّة في تركيا تدريجياً وسمحتا للأتراك بإبادة الكرد بغية القضاء عليهم ليسيرَ كلُّ شيءٍ منذ ذلك الحين ضدَّ الكرد، ولا سيّما خلال العام ١٩٢٣ مع معاهدة لوزان ومن ثمَّ نحو الأسوأ خلال العام ١٩٢٦ حين تمَّ الاتفاق بين أنقرة والبريطانيين وتقسيم كردستان رسميَّاً، ليبقى شرق كردستان خاضعاً للسيطرة الإيرانية، فيما سيطر البريطانيَّون على جنوب كردستان حيثُ الموارد النفطيَّة، ووفقًا لاتفاق أنقرة بين فرنسا والأتراك في عام ١٩٢٠ أصبح جزءٌ من غرب كردستان تحت السيطرة الفرنسية، فيما بقيّ جزءٌ كبير من أكثر من نصف كردستان جغرافيًا تحت السيطرة التركية واعترف النظام الدولي بالنظام التركي وأفعاله ضدَّ الكرد والتزموا الصمت إزائهم، لتستمرَّ المجازرُ بحقّ الكرد من عام ١٩٢٥ إلى الأعوام ١٩٣٨-١٩٤٠. أصبحت تركيا كنظامٍ تحت السيطرة الكاملة للغرب لا سيَّما بريطانيا وفرنسا، رغم أنَّ ألمانيا حاولت أيضاً التأثير على تركيا لفترة من الوقت سوى أنَّها لم تفلح في ذلك، فالتأثير العظيم كان لبريطانيا وفرنسا، ليستفيد مصطفى كمال أتاتورك من نجاحاته وفعلَ ما أراد أن يفعله في تركيا وغدا نموذجًا للتغريب في المنطقة، انتصر على بريطانيا وفرنسا و"الفتنة الداخليَّة" كما أسماها، لأن كل الانتفاضات ضدَّ الكماليَّة سواءُ في الأناضول أو كردستان كانت تُنعَت بالفتنة، لذا صنع أتاتورك تركيا وفقاً لاعتقاداته دون أن يخرج أحدٌ ضده، ما هي تركيا التي صنعها؟ تركيا المبنيَّة بالكامل على الثقافة والمنظورات الاجتماعية لأوروبا، كان ثمَّة تحديث وتمَّ اعتبار الحداثة أمرًا مفروغًا منه، فماذا كانت تلك الحداثة؟ الأحرفُ اللاتينية!! هذا هو الارتباط بالغرب، مثل الملابس والمظهر وقضايا انتخاب المرأة ومشاركتها بشكلٍ فعَّال في هذه العمليَّة، وتلك ليست مسألة ديمقراطيَّة وتحرَّر المرأة، الأمران غير مرتبطان ببعضهما البعض، بل إنَّهُ مجرَّدُ نسخ، ففي الكثير من الحالات صنعَ أشياءَ تشبه تلك التي في الغرب، وهذا الأمر يُفهَم على أنَّه ثورة مصطفى كمال أتاتورك، بعبارة أخرى، إنهم

يسيرون في طريق وثورة انقلاب مصطفى كمال أتاتورك، لكن ما كل هذا؟ إنَّها مشاريعُ غربيَّة، ولكن إن انتبهنا فإنَّ هذا المشروع على النقيض من الثقافة والمجتمع في تركيا، حيث أنَّ الشعب التركيّ لا توجد لديه حتَّى الآن هذه الأشياء التي تظهر على التلفزة، تركيا شيءٌ آخر مختلف تماماً، ثمَّة حياة ريفيَّة في تركيا، عادات وتقاليد وأخلاق، فهي ليست مجتمعاً غربيَّاً، لكن ما يظهر رسميَّاً هو ما يؤخَذُ أساساً ومقياساً، هذا التدبير الذي اتخذته تركيا هو تقليدٌ لتلك المقاييس سواءُ على صعيد اللباس أو اللغة، هذه هي، لذا فإن الأتراك الأصيلين أين هم الآن؟ في إستانبول، ولكن في الحقيقة كان من المفترض أن يكون معظم الأتراك غير الأصيلين في إستانبول، لأنهم الأشد تقليداً وانصهاراً اجتماعيًا وثقافيًا، لكن في يومنا هذا يتم ذكرهم كأمثلة، حيثُ أنَّ الجميع في منافسة ليروا كيف يمكنهم تقليد ذلك التركيّ من ناحية اللغة، الملابس، أسلوب الحياة وفي كل شيء، كان الأمر بلا عوائق، لماذا؟ لأنَّهُ كسب الشرعيَّة وكان شخصاً ناجحاً وفعل ما يريده دون أن يكون بمقدور أحدٍ الوقوفَ في وجهه ليغدو مقدَّساً، على سبيل المثال، لاحِظوا أن مصطفى كمال أتاتورك مقدَّسٌ في تركيا، لكن في الواقع هو ليس مُقدَّسًا، علاوةً على أن تركيَّتهُ أمرٌ فيه ريبة! الجميع يعلَم أنَه يهوديٌّ من سالونيك وليس تركيَّاً، وظَّف أدهم جركس ومن ثمَّ حاصره واتَّهمه بالخيانة ليسلِّم نفسه إلى اليونانيين وماتَ في المنفى، فعلَ الشيء نفسه مع آخرين وارتكبَ مجازرَ بحق الكرد، سوى إنَّه يُعتَبَرُ مقدَّساً، لِمَ؟ لأنَّهُ بنى الدولة التركيَّة وحصل على الشرعيَّة التي أثمرَت تلك القداسة حتَّى يومنا الرَّاهن.

منذ الأربعينيات فصاعدًا باتت تركيا تعتمدُ تدريجياً وبشكلٍ متزايد على الغرب كسياسةٍ خارجيَّة، إلَّا أنَّها تغيَّرت أيضاً كسياسةٍ داخليَّة، انفصلت تدريجياً عن الاتحاد السوفيتي واتَّحدت مع الغرب، أي مع البريطانيين والأمريكيين، ومنذ الحرب العالميَّة فصاعداً تم تصميم النظام السياسي التركي على أساس مطالب الغرب، ولا سيَّما مطالب الولايات المتحدة

الأميركيَّة، ولأجل حلف الناتو تمَّ القيام بالعديد من الأعمال في الداخل التركيّ.

٨- مقاربة الدولة التركيَّة للظواهر والأحداث:

لم تدخل تركيا الحرب العالمية الثانية خلال العام ١٩٣٩ بل تبنَّت سياسةَ مراقبة سارت تحت المراقبة البريطانيَّة والأميركيَّة، رغم أنَّه كان من المتوقَّع أن يحصل هذا الأمر مع ألمانيا كذلك سوى أنَّه لم يتحقَّق، حيث لم تكن تركيا نشيطةً على الإطلاق خلال الحرب العالمية الثانية ولكنَّها شاركت كجزءٍ من الجبهة ضد النازيين، وخرجت بفائدة ولم يتم احتلالها كما حصل مع إيران ولم تستقرّ فيها الجيوشُ الأجنبيَّة، بل تمّ استخدام أراضيها في بعض الأماكن. حدث تغييرٌ في تركيا خلال العام ١٩٤٧، حيث حكم إلى تلك الفترة حزبٌ واحد، وهو الحزب الجمهوري الذي يعتبر حزب مصطفى كمال أتاتورك، ليصبح عصمت إنونو زعيماً للحزب فيما بعد، كان حزباً واحداً، والحزب الواحد يعني أنَّ كل شيء تحت سيطرته، الجيش، البيروقراطيَة، وليس ثمة معارضة أو انتقاد، إنَّه شكلٌ من أشكال السلطة أحاديَّة الجانب، أي ما تطلبه الدولة هو ما يحصل، لذا فإنَّ هذا الحزب الواحد كان سبباً في أن المجازر التي تحصل تدخل إلى التاريخ بخطابٍ واحد، على سبيل المثال، ماذا عن الكرد؟ الرأي الرسمي موحَّد حول مقولة، وهو أنَّ العصابات توجَّهت نحو الجبال وتمرَّدت على الدولة، إنَّهم أشقياء لذا تمَّ القضاء عليهم، حتَّى أنَّ ثمة أحداث أخرى سوى أنَّها كانت صامتة، أو حين تقرر الدولة فيكون لها ما تقرّر، ولا يوجد من يقول إن كان ذلك صحيحاً أم لا، وكمثالٍ على ذلك، قَتلُ القرويّين في أوزالب عام ١٩٤٣، فما الذي حدث؟ أظهر القرويون بعض الانزعاج وذلك لأن بعض عصابات اللصوص في كردستان الشرقية على الجانب الإيراني تنهب وتسرق الأغنام بمساعدة الدرك التركي، أعلن الناس عدم رضاهم عن هذه التصرفات فاشتكوا عند مصطفي مغلالي الذي كان قائد

الجيش الثالث في تركيا، فاعتبرت الشكوى بمثابة تمرّدٍ، أي لا يجب على الكرد أن يشتكوا أو أن يعلنوا عن عدم ارتياحهم وألَّا يخرج منهم صوتٌ، أي وبعد عديد المذابح والاعتداءات والقتل ومهما يكن من أمر، لا ينبغي لهم الشكوى وأن يتقبَّلوا كلَّ شيء، فحين يشتكي الكرد فذلك يعني أنَّهم بشر ولا تزال الروحُ تدبُّ فيهم، فما الذي تم فعله لوقف هذه الشكاوى؟ تم إجبار ٣٨ شخصاً على إخلاء منازلهم ومن ثم اقتيادهم إلى مكانٍ وقتلوا ٣٣ شخصاً منهم واعتقال الخمسة البقيَّة، وقالوا عن المجزرة: "هؤلاء أرادوا عبور الحدود، فأمَرهم الدرك بالتوقف لكن رفضوا الأوامر لتندلع معركةٌ بين الطرفين، الأمر الذي أدَى إلى مقتل ٣٣ شخصاً في حين نجا شخصٌ واحدٌ بعد أن جُرِح واعتقلنا الخمسة البقيَّة"، قُضيَ الأمر بهذه الطريقة، ولا أحد يعلم كيف مرَّت هذه الحادثة، لكن خلال العام ١٩٤٧ وأثناء الدعايات الانتخابية ذكرها البعض، وتمَّ التعامل معها بطريقةٍ مختلفة، هكذا كانت تُدارُ الأمور من قبل حزب الشعب الجمهوريّ، وهذا ما كان عليه الوضع الكردي، على سبيل المثال، تمَّ ذكر حالة الكرد بطريقة مثيرة للاهتمام في قصيدة دوَّنها جكرخوين

تعرَّب المرأة في تلك القصيدة عن ألمها بعد أن نُفيت وهربت، يسألها جكرخوين: هل أنتِ كرديَّة؟ فتعضُّ أصابعها طالبةً ألَّا يرفعَ صوته، فقد تكونُ للكرمَةِ أذناً تصغي، تلك القصيدة تسردُ وضع الكرد الذين آثروا الصمتَ تماماً وليس في قدرتهم التعبير عن أنفسهم أو التحدَّث باسمهم متقبّلينَ الوضع، فحين ينتقدُ الكرد أو يعلنون عن استيائهم يكون الردُّ هو القتل والمجازر، لذا فإنَّ انتقاد الدولة أو إظهار ردّة الفعل إزائها تمَّ محوه في كردستان ولن يراه المرءُ البتَّة، وهذا هو سبب نمو البرجوازية في تركيا، تلك البرجوازية التي تنطوي في جوهرها على استنادٍ اقتصادي اجتماعيّ، وللقيام بذلك بمساعدة الدول الأجنبية، كان يجب على برجوازية تركيا اللا عسكرية واللا بيروقراطية الغير مسيطرة على آلية الدولة أن تعبِّر عن نفسها في الساحة السياسية، لذا ولد الحزب الديمقراطي خلال العام ١٩٤٧ ودخل

الانتخابات سوى أنَّه لم يفز بالسلطة، لكنها كانت المرة الأولى التي يظهر فيها صوتٌ مختلف من خارج حزب الشعب الجمهوري، وبعد العام ١٩٥٠ وعلى إثر انتخابات أخرى فاز الحزب الديمقراطي بزعامة عدنان مندريس بالأكثريَّة في البرلمان، ليتسبَّب الأمر في خلق اضطراباتٍ كثيرة ضمن تركيا، حيثُ قال الحزب الجمهوري فليحصد الحزب الديمقراطي أصواتاً حتَّى الغد وليفُز بالبرلمان، إنها دولتنا، إنه جيشنا، ولا ينبغي لأحدٍ غيرنا أن يستلم الحكم ولو ليومين سوى أنَّ الانقلاب كان السبب وراء وصوله إلى السلطة، وبالتوازن مع الحزب الحاكم أصبح النظام السياسيّ في تركيا تحت السيطرة الكاملة للولايات المتحدة الأميركيَّة، بسبب موقع تركيا الاستراتيجي بالنسبة إلى الحرب الباردة، حيثُ ولأسبابٍ عدَّة نظرت أميركا بعين الاهتمام إلى تركيا الواقعة على الحدود السوفيتية، لذا كان عليها أن تستعملها في سياق الحرب الباردة ضدَّ السوفييت. خلال العام ١٩٥٢ غدت تركيا عضوًا في حلف الناتو (المنظَّمة العَسكريَّة للنظم الرأسماليَّة في العالم)، كانت تركيا فقط عضواً في الناتو من بين تلك الدول الغربية، إسرائيل ليست عضواً في الناتو، تم تضمين تركيا فقط لأهميَّتها، جميع تلك الدول الغربية الأخرى تأخذ مكانها في الناتو، فقط تركيا المسلمة وليست الغربيَّة تأخذُ مكانها داخل نظام حلف الناتو. شرعن الحزب الديمقراطيُّ نفسه واستولى الرأسماليُّونَ الأتراك على السلطة، ورويداً رويداً بشكلٍ تدريجيّ سُنَّت القوانين وفقًا لمصالح الرأسمالية، وتمَ إشاعة الرأسماليَّة الداخليَّة، الأمر الذي أثَّر على الفقراء بشكلٍ خاص وأحدث فروقاتٍ كبيرة فيما بين الأغنياء والفقراء، بات حُكم الأقليَّة الرأسماليَّة في المقدَّمة، وظهرت الرأسماليَّة الزراعيَّة، الأمر الذي تسبَّب في خلق انزعاجٍ لدى المجتمع، سوى أنَّ ثمَّة أعمال أخرى نفِّذت، فصحيحٌ أن تركيا أصبحت عضوًا في الناتو ولكن هذا لم يكن كافيًا، حيثُ ولدت منظمة غلاديو السريَّة في تركيا وكانت على ارتباطٍ وثيق بحلف الناتو، ومن ثمَّ تم تغيير اسم الغلاديو التركيَّة لتغدو دائرة الحرب الخاصَّة وكانت رايتها تُرفع حتَّى العام ١٩٧٤ من قبل الولايات المتّحدة الأميركيَّة، وكان عمل تلك الدائرة يتمحور حول تصفية الحركات اليساريَّة، كيف قاموا بعملهم؟ أوَّلاً قاموا بتشكيل

نقاباتٍ بين العمَّال، النقابات الأميركيَّة، تور كيش، صنعوا العمال القوميين حتَّى لا تتأثَّر تركيا بالاشتراكية، أي كانوا يبيدون الاشتراكية ويقومون بتصفية الاشتراكيين والشيوعيين ويقفون في مواجهة انتشار الشيوعيَّة داخل تركيا وحرّضوا عليهم الجبهة الخضراء ولا سيما أمثال فتح الله غولن، حيثُ كان الأخير يعمل آنذاك في الغلاديو بأرضروم وأسَّس حركاتٍ مناهضة، وهكذا عزَّزت أمريكا نفسها ضمن النظام الداخلي في تركيا، ولا سيَّما داخل مؤسسات الدولة، لكن الإنجازات السياسية التي كان الحزب الديمقراطي يروج لها في تركيا وصلت بهم إلى حَدّ التكبُّر والغرور، وكأنَّهم استولوا على كلِّ شيء، الأمر الذي عمَّق الفجوةَ أكثر بين الفقراء والأغنياء وظهرت مشاكلُ مختلفة، تعمَّقت الفجوات بين الفقراء والأغنياء. نشأت مشاكل مختلفة، حيث تمَّ طرد أصحاب الدولة مثل حزب الشعب الجمهوري بشكلٍ تامّ، وقد أدى ذلك إلى ردِّ فعلٍ عنيف من جانب الفقراء والجيش وحزب الشعب الجمهوري، فضلاً عن الجماعات القوميَّة، ليحدثَ انقلابٌ عسكري للضباط في تركيا خلال العام ١٩٦٠، حيث تمَّ في ذلك الانقلاب إعادة تنظيم العلاقات الداخليَّة لتركيا والإطاحة بذلك التوازن الذي عدَّله الرأسماليون بالكامل وغدا سبباً في الهيمنة الرأسماليَّة، وهذه المرَّة عبر قوانين وأنظمة الـ ٢٧ مايو عام ١٩٦١، فما هي تلك القوانين والأنظمة؟ بعضها تم وضعه من قبل المجتمع الأدنى، العمال، الطبقة الوسطى، القوانين، على سبيل المثال تم منح الحق في تنظيم الأحزاب، حتَّى تلك الاشتراكية وضمان السماح بالانضمام إليها، الحق في التنظيم يأتي أولاً، النقابة ليست نقابة عمَّال تركيَّة، هذه المرة تم تشكيل نقابات عمالية مناهضة لنقابات العمَّال التركيَّة، على هذا المنوال وكما يقول الكثير من الناس؛ كان الانقلاب يساريَّاً، سوى أنَّه في الحقيقة لم يكن كذلك، بل تمَّ عبره وعبر القوانين والأنظمة الجديدة إعادة تأسيس العلاقات التي نُظِّمت في السابق من قبل الرأسمالية، وكجزءٍ من هذا التعديل الجديد تمكَّنت الطبقات الأخرى في تركيا من التعبير عن نفسها وتشكيل منظماتها الخاصَّة وحماية بعض حقوقها، كما ومهَّدت تلك القوانين الموضوعة الطريقَ أمام الحركات اليساريَّة والمضطَّهَدة، ولكنَّ الانقلاب العسكري في تركيا خلال

العام ١٩٧١ أضرَّ بتلك التطوّرات اليسارية، سوى أنَّ انقلاب الثاني عشر من سبتمبر قضى على تلك التطوَّرات بشكلٍ كامل، حيث أصبحت تركيا حينذاك دولةً كاملة وجزءاً من النظام الرأسمالي والإمبريالي العالمي ودولةً عضوة في حلف الناتو تحكمها الغلاديو، لذا بالنسبة لتركيا اليوم ومهما أظهرت خطاباتٍ معادية للإمبريالية فهي تكذب، حيثُ يقول حزب الحركة القومية إننا مناهضون للإمبريالية سوى أنَّ الحزب منتوجٌ أميركيٌّ محض، وهذا ما يقوله حزب الشعب الجمهوري وهو نتاجٌ أمريكي أيضاً، حزب العدالة والتنمية مشروعٌ أمريكيّ، لا رفاهيَّة لتركيا في البقاء خارج هذا النظام، فالغرب يصمَّم تركيا منذ مائة وخمسين عامًا حتى الآن، وتدخَّلت أميركا بشكلٍ أكثر عمقاً واتساعاً في الشؤون الداخلية لتركيا منذ خمسينيَّات القرن الماضي، على سبيل المثال، فلننظر إلى القنصل الأمريكي في أضنة، أو السفير الأمريكي في تركيا، هو القائم بأعمال حاكم المنطقة، يعقد اجتماعاتٍ ويسافر بين المدن ويدلي بتصريحاتٍ حول السياسة الداخلية، هذه الروابط العضوية بين النظام السياسي في تركيا وأميركا واضحة، يتّضِح ذلك الارتباط في أنَّ تركيا عملت دائمًا لصالح أميركا، لذا فإن من يعيشون في تركيا، كرداً أو أتراكاً أو من الشعوب الأخرى تعرَّضوا لقمْعَين منذ العام ١٩٥٠؟! أحدهما: هذا النظام مرتبط بالرأسمالية حيث ينفِّذُ دائماً القرارات العسكرية والسياسية والاقتصادية وأوامر النظام الرأسمالي، وهذا ما يتسبَّب في الضرر للناس، على سبيل المثال في يومنا الرَّاهن يتم تعديل سعر الأشياء بدءاً من رواتب الموظفين وصولاً إلى العمل في الصحافة وفقاً لصندوق النقد الدولي بحيث يمكن لتركيا أن تأخذ أجرةً منه، والثاني بعبارةٍ أخرى: ثمَّة اضطهادٌ مُمارَس من قبل الرأسماليَّة العالميَّة على الشعب التركيّ.

٩- تقديس الدولة القوميَّة في تركيا بلا حدود:

ثمَّة اضطِّهادٌ آخرَ في تركيا وهو الدولة القوميَّة، ما هي الدولة القوميَّة في تركيا؟ تقوم الدولة القومية في تركيا على أساس تقديس الدولة وحدودها ورموز وصُور الدولة، لذا فإنَّ المجتمع كله، شباباً ونساء وعمالاً ومزارعين تُحدَّد قيمتهم وفقاً لخدمتهم للدولة، فإن كانت المرأة التركية ذات قيمة، فسيتم تحديد قيمتها من خلال مقدار خدمتها للدولة، إن كان الشاب التركي له قيمة فتُحدَّد بمقدار خدمته للدولة، لا مجُتمعَ في تركيا، المجتمع غير موجود البتَّة، حيثُ يعيش ويعمل وينظِّم نفسه في إطار تحقيق مطالب وأهداف الدولة، لذا نلاحظ أنه ما من صراعٍ بين المجتمع والدولة، المجتمع دولة، هذه الحالة تدار على أساس الانصهار الميكانيكي الفعليّ، لأنَّ الدولة القوميَّة تعني الشعب الواحد، العَلَم الواحد، اللغة الواحدة، إلخ.. أي أن طبيعة تركيا تنفي ذلك، ثمَّة لاز وورومان ومسيحيون وعلويون وسنة وكرد وعرب وشركس، كلهم موجودون لكن على الجميع أن يكذب يوميًا ويقولَ نقيضُه تماماً، أي حين لا يكون تركيَّاً ينبغي عليه أن يقول أنا تركيّ، حينَ لا يحبَّ تركيا لا بدَّ وأن يعلن أنَّه يحبّها، حين يكونَ ضد الدولة سيقول إنني مع الدولة، فالمجتمع يُبنى بشكلٍ يوميّ على أساس الأكاذيب، وإن لم تتحقَّق هذه الأكاذيب فإنَّ الدولة تُجبرها على أن تتحقَّق بالظلم والشدَّة.

للدولة القوميَّة في تركيا خطورة أكثر من أيّ مكانٍ آخر في العالم لأنَّها مبنيَّة بالكامل على أساس الإدماج، فالأيديولوجية الرسميَّة واضحة. ماذا يوجد في الأيديولوجية الرسمية؟ في الأرض المسمَّاة تركيا والتي تظهر على خارطة العالم أنَّها تركيا، ثمَّة شعبٌ واحد وحسب وهو الشعبُ التركي، وقد قدّسوا هذا الأمر بأشكالٍ مختلفة/ على سبيل المثال ثمَّة مقولة: "كم هو محظوظٌ وسعيد من يقول إنني تركي" ثمَّة قداسة وعنصريَّة ها هنا. ماذا تفعل العنصرية؟ تُقدّس قوميَّة وترفعُ من شأنها، جاهدةً في أن تبني على مدار الساعة عقدة إنكار الذات لدى القوميَّات الأُخرى، لأنها تُهين، وتعمل على

تقزيم بقيَّة القوميَّات الأخرى، الكرد قليلون، العرب قليلون، المسيحيون والعلويَّون هكذا، أي تعمل على خلقِ ضبابيَّةٍ أيديولوجيّة بين الخارجين عنها، فالعنصريَّة تقوم على أساس الانتقاد والتحقير وعزل القيم الاجتماعية للشعوب والطوائف والأديان بغية خلق عقدة النقص والانحطاط بين هذه الشعوب والأديان، لكي يقولوا هم أيضاً: لا، نحن لسنا كردًا، لسنا شركسًا، ولسنا لازًا، لسنا رومانًا، نحنُ أتراكٌ ومحظوظون! هذه كلها مطالب سلطويَّة، وليس ثمَّة اعتقاد اجتماعيٌّ هنا، بل قوانين، إنها الأيديولوجية الرسمية، إنها الدولة، البيروقراطية، ومبنيَّة على هذا لأنها تخدم مصالحها، وتعمل جاهدةً على أن تحكم الناس بها، ولهذا السبب لا تطبِّق تركيا هذه السياسة في الداخل التركيّ وحسب، ولا سيَّما ضد الكرد، لِمَ نقولُ الآن ضدَّ الكرد؟ لأننا نتحدث عن تركيا، حالياً العلاقة بين الأتراك والكرد ليست علاقة طبيعية، بل العلاقة هي الانصهار، مرة أخرى يجب أن نتوقف عند هذه النقطة لأنَّها مهمَّة جدّاً. ينبغي للكرد جميعهم أن يكونوا يقظين في هذه النقطة: "ما هي تركيا؟" لِم هي ضدَّ الكرد؟ الآن تركيا فقط ضدّ الكرد. لِمَ؟ لأن تأسيس القومية التركيَّة قائم على إنكار وإبادة الكرد، ولأجل ذلك فإن حساسية ويقظة السلطة التركيَّة تقوم على إنكار الكرد، إن شعر الكرد بأنفسهم يوماً ما، فذلك يعني أن نظريَّة الأمة في تركيا خاطئة وأنَّ كُلَّ الأشياء المقدَّسة الخاصَّة بها أمورٌ فارغة، لذا تُنكر تركيا جاهدةً يقظة الكرد، ليس فقط في تركيا و شمال كردستان، حيث يجري بالفعل الانصهار والضرب والقتل، بل في العراق كذلك الأمر، في إيران، في سوريا وأوروبا وحتَّى روسيا، ففي آسيا الوسطى على سبيل المثال، حيث يعيش الكرد، تنتقد تركيا بأكملها روسيا لمجرد سماحها بالحرية الثقافية للكرد وتعارض الأمر، لِمَ تفعلُ ذلك؟، لأنَه إن كان ثمَّة أيُّ شيءٍ ينادي بتقدَّم الكرديَّة في أي بقعةٍ من بقاع العالم، في أمريكا، كندا، سيبيريا إذا كان باسم الكردية في أي مكان في العالم فإنَّه أمرٌ يضرُّ بسياستها المتّبعة في الإنكار حيث أنَّ تركيا هي التي تقود سياسة الإنكار، إنَّها ليست حرَّة بل مبنيَّة على تلك السياسة، الإيديولوجيَّة الرسميَّة مبنيَّة على تلك السياسة العنصريَّة الدينيَّة ضدَّ الكرد والطوائف الأخرى، لذا

فإنَّ كل كردي في تركيا يعتبر سيّئاً، ولكن الكرد العلويُّون أسوأ، لِمَ ذلك؟ لأنه كردي وعلوي في الوقت عينه، أي أنَّه عدوٌّ للإيديولوجية الرسمية بسَمَتين، لنفهم هذا، لا بدَّ من محاكمة هذه الأيديولوجية، وإلا فإن نضالنا ضدَّ تركيا والنظام سيذهب أدراجَ الرياح، إن لم يتم تحليل إيديولوجية الدولة القوميَّة التركيَّة لن يتمكن الكرد من التعبير عن مشاعرهم ضدَّ النظام التركي، فلينظر المرءُ، تركيا هي فقط حزب العدالة والتنمية، حزب الحركة القومية، وحزب الشعب الجمهوري، إلخ.... ومن هنا فإن حزب النظام مبنيٌّ على الأيديولوجية الرسميَّة التي تعتبر عدوَّةً للوجود المادي الكرديّ، ولا تقبل بالكرد حتى فيزيائيَّاً وجسديَّاً وهذا الأمر يُمارَس بشكلٍ طبيعيّ، على سبيل المثال، القضيَّة الكردية لن تُحلّ طالما هناك حزبٌ منهجيّ وتابع للنظام.

نحن نتحدَّث عن التطوّرات في يومنا الرَّاهن لكن محيطنا مليءٌ بالأحزاب المحتلَّة والرسميَّة، ثمَّة مكتبٌ لحزب العدالة والتنمية في كَفَر، وآخر في شمزينان وثمَّة مكتبٌ لحزب الشعب الجمهوري في هكَّاري، ويُنظَر إلى ذلك على أنَّهُ أمرٌ طبيعيّ للغاية، لذا إن لم يتم كسر هذه العقلية في الشمال فإن قضايا الحرية والخلاص وما إلى ذلك ستكونُ حكاياتٍ غير ذي معنى، لأن المحتلّين شرعنوا أنفسهم بشكلٍ منظَّم، وإلَّا فكيف سيتحرَّرُ المرء ؟! يجب تدمير كل تلك الأشياء وأن يتم اعتبار قبول السياسة الرسميَّة بوصفه جريمةً في كردستان، ولكن الوضع الآن على النقيض حيثُ يمكن للمرء أن ينضم إلى BDP كمجرم، لكن الشرعي هو حزب العدالة والتنمية، لأنهم يقولون إننا نمثِّلُ بلدنا، لكن في الواقع ليس ثمَّة بلد، البلد ليس له.

١٠- يجب التخلُّص من نظام الإنكار:

إن لم تحدث هذه الحرب لن تُهزَم فكرة الدولة القومية، ما هي الأمَّة الديمقراطيَّة؟ حماية الهويَّة، كيف يتمُّ ذلك؟ يحدث مع انهيار نظام الإنكار وتصفيته، حيثُ أنَّ نظام الإنكار هو دولة تركيا نفسها، لذلك يجب إعادة النظر في هذه الدولة لأنَّها غير قانونيَّة وتحكُم على أساس الأكاذيب منذ ثمانين سنة ولا بدَّ من تجاوزها، فتركيا الآن تمثِّل شيئين، الأوَّل: الأمَّة الواحدة، تمثِّل العنصريَّة والشوفينيَّة التي من أجلها بنيت كل المؤسَّسات، أي على أساس الانصهار، صهرت كل المختلفين فيما بينها لتتقدَّم فكرة الأمَّة الواحدة، دونَ أن يتغيَّر هذا الأمر حتَّى يومنا الرَّاهن، كما أسلفنا، قضايا هذه السياسة ليست مع الكرد وإنَما ضدَّهم، يقولون لِمَ لا نفتتحُ المزيد من المدارس ولا نرسل المزيد من المسؤولين إلى كردستان لتغيير أسلوب الحياة هناك، لماذا لا نعمل على إدماج المجتمع، أي المجتمع الكردي أكثر؟ الانصهار الذي يصفه الأتراك بعبارة: الاندماج، لكنه في الأساس عبارة عن اندماج في الاعتقاد التركي وحسب، لكن ليس ثمَّة وجودٌ لشيءٍ سوى الانصهار، فالاندماج عبارة عن قصة فارغة، الاندماج هو الوجه الآخر للانصهار. ثانيًا: تركيا تمثِّل الإمبريالية في المنطقة وهذا أمرٌ مهمّ، حيثُ كانت يومًا ما عضوًا في الناتو وحاربت السوفييت على خطوط الجبهة الأماميَّة خلال الحرب الباردة، أنشئَت دائرةً خضراء حول الاتحاد السوفيتي لمنع الشيوعية من الإنتشار في تركيا، قضت على كل القوى الشيوعيَّة واليسار التركيّ عبر القتل والتعذيب والحظر والمنع وبالتالي لعبت دوراً ما لصالح الرأسمالية، هذا لم يكن كافياً، فمع إنقلاب ١٢ سبتمبر الفاشي استمرَّت في ممارساتها على مدىً طويل.

١١- دور تركيا في لبرلة الشرق الأوسط:

غيَّرت الرأسمالية الآن أنشطتها وأصبحت قائمةً على الليبرالية وتودّ أن تعمِّمها ضمن المناطق التابعة لها، فماذا تعني الليبرالية؟ تعني تحرير الحركات، أن تنتشر الأفكار الرأسماليَّة وأموالها في كل مكان وبدون أيَّة عوائق، لذا فإنَّ النظام السياسي في مناطق مختلفة يعمل على أساس الرغبة في إزالة العوائق والصعوبات التي تعترض حركة الرأسماليين وتفكيرهم وأموالهم، وتركيا تأخذ زمام المبادرة على هذا الأساس، حزب العدالة والتنمية هو في الأساس مشروع تركي قائم على تحرير الشرق الأوسط، حيث يقومون بجعل الحزب يفعل ذلك، أرادوا الفوز مع أوزال لكنهم فشلوا، والآن يريدون إدارة هذا المشروع مع حزب العدالة والتنمية.

ما الذي تفعلهُ تركيا الآن؟ تقوم بتجديد الإسلام تحت اسم الإسلام السياسي أو الإسلام المعتدل، المركزي، يسمَّونها المركز الصحيح، التطوُّر المناسب، ثمَّة إسلامٌ متطرِّف، إسلامٌ معتدل، يوجد إسلام مركزي عادل في العراق، شمال إفريقيا، وفي أماكن مختلفة، هذا الأمر موجود.

فما هو هذا الاسلام؟ إسلامٌ مُطعَّمٌ بقيم الغرب، إسلام السوق الحرَّة، إسلامُ إزالة العقبات أمام الملكيَّة والليبراليَّة، ويريدون نشره كنموذجٍ ضمن الشرق الأوسط، فهل يمكن أن يحدث ذلك؟ لأنَّها محاولات فإنَّ الأمر لن يحدث، لِمَ؟ لأن الأيديولوجية الرسمية في تركيا لا تزال قائمة، وحتَّى الآن فإن سعي الدولة التركية لتحقيق الاستقرار هو على هذا النحو: تبني الاستقرار على مبدأ الإقصاء، ماذا تقول بهذا الصَّدد؟ متى سيتمّ محو المطالب الكرديَّة في تركيا؟ حينما لا يكون هناك مطالبون أو أشخاص يتابعون القضية، لذا فإنّ تصفية حزب العمال الكردستانيّ هو على رأس خُطط حزب العدالة والتنمية، لأنه إن لم يكن ثمَّة حزب العمال الكردستاني في تركيا فلن يذكرَ أحدٌ الكرد وفي المحصِّلة لن توجد ثمَّة قضيَّة كرديَّة، ولأن كرد النظام هم أتراكٌ أكثر من الأتراك أنفسهم، فإنَّ المثير للدهشة أن ثمَّة بروباغندا تُمارَس في بعض

الأحيان ويتمّ بثّ حوارات عبر التلفزة التركيَّة، تشاهد رجلاً تركيًّا ليبراليًّاً ولديه درجة من الإيمان والاعتقاد بالحريَّة والديمقراطيَّة، يقول: "الكرد لهم الحقُّ في التنظيم، يمكن للمرء أيضًا مناقشة الحكم الذاتيّ"، لكن أمثال دنجير فرات وغيره يقولون: لا، هذا غير ممكن، الكرد نفسهم يقولون لا، هؤلاء الناس أعضاء في البرلمان في باتمان، ديار بكر، أورفا، سمسور، عنتاب، يقولون: لا، الكرد يعملون على تقسيم بلادنا، لذا فإن وُجِد حزب العمال الكردستاني فسيكون اولئك خونة، وإن لم يوجد فسيظهرون على إنَّهم نماذجُ مثاليَّة ويتم عرضهم على أنَّهم أفضل النَّاس في تركيا. لذا فإن العمل الأهمّ بالنسبة لحزب العدالة والتنمية هو القضاء على حزب العمال الكردستاني، أي إن تم القضاء على حزب العمال الكردستاني والمؤسسات الديمقراطية التابعة له في كردستان فسيتحقق استقرار تركيا وبهذه الطريقة سيتمكن حزب العدالة والتنمية أو تركيا من لعب الدور في تحرير ولبرلة الشرق الأوسط دون عوائق، لكنها الآن لم يعد بمقدورها القيام بهذا الدور لأنها لا تستطيع تقديم المشورة لأي شخص، حيث ثمَّة قوة معارضة داخل تركيا ولا سيَّما قوة مقاتلة مثل الكرد، وقد يكون هذا بمثابة حاجزٍ أمام مطالب تركيا، وبشكلٍ عام لم يتغير دور تركيا فقد اعتادت أن تكون ضد الاتحاد السوفيتي، والآن تلعب دورًا استراتيجيًا في النظام الإمبريالي، فهي مسلمة وفي الشرق الأوسط وعلى الخط الأوراسي، فضلاً عن لعبها لدور المحطَّة النهائيّة بالنسبة إلى أميركا التي تقوّي عبر تركيا علاقاتها واتصالاتها مع القوقاز وآسيا الوسطى، ولا سيَّما مع بعض الشعوب التي تعود أصولها وعرقها إلى الأتراك، أو أن ثمَّة جمهوريَّاتٍ تركيَّة هناك أو ثمَّة الدينُ الإسلاميّ، حيثُ تبني أرضيَّةً مستقرَّة لتتدفُّق الطاقة بسهولة نحو الغرب، وبالتالي خروج روسيا والصين عن دورهما، وفي الوقت نفسه فإن تركيا قوَّة للتدخُّل واحتلال الشرق الأوسط، التدخُّل من الجانب الثقافي والسياسي على وجه الخصوص، وفي المحصِّلة إعادة تصميم شرق أوسط جديد على أساس خطط الإمبرياليَّة وتطلُّعاتها ومصالحها، لذا سيستمرّ الدعم الإمبرياليّ لتركيا وستستمر تلك الصراعات المزعومة بين تركيا وإسرائيل، بين إسرائيل وأميركا، وهي

صراعات لا أساس حقيقيّ أو جَدَّيٍّ لها، لأنَّ الواقع على النقيض من ذلك تماماً، حيث ارتفع حجم التبادل التجاريّ بين تركيا وإسرائيل بشكلٍ حادّ منذ أن تحدَّث أردوغان ضدَّ شمعون بيريز خلال مؤتمر دافوس الاقتصادي، واستمرَّ التواصل في تبادل المعلومات الاستخباراتية على مستوى أعلى، ومن ثمَّ بعد فترة منحت إسرائيل طائراتَ هيرون إلى تركيا، إن هذا العمل يتمّ بشكلٍ عام حتَّى تتمكَّن تركيا من العمل بحريَّة أكبر بين الرأي العام العربيّ، حيث يتمُّ تصوير تركيا على إنَّها صديقة للعرب، سوى أنَّها تشارك الناتو في ضرب ليبيا، تظهر تركيا على إنَّها صديقة المسلمين ولكنَّها تسمح بنشر دروع صاروخيَّة على أراضيها ضدَّ إيران، لِمَ؟ يتمّ قبول الدعاية أو البروباغاندا الترويجيَّة لها، إسرائيل تقبل وأمريكا كذلك الأمر، فإن لم تقم تركيا بصنع تلك البروباغاندا فلن يتم تصديقها البتَّة، فإن لم تقم بالترويج ضدَّ إسرائيل أو لم تقِم علاقاتٍ صارمة مع إيران والعرب فلن يكون بمقدورها العمل والتحرُّك ضمن إطار المصالح الأميركيَّة داخل الرأي العام العربيّ، أو ضمن النظام السياسيّ العام لدى العرب والمسلمين، لذا يقولون بطريقةٍ ذكيَّة للأتراك: "حسنًا، بمقدوركم القيام بهذه الأشياء في سبيل إنجاح الخطة، وهو ضمن إطار أهميّة الحاجة إلى الدور" لكن لا أساس لكل ذلك، الشيء الأساسي هو أن تركيا جزءٌ من النظام الغربي وتعمل في المنطقة لأجل المصالح الغربيَّة، بعبارة أخرى، يذكر القائدُ أيضاً بعض الأشياء، يجب ألا نسيء الفهم هنا، القائد يناقش القيم الكومونياليَّة ضمن القبائل التركيَّة، هذه هي الحقيقة، حيث أنَّ هناك قيم كومونياليَّة داخل جميع الأنظمة القَبَليَّة والعشائريَّة، ثمَّة استياءٌ من الدولة. على المرء أن يقبل هذا الأمر على أنه حقيقة، فكما توجد قيم كومونياليَّة في القبائل والعشائر الكردية، هناك أيضًا ذاتها لدى الأتراك، وهي قيم وقفت ضدَّ الدول المركزية، وهذا صحيح، حيث قاوم اولئك الموجودون في أوروبا ضدَّ الدولة المركزيَّة، دخلت القبائل التركية في حالة حرب، لكن لا ينبغي لذلك أن يصرف انتباهنا عن هذا الفكر، لا يمكننا الادعاء الآن أنَّ المغول أتوا في ذلك الوقت إلى الشرق الأوسط وجلبوا الكومونياليَّة معهم، لا، لا يوجدُ شيءٌ من هذا القبيل وهو رأيٌ خاطئ

لِمَ؟ يقولُ القائد: "قاتلت القبائل ضدَّ السلطات المركزيَّة وكانت تلك الحرب مُبررَّةً وشرعيَّة، لكن لاحقًا قاموا بتقليد النظام وبنوا دولهم وهذا أمرٌ غير شرعيّ وليس قويماً، لذا حين نفهم حركة القبائل التركية، يجب أن ننظر إلى جانبين منها، جانبها الكومونياليّ الذي حارب احتجاجًا ضدَّ الدولة المركزية، ولكن منذ ذلك الحين طوروا السلطة المركزيَّة أو ما هو أسوأ من ذلك، فقد جاء القتل بالتوازي مع ذلك، يجب على المرء التعامل مع هذا في سياقه التاريخي هذا أوَّلاً، كما يقع بعض رفاقنا أحياناً في هذا الموقف، كما يقول القائد، فإن "القيم الكومونياليَّة" في ذلك الوقت، الوقت الذي يقال جلب فيه المغول الكومونياليَّة معهم حين أقبلوا نحو الشرق الأوسط، ولكن هذا غير صحيح فقد جلبوا معهم الخراب، القتل، الحكم في تركيا اليوم لا علاقة له بالكومونياليَّة وقيمها البتَّة بل إنَّها سلطة دولة بالكامل تُمارَس على أساس القمع والقهر. لكن ألا توجد قيم الكومونياليَّة في تركيا؟ بلى وكثيرة أيضاً، توجد في أجزاء من القرى التي بقيت خارج السلطة ويحمون تلك القيم بطريقةٍ غريبة، حتَّى إنهم يحمونها أكثر مما يفعلهُ الكرد، اولئك الذين ظلوا خارج نطاق السيطرة، لذا ينبغي على المرء ألَّا يُخطئ فيما يخصُّ هذه النقطة. النقطة الثانية هي الكماليَّة، مصطفى كمال هو الشخص الذي تجاوز معايير الإمبراطورية وفقاً لمقاييسه ومستنداً إلى مقاييس العصر ومؤسِّساً على هذا المنوال نظاماً سياسيَّاً، هذه نقاط إيجابية يمكن للمرء التعامل معها بطريقةٍ إيجابيَّة. ثمَّة بعض العمل الذي يتعين القيام به في بداية هذا البحث، على سبيل المثال، إذا كان الكرد قوةً شديدة قادرة على مقاومة الإبادة بنجاح لما كان للدولة التركيَّة أن تتأسَّسَ على هذا الشكل، ولكانت هناك كردستان مستقلَّةَ أو دولة تشبه فيدراليَّة بين الكرد والأتراك، لكن لم يحدث هذا، ووقعت المجازر، تمَّ إنكار الكرد، وهذا ما حدث حين كان مصطفى كمال على قيد الحياة وحصلت المجازر، حتى في ديرسم، فإن مجازر كوتو ديريسي وديربندا إيلي (بوكازا إيلي) مثيرة للاهتمام للغاية، فحين وقعت تلك المذبحة كانت على أساس ألَّا يعيشَ أحدٌ هناك ويبقى حيَّاً، وألَّا يبقى أثرٌ لشيء، حتَّى أنَّ أحدهم كان قد التقط صورةً آنذاك وقال: هذه الصورة بقيت،

فمزَّقوا تلك الصورة أيضاً، لذا، ثمَّة ذِكرٌ للكرد، حتى مصطفى كمال في وقتٍ ما حين يذهب إلى قبر الجندي المجهول يخاطب القبر: "أنت مجهول، لكنني ما زلت أعتقد أنَّك كرديّ". وكأنَّه يودُّ أن يقولَ بطريقةٍ ما أن الكرد خدموا أكثر من الأتراك لإعادة بناء هذا البلد، لقد مرَّت مسائل كثيرة في خطابات مصطفى كمال، لذا فالكماليَّة أمرٌ مختلف، فما هي الكماليَّة؟ إنكار الكرد، المذابح، الدولة القوميَّة، لذا فإنَّ الدولة التركية في يومنا الرَّاهن تقوم بإضفاء الشرعية على أعمالها في كردستان عبر الكماليَّة، لا أدري كم عدد تماثيل مصطفى كمال التي نشروها من شمزينان إلى حيثُ لا أعلم في كردستان؟ لا ينبغي أن نُخطأ هنا أيضاً، حيثُ أن بعض رفاقنا أحياناً يقيِّمون تقييماتٍ خاطئة، لتؤدّي تلك التقييمات الخاطئة إلى تقوية اولئك الذين يعارضوننا، وعلى المرء أن ينجو منها، على المرء أن يقيِّم بطريقةٍ علميَّة، هذه الشخصية تجاوزت الإمبراطوريَّة عبر مفاهيمه وأنشأ الجمهوريَّة، جلب الوضعية، أدخل أساليب العلم، ولكنَّه استعمل المجازر في حلِّ مشاكل الشعوب دون أن يستطيع العيش بأمان، بمقدور المرء التعبير عنه بهذه الجوانب كذلك الأمر، لهذا يقول القائد أحيانًا: "القانون الحادي والعشرون، فلنخلق تلك الروح"، ما الذي يوجد في تلك الروح؟ ثمَّة قبولٌ لوجود الكرد، لا ينبغي أن يكون هذا إشارة إلى كيفية إظهار البعض منَّا أنفسهم كماليين، أو أن ندافع عن الكمالية. لا بدَّ أن نكون حذرين آنَ تقييم النظام التركي وأن نفهم دائمًا الأيديولوجيَّة الرسميَّة، مهما انتقدنا النظام السياسي التركي أو قلنا أنَّ ١٢ سبتمبر جلب معه المجازر والسجن، هذه كلها قصص لا معنى لها، ديميريل فعل ذلك أيضاً، حيثُ علَّق في آمد رؤوس أكثر من عشرةٍ من رفاقنا وجعل أدمغتهم ترتطمُ بالجدران حدث هذا في عام ١٩٩٦، أي بعد ستة عشر عامًا من ١٢ سبتمبر، لكن الشيء نفسه حدث، لذا نحتاج إلى أن نأخذ الأيديولوجية الرسمية كأساس أكثر من المسائل السياسيَّة، فحربنا كلها هي ضدَّ الأيديولوجية الرسمية، لأن الدولة القوميَّة ناكرة وتعمل على الإمحاء وفقاً للإيديولوجيا الرسميَّة، يجب أن نجعل هذا عادةً للشعب، يجب أن يكبر الأطفال الكرد من سن السابعة إلى

السبعين على هذا الأمر: الحرب ضد الإيديولوجيا الرسميَّة، وبهذه الطريقة يتوهُ الإنكار ويغدو مفرَّغاً من فحواه.

١٢ـ تطوُّر الحركة الناصريَّة بإدارة جمال عبد الناصر:

كانت الحركة الناصريَّة التي ارتبطت باسم جمال عبد الناصر حركةً وطنية، بمقدور المرءِ القولُ أنَّ ثمَّة بعض المثقفين من بين الضبَّاط العرب أطلقوا على أنفسهم في ذلك الوقت اسم الحركة القومية العربية، كانَ جمال عبد الناصر أحد هؤلاء الضبَّاط، حيثُ اتّخذوا القوميَّة العربيَّة منطلقاً، كانوا معادين للإمبريالية لأن القومية العربية آنذاك كانت ضد الاحتلال، ضدَّ التجزئة وكتحصيلٍ حاصل وبشكلٍ تلقائي وبطبيعة الحال كانوا ضد الإمبريالية، أو ضدَّ بريطانيا وفرنسا، ومن ثمَّ أميركا، كما وكانت ضد المَلَكيَّة المبنيَّة على أساس الإقطاعيَّة، لذا حملت الحركة بذور الحداثة والدولة القومية وتحرير العلاقات الاجتماعية على وجه الخصوص، وتحرير المرأة والشباب، وتوزيع الأراضي، وبذلك أعلنت عن نفسها على اعتبارها حركةً حداثويَّة وتطوّرت على هذا النحو. سُمَّيت باسم الاشتراكية ولم يكن لها علاقة بالاشتراكية، سوى أنَّهم أطلقوا على أنفسهم لقب الاشتراكيين، كان من أهدافهم توحيد العرب وتحرير فلسطين، أي توحيد الدول العربية وإقامة دولة عربيَّة كبرى، وكان تحرير فلسطين من اليهود في مقدِّمة أولوياتهم، لذا حازت على الدعم من الجميع، حيثُ دعمتهم جميع القوى الوطنية العربية، وأراد جمال عبد الناصر أن يجعل شعاراته تغدو حقيقةً بعد فترة وبالتالي اتَّخذ خطوةً تاريخية، ما هي تلك الخطوة التاريخيَّة؟ الاستيلاء على قناة السويس وتأميمها، ثمَّة في مصر قناة تدعى قناة السويس، ما هي تلك القناة؟ تقع في مصر بينَ البحر الأحمر والبحر الأبيض، ففي السابق، حينَ أراد الناس الذهاب إلى الهند أو الصين أو إيران من إنجلترا أو إسبانيا أو أوروبا، كان عليهم الإبحار حول أنحاء إفريقيا كلها والعبور بجانب رأس الرجاء

الصالح، ومن ثمَّ التوجَّه إلى الأماكن التي وردت أسمائها في الأعلى، الطريقُ كان طويلاً جدَّاً، لأنَّ الطريق كانت مغلقةً بين البحر الأحمر والبحر الأبيض، تطورت آراء فتح القنوات لكنها كانت موضع شك، حيثُ قالوا: إن فتحنا القناة لعبور البحر الأبيض فمن الممكن له أن يفيض وبالتالي سيبقى الجميعُ في قاع البحر، كانوا خائفين من فعل ذلك، ولكن في وقتٍ لاحق أثبتت القوانين الفيزيائيَّة أنَّ الماء ليس بمقدوره أن يكون كذلك، حيثُ ثمَّة قانونٌ للمياه يدعى: "مبدأ الأواني المُستطرَقَة" وهو مبدأ من مبادئ الفيزياء، فلنقُل أن هناك برميل، دلو، كوب، أو أشياء كثيرة على ها النَّحو، فإن أو صلنا تلك الأكواب ببعضها البعض من الأسفل عبر خرطوم وحين يستقر الماء فإنه يتوازن في كل الأكواب عند نفس المستوى أو المنسوب بغض النظر عن شكل وحجم الفنجان، وإذا أضيف المزيد من المياه لإحدى الأكواب، فإن المياه سوف تصل مرة أخرى إلى مستوى جديد متساوٍ في كلالأكواب الموصولة، لذا وعلى هذا الأساس يجب أن يكون الماء في العالم بنفس المستوى، وهذا معتمد على مبدأ فيزيائيّ، وخلال العام ١٨٤٥ قال ملكٌ مصريّ يدعى إسماعيل خديوي: إن كان الأمر كذلك، فإنَّنا سنفتتح تلك القناة، في إشارةٍ إلى قناة السويس، ولن تفيض المياه، ومن ثمّ بدأوا بالعمل وتم الإستعانة بالعمَّال، ماتَ الآلاف أو قُتِلوا، أجبَروا الآلاف أيضاً على العمل ليتمّ فتح تلك القناة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض، وبذلك لن تضطرّ السفنُ إلى الدوران بل تأتي مباشرةً إلى البحر الأبيض، وتعبر البحر الأبيض إلى البحر الأحمر ومن ثمَّ إلى الشاطئ، وبالتالي بات طريقاً مثيراً للإهتمام للغاية فيما يخصُّ التجارة في العالم، وحين يتمَّ إغلاق هذا الطريق فإنَّ الحركة تتباطأ، جميعُ السفن تعبرُ من هذا الطريق وحين تمرُّ فإنَّ لها دخلٌ ما، أو تدفعُ أموالاً لقاء العبور.

أُفْلِسَ المصريُّون بعد فترة وتراكمت الديون عليهم على إثر مصاريف ونفقات الملوك المتزايدة وإساءة التصرُّف من الناحية الماديَّة، خلال العام ١٨٨٠، في ذلك الوقت، أي في نهاية القرن التاسع عشر، ذهب المصريُّونَ إلى

إنجلترا -حيثُ كان ثمَّة رئيس وزراء آنذاك يُدعى دزرائيلي وكان ذا أصولٍ يهوديَّة- ذهب والي مصر إليهِ قائلاً: نحن في حاجةٍ ماسَّة إلى المال، لذا نودُّ بيع قناة السويس، إن اشتريتم ودفعتم لنا فسنبيعها، وإن لم تفعلوا ذلك فسنعرض القناة في المزاد العلنيّ ومن يرسي عليه المزاد كانت القناة له، رأى البريطانيون أنه إن تمكَّنت فرنسا أو غيرها من الشراء فسيكون ذلك مشكلةً جديَّة بالنسبة لها، قال الإنكليز للمصريين لا تخبروا أحداً، ولأنَّ البرلمان الإنكليزي كان في عطلةٍ آنذاك، والقرار منها يعتبر ضروريّاً، لم يفعل دزرائيلي كل تلك الأشياء، حيثُ أن بريطانيا لم تكن تملك النقود آنذاك وبلغت الأموال التي طُلِبَت لقاء قناة السويس أربعمائة مليون جنيه إسترليني، حيثُ أن المصريّون أرادوا الحصول على الكثير من المال لقاء بيع القناة، فذهب دزرائيلي سرًا إلى يهوديٍّ ثريٍّ يملكُ بنكاً في بريطانيا يدعى روشتر طالباً منه إقراض المال بغية شراء القناة، وفي الواقع قام الثريّ اليهودي ببيع أسهمه الماليَّة في كل مكان وجمعَ الأموال لإقناع الحكومة البريطانية بشراء القناة، فاشتراه البريطانيَّون وباتت القناة لهم واستخدمتها شركةٌ بريطانيَّة وباتت هي من تأخذ الضرائب دون أن تكون لمصر أيَّة حِصَّة ماليَّة تُذكَر. إلى متى استمرَّ هذا الوضع؟ استمرَّ حتى العام ١٩٥٦. قال عبد الناصر: "نريد أن نحرِّر الوطن العربيّ بأكمله، فهؤلاء أخذوا شركاتنا داخل مصر، لا يجبُ أن نقبل بذلك" ومن ثمَّ فجأةً هاجموا الشركة وأخرجوا الجنود الإنجليزيين من هناك وعادت القناة إلى المصريين مرَّةً أخرى، هذا الأمر تسبَّب في استياء البريطانيين والفرنسيين والإسرائيليين، لِمَ؟ دعونا نلاحظ أن هذه الفترة كانت فترة هزيمةِ الإنجليز والفرنسيين أي أنَّ المُستعمرة الكلاسيكيَّة بدأت في الانهيار، حيثُ وخلال هذه السنوات غادرت تلك الدول مصر، لتغادر سوريا أيضاً خلال العام ١٩٤٦ وتغادر العراق كذلك الأمر، كما واندلعت حربٌ ضدَّهما تدريجياً في دول شمال إفريقيا، أي أُفلِسَت المُستعمرة الكلاسيكيَّة بشكلها العسكريّ، سوى أنَّ الإنجليز قالوا، لا، سنواصلُ الأمر، وبهذه الخطوة أرادوا أن يدفع جمال عبد الناصر الثمن ويعودوا لاحتلال تلك الأراضي، لكن مرَّ الوقت ولم يتدخّل العالم، حتَّى أنَّ

أميركا كانت ضدَّ الأمر، حتَّى أنَّها نبَّهت قائلةً: لقد ولَّى زمن المستعمرات الكلاسيكيَّة القديمة ولا يجب عليكم بالتأكيد أن تهاجموا، لا تقوموا بهذه الأفعال لأنَّكم لن تنجحوا، سوى أنَّ بريطانيا وفرنسا اتّحدتا بعونٍ من إسرائيل في غزو مصر خلال العام ١٩٥٦، وكان ذلك أيضاً ضدَّ قرار عبد الناصر بإغلاق قناة السويس. انتصرت مصر في تلك الحرب، ولكن كيف كان شكل ذلك الانتصار؟ كان ثمَّة أسبابٌ لها، هاجمَ البريطانيون والفرنسيون والإسرائيليّونَ معاً، سوى أنَّ مصرَ قاومت وانتصرت، وأحد أسباب الانتصار هو أنَّ الشعب المصري كان سليماً وقويماً ويملكُ الأمل لأنَّه يحمي الدولة والنظام وكأنَّه يحمي نفسه، لم تكن ثمة صراعاتٌ بين المجتمع والسلطات، الأخيرة التي لم تكن نَشِطةً بعدُ ضدَّ الشيوعيين والإسلامويّين، لذا كان المجتمع يؤيدها، لتلعب تلك الحماسة دورها في ذلك الانتصار، هذا هو السبب الأول، فيما السبب الثاني يكمن في مساعدة السوفييت لمصرَ، لِمَ فعل الاتحاد السوفييتي هذا؟ سنحت له الفرصة الأولى، حيثُ رأى نفسه فجأةَ في أكثر مكانٍ استراتيجي في العالم وأنَه باتَ صديقاً لسلطةٍ تعملُ ضدَّ أميركا وإسرائيل وتتحدَّث عن الاشتراكية كذلك الأمر، لذا ساعد السوفييتُ مصرَ بشدَّة من الجانب العسكريّ والدبلوماسيّ، فيما السبب الثالث هو أن أمريكا نفسها لم تكن لتساندَ هذه الحرب وسبق لها وأن حذَّرت، حيثُ لم يكن ثمَّة تجانسٌ فكريّ داخل النظام الرأسمالي العالمي، وحين بدأت العمليَّة العسكريَّة تَضعُف ضد مصر طلب أعضاء مجلس الأمن بالكامل اجتماعاً واتفقوا على إيقاف العمليَّة العسكريَّة فوراً، ليُهزَمَ البريطانيون والفرنسيّون والإسرائيليّون، وهذا ما زاد من قيمة جمال عبد الناصر بشكلٍ لافت بين العرب، وحصل معه ما يحصلُ مع نبيٍّ وهكذا كان ينظرُ إليه العرب في سوريا والعراق وشمال إفريقيا ودول الخليج، رأوهُ منقذًا وباتوا مقتنعينَ به وبما يفعله، الأمرَ الذي منحَ أملًا كبيرًا للعرب، لكنَّ القوميَّة قوميَّة وهي ليست اجتماعية، لذا ومع مرور الوقت أراد جمال عبد الناصر على حساب هذه الإنجازات أن يفرض رأيه دون أن تكون ثمَّة اعتراضات ضدَّه، لم يكن هناك استياء من الناس، لقد احتضنهم، وعبر مساعدته هذه مع النَّاس ودَّ

خطوةً إثر أخرى تصفية معارضيه وخصومه وتوسيع نفوذه، وكانت إحدى هذه المحاولات الاتحاد مع سوريا خلال العام ١٩٥٧ حيث طلب منه بعض المسؤولين السوريين أن يتِّحدوا مع مصر، وهو الذي كان يبحث عن ذلك، لذا تمَّ بناء الوحدة السورية/المصريَّة، اختفى اسم مصر وسوريا وأطلق على الاتحاد: الجمهوريَّة العربيَّة المتِّحدة، سوى أنَّ تلك الوحدة لم يكن لها أن تغدو قاعدةً للوحدة العربيَّة، أرادت مصر الاتحاد مع سوريا ومن ثمّ بعد ذلك مع الأردن ولبنان والعراق بيد أنَّ ذلك لم يحدث، ما هي أسباب عدم تحقُّق الوحدة؟ النظامُ الاستبدادي الذي وضع كل شيء في خدمة السِّلطة، لأنَّهم قالوا: نحن نحارب ضدَّ الإمبرياليَّة والخطر يحيقُ بنا، لذا لا بدَّ أن نبذل طاقاتنا كلها ضدَّ الإمبرياليَّة، والوقتُ ليس ملائماً للانقسامات والخلافات، لذا تمّ ذكرُ شيءٍ مختلف، وهو القتل والتصفية، الأمر الذي أدَّى إلى بعضٍ من التباعد في النظام السياسيّ العربيّ، وعلى جانبٍ آخر كانت ثمَّة خلافاتٌ ضمن ذلك الاتحاد، وفي الحقيقة فإنَّ الوحدة التي تمَّ ذكرها لم تكن وحدةً حقيقيَّة، بل كانت استعماراً، فعلى سبيل المثال باتت سوريا بمثابة مستعمرةٍ بالنسبة إلى مصر، لِمَ ذلك؟ مصدر الفكر الناصريّ كانت مصر وحسب، لأنَّه حين تحقَّقت الوحدة بين سوريا ومصر كان يَقبل الضبَّاط والمعلِّمون منها إلى سوريا وُيديرونها، حيثُ كانت مرتبة معلِّمٍ مصريّ أعلى من قائمقام سوري!! لذا وتدريجيَّاً لم يعد يقبل السوريّون هذا النَّهج في التعامل، فعارضت بعض الحركات السياسيَّة في سوريا تلك الوحدة، كما أنَّ السعوديَّة كانت تدفع للسوريين في سبيل فكِّ هذا الارتباط والوَحدة، ودعتهم تركيا حتَّى يتدهور الاتحاد، حيث أنَّ الأخيرة كانت مستاءةً للغاية من ذلك الاتحاد، على سبيل المثال ثمَّة مقولة تعود إلى عدنان مندريس -وهو رئيس وزراء تركيا آنذاك-: "ثمَّة شيءٌ يحصل، البارحة حين خَلدتُ إلى النَّوم كان عدد سكَّان الدولة الجارة يبلغ ثمانية ملايين، وعندما استيقظتُ في الصباح كان قد وصلَ إلى ثمانية وثلاثين مليون نسمة!" ذلك في إشارةٍ إلى الاتحاد بين مصر وسوريا، حيث كان يبلغ عدد سكَّان مصر آنذاك ثلاثين مليون نسمة، فيما سوريا يبلغ عد سكانها ثمانية ملايين نسمة، حتَّى أنَّه توفَّرت سيناريوهاتٌ من قبيل شنِّ

هجومٍ عسكريّ تركيّ على سوريا بهدف تقويض الوحدة، لكن لم يحصل ذلك، لذا بدأت تركيا ودول الخليج بالمساهمة في دعم الحركات الانفصالية بسوريا، بالإضافة إلى أنَّ أفعال الناصريّين في سوريا مهَّدت الطريق للمزيد، لذا انفصلت سوريا خلال العام ١٩٦١، وباتت دولةً مستقلَّة، لتستغرق الوحدة بين سوريا ومصر أربع سنوات. لكن مصر كانت لا تزال قوَّةً، وعبد الناصر قوَّة يصغي إليها النَّاس، تجربة الوحدة مع سوريا لم تنجح لكنها ما زالت مستمرة. خلال تلك الفترة في مصر وتحت تأثير المفاوضات مع الاتحاد السوفيتي تطوَّرت الحركة اليسارية إلى حدٍّ ما، فيما تطوَّرت الحركة الدينيَّة بمساعدة أميركا، لذا اعتبر عبد الناصر هاتين الحركتين خطرتين، فبدأ بالملاحقات، حيثُ لاحق الحركات الإسلامية واعتقل الكثير من أعضائها، كما وقتل أكبر منظريّ تلك الحركات في السجن وهو سيد قطب. -"سوف نركِّزُ على هذه الحركات بمزيدٍ من التفصيل في القسم الخاصّ بالإسلام"-، وبالتوازي مع ذلك تم القضاء على الحركة الشيوعية دون أن يعلِّق السوفييت على الأمر، لِمَ؟ لأن مصر كانت صديقةً للسوفييت، لذا غضَّت الأخيرة النظر عمَّا تمَ فعله مع الشيوعيين، حيث اتَّبعت مصر سياسةً خاليةً من المبادئ في جانب تصفية الشيوعيين، كانت كل الآمال متعلِّقة بكيفيَّة إنقاذ فلسطين، وكان الجميع ينتظر هذا الأمل في أن ينقذ جمال عبد الناصر فلسطين، لذا وصل عبد الناصر إلى نقطةٍ يتعيَّن عليه فيها أن يتّخذ إجراءاتٍ ضدَّ إسرائيل وإلَّا سوف تنهار الثقةُ به، ونتيجةً لذلك أُعلِنَت الحرب التي بدأت في يونيو العام ١٩٦٧، كان القول السَّائد أنَّ ثمة جبهاتٍ للحرب وأنَّ العرب وحدة متكاملة، مثلاً الأردن قالت سوف نقاتل، حيث توجَّه الملك حسين إلى عبد الناصر رغم العِداء بينهما، لكنَّه قال له: "إن حاربتم سوف أكون إلى جانبكم"، فقال له جمال عبد الناصر: "إن انضممتم إلينا فسوف أرسل إليكم ضابطاً ليقود الجيش الأردني" فوافق الملك الأردنيّ آنذاك، الملك حسين، الأخير الذي كان يخشى إن حارب عبد الناصر بمفرده وانتصر فإنّ كل شيءٍ سيغدو تحت سيطرته وبالتالي لن يكون بمقدور أحدٍ أن يرفع صوته في وجهه، وإن هُزِم لوحده فسيقول: انظروا لقد قاتلنا، الأردن لم تساعدنا في ذلك وخانتنا، ولن

يكون هذا الأمرُ جيداً كذلك، لذا قال الملكُ الأردنيّ: "جيشنا جاهز وتحت إمرتك فلتفعل ما تشاء"، أمَّا سوريا فكانت جبهة حربٍ بالفعل، ومصر كذلك، بيد أنَّ لبنان لم تخُض الحرب قائلةً: "لن نخوض هذه الحرب التي لا علاقة لنا بها"، بدأت الحرب خلال العام ١٩٦٧، سوى أنَ الموازين لم تكن منضبطة، حيثُ كانت ثمَّة قوَّة إسرائيليَّة حاربت، حيث وخلال ستة أيَّام فقط اجتاحت جزءاً من الاردن على الجبهة الأردنيَّة، ليس ذلك وحسب، فغزة والضفة الغربية لم تكونا تحت السيطرة الإسرائيليّة فسيطرت عليهما، فضلاً عن السيطرة على أجزاء من سوريا مثل هضبة الجولان ومدينة أخرى سورية اسمها القنيطرة خرجت منها إسرائيل فيما بعد خلال العام ١٩٧٤، وفي مصر استولت على سيناء، وهي أرض مصريَّة مجاورة لإسرائيل ووصلت إلى قناة السويس، لتهزمَ بذلك ثلاثة جيوشٍ عربيَّة وتحتلَّ أراضٍ تابعة لثلاثة دولٍ عربيَّة كذلك الأمر، ما أدَّى إلى سقوط شرعيَّة عبد الناصر والبحث في مساعٍ أخرى، وبدأت حركات اليسار تدريجيَّاً تنشأ بين العرب، لِمَ حصل ذلك؟ ثمَّةَ مثالٌ على ذلك، يُقال آنذاك أنَّ وزيراً مصريَّاً قال للسفير الروسي: "لقد أعطيتمونا أسلحةً سيّئة وفاسدة لم نتمكَّن من استخدامها، لذا هُزِمنا" فردَّ عليه السفير الروسي: "لقد أعطينا الأسلحةَ ذاتها إلى الفيتناميين ولكنَّهم انتصروا!"، هذه عبارة، ولكنَّها عَمَّ تعبِّر؟ ثمَّة بحثٌ عن فتح طريقٍ، لذا نشأت مثل هذه الفكرة بين العرب، فالقضيَّة إذن لا تكمن في الأسلحة بل في الأفكار، أي قالوا لأنفسهم إن كنَّا يساريين آنذاك كنَّا سننتصر، لتفتح تلك الهزيمة الدربَ أمام الحركات اليساريَّة وتتقدَّم بين العرب ولا سيَّما بين الفلسطينيّين.

١٣- بناء الجبهة الشعبيَّة الفلسطينيَّة وتطوّرها:

تمّ تشكيل الجبهة الشعبيَّة خلال العام ١٩٦٨ بقيادة جورج حبش وهو ماركسيٌّ لينينيّ يلقَّب في فلسطين بالـ معلِّم، كان مدرّساً للماركسية ورجلاً

مبدئيَّاً وأصيلاً، وهو في الأصل مسيحيّ -ربمَّا قد مات أو شُلَّ، لأنَّه غائبٌ منذ فترةٍ عن المجال السياسيّ- سُميت بـ (جبهة الرَّفض) وكان جنودها يعلِّقون على بنادقهم راياتٍ حمراء دوَّنت عليها العبارة التالية: "نرفضُ كلَ المشاريع السلميَّة". استندت هذه الجبهة إلى الماركسيَّة اللينينيَّة، وتعزيز الأنشطة الفدائيَّة التي سبَّبت عوائق وصعوباتٍ لإسرائيل كاختطاف الطائرات والعديد من الأهداف الأخرى التي نفذتها الجبهة الحمراء. في ذلك الوقت كان لديهم مناضلٌ قويٌّ للغاية يدعى وديع حدَّاد الذي توفّي في العراق حتى أن البعض همسوا متسائلين: تُرى هل قتله جورج حبش ليزيحَهُ عن طريقه؟! لكن اتضَّح في الآونة الأخيرة أنَّه قتل مسموماً من جانب الموساد الإسرائيليّ الذي استخدَم السمَّ البطيء المَدسوس خلسةً في نظامه الغذائي ليموتَ بغتةً، لقد نفَّذ حداد العديد من الأنشطة المثيرة للانتباه ضدَّ إسرائيل.

الحركة اليساريَّة لم تكن وحسب بين الفلسطينيين، أي أنَّها ليست حزباً شيوعيَّاً كلاسيكيَّاً وإنَّما حركة يساريَّة جديدة مسلّحة وتمتلك وجهات نظر معيَّنة إزاء السلطة وتطوّرت على هذا النَّحو في دول الخليج وحصلت على دعم السلطة أيضاً، وكذلك الأمر في اليمن الجنوبيَّة. تشكَّلت الجبهة في فلسطين بين الفلسطينيين، وفي اليمن وصلت إلى السلطة، حيثُ أقامت دولةً في جنوب اليمن وكانت موجودةً وقائمة حتَّى العام ١٩٨٦-١٩٨٧، لتظهر مشاكل داخلية ومن ثم لتستسلم لشمال اليمن واتحدتا ضمن دولةٍ واحدة، لكن اليمن الجنوبيَّة كانت دولةً اشتراكية وتحت قيادة رجل يدعى عبد الفتاح إسماعيل الذي اغتيل فيما بعد. تطوَّرت الحركة اليسارية المسلحة على هذا النحو ولا سيَّما ضد إسرائيل وفقدت مصر تدريجياً دورها الهامّ بين العرب وخاصَّةً مع وفاة جمال عبد الناصر، حيثُ كانَ الأخير يُعتبَر رمزًا، ومن أتوا بعده لم يملئوا الفراغ الذي تسبَّب به موته، لم يمتلكوا الكاريزما ذاتها، ولم تنجح الدول العربية التي حاولت تقليده، ففي العراق مثلاً حاول صدام حسين تقليده بشعاراتٍ مناهضة للإمبريالية والصهيونية بيد أنَّه فشل، وفي شمال أفريقيا حاول القذافي معتبراً نفسه ابناً فخريًّا لعبد النَّاصر لكن لم يكن بمقدور أحد

لعب دوره البتَّة. بعد وفاة جمال عبد الناصر، قطعت مصرُ تدريجياً علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي وارتبطت بالإمبريالية وأمريكا وأوروبا، وبعد حرب العام ١٩٧٣ اتفقت مع إسرائيل وتصالحت، فما هي أسباب المصالحة؟ أعادت إسرائيل أرضَ مصر التي استولت عليها خلال الحرب وتركت سيناء، فأعلنت مصر عن حلِّ مشاكلها مع إسرائيل وعادت أرضها إليها، لذا تمّ وقف إطلاق النار مع إسرائيل وهو مستمرٌّ حتَّى يومنا الرَّاهن. فمنذ العام ١٩٧٧-١٩٧٨ وما بعدها أدَّت معاهدة كامب ديفيد إلى استمرار علاقة مصر المرِنة مع إسرائيل لتخرجَ في هذه الحالة من جبهة المقاومة وتمثيل القوميَّة العربيَّة ضدَّ الإمبرياليَّة والصهيونيَّة، رغم إنَّ مصرَ تمتلكُ القدرة على أن تصبح قوَّةً إقليميَّة، لديها إمكانيَّاتها في المجال العلميّ وعدد السكان الكبير، لكن لا يسمحون لها أن تكون مستقلَّة، لِمَ؟ لأنها بجانب إسرائيل، وإن ظهرت قوة مستقلة في مصر فسيضع ذلك إسرائيل في موقفٍ صعب، لذا فإنَّ القوى الإمبرياليَّة سواء الفرنسيون والبريطانيون في الماضي، ومن ثم بعدهما أميركا تحاول أن تُربطها بمصالحها بحيث تتصرَّف مصر دائمًا في إطار مصالحها، أي أنَّ يكون النظام السياسي المصري تحت السيطرة دائمًا بهذا الشكل، فجمال عبد الناصر تسبَّب لهم في خسائر وأضاع الكثير من الأشياء بالنسبة إليهم لذا لا يريدونَ وجود جمال عبد الناصر آخر، لذا حين ظهرت المشاكل في مصر تدخَّلت أميركا على الفور، لِمَ فعلت ذلك؟ لكي توجِّه استياء الشعب نحو مجرىً آخر، لذا طلبت من مبارك أن يستقيل، وانتشر الجيش ليراقب الوضع. فإن أصبحت مصر قوَّةً إقليمية -وهي تمتلك الإمكانيَّات لأجل ذلك-فإنَّه أمرٌ سيء بالنسبة إلى إيران، ولا سيَّما تركيا التي تشعر بقلقٍ بالغ في يومنا الرَّاهن إزاء الأوضاع في مصر، لماذا؟ بما أن مصر ليست في المشهد، يمكن لتركيا أن تؤمَّن لنفسها مكانةً داخل النظام العربي، وهذا هو الحال بالنسبةِ إلى إيران أيضاً، أي أن تتسلَّل الدولتان إلى داخل الدول العربيَّة عبر أنظمتها، كون النظام العربي الآن لا يملك فعاليَّة، الفاعل الرئيسي فيها مشلول، مصر مشلولة، لذا فإن تعافت مصر فهذا يعني سدَّ الطريق لتقدُّم الدولتين، لكن هل قوة التنظيم الشعبي تكفي لإعادة فعاليَّة مصر؟ هذا الأمر

غير واضح في الوقت الرَّاهن، فمن غير المعروف إن كان بمقدور مصر أن تعيد بناء ذاتها وقوّتها التنظيميَّة وقراراتها، لأنَّ النظام العالميّ يودُّ دائماً تعقيد الأمور، لأنَّه يريد أن يعلن حصول التغيير في مصر، سوى أنَّ النظام القديم لا زال مستمرَّاً، المعارضة مستيقظة حتَّى الآن وتعبِّر عن استيائها وتراقب، لكن هل ستكفي المعارضة وقوَّتها التنظيميَّة لإنشاء نظامٍ وفقاً لإرادتها؟ هل تستطيع تلك المعارضة أن تنشَط في المشهد السياسيّ داخل مصر؟ بالطبع ليس بمقدور المرء أن يحدِّد ذلك، لكن ثمَّة جهد جديٌّ في هذا المنحى وهو أمرٌ مثيرٌ للاهتمام وثمين وقيِّم، لا بدَّ على المرء أن يقيَّم الأمر على هذا النحو.

يمكن للمرء أن يقيَّم مصر بهذه الطريقة، لأنَّ ثمَّة تطورات تحصل في سوريا والعراق وهي هامَّة بالنسبة إلينا ككرد وكمنطقة، لذا من الضروريّ على المرء أن يقف عند تلك التطوّرات.

سادساً: الثورات في مِصرَ والجزائر والعِراق وليبيا وسُوريا:

بالنسبة إلى مصر لقد توقَّفنا عند وضعها وتأثيرها على الحركة القومية العربية، وما يراه المرء هنا هو أن القومية أو الدولة القومية في الشرق الأوسط لم تستند البتَّة إلى خصائص داخلية، أي ماهيَّة الأشياء الموجودة؛ الدين، الطائفة، المجموعات العرقية، أنماط الحياة المختلفة، لم تؤخذ هذه الأمور منطلقاً بل تمَّ النظر إليها وكأنَّها غير موجودة، وبدأت تأخذ بفرص الدولة في العنف والهجمات الفكريَّة والإصهار أساساً، ومصر في تكوينها بلدٌ لم يؤيِّد الشكل الواحد نظرًا لسمات الدولة التاريخية وثقافاتها المختلفة عن بعضها الآخر حيث يعيشون، فلا تزال هناك ديانات عدَّة في مصر، على سبيل المثال، المسيحية والإسلام وحتى بعض الديانات الأخرى كالبهائية، وكل هذا يؤدي إلى حقيقة مفادها أن الدولة بفكرها الرسميّ المبنيّ على أساس بناء نوع واحد من المواطنة بطريقةٍ ما لم تكن مشروعًا ناجحًا، وإنَّما جلبت الأزمات والصراعات المستمرة في المجتمع المصري حتى يومنا الرَّاهن. بمقدور المرء استخلاص عديد النتائج من حقيقة الثورة في الشرق الأوسط عبر نموذج مصر، ثمَّة ثورة في مصر والجزائر وليبيا والعراق وسوريا، خلال الأربعينيات وما بعدها، وفي الأعوام ١٩٥٠-١٩٥٦-١٩٥٨-١٩٦٠ حدثت ثوراتٌ في هذه البلدان في تواريخ مختلفة. بأي معنى هيَ ثورة؟ بمفاهيمها السياسيَّة ونظامها، حيثُ حصلت العديد من التغييرات، وهذا

صحيح، لكن حينَ ينظر المرء إلى هذه الأمثلة يفهم كيف أنَّ الثورة في الشرق الأوسط خلال يومنا الرَّاهن تجلب معها الخيانة أيضاً.

١ـ أسباب نجاح الثورات في الشرق الأوسط:

لِمَ تخونُ الثورةُ نفسها في الشرق الأوسط؟ لأنَّها ثورة لا تتمتَّع بخصائص الدمقرطة بل تتجاهلها ورويداً رويداً ترفضها وتحظرها، فما هي خصائص الديمقراطية في الثورة؟ السمات الديمقراطيَّة في الثورة هي: يجب أن يكون بمقدور القوى الاجتماعية التعبير عن نفسها وعدم إنكار نفسها في نهاية مبادئ الثورة لأغراض ومبادئ تلك الثورة، ألَّا تنكر القوى الاجتماعية ذواتها وتحافظ على هويَّاتها حيَّةً، لا ينبغي إنفاق الكائن البشريّ كقيمة ماديَّة فقط ليكون موجوداً بذاته وقادراً على التعبير عن تلك الذات للحصول على نتيجة وبالتالي يكون ذا لون مُعيَّن. ثورة الشرق الأوسط تنجح، لأنَّها تقوم على الاستبداد المطلق عوضاً عن الدمقرطة، وبهذا الشكل وأكثر من الديمقراطيَّة فهي استمرارٌ للنظام القديم لكن بطريقة مختلفة حتَّى إنه إلى حَدٍّ ما أسوأ من النظام القديم، ولكن لِمَ؟ لأن النظام القديم لا يمتلك شرعيَّةً والشعب ضِدَّه، سوى أنَّ هذا النظام وباسم التجديد يشرعن نفسه عبر كلِّ أشكال القهر والإنكار والتدمير، وهذا أكثر خطورةً من ناحية الإبادة بالنسبة للقوى الاجتماعية، من المهم للثورة في الشرق الأوسط، وهي لا تزال في طور الثورة، أن تتخذ إجراءاتٍ لإرساء الديمقراطية، فمهما كانت الثورة، حين تكون في طور الثورة، إن لم تتخّذ خطواتٍ في التحول الديمقراطي فإن تلك الثورة ستنعكس بعد وصولها إلى السلطة، ستخونُ مبادئها وتخونُ من أشعلها، ستخونُ القوى الاجتماعية التي كانت قاعدةً لها، وبالطبع فإنّ النظام السياسي الموضوع في الشرق الأوسط وتشكُّله على ارتباطٍ وثيق كليَّاً بمصالح الفرنسيين والبريطانيين، كان على هذا النَّحو في البداية، وهو الآن مرتبطٌ بمصالح أميركا، أي بمصالح الإمبرياليَّة، وهنا يكمن السبب في أنَّ

الإمبرياليّة ولكي تستمرّ في مصالحها على المدى الطويل وضعت خطَّةً معيَّنة، كيف بدأت بذلك؟ بدأت بمطالب الشعب، سوى أنَّها استمرَّت وفقاً لمصالحها، وهذه سمة من سمات السياسة البريطانيَّة، حيث دائماً تودُّ أن يبدأ الطرف الآخر من نقطةٍ معيَّنة ومن ثمَّ تقوم بتوجيه المسألة نحو الأشياء التي تريدها هيَ، لذا فإنَّ الدبلوماسيَّة والسياسة البريطانيَّة وعلاقاتها مع العالم تبدأ من النقطة التي يريدها النَّاس، فما هي النقطة التي أرادها العرب؟ الاستقلال، فقال البريطانيُّون: "حسناً، ونحن في الأساس نعمل لأجل استقلالكم"، لكن ماذا كانت النتيجة؟ النتيجة كانت مصالح البريطانيين، لذا فإنَّ الليبراليَّة، الكتاب الديمقراطيّ الخاصّ بالبريطانيين يمنح هذه الفرصة، الأمر دائماً يبدأ من الطرف الآخر ويقبل بكل شيء، سوى أنَّها تعمل على الدوام أن تسير العمليَة نحو مصالحها، لذا فإنَّ إعداد الخطَّة تستند إلى حقيقة أن العمليَّة ستنصبّ في مصلحتهم، هكذا أسَّسوا الدولة وعملوا جاهدين على انتخاب القوى الحاكمة من أفراد ليس لديهم علاقاتٍ مع المجتمع، كي لا يكونوا متيقّظين جدّاً إزاءَ المشاكل الاجتماعية وحلولها وألَّا يأخذوا مصالح الشعب والمجتمع بعين الإعتبار ويعملوا دائماً في إطار مطالب الرأسمالية، لذا ساعدت بريطانيا شاه حسين خلال فترةٍ ما في الحجاز، سوى أنَّها لم تستطع أن تغدو سلطةً ورأت نفسها مجبرةً على المغادرة، لكن ولأنَّ الشاه وعائلته ساعدوا البريطانيين، ماذا فعل لهم البريطانيُّون؟ كمكافأة، تم وضع بعض الدول تحت سيطرتهم، على سبيل المثال؛ حكم بعضهم في العراق ومنهم باتوا ملوكاً في الأردن، كما وكأنَّهم أنشئوا دولاً خصيصاً لهم، على سبيل المثال؛ ليس للأردن أهمية تاريخية أو وطنية، حتى أنَّها ولفترةٍ طويلة كانت مرفوضةً من بعض القوى الثوريَّة ولم يكن يُنظر إليها على إنَّها نظام، بل وكأنَّهم قبلوا بها على أساس أنَّ لكل قاعدةٍ شواذ، حتى أنَّ برنامج الجبهة الشعبيَّة لجورج حبش كان ينصّ على العمل في البداية بإحداث ثورة في الأردن ومن ثمَّ الإطاحة بالنظام وجعل الأردنّ قاعدةً لها لتشنَّ عبرها حرباً ضدَّ إسرائيل لأنهم لم يروا السلطة الأردنيَّة شرعيَّة بل قلعةً بريطانية لعائلة

الشاه حسين، حيثُ أعطوا الأردن لابنٍ له فيما أعطوا العراق لابنه الآخر، وبهذه الطريقة أسسوا لهم ممالكَ.

تكوَّنت سوريا بشكلها السياسيّ خلال العام ١٩٢٠ نتيجةً لاتِّفاقٍ بين فرنسا وتركيا، حيث وُلِد الاتفاق في أنقرة ووفقًا له تخلَّى الأتراك رسميًا عن سيادتهم على سوريا وأصبحت منطقةً كاملة تابعة للنفوذ الفرنسيّ ولم يتبقَّ شيءٌ للأتراك في سوريا، فقط حينَ عبر الأتراك الحدود إلى الأناضول مات أحد قادتهم في الطريق، عند نهر الفرات في كوباني ودفنوه هناك، يقولون في ذلك الاتفاق: هذا القبر لنا ولكن ما عدا ذلك فهو لكم، القبرُ في وقتنا الرَّاهن يقعُ ضمن الأراضي السورية ولكن تحت حراسةِ جنودٍ أتراك، أعتقد أن القائد يدعى سليمان وماتَ في طريق الذهاب إلى الأناضول برَّاً. أصبحت سوريا مستعمَرةً فرنسية وفشلت كل جهود الشعب السوري ضدَّها، حيثُ تطوَّرت مقاوماتٌ ضدَّ فرنسا خلال أوقاتٍ مختلفة، اندلعت حربٌ واسعة النِّطاق خلال الأعوام ١٩٢٠-١٩٢٥ أُطلق عليها اسمَ: الثورة السوريَّة الكبرى التي بدأت من جبل الدروز منتشرةً في جميع أنحاء سوريا، لذا ومنذ ذلك الحين تطوَّرت حركات المقاومة ضدَّ الفرنسيين في حلب، بمنطقة الجزيرة بين الكرد، وفي أماكن مختلفة من سوريا، لتنسحب فرنسا بعد الحرب العالميَّة الأولى بكامل جنودها مُغادِرةً سوريا خلال العام عام ١٩٤٦ تاركةً خلفها حكومةً عبارة عن دمية ولتبدأ عمليَّة سياسية جديدة في سوريا، سوى أنَّ الحركة السياسيَّة كانت ليبراليةً لحدٍّ كبير وتقلِّدُ أوروبا، أي تأخذ الأفكار القومية الأوروبية كأمرٍ بديهيٍّ ومسلَّمٍ به وأساسيّ، وكان جزءٌ من تلك الحركة دينيَّاً إلَّا أنَّه لم يكن قويَّاً بما فيه الكفاية، فيما جزءٌ آخر منها شيوعيَّاً يساريَّاً ويمتلكُ القوَّةَ إلى حَدٍّ ما وعمل على خلق التوازن، كانت المساعي والحركات كثيرة ولم يكن ثمَّة احتكارٌ للسياسة كما في يومنا الرَّاهن، الأمر الذي كان له تأثيره على التطوَّرات، لذا لم تخرج سلطة تتمكَّن من الحكم في سوريا لفترةٍ طويلة وتحقِّق الاستقرار وتحكُم وفقاً لنفسها، فالسلطة التي حكمت هكذا لفترةٍ مستمرَّة دون انقطاع ظهرت خلال الأعوام ١٩٥٧ إلى ١٩٦١ أي خلال فترة

الوحدة مع مصر إلَّا أنَّ تلك السلطة أيضاً كانت لها مشاكلها، فلطالما حرَّضت أوروبا ودول الخليج وتركيا وغيرهم الكثير ممن عارضوا تلك الوحدة القوى السياسية الوطنية والقوميَّة في سوريا لنيل استقلالها عن مصر وتكون دولةً مستقِلَّة وفي الحقيقة تمَّ ذلك خلال العام ١٩٦١. حين استقلَّت سوريا عن مصر عام ١٩٦١ كانت القوى القوميَّة بشكل عام قد وصلت إلى مستوىً معيَّن من النفوذ، وكان حزب البعث أحد تلك القوى القوميَّة المؤثرة.

٢- دورُ الدولةِ السوريَّة في تَطوير وتشكيل حِزب البعث:

تشكَّل حزب البعث خلال العام ١٩٤٧ في دمشق بقيادة عدد من الأفراد الذين انتشرت أسماؤهم فيما بعد، مثل ميشيل عفلق -وهو مسيحيٌّ- وصلاح البيطار حيثُ أسَّسا الحزب، أين وكيف تطوَّر هذا الحزب؟ تطور هذا الحزب بسبب رأيَين، أحدهما كان ثمَّة حركة قومية عربية في سوريا، والآخر وجود حركة عربية اشتراكية، الاشتراكيون الذين نتحدث عنهم ليسوا شيوعيين وليسوا كما نسميهم ماركسيين لينينيين، لكن كانوا ليبراليين بعض الشيء على أساس المساواة والعدالة الاجتماعية وطرحوا تلك الأمور، فضلاً عن وجود الحركة القوميَّة العربيَّة، حيثُ حصل تواصلٌ بين الحركتين واتّحدتا في دمشق العام ١٩٤٧ وشكَّلتا معًا حزباً سُمِّيَ: حزب البعث العربي الاشتراكي، فما هو البعث؟ حركة وطنيَّة عرقيَّة عربية، حيثَ تأثر القادة البعثيون بشكل خاص بالمشاعر القومية الغربية، ولا سيَّما الأيديولوجية النازية، فميشيل عفلق وصلاح البيطار درسا في ألمانيا وتأثَّرا بالأفكار النازيَّة، في غضون ذلك، تشكَّل هذا الحزب على أساس إعادة إحياء القوة العربية في المنطقة، لذا سمّي بالبعث، البعث هو القيامة، قيامة ماذا؟ أي صعود السلطة العربيَّة في المنطقة، وخاصة في العصر الأموي، لقد أُعجِبَ البعثّيون بالعصر الأمويِّ للغاية، لِمَ؟ يقولون أنَّ العصر الأموي هو العصر الذي أصبحت فيه الدولة العربية قويَّةً في كل مكان وحكمت باستقرار، أي أنَّهم أرادوا زمناً شبيهاً،

كان للبعثيّين فعاليَّة، لا سيَّما بعد فترة جمال عبد الناصر حيثُ لم يكن بمقدورهم الوصول إلى السلطة بشكلٍ فعال خلال حكمه، ولكن حين انهارت الوحدة بين مصر وسوريا، رأى البعثيون الفرصةَ في ملئ الفراغ الذي تركه عبد الناصر - وحقيقةً كان لهم التأثير على السلطة - لكن السلطة في سوريا باتت قوميَّة بالفعل بعد الانفصال، وتطوَّرت المشاريع القوميَّة، على سبيل المثال؛ طُوِّرَت بعض المؤامرات ضدَّ الكرد، فأحرقوا دار سينما في مدينة عامودا عام ١٩٦١، وقُتل فيها أطفالٌ كانوا كلَّهم كرداً في المدرسة الابتدائية، جمعوهم معاً في السينما وبالتالي احترقوا، ومرَّةً أخرى بعد عام، أي في ١٩٦٢، تم إجراء إحصاء سكاني، وتعمّد الإحصاء ترك العديد من الكرد خارج التعداد، واولئك الكرد الذين بقوا خارج الإحصاء خدموا بشكل قويّ في الجيش السوري خلال ١٩٥٧-١٩٥٨ ولكن بعد ذلك لم يتم احتسابهم كمواطنين، كانوا كرداً من منطقة الجزيرة، ومن ثمَّ تطوير مشروع موازٍ للحزب الجمهوري التركي (CHP)، انتهجه البعثيون أيضًا كسياسةٍ مماثلة تجاه الكرد، ماذا كانت تلك السياسة؟ قالوا: "الكرد يتسببون بمشاكل في العراق، لذا يمكنهم إحداث مشاكلَ في سوريا أيضًا، لذا لا بدَّ من إبعادهم ولا سيَّما من الناحية الجغرافيَّة بحيث ألَّا يتواصل الكرد مع بعضهم البعض"، لذلك قيل أنَّهُ كان هناك بعض الضباط المسؤولين عن المنطقة الكردية بغية تطوير تلك السياسة، أي سياسة طرد الكرد قسراً ونقلهم إلى جنوب سوريا، وبهذه الطريقة تمَّ القضاء على خطر الكرد، تم تنفيذ سياسة الانصهار من قبل حزب الشعب الجمهوري في تركيا والبعثيين في كردستان الغربية في سوريا، البعث والقوميَّة العربيَّة قبلها.

امتلكَ البعثُ تأثيراً في كل مكان، كان مؤثِّراً في الجيش، وفي العام ١٩٦٣ – للأسف-في ٨ مارس/آذار وصلَ البعثُ إلى السلطة، لهذا يسمي البعثيون يوم سلطتهم الثامن من آذار، وهو يومٌ غير محظوظ للنساء في جميع أنحاء العالم! حيث أنَّ يومهم العالمي ويوم حكم البعث هو ذاته، بهذه الطريقة في عام ١٩٦٣ استولى البعثيَّون على السلطة. كان حزب البعث حزباً وطنياً، لكنه لم

يكن في السلطة بل وصل إليها خلال العام ١٩٦٣، باتت الدولة لحزب البعث والجيش والسياسة التعليمية والاقتصادية، كل شيء في مؤسسات الدولة وقع بأيدي البعثيّين اقتصاديًا وتربويًا وعسكريًا، لذا قاموا بتعديل المجتمع وفقًا لأسلوبهم وأهدافهم، وتقدَّمت القومية العربيَّة بشكلٍ كبير، رُفِعَت شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية وتوحيد الدول العربيَّة مرَّةً أخرى على أساس مشروع الحرب ضدَّ إسرائيل، حيثُ قالوا: "لا بدَّ من حشد كل إمكانيات الدولة للوصول إلى مستوى يمكِّننا من خلاله صنع صوتٍ استراتيجي ضدَّ إسرائيل للدخول في هجومٍ والقضاء عليها"، وحتى يومنا هذا ينهبونَ أموال المجتمع تحت ذريعةٍ كاذبة وهي الحرب ضدَّ إسرائيل، لذا بدأوا بتصفية الأصوات المعارضة وكوَّنوا صداقاتٍ مع الاتحاد السوفييتي، وبالتالي تمكَّنوا من تفكيك وقمع الحركة الشيوعية ومن ثمَّ اعتقالهم، حيثُ كانت الحركة الشيوعيَّة في سوريا قويَّة ولها تاريخها، لكن وفي ظل حكم البعث وبفضل التنازلات التي قدَّمها السوفييت انهارت تلك الحركة، أما الحركات الأخرى الممكنة فكانت بديلة، فلول الناصريين أي المحسوبين على جمال عبد الناصر وهؤلاء كانوا ضعفاء وصغار، كما أنَّ الحركة الإسلامية بَدَت ضعيفة، لذا سادَ في سوريا المشروعُ الوطنيّ الذي كان فاشيًّاً في بعض أفعاله.

حتى السبعينيَّات وضع البعثيون أنفسهم كنظامٍ حزبيٍّ مَركزيٍّ أحاديِّ الجانب في سوريا، وتراجعت حتَّى تباطئَت تدريجيًّاً جهود الديمقراطيين الذين آمنوا بالاشتراكية داخل الحركة البعثية إلى أن تمَّ طردهم، لكن وفي العام ١٩٧٠ حدثَ انقلابٌ داخل حزب البعث، وهو انقلابٌ لم يحصل خارج نطاق الحزب بل من داخله، فمن قام بهذا الانقلاب؟ حافظ الأسد هو من نفَّذ الانقلاب ذاك، حيثُ كان آنذاك عضواً إداريًّاً في الحزب ووزيراً للدفاع في الوقت نفسه، كانَ الانقلاب سلميًّاً، لأنَّ الضباط العلويّين كانوا ذا تأثيرٍ كبير داخل الجيش، كونَ العلويين كمجموعةٍ دينيَّة في سوريا كانت أوضاعهم سيِّئة فيما سبق، لذا كانوا يرون طريق الخلاص في الجيش أو الاستخبارات، وتدريجيًّاً باتوا الطبقة العليا داخل الجيش السوريّ، حيثُ كان الضبَّاط الأمراء والكبار وقادة

الفرق الرئيسيَّة التابعة للجيش هم في الأغلبيَّة من العلويين وبطريقةٍ مخطَّطةٍ لها، كانوا يحثُّون شبَّانهم خلال سنواتٍ طويلة على التطوّع ضمن الجيش ومع مرور السنوات وصل اولئك الشبَّان إلى رُتَبٍ عالية، لذا وبضغطٍ ومساعدةٍ من اولئك الضبَّاط العلويين حدث انقلابٌ دون أي معارك، حيثُ ضغطوا خلال اجتماعٍ للحزب على المُجتمعين واستولوا على الأمانة العامَّة للحزب ورئاسة الجمهوريَّة والقيادة العامَة للجيش والقوات المسلَّحة، الأمر الذي أدَّى إلى مزيدٍ من المركزيَّة للسلطة داخل سوريا، وأُعلِنت حالة الطوارئ التي بدأت في الحقيقة في عهد البعث سوى أنَّ الحالة استمرَّت بشكلٍ أشدَّ وطأةً في عهد حافظ الأسد. كان الرئيس السابق للجمهورية يُدعى نور الدين أتاسي وسُجِن، فيما كان الأمين العام لحزب البعث صلاح جديد الذي كانَ علويَّاً في الأصل سوى إنَّهُ لم يتفق مع حافظ الأسد وسُجن كذلك الأمر، مات الرجلان في السجن بعد مدَّة اعتقالٍ وصلت إلى عشرين أو ثلاثين سنة، كانت تلك السياسة الوطنية هي الأكثر انتشارًا في سوريا.

استمرَّت مرحلة حافظ الأسد لفترة طويلة، حتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، هذه حالات استثنائية، فما الذي فعله حافظ الأسد خلال تلك الفترة؟ خاضَ حرباً واحدة فقط مع إسرائيل خلال العام ١٩٧٣ بمساعدة مصر التي قاتلت على الجبهة السورية وهاجموا إسرائيل، لكن لم يتغيَّر شيءٌ في تلك الحرب، لم تقع المواقع الاستراتيجية في الأراضي السورية تحت السيطرة الإسرائيلية، لكن في اتفاق المصالحة مع إسرائيل انسحبت الأخيرة من مدينة تسمى القنيطرة، دمَّرت إسرائيل كل شيء ومن ثمَّ غادرت، لم يطرأ أيُّ تغيير جدّي منذ ذلك الحين، ولكن بفضل تلك الحرب فإنَّ النظام باقٍ حتَّى الآن، إنه بطل حربٍ وانتصر!، وهذه هي المرة الأولى التي تكون فيها المبادرة في أيدي العرب وما إلى ذلك من هذا الكلام، فحتى يومنا الرَّاهن يريد هذا النظام أن يكتسب شرعيَّته من تلك الحرب.

لكن رغم ذلك كان النظام ذو موقفٍ إزاء إسرائيل، فمصر تصالحت مع إسرائيل، ولكن هذا النظام لم يتصالح معها، لعب دورًا في لبنان، أين وضعوا أنفسهم؟ قالوا: نحن قوى الرفض والممانعة، ولكن ما الذي يرفضونه ويمانعونه؟ تطبيع العلاقات مع إسرائيل، أي قالت عن نفسها أنَّها قوة الممانعة والمقاومة، ولم نصبح رهائن، ويفسِّرون حالة الطوارئ بذلك، فحين يقال لِم هنالك حالة طوارئ؟ يقولون: حالة الطوارئ ليست لنا وإنَّما لأجل الشعب! ولأننا في حالة حربٍ مع إسرائيل لذا يجب أن تكون ثمة حالة طوارئ كي لا يتمكَّن العدوّ من تدمير جبهتنا الداخليَّة، سوى أنَّ حالة الطوارئ في الحقيقة هي ضدَّ النَّاس بالكامل. اكتسب عهد حافظ الأسد شرعيَّته من حرب العام ١٩٧٣ التي كانت السبب في أن تكون الشرعيَّة سهلة المنال، كما فعل جمال عبد الناصر في مصر يوماً ما، وهكذا كان الأسد أيضاً في سوريا بمثابة صمَّام أمان ضدَّ كل الأحزاب المعارضة، فالمعارضون الذين خرجوا ضدِّه إمَّا تمَّ نفيهم وتصفيتهم أو هربوا، فيما استسلم البقيَّة، فالحزب الشيوعي صاحب التاريخ الطويل، والأحزاب الناصرية التابعة لجمال عبد الناصر وبعض الأحزاب الليبرالية الأخرى، عوضاً عن عملها كأحزابٍ لصالح سياساتها ومبادئها الخاصة، أصبحت مناصرةً أكثر شمولاً للترويج للبعث وحافظ الأسد. انهار النظام السياسي في سوريا وتولَّى الحكم نظامٌ فرديٌّ موحَّد، فعلى سبيل المثال؛ ثمَّة دستورٌ لسوريا، ووفقاً لذلك الدستور تمَّ إنشاء حالة الطوارئ، ولكن ما الذي فعلوه على الرغم من حالة الطوارئ؟ فلكي يحكموا لفترةٍ طويلة تم وضع قانونٍ يقول: نظامنا رئاسيٌّ جمهوريّ وليس حكوميّ، أي نظام رئاسة، حيثُ يمكن لكل رئيس جمهورية أن يحكم لمدة سبع سنوات وأن ينتخب لثلاث فتراتٍ متتالية، هذا يعني انتخاب الرئيس كل سبع سنوات ولثلاث مرَّات. أصبح حافظ الأسد رئيسًا عام ١٩٧٠، وبعد سبع سنوات، عام ١٩٧٧ أصبح رئيسًا مرة أخرى، وبالطبع لا توجد انتخابات رئاسيَّة في سوريا وإنَّما استفتاء بـ نعم أو لا، هذا هو بالفعل ٩٩٪ الذي يدخل ضمن هذا الإطار، والدولة تقول تلك النسبة عن عمد؛ لتدلَّ على أن ثمَّة ديمقراطية، حيثُ أنَّ هناك واحد في المائة قالوا لا!

حلَّ العام ١٩٨٤، وأصبحَ رئيساً مرَّةً أخرى، انتهى العام ١٩٩١ وحافظ الأسد لا يزال حياً، فقال: "كنت حقاً أنوي الاستقالة لكنني أودُّ خرق الدستور، حيثُ أنَّ دستورنا يمنحُ المرءَ ثلاث فرصٍ لأن يصبح رئيسًا، سوى أنَّ الشعب قال: مهما يكن، ستكون رئيسنا طالما أنَّك على قيد الحياة، وأنا لا يمكنني ردَّ كلمة الشعب، لذا سأكونُ رئيساً طالما حَييت"!! وعلى هذا المنوال بقيَ في المنصب الرئاسيَّ حتَّى وفاته، وحين مات لم يكن قد أتمَّ الاستعدادات ليحلّ ابنه مكانه، لم يكن يعرف أنَّه سيموت هكذا سريعاً ولم يتسنَّى له إعداد ابنهِ للمنصب، كان يعمل على إعداد ابنٍ آخر له سوى أنَّه قُضيَ في حادثِ سير وكان قد دُرِّب على السياسة ونضجَ في هذا المجال، لكن حين توفّي كان ابنه الآخر بشار الأسد المرشَّح للرئاسة من بعده يدرس ولا صلةَ لهُ بالسياسة، حيثُ طلبت الدولة في إثره وضمَّته إلى الجيش ليغدو ضابطاً كبيراً وتمَّ إعداده للرئاسة بهذه الطريقة، لكن عند موت حافظ الأسد كان ثمَّة فراغٌ ما، فما الذي ينصُّ عليه الدستور؟ وفقًا للدستور السوري لا بدَّ أن يكون عمر الرئيس أربعون عامًا، فيما كان يبلغ عمر ابن حافظ الأسد المرشَّح للرئاسة أربعةً وثلاثين في ذلك الوقت، فعقد البرلمان السوريّ جلسةً وفي غضون دقائق أصدر قانوناً جديداً نصَّ على أنَّه يمكنُ للرئيس أن يكون في عمر الأربع وثلاثين عاماً، وعلى هذا المنوال باتَ بشَّار الأسد رئيساً للجمهورية ولا يزال على سُدَّة الحكم حتَّى يومنا الرَّاهن، هذا يعني أن اللون السياسيّ والحياة السياسية غير مسموح بهما داخل سوريا وفي تدهورٍ تامّ، على سبيل المثال؛ كانَ ثمَّة الحزب الشيوعيّ الذي سبقَ حزب البعث في الوجود -له تاريخٌ منذ العام ١٩٢٤- لكن دونما خجل يقوم زعيم الحزب الشيوعي وبشكلٍ يوميّ بنشر الترويج والدعاية لحزب البعث وحافظ الأسد، وكانَ هذا دأبُ الأحزاب الأخرى، كانَ الأمرُ أشبهَ بتقييدٍ للمعارضة.

تم إيداع المجتمع تحت السيطرة الكاملة، كيف سيطروا؟ قالوا: نحن ديمقراطيُّون، فما هي الديمقراطية؟ قالوا: الديمقراطيات منظَّمات شعبيَّة، فما هي المنظمة الشعبيَّة؟ تنظيم العمال والمزارعين والطَّلبة والنساء من جميع

شرائح المجتمع وبالتالي بناء الديمقراطية حيثُ يُمثِّلُ كُلٌّ نفسه، فشكَّل البعثيون هذه المنظمات كلَّها وسيطرت عليها، وأصبحت القوى الاجتماعية المنظَّمة تحت السيطرة، فيما لم يعثر اولئك الذين خرجوا ضدَّ البعث مكانًا لهم في تلك المنظمات، ليس ذلك فحسب، بل كانت هناك بعض الكُلِيَّات في سوريا لا يستطيع غير البعثيين الدراسة فيها، على سبيل المثال؛ مُنع على غير البعثيّين الدراسة في كليَّة الإعلام، كما أنَّ كلية العلوم السياسيَّة كانت حكراً على البعثيين، لا أعرف كيف هو الحال في السنوات الأخيرة، لكن في وقتنا كان الأمر بالنسبة إلى الدراسة على هذا المنوال.

في تحالف الجبهة الداخليَّة - كانت بالطبع جبهةً شكلية- والحاكم هو البعث، وكان هذا هو التحالف:

١- الجيش ولأنَّه قوة لحماية الشعب والأمة، لذا لا يجوز العمل مع أي حزبٍ خارج حزب البعث.

٢- لأنَّ الطلبة مستقبل المجتمع، يُمنع عمل الطلبة لدى أي جهةٍ أخرى خارج حزب البعث.

قبلت جميعُ الأطراف المنضمَّة مع الحزب إلى الجبهة ذاتها بالشروط، سوى أنَّه لم يكن بمقدور تلك الشكليَّات السيطرة على المجتمع ومراقبته، لذا حاولوا وبشكلٍ آخر المراقبة عبر السيطرة بشكلٍ مباشر على قوات الشرطة والمخابرات تحقيقًا لتلك الغاية، وانطلاقا من العام ١٩٧٣ فصاعدًا بدت القوات الرئيسيَّة كلها من الطائفة العلويَّة، حيثُ تمَّ تطوير وحدات المخابرات ومؤسَّسات المخابرات في جميع المدن الصغيرة والكبيرة في سوريا، وأُنشئَت بشكلٍ مختلف عن بعضها الآخر ولكن للمهمَّة ذاتها، ففي سوريا، على سبيل المثال، ثمَّة أجهزة استخبارات عديدة، والشرطة موجودة بالفعل، جميع أعضاء حزب البعث هم عملاء استخبارات يقدَّمون تقاريرهم ومعلوماتهم، فضلاً عن المخابرات السياسيَّة، فيما يوجد هناك أيضاً أمن الدولة، أمَّا

المخابرات العسكرية فتُدعى الأمن الجوي، وهؤلاء موجودون في كلِّ مكان، على الأرض وفي السماء، ثمَّة الأمنُ الجنائيّ المختصّ بجرائم القتل المختلفة، حيثُ تمركزت في كل بلدة صغيرة عدَّة فرق استخبارات تقوم بإجراء تحقيقاتٍ مستمرَّة وتضرُب وتسرق وتسطو وتبتزُّ الناس، لا سيَّما في المناطق الكرديَّة، حيثُ تمارِسُ كل ما ذُكِر بشدَّة أقوى وبلا أيَّة حواجز. استمرَّت سياسة الإنكار ضد الكرد، ولكن كيف؟ بعدَّة طرق، منها المشروع البعثيّ السابق لإجبار الكرد على الخروج من مناطقهم والانتقال إلى جنوب سوريا، لكن قاموا بإزالة هذا المشروع من جدول الأعمال، ماذا فعلوا عوضَاً عن ذلك؟ نفّـّذوا ذلك المشروع وفقاً لأسبابٍ أخرى، ما هي إحدى تلك الأسباب؟ تمَّ وبمساعدة السوفييت بناءَ سدٍّ على نهر الفرات، حيث جمع السدَّ من حوله المياه وغمرت القرى العربية الموجودة في المحيط، فلنأخذ تلك القرى إلى مكانٍ آخر، قالوا، ولكن أين ذلك المكان؟ أطلقوا على المكان اسم الخطّ العاشر، وهو على عرض عشر كيلو مترات، امتداداً من سري كانيه إلى جزيرة بوتان، وهي تبدأ من سري كانيه (جيلان بينار)، أي من الحدود التركية إلى سلوبي، لتنتهي في الجزيرة، اتّسعت المنطقة الكردية حوالي ١٠ كيلومترات، وكل الأراضي الموجودة هناك زراعيَّة وخصبة واحتلّوها كلَّها، ألَم يطلبوا من سكَّان القريةِ المغادرة؟ لكنَّهم استولوا على أراضيهم دون أن يتركوا شبراً لأحد، وبنوا عوضاً عن كل ذلك قرىً للعرب، ليبنوا الحزام العربيّ على طول تلك الحدود، وهذا ما يسمى بالحزام العربي، وهو يزيد عن ١٠ كيلومترات عبر الحدود الشماليَّة، لم يدمَّروا القرى الكردية، سوى أنَّهم انتزعوا أراضيهم، وأقاموا قرىً عربية على تلك الأراضي، كيف بنوا قرى العرب؟ بنوا البيوت والمدارس وجلبوا المياه والكهرباء. هذه المرة جلبوا العرب من الصَّحراء، كانت أوضاعهم سيّئة ولا يعرفون كيف يسكنون في بيوتٍ ولم يروا في حياتهم مياهاً نقيَّة ونظيفة، حدثت مثل تلك الأشياء، جلبوهم إلى هناك ومنحوهم أراضٍ خصبة صالحة للزراعة فأصبحوا أغنياءَ خلال وقتٍ قصير وبدأوا يعتدون على الكرد، لذا أظهر الكرُد إزاء تلك الاعتداءات بعض ردود الأفعال، فما كانت ردودُ الأفعال تلك؟ بدأوا بتوزيعِ

منشوراتٍ وأُلقي القبضُ على البعض إثر توزيع تلكَ المنشورات وبقوا معتقلين أحد عشر عاماً بتهمة نشر البيانات، ماذا فعل الكردُ آنذاك؟ قاطعوا تلك القرى التي احتلَّتها الدولة، ومن يذهب للعمل هناك من الكرد كان يعتبرُ سيّئاً للغاية، عبَّروا عن بعض الأمور عبر الاحتجاجات دون أن يستطيعوا منعَ ما يحصل، وما حدث مضى وبقيَ الوضعُ على ما هو عليه حتَّى يومنا الرَّاهن. بالطبع وبعدَ تلك العمليَّة أُجبر الكُرد على الرحيل، لهذا السبب نلاحظ أنه وخلال العام ١٩٧٥، تجمَّع عددٌ كبير من الكرد ولا سيَّما من منطقة الجزيرة حول دمشق وحلب وبعض المدن الأخرى، حيثُ خطوةً إثر الأخرى وفي ظلِّ الظروف والمصاعب الاقتصادية والضغوط السياسيَّة بدأ الكردُ بالفرار من مناطقهم وتوجَّهوا نحو المناطق العربية وأنفقوا أموالهم هناك، كلُّ ذلك حدثَ مُمنهَجَاً، عدا عن ذلك كان ثمَّة حظر واعتقالات وتعذيب وإرهاب، سوى أنَّه وخلال العام ١٩٨٠ حدثَ تغييرٌ في بعض الأوضاع، لكن كمبدأ لم يكن هناك أيَّ تغيير، أي أنه لم يتمّ الاعتراف بالكرد ولم يُنظر إليهم بوصفهم أمة، هذا بالكاد كان له أن يتحقَّق بعد انتفاضة العام ٢٠٠٤ حينَ ذكر بعضُ مسؤولي الدولة الكرد ككرد وحسب وليس كأمَّة.

لكن ما حدث هو وجود صراع فيما بين النظام السياسي الحاكم في سوريا والنظام القوميِّ العربيِّ خارجها، حيثُ ثمَّة مشاكلْ، هذا يقول أنا ضدَّ الإمبرياليَّة فيما يقول الآخر أنا ضدَّ الصهيونيَّة، سوى أنَّ القضيَّة مذهبيَّة في الأساس، والنتيجة العلويُّون هم مَن يحكمون سوريا، لهذا السبب كان كل السنَّة العرب داخل سوريا والذين لديهم تعاطفٌ قوي مع العراق بصفتهم معارضين محتملين للنظام، كانوا معارضين نشطين منذ الثمانينيات وما تلاها، باتوا معارضين مع جماعات الإخوان المسلمين الذين نفَّذوا نشاطاتٍ مسلَّحة، وبالطبع من أين يأتي هذا التهديد لسوريا؟ من العراق وتركيا وإسرائيل، لذلك فإن القضية الكردية منتشرة بشكلٍ كبير في كُلٍ من العراق وتركيا، ثمَّةَ حربٌ في العراق وتركيا، لهذا ارتأت سوريا حاجةً إلى دعم الحركة الكرديَّة والتفاوض معها في البلدين لتتمكَّن من إيقاف الهجمات على

نفسها، ولأجل أن تتّسمَ العلاقة بشيءٍ من المصداقيَّة كان لا بدَّ من تخفيف الضغط المُمارَس على الكرد بعضَاً، كيف يكونُ ذلك؟ على سبيل المثال؛ أن يخرج الكرد للاحتفال بعيد النوروز وألَّا يتم اعتقال من يتحدَّث باللغة الكردية أو يستمع إلى أغنية كرديَّة في المذياع، لذا فإنَّ ارتفاع مستوى الحركة الكردية في أجزاء أخرى من كردستان كان له تأثير على وضع الكرد في سوريا. تلك المرونة أو ادَّعائها؛ والتوقُّف عن ذلك التعذيب التعسُّفيّ، كان سببًا لاحتمال وجود تنظيم داخلي جزئي وأخذت الروح المعنويَّة لذلك من نشاط وحركة حزب العمَّال الكردستانيّ التي وفَّرت مجموعة من الآمال، وإزاحة حالة الهزيمة واليأس والتفكّك والتخلّي جانباً وحلَّ محل كل ذلك المزيد من الروح المعنويَّة وحتَّى المزيد من الأمل، ومهما كانت تلك الأمور ضعيفة سوى أنَّها مستمرَّة حتَّى يومنا الرَّاهن. سوريا تواجه مشاكل جديَّة وجهاً لوجه، وبشكلٍ عام لا توجد قوة معارضة مُنظَّمة في سوريا لأنَّها قُمِعَت، لكنَّ المجتمع غير راضٍ عن النظام البتَّة لأنّه جائع ويعيش تحت الضغط وتمَّ العمل على جعله جاهلاً بكلِّ السبل الممكنة، أي يمكن اعتبار المجتمع سجيناً، لذا تعيش سوريا مشكلةً جَديَّة وحقيقيَّة.

كانت سوريا ضمن سياق إعادة هيكلة الشرق الأوسط من بين الأنظمة المرشَّحة للتدخل العسكري فيها، لأن بوش قيَّمها ضمن محور الشرّ، الأمر الذي رشَّح التدخُّل العسكريّ، سوى أنَّ الأوضاع في العراق أوقفت مشروع التدخُّل العسكريّ ذاك، لِم توقَّفَ المشروع؟ رأت أمريكا أنَّ الدولة السوريَّة تنهار وثمَّة الكثير من الطاقات البشريَّة العاملة فيها ومن الممكن أن تقاتل ضدَّها بطريقةٍ احترافيَّة، ولاسيَّما أنَّ سوريا تمتلك جيشاً ويبلغ عدد سكَّانها ثمانية عشر مليون نسمة، فضلاً عن أنَّ جيشها يقارب المليون جنديّ، وثمَّة مجموعات كبيرة من ضبَّاط الاستخبارات تلقَّوا تدريباتٍ في إيطاليا وفرنسا وسابقاً في الاتحاد السوفييتي، لذا حين تنهار تلك الدولة قد يقف القليل من اولئك إلى جانب أميركا، ولكن الآخرين سيعارضونها، تلك المعارضة التي رأتها أميركا في كُلٍّ من أفغانستان والعراق كنموذجٍ لا يمكن السيطرة عليه،

مثال، لِمَ تنفَّذ أنشطة مسلَّحة في العراق وأفغانستان؟ لأنَّهما في السابق كانتا دولتين وتمتلكان معرفةً سابقة في كيفية القتال والتصرُّف من الناحية العسكريَّة وقيادة النَّاس، الأمور التي تضيف وزناً إلى قدرتهما، علاوةً على أنَّ التدخُّل العسكريّ يحتاج إلى نفقاتٍ ماليَّة كبيرة للغاية، لم يحصل التدخل العسكري ضدَّ سوريا، ولكنها ترزح تحت الحصار والضغط، لذا فإن اندلعت ثورةٌ كتلك التي حصلت في مصر وتونس فإنَّ احتماليَّة السيطرة عليها سيكون صعباً كونها دولة مرشَّحة لحدوث حرب طائفيَّة وعرقيَّة فيها، حيثُ ثمَّة قضايا كرديَّة وأخرى عربيَّة وعربيَّة سنيَّة، ثمَّة مليون إسماعيليّ في سوريا، -الحركة الباطنيَّة تُسمَّى الإسماعيليَّة- ثمَّة آشوريُّون وأرمن وشيشان وشركس وتركمان ومسيحيّون ومسلمون وعلويَّون وسنَّة ودروز وكرد في سوريا وجميعهم أُجبروا على البقاء تحت الضغط بقوَّة الجيش والاستخبارات، والآن إن حصل فراغٌ سلطويَّ، ما الذي يمكن أن يؤولَ إليهِ الوضع؟ من الضرورة بمكان تمهيد الطريق أمام أنارشيَّةٍ كبيرة، لذا فإنَّ القوى الدوليَّة والمحليَّة تسعى جاهدةً إلى إحداث تغييرٍ منظَّم في سوريا، ولكن هل سيكون بالإمكان فعل ذلك؟ ثمَّة بعضُ الأشياء التي لا يمكن تعديلها في الخطَّة، على سبيل المثال، إن ظهر حدثٌ ما صغير سترى إنَّه يؤثِّر على أمور عرقيَّة حسَّاسة لدى الشعوب، الأمر الذي بمقدوره أن يمهِّد الطريق أمام حربٍ طائفيَّة، ثورة، إبادات وأحداثٍ أخرى، لذا فإنَّه لا يمكن لشيءٍ في مثل هذه الأوقات العصيبة أن يسير وفقَ خطَّةٍ معيَّنة حيثُ ثمَّة مشكلة جديَّة فيما يخصّ التحكُّم والسيطرة.

هذا هو الوضع في سوريا، ولكنَّها تتمتَّعُ بموقعٍ استراتيجيّ والجميع به رغبةُ الهيمنةِ هناك، ولا سيَّما أنَّه باتَ من الواضح عدم مقدرة النظام السوريّ أن يستمرَّ كما كان في الماضي، ليس فقط فيما يخصُّ الداخل السوريّ ولكن حتَّى في الشرق الأوسط، حيثُ أن كل شيء يتغيَّر، ولكن هذا التغيير أين وِجْهَتُه؟ إلى اتِّجاه مَن سيكون؟ أيَّاً كان ذلك، فإنَّ هذا التغيير سيُساهم في توضيح القوَّة التنظيميَّة للشعوب.

٣- أهميَّة وتاريخ العراق:

ثمَّة قوى أخرى مؤثِّرة ومن بينها العراق، العراق ليست دولةً طبيعية من حيث الجغرافيا، التاريخ، من حيث الفرص المادية، لا توجد طبيعة أو فرصَ ماديَّة، سوى أنَّ لها جغرافيا استراتيجيَّة كبيرة في الخليج، ولا سيَّما في تاريخها المثير للانتباه، لأجل ذلك لم يكن بلدًا طبيعيًا، كما يمكن للمرء أن يقول إنها حكمت العالم بأسره لآلاف السنين وكانت مركزاً لدولٍ وحضارات، وكأنَّها كانت مركزًا عالميًا، حيث ظهرت أشياءُ كثيرة هناك في البداية: الكتابة، الدين والدولة والقانون والمؤسسة والعلوم وغيرها الكثير.

أصبح العراق ونتيجةً للتحالف الكامل بين البريطانيين والأتراك خلال العام ١٩٢٣ ولا سيّما بعد العام ١٩٢٦ موطناً للبريطانيين ومُلكاً لها، ماذا فعل هؤلاء في العراق؟ كانت مُهمَّةً بالنسبة إلى البريطانيين على إثر توفُّر النفط بشكلٍ كبير للغاية، فضلاً عن أهميَّتها وضرورتها للتأثير البريطاني على الخليج، لأنَّه إن لم تكن العراق تحت سيطرتها فستظلّ دولةً منفتحةً على وجهاتِ نظرٍ وأفكارٍ وقوى مختلفة، وبالتالي ستكون المصالح البريطانيَّة في الخليج –أي في أكبر حقل نفط عالمي- في خطر، لذا ركَّزت بريطانيا على العراق، حتَّى أنَّها من عيَّنت ملوكها الذين لم يكونوا عراقيين البتَّة ولا صلة لهم بالعراق أو الشعب العراقي، كانوا هاشميين من عائلة الملك حسين الذين ساعدوا البريطانيين خلال الحرب العالميَة الأولى عام ١٩١٤ لذا كافئهم البريطانيَّون بتعيينهم ملوكاً وحكَّاماً على العراق، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى العام ١٩١٨ باتت العراق مستعمرةً بريطانيَّة وتمَّ تعيين النظام الملكيّ فيها وسيَّرت سيطرتها وسياساتها عبر الملك المُعيَّن من قِبلها. مرَّةً أخرى، البريطانيَّون أوَّلاً ومن ثمَّ أمريكا، كانا يراقبان من العراق وبشكلٍ استراتيجيّ، لذا كان العراق دائماً مكاناً للاتفاقيات العسكريَة في الشرق الأوسط، على سبيل المثال، لا سيَّما خلال العام ١٩٤٥ بعد الحرب العالمية الأولى ومع بدايات الحرب الباردة، سعت أمريكا إلى وضع العالم كلَّه تحت

هيمنتها، وأرادت فعل هذا الشيء عبر التنظيمات الاقتصادية والعسكريَّة، لذا عمدت إلى إنشاء حلف السنتو، أو ما يدعى بحلف بغداد بين باكستان والعراق وتركيا لتكوين قوَّة عسكريَّة واحدة، وفي شرق آسيا كان ثمَّة اتفاقيَّة سايتو، فضلاً عن أماكن مختلفة من العالم، وذلك بهدف تعزيز قوَّتها العسكريَّة بغية منع انتشار الاتحاد السوفييتي والشيوعيَّة، لذا شكَّلت تحالفات عسكريَّة بين حلفائها وكانت العراق إحدى تلك القوى المتحالفة مثلما ربطت تركيا بنفسها عبر حلف الناتو، سعت إلى ذلك مع بغداد نفسها عبر تحالف بغداد.

٤ـ معارضة القوميَّة العربيَّة ضدَّ الحركات الكرديَّة:

ازدهرت القوميَّة العربيَّة في العراق سوى أنَّه ولفترة طويلةٍ لم يكن ثمَّة صراعٌ خطير وعميق بين القوميَّة العربيَّة والبريطانيين، لِمَ؟ لأن البريطانيّون قبلوا العرب من الناحية السياسيَّة ومن ناحية السلطة ونتيجةً لذلك جعلت منهم دولةً، لكن البريطانيين كانوا سلبيين دائماً إزاء الكرد وينظرون إليهم بعين الريبة، لِمَ ذلك؟ لأنه كان ثمَّة اتِّفاقٌ بين البريطانيين والأتراك للعمل معًا ضد الكرد، لم يعد البريطانيون يتحدثون عن حقوق الكرد، وبالتوازي مع الأتراك قمعوا كل الجهود الكرديَّة لأجل الحرية، هذا أمر، فيما الأمر الثاني تمحور حول تحريض البريطانيين للحركة القومية العربية ضد الحركة القومية الكردية، لِمَ فعلت ذلك؟ لأن مصالح بريطانيا كانت في تزايدٍ ضمن العالم العربي ولم تكن مستعدَّةً للتضحية بأي شيءٍ من أجل الكرد لقاء مصالحهم الخاصة، لهذا كان العرب دائماً ضد الكرد، ووقفت محاولاتُ الكرد في إقامة دولة قوميَّة في العراق وجهاً لوجهٍ مع البريطانيين ولا سيَّما حركة الشيخ محمود برزنجي.

قاتل محمود برزنجي مرتين ضدَّ البريطانيين، وتمّ سحق الانتفاضة بالطائرات ونفي الشيخ محمود برزنجي، حيثُ حدث هذا خلال الأعوام

١٩٢٠-١٩٣٠، أمَّا حركة البرزانييّن التي بدأها الملاّ مصطفى البارزاني كان ينظر إليها أيضًا بشكلٍ مريب من قبل البريطانيين الذين قاتلوا ضدَّها حتى اضّطر البارزانيّون للفرار إلى إيران خلال العام ١٩٤٠ خلال عهد جمهوريَّة مهاباد، حيث كانت الاستعدادات جارية للجمهوريَّة. في ذلك الوقت، كان للبريطانيين موقفٌ سلبيّ إزاء الكرد. لم يُقولوا شيئًا عن وضع الكرد حين انسحب جيشهم وسلَّموا الدولة إلى الحكومة، إلى الملك، لم يذكروا حقوق الكرد، لذا لطالما كانت القضيَّة الكرديَّة دائماً تظهر على أنَّها مشكلة جديَّة.

٥- أثرُ حزب البعث على العراق وسوريا:

دخلت العراق في المرحلة خلال تموز/يوليو ١٩٥٨ عبر انقلابٍ عسكريٍّ نفَّذهُ ضبَّاط، فمن هم هؤلاءُ الضُبَّاط؟ عبد الكريم قاسم، بالإضافة إلى ضابطين صديقين، وأطلقوا على أنفسهم فيما بعد اسم المجلس الثوري، وكان عبد الكريم قاسم أحد قياديّ المجلس، وهو ضابط سنيّ عربي، فيما كان هناك ضابطٌ كرديّ يدعى عبد الرزاق مجيد، كما وكان من بين الضبَّاط شيعيٌّ أيضاً، ونظَّموا أنفسهم كمجلسٍ ثوريّ.

حصل الانقلاب العسكريّ في العراق عام ١٩٥٨ إلى أن تمَّ الإطاحة بالنظام الملكيّ، حيث كان رئيس وزراء النظام الملكي رجلاً ذا صيتٍ ومعروفٌ برجعيَّته وتحالفه مع الغرب وتجسُّسه لصالح البريطانيين، كان مسيطراً للغاية، فصحيحٌ أنه كانت ثمَّة مملكة لكن كان الحاكم الأساسيّ رجلًا يُدعى نوري السعيد الذي كان معادياً للكرد ولكلَّ الأشخاص المتطوّرين في المنطقة، كان جاسوسًا إنجليزيًا بالكامل. اتّسمت إدارته بميزاتٍ سيئة للغاية حيثُ الفساد وسوء التدبير، لهذا السبب دائمًا ما يتم ذكر اسمه بشكلٍ سيْ، حتَّى أنَّ الكرد ينظرون إليه على أنَّه كانَ رجلاً سيّئاً، وما تبقَّى منهُ مكانٌ في

قاديش العراقيَّة، ليس بالضبط في قاديش، بل على مقربةٍ منها، ثمَّة قصرٌ كبير هناك، ليس قصر صدام، بل ثمَّة قصرٌ لنوري السعيد الموجود منذ ذلك الحين، يقال ذات مرَّة أن صدام جاء لرؤية ذلك المكان، فسأل: "لمن هذا القصر؟" قيل له: "هذا قصر نوري سعيد"، فنظر صدَّام إلى أعلى التلَّة قائلاً: "فلتبنوا لي مثله على رأس التلَّة" وبالفعل تمَّ البدء ببناء القصر إلَّا إنَّهُ تهدَّم قبل استكماله. أطاح عبد الكريم قاسم عبر انقلابٍ بالنظام الملكيّ مُعلناً عن الجمهورية، وبالطبع كان البعثيَّون في ذلك الوقت يعملون في العراق وكان البعض منهم سوريَّون وكوَّنوا قوَّةً كبيرة، لأنَّ البعثيّين لا يرون أنفسهم منتمين إلى دولةٍ عربيَّةٍ بعينها، بل يرون أنفسهم حزباً لكلِّ العرب، لذا أرادوا بناء الحزب في كلِّ الدول العربيَّة، سوى أنَّ الحزب لم يحظى بالقبول الكبير في بعض الأماكن، حيثُ حاول بعضُ المثقفين والقوميُّون في دول عربيَّة مختلفة بالقيام بخطواتٍ لتشكيل حزب البعث داخل دولهم، سوى أنَّ الأمر لم ينجح كثيراً لأنَّ سوريا كانت تمتلك تأثيراً كبيراً ونفوذاً، فضلاً عن محاولة البعثيَّين العمل في لبنان سوى أنَّهم امتلكوا تأثيراً إلى حَدٍّ كبير في سوريا والعراق، فالحزب باتَ سلطةً في سوريا ومؤثِّراً في العراق، حتى أنَّ المدافع عن/ و/مؤسس حزب البعث ميشال عفلق ما عاد بمقدوره البقاء في سوريا بعد حدوث مشاكلَ داخليَّة وفرَّ هارباً نحو العراق ليقوم بتنظيم البعثِ هناك إلى أن توفّيَ فيها. حركة عبد الكريم قاسم راديكاليَّة امتلكت بعض سمات الثورة، كانت شديدةً إزاء النظام الملكيّ وقضت عليه، كما عملت وتحرَّكت على أساس بناء عراقٍ جديدٍ ومستقلّ، لذا انقطعت العلاقات مع إسرائيل حيثُ كانت موجودةً في عهد المملكة، كانت أنابيبُ النفط العراقيَّة يصل جزءٌ منها إلى إسرائيل، حتى حيفا، قطعت حركة عبد الكريم قاسم تلك الخطوط راغبةً في السيطرة على النفط، فضلاً عن تنفيذ العديد من الإصلاحات الأخرى التحديثيَّة، والبرجوازية الصغيرة، والطبقة الوسطى، والطلبة، والجيش، ضدّ الملكية والإقطاع، وفي ذلك الوقت أرادت الحركة أن تخطو خطوةً باتِّجاه القضيَّة الكرديَّة، لذا تمَّ دعوة البارزاني الذي كان منفيَّاً في الاتحاد السوفييتي، حيثُ تمَّت دعوته للعودة لمناقشة القضيَّة الكرديَّة بهدف إيجاد حَلٍّ لها، سوى

أنَّ القضيَّة الكرديَّة لم تُحلّ في ذلك الوقت، لأنَّ فرض القوميَّة العربيَّة والقوميَّة الكردية أدَّى حقيقةً إلى انعدام الحلّ وتعقيد المشاكل أكثر وتعميق الشكّ، لِمَ حصل ذلك؟ لم تكن لدى القوميّين العرب نيَّة لإيجاد حَلٍّ ديمقراطي للمسألة الكرديَّة، ربَّما كان الحل يتمثَّل في شخصيَّة عبد الكريم قاسم وغيره بيد أنَّ خصائص الاحتلال كانت الأكثر بروزاً. كانت مقاربات الحكم الذاتي متقدِّمةً في الحركة الكردية، الحكم الذاتي لأجل ماذا؟ يمكن أن يسود الحكم الذاتي حقيقةً في كردستان بدون تلك المفاهيم السياسية البديلة، وهذا يعني أن فكرة وجود حكومة مركزية ليبرالية في بغداد كانت راديكالية إلى مستوى حديث وتقوم على توزيع الأراضي، وتدمير الإقطاع، ولم يتقبلها المسؤولون الكرد ولا سيَّما حركة البارزاني، هذه مشكلة على المستوى المفاهيمي أيضاً، لذا كانت سبباً للحرب التي اندلعت خلال العام ١٩٦١ بين الكرد والحكومة المركزيَّة تخلَّلتها أحياناً اتفاقاتٌ لوقف إطلاق النار أو مفاوضات، سوى أنَّها استمرَّت بشكلٍ عام دونما انقطاع منذ العام ١٩٦١ وحتَّى السبعينيَّات. ما الذي حدث في العراق في تلك الأثناء؟ في غضون ذلك كانت حكومة عبد الكريم قاسم في العراق تحت التهديد، عبد الكريم قاسم نفسه كان تحت التهديد، حتَّى أنَّ ثمَّة محاولة اغتيالٍ له نفَّذها صدَّام حسين البالغ من العمر آنذاك ٢٣ عاماً، صدَّام كانَ بعثيَّاً، وكانَ البعثيُّون قد شكَّلوا تنظيمهم الخاص في العراق، سوى أنَّ عبد الكريم قاسم نجا من الموت بجرحٍ في محاولة الاغتيال تلك، فيما فرَّ صدَّام حسين إلى سوريا، بعد ذلك بوقتٍ قصير، حدث انقلاب خلال العام ١٩٦٣ ضد عبد الكريم قاسم، حيثُ باتَ المقرَّبون من البعث في السلطة وليس البعثيَّون، وهم القوميَّون العرب المُعادين للكرد ولا يرونَ في العراق إلَّا دولَةً عربيَّة، أمثال عبد السلام عارف وغيره.

قُتل عبد الكريم قاسم على الفور وتقريبًا أمام محكمةٍ واقفاً على قدميه، لذا نُفِّذ انقلابٌ على هذا المنوال ليُعزِّز البعثيَّون سلطتهم خطوةً إثرَ الأخرى، بعد فترةٍ زمنيَّة لم يعد بإمكان اثنين من خارج البعثيين تمامًا إدارة وظائفهم لذا أرادوا التخلُّص منهما أيضًا، هذا هو حال عبد السلام عارف الذي كان في

جولةٍ تفقُّديَّة إلى البصرة، حيثُ رأى النَّاسُ فجأة مروحيَّةً تحلِّقُ في السماء على نحوٍ غريب، وبغتةً يفتح بابُ الطَّائرة ويسقطُ منها رجلٌ ليموت، بهذه الطريقة مات عبد السلام عارف على أنَّ الأمر حادثة، أو أنَّ المروحية تحطَّمت، ما الذي حدث؟ لا أحد يعلم! ونتيجةً لذلك تخلَّصوا من عبد السلام عارف على هذا النَّحو.

استلمَ البعثيّونَ السلطة في العراق خلال العام ١٩٦٨ دون أن يكون لهم بدائل، ولا سيَّما فريق أحمد حسن بكر، صدام حسين، الذين تسلَّموا السُلطةَ تدريجياً. كان صدام حقيقةً مؤثراً في الحكومة، فصحيحٌ أنَّهُ لم يكن الرئيس، لكن حكمه كان ذا تأثيرٍ أكبرَ من رئيسٍ ويُدير كلَّ شيءٍ تقريباً لفترةٍ زمنيَة إلى أن تسنَّى له إبعاد أحمد حسن البكر بشكلٍ تامّ ليصبح هو نفسه رئيساً مع فريقه الذي يُطلق عليهم: التكريتيّون، أمثال أحمد حسن البكر وصدَّام حسين.

٦- استقلال العراق وجغرافيّته:

العراق دولة غنيَّة بالنفط. وتمتلك جغرافيا استراتيجية لها تأثيرها، وهي من الدول العربيّة التي لم تُبرِم اتفاق وقفٍ لإطلاق النار مع إسرائيل حتَّى يومنا الرَّاهن، لكن في الواقع فإن العلاقة بين البلدين تنمو الآن سرًا، ولكن رسميًا، ثمَّة وقف لإطلاق النار بين سوريا وإسرائيل، بين مصر وإسرائيل، بين الأردن وإسرائيل، وبين لبنان وإسرائيل، لكن العراق لم يجرِ هكذا اتفاق. العراق ولا سيَّما في عهد صدام، أي في عهد بعثيي تكريت، ظهرت كوظيفةٍ لتحل محل جمال عبد الناصر وهي دولة كبيرة مساحتها ٥٠٠ ألف كيلومتر مربع، وتكادُ تشبه تركيا بجغرافيتها، إنها غنية جدًا من الناحية المادية، كما أنَّ لها الوفرة من حيث عدد السكَّان مقارنةً مع الدول العربية الأخرى، هي ليست مثل مصر، ولكنها أكثر من ذلك وفقاً للأردن، سوريا، وبعض الدول الأُخرى. تلكَ الفرص المادية، فكرة البعثيَّة القوميَّة والمساعدة السوفيتية من

الخارج، جعلت من العراق قوَّة معارضة ضد أميركا، حيث سيطر البعث على مصادر النفط وأمَّمت كل الشركات البريطانيَّة وباتَ النفطُ للعراق، هذه الأمور كلها عزَّزت بشكلٍ كبير مشاعر الأمَّة العربيَّة، ولأجل ذلك كانت لها الحريَّة في تهديد أميركا وإسرائيل، تسبَّب هذا الأمر في ظهور مشكلة لأميركا لذا كانت تتصرَّف بشكلٍ يقظ مع العراق كما وفعلت إسرائيل ذلك وعملت الدولتان دائماً على زعزعة استقرار العراق، ولأجل ذلك لطالما ودَّتا إقامة علاقةٍ مع الحركة الكرديَّة في جنوب كردستان بمناسبةٍ أو في أخرى، لِمَ ذلك؟ لأنَّ العراق كانت تهدِّد إسرائيل، فقد كانت تدعم الحركة الفلسطينية تحت ذرائع القوميَّة العربيَّة، ولا سيّما دعم المنظمات الراديكاليَّة ضمن الحركة الفلسطينيَّة، على سبيل المثال، دعمت جبهة الرفض العراقيَّة بين الفلسطينيين، كما ودعمت أبو نضال الذين عرفوه حين بقي في لبنان، والذي لم يكن في التنظيمات الفلسطينيّة ومنشقَّاً عن حركة فتح أو المعروفة باسم منظمة فتح التابعة للمجلس الثوري وعرفات، عُرِفَ أبو نضال على هذا النَّحو وبقيَ في العراق إلى أن وافتهُ المنيَّة في منزله بالعراق خلال العام ٢٠٠٢، دعمت العراقُ القوى الراديكالية ضدَّ إسرائيل بالأموال والسلاح، وروَّجت ضد إسرائيل، ولم توقِّع على أي اتفاقٍ لوقف إطلاق النار معها، الأمر الذي أدَّى إلى خلق اضطرابات، فحين تكون العراق ضدَّ إسرائيل فإنَّ الأمر مختلف ولا يشبه دولةً عربيَّةً أخرى، لأنَّ العراق تمتلك النفط والقوَّة الماديَّة. العراق هدَّدت إيران أيضاً، كيف كان ذلك؟ كان ثمَّة عربٌ في إيران، لذا ودَّت العراق دائماً أن يقاتل اولئكَ العربُ ضدَّ إيران، لا تزال هناك بعض الجُزُر بين العراق وإيران، جزيرة تامبا الكبيرة، جزيرة تامبا الصغيرة، أبو موسى، حيثُ قال عنها البعثيَّون دائماً أنَّها أراضٍ عربيَّة احتُلَّت من قِبَل إيران ولا بدَّ أن تعودَ إليها مرَّةً أخرى

من هي إيران؟ إيران هي الملجأ الأميركي الرئيسي في المنطقة ومرتبط بها، لذا فإنَّ العراق كانت تهدَّد أميركا وإيران وإسرائيل معاً، كما أنَّ العراق في أيديولوجيتها القوميَّة العربية، كانت تهدد الممالك في الخليج، بما في ذلك

الكويت وقطر والسعودية، لِمَ؟ لأنَّها كانت متشدِّدة وقوميَّة وتروِّج للجمهوريَّة وتتحدَّث عن الاشتراكية، الأمر الذي جعل القلق والخوف والأفكار السيِّئة مصيرَ دول الخليج، لذا أرادت أميركا دوماً ابتلاع العراق وتركها ضعيفةً ومعتلَّة، هذا كان الهدف الدَّائم.

٧- علاقة بعض الحركات الكرديَّة بالإمبرياليَّة:

لهذا السبب أرادوا للكرد دائمًا العمل في هذا السياق، ووفقًا لدايفيد -ممثل وزارة الخارجية الإسرائيلية وشخصية رئيسية ضمن الموساد في ذلك الوقت- الذي يقول في مذكراته: "كانت لدينا علاقات متواصلة في إيران مع الحزب الديمقراطي الكردستاني من العام ١٩٦٩ إلى ١٩٧٩ " وتشمل هذه العلاقة المساعدات المادية والأسلحة، وكذلك التعليم، وحتَّى أثناء الحرب بين الكرد والحكومة المركزية في العراق، ثمَّة وثائق دلَّت على أن الموساد رغم عدم مشاركته في الحرب بشكل مباشر، سوى أنَّه ساعد فيما يخصّ الجانب الماديّ وإدخال الأسلحة عبر إيران وعمل على إقامة مثل هكذا علاقة مع الحزب الديمقراطي الكردستاني، وقد تساعدنا بعض الأمثلة في هذا الصدد على فهم العلاقة بين الإمبرياليَّة والحركة الكرديَّة بشكلٍ أفضل.

لم تستطع العراق في حربها ضدّ الكرد أن تستمرّ طويلاً، لذا وقَّعت اتفاقاً في آذار العام ١٩٧٠ مع الحزب الديمقراطي الكردستاني، ويسمَّى هذا الاتفاق باتفاق ١١ آذار، فما الذي حصل وفقاً لذلك الاتفاق؟ تمَّ إعلان وقف إطلاق النار لمدة أربع سنوات، وخلال هذه السنوات الأربع سيتمُّ إجراء مرحلة توازن وتعاون فيما بين الطرفين، ولا سيَّما في كردستان، ستقوم الحكومة المركزيَّة بإعادة بناء المناطق التي دمَّرتها الحرب، وسيحكم الكرد أنفسهم، لكن كان ثمَّة بعض النقاط التي لم يتمّ الاتفاق حولها، كان من بينها مسألة كركوك، هل يشمل الاتفاق كركوك أم لا؟ لقد بقي هذا الأمر معلَّقاً، وأيضاً

بعض المناطق في الموصل التي عرفها الكرد على أنَّها مناطق كرديَّة، فيما عرفها العرب على أنَّها مناطقَ عربيَّة، لذا تمَّ تشكيل هذا الاتفاق على أساس وقف إطلاق النار لمدَّة أربع سنوات، ولكن ما الذي كان سيحدث بعد أربع سنوات؟ الاعتراف رسميًّا بالكرد على أنَّهم يتمتَّعون بالحكم الذاتي، وعلى هذا المنوال تصبح العراق دولةً يتمتَّع فيها الكرد بالحكم الذاتيّ، سوى أنَّ الاتفاق لم ينجح، لِمَ؟ أرادت أميركا وإيران أن تعملا في سبيل أن تكون المرحلة لصالحهما، فإن كان ثمَّة سلامٌ بين الكرد والعراقيين ستغدو العراق حينذاك دولةً قويَّة وستستمرُّ المشكلة، لذا ارتأت كل من إيران وأمريكا عرقلة هذه العمليَّة. ما هو العامل الآخر في عرقلة العملية؟ حزب البعث، حيثُ أراد البعثيون الخروج من هذا الوضع في مستوى أضرار متدنيّ، أي أن تسعى جاهدةً لأنّ تضرَّ بحقوق الكرد وبالتالي سعت إلى تضييق أرضيَّة تلك الحقوق، لهذا توفَّرت صراعات عميقة عوضاً عن الانسجام، فتدخلت أميركا وشاه إيران ليطوّرا العلاقة مع الحركة الكرديَّة.

خلال العام ١٩٧٥ قال عضوٌ في الكونجرس الأمريكي: -هذه التصريحات مكتوبة-: "صحيح لقد ساعدنا الثورة الكرديَّة في العراق، وبدأت مساعدتنا على هذا المنوال: طلبَ البارزاني المساعدة في عام ١٩٧٢ عن طريق عضوٍ في السي آي إيه في طهران، قدمنا تلك المعلومات إلى نيكسون، حيثُ كان آنذاك رئيسًا لأمريكا، فدعانا على الفور لمساعدة الحركة الكردية في العراق، هذا صحيح ساعدنا الحركة الكردية، رغم ذلك لا ينبغي أن تكون مساعدتنا سببًا لأن يتمتع الكرد بحكمٍ ذاتيٍّ واسع، ولا ينبغي أن يكون سببًا لامتلاكهم دولةً مستقلَّة، ساعدناهم لأن العراق كانت تعمل على إزعاج حلفائنا في المنطقة، لهذا كان علينا أن نجعل الأمر صعبًا حتى لا تزعج حلفائنا مرَّةً أخرى، وحين تتوقف العراق عن ذلك، سنتوقَّفُ عن دعم الكرد"، هذا التصريح أدلى به بايك في الكونغرس الأميركي خلال العام ١٩٧٥ وكان على صلةٍ بالحركة الكرديَّة.

هذا ما قاله شاه إيران في مقابلة مع صُحفيٍّ عربيّ يدعى محمد حسنين هيكل: "العراق كانت تتسبَّب لنا في مضايقاتٍ وعراقيل، لذا كان عليَّ أن أصفعها، فساعدتُ الثورة الكردية، طلبوا مني المساعدة، فكَّرت ومن ثمَّ ساعدتهم" فيسألهُ الصحفيّ: "كم استغرقت مدَّة تفكيرك"، يردُّ الشاه: "أعتقد لمدَّة ساعة"، أي كان ثمَّة استعداد لدعم أيّ شيءٍ من ذلك القبيل في العراق، يقولون: "لقد كانت لهذه المساعدة نفقاتها الكثيرة، حيث أنفقنا ثلاثمئة مليون دولار، العراق تتسبَّب في مضايقات، لذا كان لا بدَّ من صفعها، ولكن حين توقَّفت العراق عن المضايقة توقَّفنا عن تقديم المساعدات للثورة الكرديَّة فتوقَّفت". ما الذي تُظهره تلك البيانات (الوثائق)؟ إنّها وثائق مدوَّنة وتمَّ نشرها، أي ليست تخمينيَّة، كما أنَّ ثمة أشياء أخرى كثيرة بإمكان المرء تقييمها، ما الذي يُظهره هذا الأمر؟ يُظهِر أن النظام الإمبريالي في العالم لم يمتلك البتَّة منظوراً لحلِّ القضية الكردية في المنطقة، فحبُّهم ودعمهم للكرد لم يتخطَّى أبداً حدود استخدامهم كابتزازٍ ضدَّ الدولة وحينَ تنازلت الدولة لهم واستسلمت باعوا الكرد أيضاً، لقد فعلها البريطانيون، وفعلتها فرنسا، وأمريكا فعلتها وما زالوا يفعلون ذلك، لم تدعم أمريكا الكرد أبداً لأجل الحريَّة أو من منظور الحصول عليها بل كانت تقترب دائماً على أساس استخدام الكرد وحسب. حين وقَّع صدام على اتّفاقيَّة الجزائر مع إيران خلال العام ١٩٧٥، وفقًا لذلك الاتفاق، لم تعد العراق تطالب بالجُزر الإيرانيَّة وتوقَّفت عن مضايقتها، ولم تعد تُزعج إسرائيل بنشاطٍ كما كان الحال عليهِ في السابق، حينها توقَّفت إيران عن تقديم المساعدة للكرد وأيَّدتها أميركا في ذلك، الأمر الذي أدَّى إلى انهيار الحركة الكردية، لذا ثمَّة بعض المشاكل المرتبطة بالحركة الكرديَّة ويمكن مناقشة الأمر بشكلٍ مختلف، ولكن الأمر كان هكذا فيما يخصُّ الجانب العراقي.

٨- إبادة الحركة البعثيَّة في العراق:

العراقُ دولةٌ ابتُليت بشكلٍ خاص بالحكم البعثي، فالسمات التقليدية للسلطة حين ترتبط بالأفكار الوطنية تتسبَّبُ في أذىً بالغٍ للمجتمعات ومثال العراق واضحٌ للعيان، العراق بلدٌ يتدفق فيه نهران كبيران، ليس فقط نهرين، ولكن هناك نهران رئيسيّان يتدفقان عبر العراق، ويغدو محيطهما مكاناً للسياحة، بينما حين يصلان إلى مقربةٍ من الخليج، تظهر منطقةٌ مائية واسعة، كانت العراق دولةً يُنتج فيها تمرٌ قبل حربها مع إيران بحوالي ثمانية ملايين شجرة، ولكن تم اقتلاع كل تلك الأشجار خلال الحرب، وبالكاد الآن تتمكَّن العراق من أن تنتجَ كفايتها الداخليَّة من أشجار النخيل، لماذا؟ لأن بساتين النخيل واقعة بشكلٍ أساسي في المنطقة الحدودية مع إيران وتعرَّضت المنطقة لعديد التغييرات، حيثُ كانت تارةً موقعاً للإيرانيين وتارةً أخرى للعراقيين وما إلى ذلك، لذا وعلى إثر الحرب تمَّ تدمير كل بساتين النخل، فضلاً عن أنَّ العراق بلدٌ يبلغ إنتاجها النفطي ثلاثة ملايين برميل يومياً، وبهذه الخصائص والسِّمات بمقدورها أن تكون في الأساس متقدِّمةً على مستوى المعيشة والمعرفة بشكلٍ متطوّر ومتقدِّمٍ إلى مستوى عالٍ، لكن السلطة تشكِّل عقبةً في طريق هذا التطور، ما الذي يملكهُ صدَّام الآن؟ ثمَّة قصرٌ له في البصرة وآخر في بغداد، وأيضاً في بابل، يملكُ قصوراً في كلِّ مكان، صحيحٌ أنَّ صدام بنى قصوراً، ولكنَّه لم ينم في واحدةٍ منها ولو لليلةٍ واحدة، لِم إذن كلُّ تلك القصور؟ مقابل قصور آشور، بابل، ثمَّة قصورٌ لصدَّام، بنى قصوراً في بابل إلى جانب الكهوف البابلية الأثريَّة التاريخيَّة الممتدَّة إلى خمسة آلاف سنة. مرة أخرى ولكي تحقق العراق له تطلعاته الوطنية، فقد أنفق كل قوتها في الدولة وبناء جيشه واستخباراته وتسليحهما، فالعراق لم تعد تشتري السلاح بل تصنّعه، العراق لم تشترِ أسلحةً بل مصانعَ أسلحة، على سبيل المثال، كانت تصنَّع صواريخ وبنادق كلاشينكوف وقنابل، وصواريخ سام ٥ أرض -أرض، تشتريها من روسيا وتعدِّل عليها وتعيد تصميمها لكي يغدو مدى رميها أبعَد، بنَت جيشاً قوام أفراده مليون ونصف المليون، وأطاحت

بآلاف الضباط وشكَّلت قوَّةً استخباراتيَّة كبيرة. لِمَ كل هذا الشيء وتلك النفقات؟ للدفاع عن العراق وحمايتها كدولة؟ لا، بل ليحميَ صدَّام نفسه ونظامه، أي أنَه أظهر التقليد القديم للسيطرة في شخصه، ذلك التقليد الذي ظهرَ منذ آلاف السنين، حيثُ نظرت القوميَّة العربيَّة إلى نفسها كما نظر ملكُ بابل إلى نفسه، كما نظر ملك آشور إلى نفسه، سوى أنَّ هذه الطريقة أضرَّت بالمجتمع إلى درجةٍ كبيرة. وهكذا انتُهجت سياسة الانصهار ضدَّ غير العرب والمجموعات العرقيَّة الأخرى، ضدَّ الآشوريين والتركمان، و لاسيَّما الكرد هذه المرة، ونُفِّذَت المجازر ضدَّ الشيعة وبعض الجماعات العرقيَّة الدينيَّة الأخرى والتي بقي منها القليل الآن، وبهذه الطريقة الأيديولوجية الفاشيَّة للبعثيين العراقيين وبالقوة الماديَّة التي بنوا على أساسها الجيش والتسليح والاستخبارات عاش المجتمع العراقيّ في ذلك العهد محنتهُ الأعظم وأوقاته الأسوأ على الإطلاق وباتَ صامتاً، مُكرَّراً وفاقداً للإرادة، تخلَّى عن الفن والأدب والبحث والاستكشاف، أي باتَ بالكامل لأجل خدمة النظام.

بلا ريبٍ لم تكن بغداد يوماً ما هكذا، بل كانت مركزًا ثقافيًا وتنويريًّاً، سوى أنَّ البعثيّون قضوا على كلِّ تلك الأمور والسمات.

٩- المجازر التي ارتكبها نظامُ البعث بحقّ الكرد في العراق:

تم ذلك في أكثر أشكاله فاشيةً، ولا سيَّما باستخدام الأسلحة الكيميائيَّة والإبادات الجماعية والمقابر الجماعية، أي في التعذيب والمذابح التي لا يمكن العثورُ على نماذجَ شَبيهةٍ لها، على سبيل المثال، ثمَّة أشياءٌ كثيرة حول الكرد، إن تحدَّثنا عن حلبجة سنقول إنَّ ما جرى كان مذبحةً استُخدِمت فيها الأسلحة الكيميائيَّة وبلغ عدد القتلى الكرد خمسة آلاف، فضلاً عن الجرحى وتدمير المدينة، لكن حصلت مجازرُ قبل حلبجة وبعدها، ثمَّة حملةُ الأنفال حيثُ سُجِّل خلالها حوالي مائة واثنان وثمانين ألف كردي في عِداد

المفقودين، في الوقت نفسه يُعتبَر هذا العدد عددَ سكَّانٍ لبلدٍ كامل، فمن اولئك المفقودون؟ معظمهم كان من الشباب والنساء والرجال، والأنفال يتأتّى من التقليد القرآني حين يغزو المسلمون الكفَّار، أي أن الكرد كَفَرَة، لذا أُعلِنَت التعبئة ضدَّ الكرد من قبل الكرد المُرتزقة والعرب والقوموبّيين الفاشبّيين، حيثُ أسروا الكرد في كل الأمكنة وتعذيبهم ومن ثمَّ قتلهم، كيف تمَّ قتلهم؟ لقد تمّ دفنهم وهم أحياء، أجروا عليهم تجاربَ، أخذوا أعضائهم ومن ثمَّ قُتلوا في وقتٍ لاحق، ثمَّة أشياءٌ كثيرة حصلت ونماذجُ كثيرة، لقد باعوا النساء ولا سيَّما لمصر والسعودية والكويت، ثمَّة البعض أثناء حرب الكويت تزوّجوا من اولئك النسوة دون أن يجبروهنّ على ممارسة الفاحشة، لقد كانوا مسلمين، ولكن لربَّما فعل واحد أو اثنان منهم ذلكَ الشيء، وحين حرب الكويت تعرَّفن النساء على عائلاتهنّ، تم بيع اولئك النسوة، سوى أنَّ الرجال الذين تزوجوا منهنّ لم يعاملوهنَّ كأداةٍ جنسيَّة أو كعاهرات بل تزوَّجوا منهنّ، ظهرت الكثير من النماذج على هذه الشاكلة، ولا أحد يسأل عن تلك الحوادث، لِمَ؟ فإن حصل وتعرَّف أحدهم إلى عائلةٍ ما فلن يكون بمقدوره الحديث، لِمَ؟ لأنَّه تحت حكمٍ اجتماعيٍّ معيَّن، وبإمكان المرء تتبَّع تلك العائلات، أين اولئك النسوة؟ في مصر، في دول الخليج، كيف تمَّ شراؤهنّ؟ سوف يكون سهلاً أمرُ العثور على المشتري، سوى أنَّ الكثير من المجتمع الكردي ليس بمقدورهم فعل ذلك وليسوا مستعدّين للأمر ويرونَه على أنَّهُ عار، لذا ولأجل ذلك لا يتتبَّعونَ المسألة.

ما الذي حدث للرجال في ذلك الوقت؟ قُتلوا ودُفنوا في مقابرَ جماعيَّة وأُبيدوا، لذا هذه هي الدولة القوميَّة ونتيجتها الإبادة، لذا فالمكان الذي يُعتبر مهمَّاً لها لأجل تحقيق تجانسٍ ما فإنَّها تنفِّذ فيها تلك الممارسات، ثمَّة كردٌ في بغدادَ وخانقين وأماكن أخرى كثيرة، الكرد الشيعة والفيليين، لذا ولأنَ ًهم شيعة فقد يكونُ لإيران تأثيراً عليهم، إنَّهم كرد ولكنّ تم توطينهم في جغرافيَّةٍ قريبةٍ من مناطق العرب، وهم أثرياءٌ للغاية، فمثلما فعل الأتراكُ يوماً ما مع الأرمن لأجل الاستيلاء على ثرواتهم، هذا ما حصل مع الكرد الفيليين لأنَّهم أغنياءٌ

للغاية، كما أنَّهم يتمتّعون بقدرةٍ فائقة على جمع المال، فعلى الرغم من أنهم كانوا منفيين وتمَّ الاستيلاءُ على أموالهم وممتلكاتهم، سوى أنَّهم دائماً كانوا ذا قدرةٍ على تحصيل الربح والفائدة، لذا تمَّ تهجيرهم، ولكن كيف؟ اقتحموا منازلهم في منتصف الليل قائلين لهم: أنتم لستم عراقيين، فلتذهبوا إلى إيران، واستولوا على ممتلكاتهم وأموالهم، أخذوا منازلهم التي بنوها بعملهم الخاصّ ووزّعوها فيما بينهم، أموالهم، سيّاراتهم، لقد سيطروا على كل شيء واغتنموه. لأنَّ كركوك مكانٌ للنفط كان لا بدَّ من العمل على إدماجها لكي تبقى للعراق إلى الأبد وتصبح ملكها وألَّا تغدو مشكلةً بين العرب والكرد، لذا تمَّ وضع سياسة تعريب كركوك على رأس الأعمال، بعبارةٍ أخرى استبدال الكرد بالعرب، فمن المسؤول عن سياسة التعريب في كركوك؟ علي حسن المجيد، وهو نفسه الذي أمر بقصف حلبجة بالأسلحة الكيميائيَّة.

أسَّس علي حسن المجيد مقرًّا له في كركوك وبدأ بالتخطيط، بحيثُ يتمَّ خلال فترةٍ زمنيَّةٍ قصيرة اقتلاع حوالي الثلاثين في المائة من الكرد واستبدالهم بالعرب، وفي المحصِّلة تمَّ خلال فترة قصيرة تهجير آلاف العائلات الكرديَّة قسراً من كركوك وفي منتصف الليالي، خرجوا وهم يرتدون بناطيلهم فحسب ودون أن يُسمَح لهم حتَّى بأخذ أمتعتهم، هكذا هُجِّروا من كركوك واستُبدلوا بالعرب، لم يكن هذا كافيًا، فقد جلبوا عرباً مختلفين ومنحوا لكلِّ عائلةٍ عربية عشرة آلاف دينار ليبنوا بها منازلَ لأنفسهم في كركوك. على سبيل المثال ثمَّة بعض الأحياء العربية التي تم بناؤها في تلك الفترة ولم يكن لها وجودٌ قبل ذلك، تمَّ تمويلهم بغيةَ تغيير التركيبة السكَّانيَّة للمدينة والقضاء على الخصوصيَّة الكرديَّة عبر الإدماج والإبادة الجسديَّة لتبقى كركوك مع منابعها النفطيَّة وبشكلٍ دائم مُلكاً للقوميَّة العربيَّة، لذا فإنَّ تلك الأمور تتسبَّب بجروحٍ داخل قلب المرء، لأنَّها بعيدة عن التخيُّل. ثمَّة الكثير من الأشياء، فالقوميَّة توفِّر مثل تلك الممارسات بحيث يفقد المرءُ قدرته على الاجتماع مع أُناسٍ آخرين أو التصالح معهم وينتفي الانسجام، يُبيدونَ تلك الأرضيَّة عن بِكرَة أبيها، لكن وبالرغم من إخفاء تاريخ القبول المتبادل والثقافة والقيم المشتركة،

فإن حصل وتوفَّرت الفرصة لدى الشعوب فإنَّهم لا يرون في ذلك أيَّة مشكلة، حيثُ بمقدورهم فهم بعضهم البعض بسرعة والعيش سويَّةً، كما ويمكن في العراقِ العثورُ خلال يومنا الرَّاهن على وضعٍ مماثل بعد كل تلك المجازر، سوى أنَّ القوميَّون ما زالوا يريدون لعب دورٍ ما والاستمرار في المشروع الذي بدأ به صدَّام وبطرقٍ مختلفة.

إن فهِم المرءُ العراق على هذا المنوال فسيكونُ أمراً جيّداً.

١٠ـ دور وتأثير السياسة الإسرائيليَّة في الشرق الأوسط:

إسرائيل هي القوَّة الأخرى في الشرق الأوسط، والتي تحدِّدُ السياسة وتوضِّحها عبرَ قدرتها الماديَّة والعسكريَّة والأيديولوجية والفكريَّة، فحين يتحدث المرءُ عن إسرائيل يأتي وضع اليهود إلى المقدمة ـأعتقد أن اليهود موصوفون بشكلٍ مكثَّف في الجانب التاريخي، لذا سنحاولُ جاهدين ألَّا نكرِّر ـحيثُ أكثر من الوضع التاريخي لليهود لا بدَّ أن نفهم الجوانب التاريخيَّة لإسرائيل، سنراجعُ التحليلات التي أجريت حول اليهود ولا سيَّما تحليلاتنا. ظهرت محاولات اليهود ومساعيهم لبناءِ دولةٍ وطنيَّة نتيجة تشتتهم ونفيهم، لا سيَّما في القرنين التاسع عشر والعشرين، وطبعاً فكرة الدولة القومية لعبت فيها الرأسماليَّة دوراً رئيسيَّاً من الجانب التمويليّ اليهوديّ، وهذه حقيقة، سوى أنَّه لم تؤسَّس دولة قوميَّة يهوديَّة خاصَّة وتابعة لليهوديَّة، لذا واجه اليهودُ على الدوام مشاكل النهب وجهاً لوجه ولا يزالون، ففي يومنا الرَّاهن حين يتفوَّهُ أحدهم بكلمةٍ سيِّئة ضدَّ اليهود تقومُ أكثر محاكم العالم بفتح دعاوى قضائيَّة، فحتَّى ولو كانت كلمةً صغيرة ، يُقال على الفور إن هذا معادٍ للسامية، ومن الممكن أن تتمَّ الملاحقة القانونيَّة بتهم الافتراء والتشهير، متى حدث ذلك؟ بعد الحرب العالمية الثانية حين وقعت المذبحة النازية ضد اليهود، ومن ثُم دوِّنت في التاريخ باسم "الهولوكوست" الذي يُفيد معنى

المحرقة، أي إبادة اليهود عبر الحرق. على أي مستوى حدث ذلك؟ بالتأكيد ثمَّة وحشيَّة في هذا الأمر، يقولُ الكثيرون أنَّ مذبحة اليهود تمَّ تضخيمها والمبالغة بها ولا يوجد شيءٌ من هذا القبيل وعلى هذه الدَّرَجة!، فيما يقولُ كثيرونَ أيضاً أنَّ الحدث كان على مستوىً عالٍ، لكن في المحصِّلة حدثت المجزرة، تمَّ ذبح اليهود على أيدي النازيين، وبعد ذلك، تمَ اعتبار ذلك الهجوم جرماً ضدَّ الإنسانيَّة، وعلى هذا الأساس قامت الحكومات الألمانيَّة المتعاقبة ولفترة طويلة بإدانة الجريمة وانتقادها، كما أنَّها عوَّضتهم من الجانب الماديّ، حيثُ شاركت العديد من الشركات الألمانية في مشروع بناء إسرائيل كجزءٍ من تعويض، وفي أيَّامنا الرَّاهنة سواءُ عبر الكلام أو الفعل ثمَّة ردود أفعال ضدَّ الاعتداءات التي حصلت ضدَّ اليهود. بسبب رأس المال الدولي، ولاسيَّما أمريكا وبريطانيا فإن علاقاتهما مع الرأسماليَّة اليهوديَّة عميقة بشكلٍ استثنائيّ وعضويَّة، فالقوة السياسية اليهودية سواءُ في أوروبا أو أمريكا تُعتبر قوَّةَ ضغطٍ كبيرة، غالبًا ما تفسح المجال لسياسات هذه الدول. وحين تتخذ الدولة قراراتها ولا سيَّما تلك المتعلقة بإسرائيل فإنَّها تتخذها تحت تأثير القوى الاقتصادية القمعية اليهودية. هذا الأمر متوفر في المجال السلطوي أيضاً، حيثُ كان سكرتير أوباما الرئيسي خلال العام ١٩٩٢ جنديَّاً إسرائيليَّاً، أو كان جنديَّاً في إسرائيل وهو الآن مدير مكتبه، ثمَّة الكثير من هؤلاء الناس، كما أنَّ ثمَّة نتاجاتٌ عديدة لليهود ولا سيَّما في تاريخ العلوم والفلسفة، كانت لديهم إسهاماتهم الخاصَّة المثيرة للاهتمام والتي أحدثت التغييرات ووسَّعت الأفق وأضافوا إلى العلم، أي لعبوا بشكلٍ عام ذلك الدور أيضاً، كما وساهموا في الفكر الاجتماعي للحريَّة، ومن المحتمل أن تكون الهجمات التي شنَّت عليهم واستبعادهم وقمعهم أدت إلى محاولاتهم في بحثٍ أكبر عن حريَّتهم، وفي النتيجة انضمّ العديد منهم إلى الفكرة الاشتراكية، حتَّى أنَّهم أظهروا مواقفهم في الجانب العسكريّ، ثمَّة العديد من الأمثلة، لا سيَّما في الحركة الاشتراكية الأوروبيَّة، ولعلَّ المثال الأكثر إثارةً للاهتمام روزا لوكسمبورغ والعديد من الشخصيَّات الأخرى المختلفة.

بشكلٍ عام كانت الرأسماليَّة والسلطات اليهوديَّة في خضمّ سعيها لإقامة دولةٍ لليهود، وأرادوا خلال فترةٍ ما أن يحقّقوا ذلك عبر الإمبراطوريَّة العثمانيَّة ولا سيَّما في عهد الاتحاد والترقّي، تُرى أكان بمقدورهم في مكانٍ ما على الأرض العثمانيَّة تأسيس دولةٍ لهم؟ لم يكن ذلك عمليَّاً جداً ولكن كان هناك مثل هذا الطلب. تحدَّثوا خلال فترةٍ ما عن أفريقيا ولا سيَّما في أوغندا وتأسيس دولة يهوديَّة هناك، سوى أنَّ هذا الأمر أيضاً لم يكن عمليَّاً. انعقد المؤتمر العالمي للحركة الصهيونيَّة -أي الحركة التي تعتبر الأشدَّ قوميَّةً بين اليهود- خلال العام ١٨٩٨ في سويسرا، الحركة الصهيونية حركة عنصريَّة، وقد اعترفت الأمم المتّحدة بذلك عبر بياناتها، لذا إسرائيل لا تعتبر نفسها صهيونيَّة، ولكنَّها صهيونيَّة، لا سيَّما وأنَّ قادتها كلَّهم صهيونيَّون. أخِذت الصهيونيَّة كتسمية من صهيون وهو تلٌّ في فلسطين له قداسته بين اليهود، إنَّه أشبه بجبل أو أصغر منه. تمَّ عقد المؤتمر وتقرَّر فيه ما يلي: أوَّلاً: يجب إقامة دولة قوميَّة لليهود، ثانياً: يجب أن تكون هذه الدولة في فلسطين لِما في ذلك من سماتٍ تاريخيَّة، ولأنَّها أرضهم القديمة وسبق وأن نشأت دولتهم القديمة في ذلك المكان زمنَ الملك داوود، لقد كانوا هناك دائماً، ويقولون عن تلك الأرض، الأرض الموعودة، أي أنَّ الله وعدهم بها وفقاً للتوراة، حيث أنَّ فلسطين وحسب المعتقد الدينيّ اليهودي أرضٌ منحها الله لهم ووعدهم بها، حتَّى أنَّ الإنجيل قال: إن الله يحب اليهود كثيراً ويعتبرهم شعبه المختار، لدرجة أنَّه منحهم أفضلَ مكانٍ على وجه الأرض: فلسطين"، لذا قالوا لا بدَّ أن تكون الدولة في فلسطين، ثالثاً: من الآن فصاعداً لا بدَّ على اليهود في العالم أن يتوجَّهوا نحو فلسطين، أي أن يهاجروا نحوها، رابعاً: لكي تتمّ هذه الرحلة إلى فلسطين لا بدَّ على رأس المال اليهودي واليهود الأثرياء تقديم العون الماديّ. انتشر اليهود في أوروبا، وحين تمَّ اكتشاف الولايات المتحدة الأميركيَّة توجَّهوا إليها أيضاً، أين انتشروا في أوروبا؟ في إنجلترا، هولندا، ألمانيا، لِم تواجد الكثيرون منهم في ألمانيا؟ على إثر البروتستانتيَّة الموجودة فيها والتي لم تمارس القمع الكثير ضدَّهم ولم يرفضوهم، ووُجد البعض منهم في إيطاليا خلال فترةٍ زمنيَّة، سوى أنَّ أكثر الأماكن وأفضلها التي استقرَّوا

فيها كانت ألمانيا وإنجلترا. بعد المؤتمر، ضَعُفت علاقة اليهود مع ألمانيا واستبدلوهم بالبريطانيين واتَّحدوا مع نظامها السياسيّ، لِمَ فعلوا ذلك؟ لأنَّ بريطانيا إمبراطوريَّة تحكُم العالم ولها تأثيرها الكبير على الشرق الأوسط، فلو كان لليهود نيَّةَ إقامةِ دولةٍ قوميَّة في فلسطين، فذلك غير ممكن دون موافقة بريطانيا، لذا كانت الرأسماليَّة اليهوديَّة دائماً تطلب من بريطانيا إعطائهم الموافقة على إقامةَ دولةٍ خاصَّةٍ بهم في فلسطين، البريطانيَّون لم يوافقوا بداية الأمر، سوى أنَّه وخلال العام ١٩١٧ كان ثمَّة وزيرٌ للخارجية البريطانية يدعى بلفور الذي أرسل رسالةً إلى رجلٍ يهوديٍّ ثريّ يُدعى روجيلد، وجاء في تلك الرسالة: "يجب على النظام الملكيّ الآن أن ينظر بإيجابيَّةٍ إلى إقامةِ دولةٍ يهوديَّة في فلسطين"، ليكون الأمر بمثابة وعدٍ من البريطانيين لليهود، وحتَّى الآن سنويًّا يستنكر العرب هذا التاريخ، ربما يوم ١٦ أكتوبر من كلِّ عام، لِمَ؟ لأنَّ هذا اليوم عُرِف بيوم وعد بلفور، في إشارةٍ إلى بلفور الذي وعد اليهود بإقامة دولةٍ لإسرائيلَ في فلسطين. وافق البريطانيَّون على الأمر، فازدادت هجرة اليهود إلى فلسطين من كلّ الأنحاء، العراق وسوريا وإيران وأوروبا الشرقية وأوروبا الغربية ليبنوا نظامهم هناك، بنوا القرى والتعاونيَّات والأحزاب السياسيَّة، ليس فقط العنصريَّة منها بل والأحزاب الاشتراكية كذلك الأمر، وبشكلٍ أساسيّ اولئك الذين أدخلوا الاشتراكية بانتظام إلى تلك المنطقة، كما وجلبوا الاشتراكية معهم، سوى أنَه توفَّرت أيضاً مجموعات عنصريَّة رأت في العرب أعداء، حتَّى أنَّها أرادت قتلهم، ولكن ما المنظور العامّ؟ كان المنظور العام إقامة دولة يهوديَّة. بدأت أعداد اليهود تتزايد في فلسطين ولم يكن النظام العربي بالمستوى الذي يمكنه فيه الردّ، حيثُ كان العرب منقسمون وتحت هيمنة البريطانيين، وكان الحكَّام العرب بشكلٍ عامّ جواسيسَ لبريطانيا التي كانت تموّهم. شعرَ العرب الفلسطينيَّون بالخطر والتهديد وكانت لديهم ردَّات فعل، ولكن ما الذي فعله ملوك الأردن أو غيرهم إزاءَ هذا الأمر؟ كانوا يعملون على التهدئة ويخدعونهم ولا يسمحون لهم بإشعالِ حرب أو الخوض في القتال، لذا لم يكن هناك في الحقيقة أيَّة عوائق أمام توطين اليهود في فلسطين، كان البريطانيون

يدعمون، فيما الرأسماليَّة اليهوديَّة تموّل الأمر على إثر امتلاكها القوَّة الماليَّة.
كان اليهود يعيشون حالة لا استقرار في العديد من الأماكن، ولا سيَّما في الدول العربيَة، على سبيل المثال، كان ثمَّة العديد من اليهود في العراق وسوريا وتركيا وإيران يشعرون باللا استقرار فولَّوا وجوههم نحو فلسطين، ومع مرور الوقت بدأوا باستخدام أساليبَ أخرى، حيثُ كانوا يمتلكون تنظيماً، فضلاً عن وجود الدعم البريطانيّ، مع امتلاك القوَّة الماليَّة، حيثُ أنَّ الأمر كان مموَّلاً من قبل الرأسماليين اليهود، لتغدو هذه القوَّة دعماً ومساندةً للهجرة الجماعيَّة اليهوديَّة نحو فلسطين، فاشتروا أراضٍ وبيوتاً فغادرَ العرب، استمرَّ الأمر حتَّى العام ١٩٣٦ إلى أن وصل العرب لنقطةٍ شعروا فيها بتزايد الخطر ضدَّ هذا التوطين، فبدأوا بالوقوف ضدَّ الإنكليز واليهود معاً، أي أنَّ المعركة كانت واسعةَ النِّطاق دون أن تؤدي إلى النصر رغم مشاركة الكثيرين فيها، على سبيل المثال، حينَ يتم تنفيذ عمليَّة ما ضد الإسرائيليين، فُيقال من الذي نفّذها؟ قوّات القسام، التي تمَّ إنشاؤها تيمُّناً باسم عز الدين القسَّام الذي سبق وأن حارب البريطانيين، سوى أنَّ تلك الحرب لم تصل إلى نتيجة على إثر خيانة الأردن، وبعد ذلك لم يعد أمام اليهود أيَّة عوائق، إلى أنَّ حلَّ العام ١٩٤٧ واتّخذت الأمم المتَّحدة قراراً نصَّ على: "لا بدَّ وأن تتأسس في فلسطين دولتان، دولة إسرائيليَّة وعاصمتها تل أبيب، ودولةً أخرى للعرب"، سوى أنَّ العرب لم يقبلوا الأمر، وقالوا أنَّ فلسطين دولة عربيَّة، واليهود قادمون من الخارج، لذلك لا نقبل هذا القرار ولا نشارك فيه، سوى أنَّ اليهود أعلنوا إسرائيل خلال العام ١٩٤٨ بناءً على القرار الصادر عن الأمم المتِّحدة –والذي قبلته جميع الدول تقريباً عدا الدول الإسلاميَّة وبعض الدول العربيَّة- حيثُ نفَّذ الإسرائيليَّون القرار بقيادة ديفيد بن غوريون، ولكن بعد عامٍ على ولادة إسرائيل كانت تركيا أوَّل دولة إسلاميَّة في العالم تقبل بها، أي اعترفت بوجود إسرائيل، ومنذ ذلك الحين لم تنقطع العلاقات التركيّة-الإسرائيليَّة دبلوماسيَّاً، ورغمَ أنَّ عديد الدول قطعت علاقاتها مع إسرائيل خلال العام ١٩٦٧ سوى أنَّ تركيا لم تفعل ذلك، فلطالما كانت تركيا بوَّابةً لإسرائيل، أو بوَّابةً للعالم للوصول إلى إسرائيل، حيثُ يمكن لليهود

الإيرانيين والشرق الأوسط عموماً الوصول إلى إسرائيل عبر تركيا، وعلى هذا المنوال كانت ثمَّة علاقة تاريخيَّة وحديثة موجودة بين الأتراك واليهود، ولكن خلال العام ١٩٨٤ خرج العربُ ضدَّ هذا الوضع، حيثُ أنَّ اليهود أعلنوا إسرائيل وأخرجوا العرب منها سوى القليل معلنين عن الدولة، سوى أنَّ العرب رفضوا: "نحن لا نقبل بهذه الدولة، نريدُ دولةً عربيَّة في فلسطين كلَّها وليس في مكانٍ واحدٍ فقط، لذا لا بدَّ من إسقاط إسرائيل وتدميرها، وعلى اليهود القادمين أن يعودوا"، لذا قال العرب: "نحنُ الآن لن نبني دولة عربيَّة في فلسطين، ولكننا سنفعل ذلك، فما الذي سنفعله؟ سوف نعمل على ربط غزَّة إداريَّاً بمصر، والضفَّة الغربيَّة بالأردن أو أن تُدار من قبلها، إلى آنِ القضاء على إسرائيل وقيام دولة فلسطين العربيَّة مرَّةً أخرى، كانت هذه نيَّتهم. على الرغم من إعلان قيام دولة إسرائيل خلال العام ١٩٤٨ وحصولها على قبول العديد من دول العالم وأصبحت عضواً في الأمم المتحدة، إلَّا أنَّ ثمة شقاقاً بينها وبين العرب بعد أن تسلَّمت بعض القوى الراديكاليَّة السلطة في الدول العربيَّة كمصر وسوريا والعراق، الأمر الذي أدَّى إلى انعدام شعور إسرائيل بالأمن كما في الماضي وبرزت مخاوفها الأمنيَّة إلى الواجهة لأنَّها بجوار دولٍ عربيَّة راديكاليَّة ووطنيَة تعزّزُ وتطوّرُ سلطاتها على قاعدة العِداء لإسرائيل ما تسبَّب في خلق وضع مؤسف لها، حيثُ اضطربت علاقاتها ومورِسَ ضدَّها الترويج على أساس تعميق الاضطرابات، ما نتيجة كل ذلك؟ اندلاع الحرب عام ١٩٦٧ بين إسرائيل والعرب، حيثُ كانت إسرائيل مدعومةً عسكريًّا من بريطانيا وأميركا، لكَّنها أظهرت نفسها بقوَّتها العسكرية ومهارتها القتاليَّة وجعلت تلك الحربُ منها أسطورةً وملحمة لا يمكن أن تُقهَر، لأنَّ هكذا دولة صغيرة وبعدد سكَّان قليل قاتلت وانتصرت ضدَّ أكبر القوَّات العسكريَّة العربيَّة، لذا يُشيرُ العرب إلى تلك الهزيمة بـ النكسة، ونظر إليها العرب على إنَّهُ انكسار، حيث حصلت أمورٌ غيرُ منطقيَّة وطبيعيَّة، ففي غضون أيَّامٍ ستَّة استولت إسرائيل على غزَّة والضفَّة الغربيَّة وعبرت إلى الأراضي المصريَّة واحتلَّت جزءاً من أرضها المرتبطة بغزَّة والتي تُدعى صحراء سيناء، حتَّى إنَّها وصلت إلى مقربةٍ من قناة السويس،

كما واستولت على الجبال الاستراتيجية الهامَّة في سوريا -سواءُ على الصعيد العسكريّ أو من ناحية الموارد المائيَّة- أي مرتفعات الجولان، ولم يكتفوا بذلك، بل توجَّهوا نحو المدينة السوريَّة الواقعة خلف هضبة الجولان، إلى القنيطرة، واستولت على قسمٍ من الأردن، الأمر الذي كان بمثابة كارثةٍ حلَّت فوق رؤوس العرب، وكأنَّهُ أمرٌ لا يمكن تصديقه! وظهر النظام السياسيّ العربيّ عاجزاً ضعيفاً وبلا أيَّة قيمةٍ تُذكَر، الأمر الذي كان له وطأة على العرب، فقدوا ثقتهم بأنفسهم واعتقدوا أنَّهم لن يتمكَّنوا من كسر إسرائيل وهزيمتها مرَّة أخرى، أي أنَّ الجيش الإسرائيلي ظهر وكأنَّه الجيش الذي لا يُقهَر، لذا أراد الفدائيَّون الفلسطينيَّون كسر هذه الأسطورة ونفَّذوا العديد من العمليَّات الفدائيَّة بأنفسهم، ولا سيَّما بعد أن فقَدوا الأمل في أن يأتي العرب لإنقاذهم، ليبدأوا العمل المسلَّح بأنفسهم، وشكَّلوا منظَّماتٍ يساريَّة ويمينيَّة متطرِّفة مختلفة، سوى أنَّها كانت تنظيمات مسلَّحة بشكلٍ عامّ ومنطلقة من الكفاح المسلَّح، وبنوا لأنفسهم قواعدَ عسكريَّة في بعض الأماكن وطوّروا من عملياتهم ضدَّ إسرائيل، كان هذا الأمر يتمَّ ويتقدَّم على الجبهة الفلسطينيَّة، لذا وسَّعت إسرائيل على إثر تلك الخطوات مجالَ مناوراتها، فقامت في أماكن أخرى وبقوَّةٍ أكبر بالتفاوض مع العرب، العرب الذين لم يقبلوا إقامة دولةٍ لهم في غزة والضفة الغربية، ولكن غزَّة والضفَّة الغربيَّة ذهبتا كما ذهبت أرض سوريا ومصر، ولن يستطيع العرب هذه المرَّة القول باستعادة فلسطين، حيثُ لا يمكنهم فعل ذلك، فكيف سيستعيدونها؟ ليغدو الأمرُ مشكلةً.

تكوَّنت لإسرائيل أرضيَّة مناورة سوى أنَّها تعرَّضت للتشهير حول العالم، كيف حدثَ ذلك؟ قطعت دولٌ عديدة علاقاتها الدبلوماسيَّة معها ووصفتها على أنَّها غير عادلة، سوى أنَّ إسرائيل لم تُصغي لأحد، كانت مدعومةً بريطانيًا وأمريكيًا ولم تكن لديها مشاكلُ من الناحية الماديَّة والعسكريَّة، لذا مضت دون أيَّ عقباتٍ مستمرَّةً حتَّى يومنا الرَاهن.

فلتلاحظوا أنَ إسرائيل ليست مثل إيران، فحين تفرضُ الدولُ حظراً على إيران فإنَّها تعاني، لكن إسرائيل ليست كذلك لأنَّها تُحظى بمساندةٍ من أمريكا وإنجلترا وفرنسا والرأسماليَّة العالميَّة، لذا ومنذ ذلك الحين عزَّزت إسرائيل مكانتها جغرافيَّاً وسكَّانيَّاً وحصلت على أسلحةٍ نوويَّة، فيما كان العرب -ولا سيَّما الأنظمة السياسيَّة- في حاجةٍ إلى استعادة الاعتبار والمصداقيَّة.

لأجل ذلك وخلال العام ١٩٧٣ وضعت مصر وسوريا خطَّةً سريَّة دون إبلاغ أيٍّ من الدول الأخرى، وبينما كان ثمَّة عيدٌ في اسرائيل - عيد الغفران- فضلاً عن إنَّ مصر كانت قد أظهرت في الجانب الدعائي أنها لا تنوي الحرب ما أدَّى إلى تراخي إسرائيل، وفي ٦ أكتوبر ١٩٧٣ أُعلِنَت الحربُ على إسرائيل من جبهتين، الجبهة المصرية من سيناء، فيما الثانيَّة السورية في الجولان، هُزمت إسرائيل بسرعة لأنَّها لم تكن مستعدة، كسر المصريون خطّ المواجهة أمام قناة السويس واستولوا عليها، فيما استولت سوريا أيضًا على الجولان بسرعة.

أثناء ذلك حَشدت إسرائيلُ قوَّتها وهاجمت، واندلعت خلال شتاء ١٩٧٣-١٩٧٤ حربُ جبهةٍ مقابلَ جبهة بين العرب وإسرائيل، ولكن تمَّ إيقافها بتدخَّل من الأمم المتِّحدة، ووفقًا لإيقاف تلك الحرب استعادت مصر أراضيها كلَّها وتمَّ الإعلان عن وقف إطلاق النار، كما وعادت القنيطرة -التي احتلَّتها إسرائيل سابقاً- إلى سوريا، ما عدا الجولان وذلك لاستراتيجيَّتها بالنسبة إلى إسرائيل، وحتى يومنا الرَّاهن فإنَّ قضية سوريا مع إسرائيل هي مرتفعات الجولان، وهي عبارة عن مراتعَ مرتفعة وتتميَّز باستراتيجيَّة غايَّة في الأهميَّة من الناحية العسكريَّة ومسيطرة على سوريا، أوَّلاً لها موقعها الاستراتيجي، وثانياً فإنَّ مياه الشرب تتدفق بشكل أساسي من مرتفعات الجولان إلى إسرائيل ولا سيَّما أنَّ إسرائيل لها مشاكلها فيما يخصُّ مياه الشرب، لذا غادرت إسرائيل سيناء فوراً وسلَّمتها لمصر، سوى أنَّها لم تغادر

الجولان ولن تغادرها قريباً، أو ربمَّا لن تغادر البتَّة إن استمرَّ الوضع على هذا النحو ولأنَّها تعتبر موقعاً استراتيجيَّاً.

١١ـ تطوَّر الانتفاضات الفلسطينيَّة ضدَّ إسرائيل:

بقي الوضع على ما هو عليه منذ ذلك الحين، بعد اندلاع الحرب اللبنانية عام ١٩٨٢ وعلى إثر تمركز القوات الفلسطينية كلها في لبنان ودَّت إسرائيل تجنُّب وإبعاد خطورتهم لذا عمدت إلى إخراجهم من هناك، لأنَّهُ ليس بمقدور إسرائيل حلَّ القضيَّة الفلسطينيَّة بالقوة العسكرية المادية، فقامت خلال العام ١٩٨٢ بتصفية القوَّة العسكريَّة الفلسطينيَّة في لبنان، حتَّى أنَّ ثمة رفاقٌ لنا استشهدوا هناك وأُسِروا. بعد ذلك بدأت الانتفاضات، ولا يمكن أن نقول عنها أنَّها لم تكن تشبه الانتفاضات أو عديمة الشكل وبدون أيَّة شعارات، وكأن منظمة التحرير الفلسطينية لا علاقة لها بها، لا، بل تطورت تلك الانتفاضات تحت مراقبةٍ تامَّة من منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة ووضعت شعاراتها كي لا يتمّ قمعها بسرعة، بدأت الانتفاضات منذ العام ١٩٨٣ وما بعده. سُمَّيَت بالانتفاضة، انتفاضة غير مسلّحة، وإنَّما بالحجارة، لكنها تطوَّرت بالكامل تحت إشراف التنظيم، لِمَ؟ لأن التنظيم في الجانب المسلح لم يعد بمقدوره التدخُّل في إسرائيل، حيثُ كان قد خرج من لبنان وضعُفَت قوَّته العسكريَّة وتشرذَمت، فيما المتبّقون استقرَّوا في تونس، حيث تونس وإسرائيل متباعدتان وليس بمقدورهم التدخل عسكريًا، لذا بدأوا البحث عن طرقٍ أخرى لمضايقة إسرائيل، فما هي تلك الطرق؟ طرق الانتفاضات، والرجل الذي لعب دورًا رئيسيًا في مضاعفة أعداد المشاركين في الانتفاضة هو زعيمٌ فلسطيني يدعى خليل الوزير المُلقَّب أبو جهاد، اغتالته إسرائيل عام ١٩٨٦ في تونس، فما السبب؟ خليل الوزير كان مهندس الانتفاضات وعمل على تطوير كل شيء بطرقٍ مخطَّطةٍ لها. على سبيل المثال، حتى الرفاق الآن يقولون لِم لا يمكن لبعض الأشياء أن تنجح بدون خطَّة، لكن، نحنُ الكرد لا

نستطيع فعل ذلك، فأحياناً الجملة التي لا بدَّ أن نقولها في النهاية نقولها في البداية! لا نستطيعُ السيطرة على أنفسنا ونفصحُ عن كلِّ شيء حتَّى لو كان سرَّاً، سوى أنَّهم ليسوا كذلك، فعلى سبيل المثال يقول خليل الوزير: "في البداية كان علينا إبداء عدم الرضى، ولكن كيف ذلك؟ أي أن تكون حركة فتح مستقلَّة تماماً، أي مستقلة عن منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة، مضيفاً: "لكن إن قمنا بمواصلة الأمر بشكلٍ أطول فإنَّ التنظيم كان سُيكشَف ولن يغدو له أيَّ معنى، وهذا أمرٌ سيّء، لذلك استغرق الأمر وقتًا، حيثُ طوَّرنا خطوةً إثر الأخرى شعارات التنظيم وأبرزنا لونه وخطابه"، ولكن ليس في بداية الأمر كي لا يتمّ تصفيتها بسرعة، فيقول: "لكن إن استغرقنا وقتاً طويلاً دون أن نُعلِن عن أنفسنا كان العالم سيقول أنَّ التنظيم اختفى لذا انتفض الناس، الأمر الذي سيسبّبُ لنا الخسارة، لذا كان علينا تحديد التوقيت بشكلٍ جيّد، وكيفيَّة تشكيل اللجان والشعارات وكل تلك الأشياء". الفلسطينيون لم ينفِّذوا عملياتٍ مسلَّحة مثلنا، بل كانت أنشطتهم موسميَّة، لم يفعلوا كما فعلنا نحن ولم يقاتلوا كما قاتلنا أو قاوموا كما قاومنا نحن، ولكن ما الذي استفادوه من ذلك؟ كانت علاقتهم مع الشعب عضوية وطبيعيَّة، فلمجرَّد أن يُصدروا بياناً من تونس كان الشعب بأكمله ينهض، وهذا الأمر يعتبر مشكلةً في تنظيم حرية الشعب الكرديّ. نحن لم نحقِّق تلك العلاقة الطبيعية مع الناس بعدُ بالشكل الجيّد، أي أننا ما زلنا في مواجهة مشكلة بهذا الصدد، ما زلنا نواجه مشاكل في تحفيز الناس على الانضمام للحركة، لِمَ؟ على إثر انعدام التنظيم، فيما هم لم تتوفَّر مشاكل كبيرة لديهم في هذا المنحى، لذا طوَّروا الانتفاضة.

لِمَ قُلتُ أنَّ إسرائيل بقوَّتها العسكريَّة والماديَّة ليس بمقدورها حلَّ القضيَّة الفلسطينيَّة، لأنَّه إن لم يحلَّ اليهود القضيَّة الفلسطينيَّة فإنّ القضيَّة اليهودية لن تكون في أمانٍ أيضاً، والعداء لا يمكنه أن يساهم في حَلِّ المشكلة، لهذا قال رئيسُ الوزراء آنذاك يهود أولمرت بعد عودته من زيارةٍ خارجية: "نحنُ مُجبرون على حلِّ المشكلة، فلكي يكون هناك يهود علينا حلّ المشكلة". لأن المشكلة القائمة على العِداء والإنكار والرفض يمكن أن يؤدي إلى ديمومتها،

ستتطوَّر القوميَّة العربيَّة دائماً ضدَّ اليهود، وهذا الأمر حين يغدو حرب شعوب لن يكون بمقدور أحد السيطرة ولا سيَّما في يومنا الرَاهن وستشتدّ أكثر في الأيَّام المُقبلة، لذا فإن بقي اليهود كعنصرٍ من عناصر الشرق الأوسط فمن المهم لها التعامل مع شعوب المنطقة على أساس حلٍّ ديمقراطي. الآن ومهما كانت للقوميَّة العربيَّة والعصبيَّة الدينيَّة دوراً في مذابح اليهود والأرمن والآشوريين في المنطقة، فإنَّ للحركات والخط السياسي للطبقة الحاكمة لهذه الشعوب دورها أيضاً، لأن هؤلاء الناس هم من شعوب المنطقة سوى أنَّهم يتظاهرون وكأنَّهم مهووسون بالغرب. مثال: الآشوريون شعبٌ أساسيّ من شعوب الشرق الأوسط، الأرمن كذلك الأمر وأوَّل من باتوا مسيحيين بشكلٍ منظَّم في الشرق الأوسط، كما أنَّ اليهود أيضاً من شعوب الشرق الأوسط، لكن قيادة تلك الشعوب وسلطاتها ورأسماليَّاتها أفصحت عن نفسها دائماً على أنَّها عاشقةٌ للغرب، لذا استخدم الغرب هذا العامل أيضًا، كيف استخدم ذلك؟ عبر الديانة المسيحيَّة، الأمر الذي وفَّر الأسباب لحصول المجازر، لاحظوا أن المجازر هنا ليست مبررة ولكن ثمَّة أسباباً تؤدِّي إليها، والإمبرياليَّة هي المسؤولة عنها في المستوَى الأوَّل. أرادت فرنسا وبريطانيا بشكلٍ غيرِ سويّ أن تلعب بورقة الأرمن والآشوريين، وحتى يومنا هذا يستخدمون ورقة اليهود، وفي الوقت عينه تُضحّي بهذه الشعوب في سبيل سياساتها الخاصة. يمكن حل هذه المشكلة من خلال الدمقرطة الداخلية، وهذا يعني أن على اليهود أن يصبحوا ديمقراطيين فيما بينهم، وأن يقيموا على هذا الأساس علاقاتٍ ديمقراطية مع محيطهم ومن ثم آنذاك تُحلُّ المشكلة اليهوديَّة.

ثمَّة مشكلة أخرى لليهود وهي مشكلة الاحتكار، فهم يَبنون الاحتكار، الإعلام في أيدي اليهود، رأس المال، الفن وما إلى ذلك، ليغدو هذا الاحتكار مصدرَ غيرةٍ وحقد، الأمر الذي يؤدِّي دائمًا إلى تصويرهم على أنهم هدف وأرضيَّةً للهجوم، ربما مرت أربعون سنة وهم يحمون أنفسهم، ولكن إلى متى سوف يفعلون ذلك؟ لذا فإنَّ الدمقرطة الداخلية والخروج أو الابتعاد عن سياسة الاحتكار يزيل اليهود من ساحات الإبادة الجماعية والقضاء على الخطر

المحدِق بهم. حتَّى الآن لم يُعثَر على مفهومٍ أو أرضيَّةٍ مبنيّتان على أساس ديمقراطيَّة يأخذ فيها اليهود مكانهم، وتكون الحرب هي نتيجة مواجهة النزعة القوميَّة للعرب، وتتعمَّق أكثر في يومنا هذا، ولا سيّما في شخص حركة حماس وبعض الجماعات القوميَّة الأخرى، وتتعمَّق في الجبهة اليهودية كذلك الأمر، ويتطوَّر الأمر كمعارضة متوازنة، فيما القوى الدوليَّة والإقليميَّة تقيِّم تلك الأمور وفق مصالحها الخاصَّة، مثال، إيران دائماً تودُّ أن تحارب حماسُ إسرائيل، لِمَ؟ لأنَّه إن لم يتوفَّر عائقٌ أمام إسرائيل فستكون أكثر قدرةً على تشكيلِ تهديدٍ لها، لذا فإنَّ القوميَّة العربيَّة والتطرُّف الدينيّ الفارسي دائماً ما تودَّان حماية نفسيهما عبر القوى القوميَّة والإسلامويَّة العربيَّة في فلسطين، لذلك فإن اليهود يسيَّرونَ السلطة بشكلٍ رسميّ على أساس فكرة الدولة القوميَّة، الرأسمالية، لأجل اليهود والرأسماليَّة العالميَّة. بالطبع سنتوقف عند إسرائيل وأهميتها بالنسبة للسياسة الإمبرياليَّة، لكن بشكلٍ عام هذا هو الوضع في إسرائيل، وفي الواقع ليس كل اليهود في إسرائيل، كما أنَّ اليهود في إسرائيل ليسوا نفسَ الشيء، لا توجد صراعات عميقة ضمن المجتمع اليهوديّ، لأن هناك شوفينية ونظرًا لوجود القومية، فالقومية حين تغدو ديناً فإنَّها تقلِّص الصراعات السياسيَّة الطبقيَّة وعبر بعض الترويج الخاصّ، لذا حين ينظر المرءُ من الخارج، سيقول وكأنَّه مجتمعٌ فيه انسجام، ولكن ليس ثمة شيءٌ من هذا القبيل، على سبيل المثال، ثمَّة الآن صراعٌ في إسرائيل بين يهود الشرق والغرب، وثمَّة يهودٌ لا قيمة لهم، ولا سيَّما اولئك الذين جُلبوا من أفريقيا للعمل كجنود. إن النزعة العسكرية تضعف تدريجياً في المجتمع الإسرائيلي، لأن المجتمع الإسرائيلي كله عسكري، النساء جنودٌ والرجالُ كذلك، تذهب الفتيات اليهوديات إلى الجيش ويذهب أزواجهنَّ إلى الجيش، - حين تتزوج الفتاة يمكنها ترك الجيش- لكن في الآونة الأخيرة تطوَّرت الكثير من الانتقادات، حيث قامت العديد من النساء اليهوديات ببثّ رسائل على الإنترنت حول كيفية فقدهن لجوهرهنَّ وكيف دخلوا في خدمة النظام، وكيف قاموا بالتخريب، أي يعترفنَ. تلك النزعة العسكرية تضعف وتتقلَّص تدريجياً الآن في المجتمع اليهودي، حتى أنَّ ثمَّة أصوات ديمقراطيَّة تظهر ضدَّ

تصرفات الدولة إزاء العرب على شكل مسيراتٍ احتجاجيَّة وتجمُّعات. لكنَّ اليهود يُدارون من قبل النظام العالميّ أيضاً، فحين تمّ إسكانهم في الشرق الأوسط، لم يكن ذلك لأجل اليهود أو لأنَّ البريطانيَّون أشفقوا عليهم وصنعوا لهم دولة، لا، بل ليكون لهم مقرٌّ يتحكَّمون عبرهُ في المنطقة، وأن يكونوا على عِداءٍ مع سكان المنطقة ولا يوجد أي تواصل معهم، بل يكونوا أعداء فقط، وبالتالي يكون بالإمكان للقوى العالميَّة التحكُّم، وإضعاف ديناميكيات المنطقة، لقد صنعت الإمبريالية تلك الدولة من أجل هذا، لذا لا يمكن لليهود أن يكونوا ديمقراطيّين حتى لو أرادوا ذلك، لأن النظام الرأسمالي الدولي قد منحَ دائماً مَهمَّةً لليهود ولإسرائيل وهي معارضة شعوب المنطقة والتحكُّم في الديناميكيَّات داخل المنطقة، وهذه مشكلة جديَّة، لذا فإنَّ الدمقرطة الداخلية سوف تحلُّ مشكلة اليهود. وقد تحدَّث القائد كثيراً في مرافعاته حول اليهود والأرمن والآشوريين، حيث أنَّ مصادر مشكلتهم هي نفسها: حكَّامهم، رأسماليوهم وأثرياؤهم، مقارباتهم القومية وارتباطاتهم بالخارج. وطريقةُ الحل هي الدمقرطة الداخلية، هذا هو الأمر بالنسبة إلى وضع اليهود وإسرائيل، وهكذا تتكوَّنُ أشكالٌ سياسيَّة في الشرق الأوسط، دولة مركزيَّة كتركيا أو بلاد فارس، والعديد من الدول العربيَّة المختلفة، إضافةً إلى كردستانٍ مستنكَرَة وإسرائيلٍ غريبة، لتتعمَّق الفوضى أضعافاً في الجانب السياسيّ للشرق الأوسط وتتعمَّق في عصر الرأسماليَّة العالميَّة.

١٢ـ أثر قوميَّة جمال عبد الناصر على حركة التحرير الفلسطينيَّة:

على إثر القوميَّة المتقدِّمة في مصر والنجاحات التي حقَّقها جمال عبد الناصر ظهرت حركة بين العرب باسم الحركة القوميَّة العربية، وهي تسمى في اللغة العربية حركة القوميين العرب أو حركة القوميَّة العربيَّة، ونتيجة لهذه الحركة ولدت حركة التحرير الفلسطينية، وكان زعيمها يُدعى عرفات وهو فلسطيني سوى أنَّه ولِد في مصر وكان مهندسًا، وانخرط في الحركة

القوميَّة العربيَّة. انقسمت الحركة القوميَّة العربيَّة فيما بينها حسب الوظيفة والمُهمَّة ولكن كانت لها صلات عضوية، وخلال العام ١٩٦٤ ظهرت منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة بشكلٍ رسميّ. بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧ عثرت الحركة الفلسطينية لنفسها على مَهمَّةً أخرى، وهذا يعني أن الحركة الفلسطينية لم تعد جزءًا من الحركة القومية العربية العامة، حيثُ كسبت نفسها وجوهرها بشكلٍ أكبر وأصبحت هي من تتحكَّم في ذاتها ولم تعد في انتظار العرب لكي يعملوا على مصالحتهم مع إسرائيل ويحلُّوا القضيَّة الفلسطينيَّة، بل أن تعمل خطوةً إثر الأخرى وعبر الحرب المسلَّحة على تحرير فلسطين. بعد تلكَ الهزيمة ظهر شيء آخر، كان ثمَّة انقسامٌ في المجتمع الفلسطيني، أي الفارق بين الفقراء والأغنياء واللاجئين (المهاجرين)، وبين الحركات السياسية على هذا النحو، ولا سيَّما أنَّه كان هناك تطور لليسار الثوري في العالم، وحركة فيتنام، واليسار الأوروبي، وحركة الشباب خلال العام ١٩٦٨ والعديد من الحركات الأخرى في العالم التي صنعت هذا الأمر، اليساريَّون ينتصرون، فيما اليمينيَّون لم ينجحوا، إن شخصيَة حركة التحرير الفلسطينية هي في الأساس شخصيَّة يمينيَّة يقودها عرفات، لهذا خرجت بعض الشخصيات الأخرى، جورج حبش ونايف حواتمة، بالإضافة إلى أشخاصٍ آخرين كانوا ثوريِّين، ثوريِّين راديكاليِّين يؤمنون بالماركسية اللينينيَّة وجعلوا أنفسهم جزءًا من الحركة اليساريَّة العالميَّة، ظهرت الحركة اليساريَّة عام ١٩٦٨ بين الفلسطينيين.

١٣ـ تطوُّر الحركة اليساريَّة في فلسطين:

كان لظهور الحركة اليساريَّة بعضاً من ظهور حزب العمال الكردستاني، سوى أنَّها كانت دوليَّة جدَّاً ومرتبطة للغاية بالاتحاد السوفييتي والعديد من الدول العربيَّة التي تكنُّ العِداء لإسرائيل، أي لم تكن مستقلَّةً مثل حزب العمال الكردستاني، فما سببُ ذلك؟ كان ثمَّة يأسٌ من الأحزاب الشيوعية الكلاسيكية

وانتقادات للاتحاد السوفيتي ووجهة نظر للصراعات الطبقيَّة داخل المجتمع الفلسطيني، كان صعود الحركة اليسارية في فلسطين، والحركة اليسارية المسماة حزب العمال الكردستاني في كردستان على الأرضيَّة ذاتها، سوى أنَّ الحركة وطريقة العمل غير متشابهتان، حيث أنَّ حزب العمال الكردستاني أصرَّ على الدفاع عن استقلاله، فيما هُم –أي الحركة اليساريَّة الفلسطينيَّة- لم تتمكَّن من الدفاع عن استقلاليّتها، لذا فقدت القدرة على حماية نفسها في خضمِّ تلك المشاكل والصراعات. كيف دافع حزب العمال الكردستاني عن استقلاله؟ دافع بعنادٍ عن استقلاله، رضيَ بالأمور الصغيرة، هكذا دافعَ، رضيَ بالجوع والفقر والاختباء، فيما هم لم ينضمَّوا إلى تلك النتائج، أي كانوا في بحثٍ دائم عن الفرص، فالمرء حين يودُّ الفرص لا بدَّ وأن يقدِّم تنازلاتٍ أيضاً لقاء تلك الفُرَص، وقد تنازلوا فعلاً، ولكنَّها كانت تطوّراً كبيراً على الساحة الفلسطينيَّة وكان لها تأثيرها على العالم العربي بأسره لدرجة أنَّه كان بمقدورها أن تغدو دولةً في اليمن، وفي اليمن الجنوبيَّة استولت على جزءٍ من السلطة وبقيت هكذا حتَّى العام ١٩٨٧. أرادت الحركة الفلسطينية حلَّ قضيتها بنفسها، سوى أنَّها استندت بشكلٍ كبير إلى اللجوء، حيثُ اجتمعوا خلال فترةٍ في الأردن لدرجة أن أعداد الفلسطينيين تجاوزت عدد سكَّانها، حتَّى أنَ الجيش الفلسطينيَّ دخل الأردن كذلك الأمر، وبعد فترة رأى ملك الأردن أن زمام المبادرة يخرجُ من بين يديه، وذلك يفيد معنى أنَّ الفلسطينيَّون باتوا قوَّةً، يراقبونَ الطرق ويمارسونَ الرقابة على الناس وأشياءَ أخرى كثيرة، ولهذا كانت إسرائيل مستاءَةً أيضًا، لأنَّ القوَّة الفلسطينيَّة على الحدود الأردُنيَّة تعتبر تهديداً ولا استقراراً لها، لذا تآمرت الأردن وارتكبت مجزرةً كبرى في حق الفلسطينيين، ولا سيَّما اليسار، فعلى الرغم من أنَّها كانت ضربة موجَّهة ضدَّ كل القوى الفلسطينيَّة، إلَّا أنَّ أكثر من تضرَّر هو اليسار الفلسطينيّ وتسبَّبت في شلله التامّ، حيثُ قُتل الكثير، ويتمَّ تسمية هذه المذابح في الأدبيَّات الفلسطينيَّة باسم أيلول الأسود وحصلت خلال العام ١٩٧٠. غادروا الأردن نحو لبنان، ليتكبَّروا ويتجاوزوا حدودهم في لبنانَ أيضاً عبر قوَّتهم العسكرية ومواردهم الماديَّة، فعوض أن يبنوا علاقاتٍ وديَّة مع حركة التحرر الوطني

اللبنانيَّة كانوا يفعلون مع الميليشيَّات. ملكوا القوَّة العسكريَّة وسلطة المال، حيث العالم كلُّهُ يدفعونَ لهم، امتلكوا دباباتٍ وسيَّارات ومناطق تحت حكمهم وأموال ورواتب، كانت ثمَّة منظَّمات تدفع رواتب طائلة، فيما بعضها الآخر تدفع رواتب ضئيلة، لكن بشكلٍ عام ثمَّة رواتب كانت تُدفَع للحركة الفلسطينيَّة، سُمِح لهم بالسيارات والأموال، ودُفعَت لهم أموالٌ من الاتحاد السوفيتي وغيرها من الدول، وتكبَّروا كثيراً إلى حدِّ أنَّهم باتوا أشبه بسلطةٍ، لا بل أسوأ منها، لذا حين هاجمتهم إسرائيل بحلول العام ١٩٨٢ لم يقاوموا كثيراً، فالفرص الماديَّة التي كانت متوفِّرةً لديهم جعلتهم يتكبَّرون، الأمر الذي أدَّى إلى شيوع التفكُّك والانحلال بين صفوفهم، حتَّى أن البعض من رفاقنا المبدئيين وأصحاب المناهج الثوريَّة كانوا يتعرَّضون للسخرية منهم بالقول: "لقد كنَّا مثلكم في ما مضى"! لذا وخلال العام ١٩٨٢ حلَّت بالفلسطينيين هزيمة عسكريَّة جديَّة استنزفت قوتهم العسكرية بشدَّة، يتواجدون الآنَ في لبنان، ولكن كيف؟ بخاصَّةٍ في مخيَّمات اللاجئين، لدرجة أنَّ الحكومة اللبنانية لم تستطع السيطرة على تلك المخيمات، إنهم يُديرون أنفسهم بأنفسهم وثمَّة مصالح خاصَّة بهم، لكن ليس كما كانوا سابقاً كقوَّةٍ عسكريَّة كبيرة قادرة على تهديد إسرائيل، الآن القوة التي تهدِّد إسرائيل في لبنان ولا سيَّما في جنوبه هي قوَّة حزب الله. لقد عاش اليمينيون الفلسطينيون بعضاً من التشرذم والانقسامات الداخليَّة، لكن بقوا أقوياء بعونٍ من التخلُّف العربيّ، لا سيما حين كان عرفات على قيد الحياة، وهم اليوم يتقلَّدون السلطة في جزءٍ من فلسطين، ومن مُخلَّفاتها أناسٌ مثلَ محمود عبَّاس. لقد ضَعُفَت الحركة اليساريَّة في الأردن على إثر الضربات التي تلقَّتها، لذا نشطَ الإقصاء أيضاً، ما هوَ الإقصاء؟ أي حين تبتعد عن أهدافك، ونتيجةُ ذلك كانت ظهور قوَّة بينهم ربطتنا علاقات صداقة معهم، حيثُ ظهرت تلك القوَّة قائلةً: "لا يمكن إيجاد حلول نهائيَّة، بل حلول مؤقَّتة، لذا طرحوا بعض النقاط وقالوا سنفعل كذا وكذا لنعثر على الحلّ بهذه الطريقة". كان يقود تلكَ القوَّة رجل يدعى نايف حواتمة الذي انشقَّ عن جورج حبش مؤسِّساً جبهةً أخرى خلال السبعينيَّات وما تلاها سُمّيت بالجبهة الديمقراطيَّة، لقد كانت ماركسيَّةً أيضًا،

وكان لدينا الكثير من الاتصالات معهم، حتى أن مقرَّاتنا التدريبيَّة كانت قريبةٍ من بعضها البعض، واعتاد الرفاقُ الحصولَ على التدريب في مقرَّاتهم أيضاً.

في وقتٍ لاحق، ظهر جزء آخر من نفس الجبهة وبدعمٍ كاملٍ من ليبيا التي دفعت لهم أموالاً ورواتبَ وأسلحة، كانت تسمَّى الجبهة الشعبيَّة، أو القيادة العامّة، ترأسها أحمد جبريل، فيما ظهرت جبهةٌ أخرى يساريَّة بدعمٍ عراقي سُمّيت بـ النضال الشعبي بقيادة صبحي غوشة، ليظهر شخصٌ آخر يدعى "طلعت يعقول" الذي كان يساريًّا أيضاً تحت اسم "جبهة الإنقاذ"، هذا يعني أن حركة اليسار بين الفلسطينيين كانت شديدة الانقسام، والآن لا يملكون أيَ تأثيرٍ يُذكَر، ثمَّة تحركات لهم، يقومون بنشاطاتٍ معيَّنة، زعيم الجبهة الشعبية مسجون في إسرائيل، لكنهم ليسوا أقوياء كاليمينيّين، كما أنَّهم تجاوزوا القوى الإسلامويَّة، هذه هي الحركة الفلسطينية وتجلِّيَّاتها، بيد أنَّ الوضع الذي تعيشه اليوم يعتبرُ شيئاً آخرَ.

١٤ـ الطائفة الشيعيَّة ليست بنية تحتيَّة متجانسة:

لا شكَّ وأنَّ ثمَّة خصائص مشتركة فيما بين مسألة الشيعة والدين، وهو الدين، فالشيعة بنية تحتيَّة متجانسة، الجميع متساوون، ويفكّرون بالطريقة ذاتها، لأنَّه ثمة شيعةٌ فرس وآخرون كرد وعرب، ثمَّة أنواعٌ مختلفة، ثمَّة شيعة في باكستان وآخرونَ في أفغانستان، أي إنَّهم موجودون في جميع أنحاء العالم وتوجد صراعات بينهم، رغم ذلك لديهم بعض الأشياء المشتركة ومعتقداتهم واحدة ومشاعرهم كذلك، يملكون الوجدان نفسه ويبكون لأجل الأشياء ذاتها، ويضربون أنفسهم، أو بعبارةٍ أخرى، لعلَّ الشيء الذي جمعهم من الناحية السلطويَّة هو النجف، حيثُ كانت الأخيرة على الدوام مركز العلم، قبر حضرة علي بن أبي طالب في النجف، لذا فإنَّ زعماء الشيعة كانوا يخرجون من هناك دائماً. وصل شيعة إيران إلى الحكم بعد الثورة الإيرانيَّة، ثم صمتت

النجف لأن صدام عمل على إسكاتها وقتلَ زعيم الشيعة الكبير، حظرَ احتفالاتهم وذهابهم إلى كربلاء، مثلاً: لم يذهب أحد إلى كربلاء في السبعينيات على إثر المنع، إلى أن دخلت أميركا العراق في السنوات الأخيرة، لذا تراجع المركز الشيعي في العراق فيما كان يتقدَّمُ داخل إيران. روَّجت إيران الشيعة لنفسها، حيثُ قالت: لقد ولَّى زمن الحركة الوطنية، وحان وقت الحركة الدينيَّة، يمكننا محاربة الإمبريالية بالدين لا بالقومية"، لذا أرسل الخميني في طلب عرفات قائلاً له: "تعال ودعكَ عن مسألة القوميَّة العربيَّة، فلتكن دينيَّاً ونعمل سويَّةً". بيد أنَّ عرفات لم يقبل الأمر، لقد اتّخذت إيران الحركة الدينيَّة أساساً ومنها الشيعة، وكان لها تأثيرها على الشيعة، على سبيل المثال، لإيران تأثيرها الكبير على الحركة السياسيَّة الشيعيَّة داخل العراق، وإيران هي من شكَّلت حزب الله اللبنانيّ، حيث لم يكن اسم الحركة الشيعية سابقاً في لبنان حزب الله، بل كان يدعى (حركة أمل)، وما تزال حركة أمل قائمة، من صنع حركة أمل؟ صُنِعَت بمساعدة ليبيا ومن جانب موسى الصدر، الأخير الذي كان شيعيَّاً وُلِد في لبنان، من حركة: "مستضعفين الأرض" وتُسمَّى الآن في تركيا بـ "المستضعف" والتي تفيد معنى الفقير، هم من صنعوها. في وقتٍ لاحق اكتشف معمَّر القذافي أن الرجل أي (موسى الصدر) كان يقوم ببعض التجسس لإسرائيل، سوى أنَّه كان يشكُّ في ذلك، لذا طلبَ حضوره ومن ثمَّ أخفاه، ولا يزال مختفياً حتَّى الآن، ولا أحد يعرف أين هو، القذافي لوحده يعرف مصيره، -ولا أعرف إن كان سيتحدَّث عن الموضوع في الأيَّام الأخيرة- أدرك القذافي أن الرجل يخونه، على الرغم من أنَّه أمَدَّهُ بالمال ووفَّر له كل فرص النَّجاح، ولا سيَّما أنَّ الحركة كانت فقيرة، الشيعة في لبنان كانوا فقراء، رأت إيران أنَّه ليس بمقدورها التحكُّم في حركة أمل أو السيطرة عليها، فصنع الدبلوماسيُّون في إيران حزب الله، حيثُ تم تشكيل حزب الله اللبناني بالكامل بأفكارٍ إيرانيَّة، وللحزب تأثيره في العراق ولبنان وعديد الأماكن الأخرى. لكن لا بُدَّ للمرءِ أن يكون واقعيَّاً، فستين في المائة من سكان العراق هم من الشيعة، اندلعت حربٌ لثماني سنوات بين العراق وإيران، فإن وقفت تلك النسبة من شيعة

العراق إلى جانب إيران لما كان صدَّام قادراً على محاربتها، لكن رغم أنهم كانوا شيعة، سوى أنَّهم لم يكونوا أعداءَ لدولتهم، وهذه حقيقة يجب على المرء تقبُّلها، فإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف يمكن لصدام أن يسلم نفسه لميليشيا كردية، ميليشيا سنية جزئيًا، ٦٠٪ من الميليشيات الشيعية، ولكن رغم ذلك حاربت العراقُ إيرانَ ثماني سنوات. لذا لا توجد آليَّة ميكانيكيَّة لذلك، سوى أنَّه فعَّال وله تأثيره، على سبيل المثال، في يومنا الرَّاهن، إيران توقِظُ شيعة الخليج وتحاول أن تحرِّضَهم، ولكن ثمَّة في النتيجة القوميَّة، أي أنَّ الشيعة اولئك هم في النهاية عربٌ، لذا لا ينبغي للمرء أن ينظر إلى الأمر بطريقةٍ آلية ميكانيكيَّة، لكن إيران -سواءُ شئنا أم أبينا-مؤثرة في العالم الشيعيّ، تودُّ استخدامهم دائماً لأجل مصالحها السياسيَّة. تتمَّةً لموضوع العراق وإيران، لم تكن العراق دولةً اجتماعية بل قوميَّة راديكاليَّة، وكانت تتسبَّبُ بخطابها القوميّ في مضايقة إسرائيل وإيران وأحيانًا تركيا، مما أثار غضب أميركا ورغبتها في قمعها، سوى أنَّ العراق استسلمت خلال العام ١٩٧٥ وما بعده، أي استسلمت بعد اتفاق الجزائر، صحيح أنها كانت تتحدَّث عن العِداء لإسرائيل وما إلى ذلك سوى أنَّها كانت مُستسلِمَة، كانت كل علاقاتها التجارية مع أوروبا وتسليحها أيضاً، على سبيل المثال، معظم الطائرات في العراق لم تكن روسيَّة الصنع بل فرنسيَّة، كما أنَّ العراق كانت في صَدد بناء مفاعلٍ نوويّ، لكن قامت إسرائيل بقصفه بالطائرات لتمنعها عن ذلك، حيثُ كانت فرنسا تبنيها آنذاك. استسلمت العراق للإمبرياليَّة، وكانت كدولةٍ غير راضية عن اتفاق الجزائر، لِمَ؟ لأنَّها أُجبرت على هذا الاتفاق، وقَبلت بالكرد تحت الضغط، لذا بحثت العراق دائماً عن فرصةً لاستعادة اعتبارها والتخلُّص من هذا الهَوان، ولكن لم يكن بمقدورها فعل ذلك طالما الشاه موجود، ولكن حين انهار الشاه، قالت العراق: لقد عقدنا ذلك الاتفاق في عهد الشاه والآن لم يعد مقبولاً بعد الإطاحة به، دول الخليج والسعودية والكويت وغيرها كانت تقول أنَّ صدَّام زعيمُ العرب الروحيّ، حامي بوَّابة الشرق العربيّ، الصحف الخليجية كلها كانت تنشر قصائد في مدحه، لقد كانوا خائفين من إيران الجديدة، إيران الثوريَّة والدينيَّة، كما وكانت أميركا أيضاً خائفةً منها، لذا

أعطت الأخيرة للعراق الضوءَ الأخضر لمهاجمة إيران، كان صدَّام يمتلك أسلحة ودعماً أميركيَّاً، وكانت السعودية والكويت تساعدانه بملايين الدولارات، ولا تزال العراق مدينةً لهم بتلك الأموال آنذاك، دعموا صدَّام بشكلٍ غير محدود، لِمَ؟ لإيقاف إيران. بِمَ كانت تفكِّر أمريكا؟ أن تنهض إيران ضدَّها، ولكن هذا كانَ متأخِّراً، لذا لا بدَّ أن تهاجم العراقُ إيرانَ لتتفرَّق وينقسم جيشها، وبخصوص الضبَّاط الذين عمدت إلى إبعادهم إلامَ ستضطرُّ إيران ذلك الحين؟ أولاً: ستُجبَرُ على طلب اولئك الضبَّاط القدامى، وهم كانوا فعلاً قادة الجيش وهو تحت سيطرة أميركا، فإن عاد هؤلاء القادة السابقون إلى إيران مرَّةً أخرى وتولَّوا الخدمة وانضمَّوا إلى الجيش فستتحكَّمُ أميركا حينها بشكلٍ من الأشكال، هذا أوَّلاً، أمَّا ثانياً: الأسلحة ضرورةٌ للحرب، والأسلحة الإيرانيَّة كلها أمريكية، فإن تعطّلت سلسلةٌ في الدبابة فإنَّها ستتوقَّف عن العمل، لذا من أين ستجلب إيران تلك السلسلة؟ ستجلبها مرَّةً أخرى من أميركا، لذا فإن شُنَّ هجومٌ ما على إيران ومهما تحدثَّت الأخيرة عن الشعارات ضدَّ أميركا، فإنَّها سُتجبَرُ مرَّةً أخرى على الركوع أمام أميركا، وفي المُحصِّلة لن تكون الولايات المتحدة هي الشاه بعد الآن، لكنها ستستعيدُ بطريقةٍ ما السيطرة على إيران. لكن إيران لم تفعل ذلك بل حاربت وفقَ عواملَ أخرى، لكن دون أن تحصل على أي نتيجةٍ رغم ذلك، وصلت الحرب إلى مرحلة النهاية، لم يفز هذا ولا ذاك، قُتل ملايين البشر – ما يقارب المليوني شخص من كلا الجانبين- وتلوَّثت الجغرافيا على إثر المواد الكيميائيَّة، ودُمِّرَت البنى التحتيَّة، لذا اضطَّر الطرفان لوقف الاقتتال، وعلى خلفيَّة الدعم الأميركي للعراق اضُطرَّت إيران للعودة مرَّةً أخرى لتكون تحت الرقابة الأميركيَّة.

١٥ـ الكماليَّة والعلمانيَّة:

مسألة الكماليَّة والدينيَّة، الكمالية ضدَّ الدينيَّة، فالعلمانيَّة هي الأساس، ما هي العلمانيَّة؟ أي تتخذ الغربيَّة الأوروبيَّة أساساً وتفصل الدين عن الدولة، لذا تمَّ القضاء على الحركة الدينيَّة وتصفيتها بأشكالٍ مختلفة، لكن بعد الحرب العالميَّة الثانيَّة، وخلال الحرب الباردة، كان الدين يُستخدَم دائمًا ضد الشيوعيّين والكرد والحركات الديمقراطية الثوريَّة في تركيا ولمدة ستين عامًا، وخلال تلك الفترة استطاع المتديّنون تقوية أنفسهم اقتصاديًا وتعزيز أماكنهم داخل مؤسسات الدولة، أي لم يقدِّموا تلك الخدمة للنظام دون مقابل. في عصرنا الحديث، أصبح رأس المال الأخضر الفكريّ الدينيّ مزدهراً ومنتشرًا جدًا ومسيطراً في تركيا، إنهم هادئون لكن أغنياء جدًا، فأثرياء تركيا مشهورون وواضحون للعيان، لكن في الأناضول، في قونية، القياصرة ينمون بهدوء وبدأوا يعبّرونَ عن أنفسهم الآن، إنَّهم أغنياءُ للغاية، ويُطلق عليهم في المتوارث الأناضوليّ: نمورُ الأناضول. استولى حزب العدالة والتنمية على السلطة سياسيًّاً من الناحية الاقتصادية، لكن النظام القومي الكمالي، والدولة، والدولة القومية في تركيا هو نظام شوفيني وعنصري ودينيّ دائماً، هوية هذا النظام هي: جانبٌ منها عنصريّ، فيما الآخر متديّن ولطالما كان هذا النظام في تركيا ومنذ بدايته حتى يومنا الرَّاهن متراوحاً فيما بين الفاشيَّة والتديُّن، لذا أبقَت الفاشية والتديُّن على قوتيهما دائمًا واللعبة مستمرَّة حتَّى يومنا هذا، على سبيل المثال، وعلى المستوى الأوَّل في تركيا، الجيش ليس كماليًا، ولكن في يومنا هذا من الذي أسَّسَ التديّن؟ وضعهُ كنعان إفرين، أسَّس مدارس الإمام الخطيب، وأجبر الصلاة والصيام داخل السجون، هذا ما كان يفعله كنعان إفرين، لذا فصحيحٌ أن هذا النظام ألغى التديُّن وأزاح المتدينين جانباً ومن بعدهم الكرد، ولكن استخدم الدين سلاحاً لقمع الحركة الديمقراطيَّة في تركيا، وحتَّى في يومنا الرَّاهن يستغلُّون الدين بغية الهيمنة على الشرق الأوسط.

١٦ـ تطوُّر الحركات المُستقِلَّة:

نشأت حركة دول عدم الانحياز بين القارَّتين التي قسَّمت العالم إلى قسمين لتحقيقِ توازنٍ بين هذين القسمين، ومن أسسّ هذا التوازن هي بعض القوى الدولية التي أرادت الاستفادة منه وإنشاء خطٍّ مُستقلٍّ لها، بيد أنَّ درجة استقلالها مسألة نقاش، لكن في النهاية، استفادت الرأسماليَّة من تلك الحركة، لأنَّه ونتيجةً لكل ذلك الآن يحتلُّ الجميعُ أماكنهم في الجبهة الرأسماليَّة، ما هذه الحركة ومن قادتها؟ اشتُهر ثلاثةٌ من هؤلاء الأشخاص، أحدهم نهرو والآخر تيتو وجمال عبد الناصر، حيثُ أسَّست مصر ويوغوسلافيا والهند حركةً تحت مسمَّى: دول عدم الانحياز، أي أنَّهم لا من الغرب ولا الشرق، لا اشتراكيُّون ولا إمبرياليَّون، بل اتخذت لنفسها خطَّاً مستقلّاً، مُستفيدين من ذلك التوازن القائم بين القارَّتين، وبالطبع في يومنا الرَّاهن لا أثر يُذكَر لتلك الحركة، لأن مصر والهند و يوغوسلافيا باتت أوضاعهم معقَّدةً حقيقةً، ولا توجد مثل هذه الحركة التي تأسَست خلال العام ١٩٥٦بقيادة الرئيس الهنديّ نهرو واليوغوسلافيّ تيتو والمصريّ جمال عبد الناصر.

١٧ـ أثر الإمبرياليَّة في تفاقم الأزمة في الشرق الأوسط:

ماذا تفعل الإمبرياليَّة في الشرق الأوسط؟ ما الذي تريدهُ من الشرق الأوسط؟ سوف نتحدَّث عن ذلك نقطةً إثرَ الأخرى حتى لا يتمَّ الخلط. ما هي بالضبط مطالب الإمبرياليَّة في الشرق الأوسط؟ كيف تنفِّذ سياستها؟ بادئ ذي بدء، لطالما استهدفت الإمبريالية جسدًا مريضًا في الشرق الأوسط، كيف يحصل هذا المرض؟ عن طريق التوجيه، ولكن أبعد من التوجيه فإنَّ الإمبرياليَّة تُبقي على مصادر دائمة للأمراض في الشرق الأوسط، أي تلك الأمور تتسبَّب بالصراع في الشرق الأوسط، لذا فإنَّ الإمبرياليَّة حينَ غادرت المنطقة عسكريَّاً تركت ورائها بعض أسباب المشاكل والصراعات دون حلّ، مثلاً لم

تجد حُلولاً للمعضلة الكرديَّة وغادرت، لكن وبلا شكَّ كانت للإمبرياليَّة القوَّة في حل القضيَّة الكرديَّة، حيث كانت تعرف وضع الكرد وعلى أساس تلك المعرفة تضعُ اعترافاً بالكرد لأجل حكمٍ مستقلّ، كان بمقدورها فعل ذلك لأنَّها كانت مسيطرة، ولكنَّها لم تفعل ذلك، لذا غادرت دون أيّ توضيحٍ لوضع الكُرد، الأمر الذي أدَّى لاستمرار الصراع والحرب والإبادة الجماعية بين الكرد والأتراك والفرس والعرب، ليكون الأمرُ على الدَّوام سببًا لاستخدام الإمبريالية للبطاقة الكردية للحصول على تنازلاتٍ من العرب والفرس والأتراك متى أرادت ذلك. المشكلة ليست مع الكرد وحسب، بل ثمَّة هناك العديد من التناقضات الأخرى. الإمبريالية لم تبني الحدود بين دول الشرق الأوسط على أساسٍ مستقيم، اي ليس وفقاً للأساس الطبيعيّ، لكي يكون العرب والأتراك دائماً ضدَّ بعضهم البعض، ولئلَّا تكون ثمَّة وحدة بينهما وأن تقوم العلاقات بينهما على أساسٍ شوفينيّ وعلى أساس الرفض، كما وبقيت القضيَّة الخلافيَّة، هل الموصل تركيَّة أم عربيَّة أم كرديَّة؟ لذا طالب الجيش التركي أو القوميّون الأتراك على الدوام بادعاء حقّ الميثاق الملّيّ أو الوطنيّ، فما هو ادعاء الميثاق المِليّ؟ يقول هذا الادعاء أنَّ الموصل جزءٌ من تركيا ولكن تمَّ استلابها بالقوَّة، ولأجل ذلك فإنَّ العلاقات العراقية التركية مبنيَّة على الريبَة دائماً.

كانت فرنسا تسيطر، وكانت المنطقة جزءاً من نفوذها، ولكن بغتةً وبلا أي سبب كافأت فرنسا تركيا بمنحها المنطقة التي نسمّيها اسكندرون، أو أنطاكية التي تقع على الخارطة السوريَّة، والشعبُ الموجود فيها كان حقيقةً من العرب، سوى أنَّها كانت تحت الحكم الفرنسيّ، لكن ودون أيَّة أسبابٍ واضحة من الممكن أن يفهمها المرء تنازلت عن المنطقة لصالح تركيا!! سوى أنَّ سوريا لم تقبل بذلك أو تشرعنه إلى العام ١٩٩٨ أي بعد إتفاقيَّة أضنة، ودائماً ما تُظهِر سوريا على خرائطها تلك المنطقة على أنَّها سوريَّة وهذا ما يسبِّب عدم الرضى لدى تركيا، التي قالت، هذا صحيح، هذه ليست تركيا، إنَهم عرب، لذا قامت بتأسيس جمهوريَّة سمَّتها جمهوريَّة أنطاكيا خلال العام

١٩٣٧، ومن ثمَّ بعد ذلك أعلنت تلك الجمهوريَّة انضمامها إلى تركيا، وهي حتَّى الآن لتركيا، وهذا أمرٌ مثيرٌ للجدل ويتسبَّبُ في إحداث مشاكل. ثمَّة منطقة بين الكويت والعراق تسمى المنطقة المحايدة حيث يسود هناك عدم وضوح، لا أحد يعلم ما إذا كانت المنطقة هي للعراق أم للكويت، وحين تزداد العراق قوَّةً بعضَ الشيء تقول أنَّ الكويت قد قامت ببنائها فعلاً، وأثار صدَّام القضية واحتل الكويت، الأخيرة التي تعيش في حالة قلقٍ دائم وخوف من العراق، لذا تجلب قوَّاتٍ أجنبيَّة لحمايتها من الخطر العراقيّ. خرجت إسبانيا من فاس، أي من المغرب، لكن ثمَّة منطقة تسمَّى الصحراء الغربيَّة، وكانت بها جبهة نشطة تسمَّى جبهة البوليساريو، ووضعها غير واضح، وهي منطقة على المحيط وتحتوي على الفوسفور تسكنها قبائل وعشائر صحراويَّة، سوى أنَّ وضعها غير معروف البتَّة، لذا قال قاطنوها نحن دولة مستقلَّة، فيما رفضت المغرب قائلةً، لا، هذه أرضنا، لتستمرَّ الحربُ حتَّى يومنا الرَّاهِن، تقاتل الصحراءُ الغربيَّة المغرب بعونٍ من الجزائر، لتغدو المغرب والجزائر عدوَّتان كذلك، ولأنَّ موريتانيا تدعم الصحراء الغربيَّة فإنَّ المغرب وموريتانيا تعتبران عدوَّتانِ كذلك الأمر. ثمَّة خلافاتٌ إقليميَّة بين السودان ومصر، ثمَّة مشاكل من هذا النَّوع في دولة خليجيةٍ أيضاً، كما وتوجد مثل هذه المشاكل بين لبنان وسوريا، وقضيَّة إسرائيل قضيَّة مختلفة، إذن لِمَ كل هذه الأمور؟ إنَّها لمنع تحقيق الانسجام في المنطقة ووجود الصراع الدائم، وأن تكون الفرصة متاحة للإمبرياليَّة بغية التدخُّل في المنطقة، وأن تكون المنطقة مريضة، وعلى إثر هذه النزاعات الناشئة، ثمَّة قضايا حدودية، مع قضايا إقليمية وصراعات إقليميَّة، أي ثمَّة عداءٌ دائمٌ ولا يتحقَّقُ الانسجام، ليكون الجميع في حاجةٍ إلى الغرب. على سبيل المثال، ثمَّة الآن بعضُ الجُزُر العالقة بين إيران والخليج، بين إيران والإمارات، إيران والعراق، العرب يقولون إنها أرضنا، وإيران تقول إنها مُلكنا، ولتبرير وشرعنة مطالبهم أكثر يقول العرب أكثر من ذلك، أن خوزستان هي أيضًا جزءٌ من الأرض العربيَّة، وخوزستان محافظة إيرانيَّة تضم العرب وتقع داخل إيران، لكن يقول عنها العرب أنَّها أرضهم - كانت قد أُسِّست فيما مضى حركة تحت

مسمَّى حركة تحرير عربستان فيما إيران تقول عن تلك المنطقة: خوزستان- إيران قالت لا، ليست أرضاً عربيَّة، والجوهر لا يكمن في هذه الجزيرة وحسب، بل أنَّ البحرين أيضاً أرضنا، البحرين ليست دولةً عربيَّة، يكتبون عن ذلك في الصُّحف، ثمَّة عدم ارتياح فيما يحصل، ماذا تقول فرنسا وإنجلترا وأمريكا للبحرين!؟ "انظر، إن قمنا ببناء قواعد عسكريَّة لديكم فلن يكون بمقدور إيران مهاجمتكم، وإن لم نفعل ذلك يمكن لإيران دائماً أن تهاجم"، لذا إن انتبهنا فإنَّ دول الخليج وخلال السنوات العشر المنصرمة اشترت أسلحةً بمليارات الدولارات، فالسعودية والكويت وقطر وغيرها تشتري الأسلحة ليس لمحاربة إسرائيل أو أمريكا وإنَّما لزيادة تهديد إيران، لذا تركت الإمبرياليَّة المنطقةَ مريضةً على هذا الشكل الذي ذكرناه، تركتها مبنيَّةً على القمع، وهذا دائماً هدفٌ وأسلوبٌ سياسيّ للإمبرياليَّة في المنطقة وهذه هي الطريقة التي تتبّعها في يومنا الرَّاهن، أن تكون المنطقة عاجزة وتحت التهديد لتتحكَّم بها بطريقة ابتزازيَة، وهي سياسة اتَّبعتها الإمبرياليَّة منذ مئات السنين وتقطف ثمارَها في يومنا الرَّاهن.

سابعاً: هجمات الإمبرياليَّة على الشرق الأوسط جيوستراتيجيَّة وحضاريَّة:

كيف يمكن للمرء أن يفهم الجانب الاستراتيجي لجغرافيا الشرق الأوسط؟ ثمَّة فارقٌ بين القوة التي تعمل من أجل إمبراطورية وبين تلك التي تعمل من أجل دولة قوميَّة ضيّقة، هذه هي أميركا، إمبراطوريَّة عالميَّة، ولكن هنا، في شمال الكرة الأرضيَّة، في مكانٍ بعيد، تودُّ أمريكا أن تكونَ إمبراطوريَّةً عالميَّة، أي أنَّها لا تريد تجديد أو إضفاء الطابع الديمقراطي على العالم، بل إنَّها تريدُ أمركَة العالم، وهذا دأبُها منذ مئةِ عام. قبل ذلك كان هذا الأمرُ هدفاً لِمَن؟ إنجلترا وفرنسا، أي أوروبَّا الغربيَّة، ولكن في هذه الفترة تريدُ أمريكا حُكمَ العالَم لأنَّها إمبرياليَّة. ولأنَّها إمبراطوريَّة، فإنَّ الإمبراطوريَّة التي تودَّ أن تحكُم العالم تحتاجُ إلى فرصٍ استراتيجيَّة، تحتاجُ إلى الطرق والمناطق ونقاط مراقبة، لذا دعونا نلاحظ أينَ هو الشرق الأوسط؟ الشرق الأوسط، المنطقة التي تقع في الوسط، بين آسيا وإفريقيا أوروبا وأميركا، أي له موقعه الاستراتيجي، ثمَّة اليوم مواردُ للطَّاقة في آسيا الوسطى، كازاخستان، القوقاز، فإن لم تكن قويَّاً في الشرق الأوسط فلن يكون بمقدورك الحصول على تلك الموارد، لِمَن ستتبقى تلك الموارد؟ ستبقى لروسيا والصين، لذا تودُّ أمريكا أن تُسابقَ الصين وروسيا وتحصل على تلك الموارد لنفسها، ولأجل ذلك تريد أن تكون قويَّةً في الشرق الأوسط، وهي تعمل من أجل ذلك منذ الحرب الباردة، لأنَه لا بدَّ على من كل يودُّ حُكمَ العالم أن يحكُمَ الشرق

الأوسط، من يريد أن يستولي على العالم لا بدَّ وأن يستولي على الشرق الأوسط، فحربُ الهيمنة التي شنَّتها أمريكا حتَّى الآن خلال الستين عاماً المنصرمة، خلال الحرب الباردة، ما الذي حصل خلال تلك الفترة؟ ما الذي فعلته أمريكا بادئ ذي بدء؟ قامت بوضع أوروبا الشرقيَّة تحت مراقبتها، رومانيا وبلغاريا والمجر، والآن غدت هذه البلدان نظاماً لها وبات البعض منها أعضاءَ في الاتحاد الأوروبي، ورويداً رويداً ستنضمُّ بعضُ تلكَ البلدان إلى حلف الناتو، وبالتالي تتغلَّب عليهم، حين تغلبَّت عليهم، ما الذي أمَّنته أمريكا؟ لقد أمَّنت الخطَّ الأوراسيّ، خط البلقان، تركيا وآسيا الوسطى، وباتت مُهيمنة، لِمَ فعلت ذلك؟ ليكون بمقدورها السيطرة على منطقة الشرق الأوسط وبالتالي تأمين هيمنتها على العالم، فالشرق الأوسط محطَّة عسكريَّة، قاعدة عامَّة، فأميركا ليس بمقدورها الحرب على أفغانستان انطلاقا من فلوريدا، بل لا بدَّ أن تفعل ذلك انطلاقاً من السعودية وقطر والعراق، وإذن هي قاعدة على الجانب العسكري ومحطَّة تغذية للطاقة أثناء مرورها، لذا يعتبر من جانب الهيمنة أرضيَّةً استراتيجيَّة، وبدونها يصبحُ أمرُ التحكُّم في العالم مستحيلاً، إنَّه يفرض خصائص الهيمنة على العالم لأنها منطقةً استراتيجيَّة، لا حظوا مدى الاستراتيجيَّة: (لا بُدَّ من توفِّر خريطةٍ ما هُنا)، سوفَ نطرحُ مثالاً، إن لم يساعد الكردُ أميركا في حرب عام ٢٠٠٣ وتقبَّلت تركيا تلقائيًا ما حدث، فإن الأتراك -الذين لا يعرفون كيف حدث ذلك- قرَّرت عدم السماح للقوات الأمريكيَّة بالعبور إلى العراق عبر أراضيها، وإن قاوم الجيش العراقيّ مدَّة عشرة أيَّام في الخليج لَشُلَّت القوات الأمريكيَّة، لذا فإنَّ جغرافيَّة الشرق الأوسط تُعتبر استراتيجيَّة للغاية في حرب الهيمنة، أي إنَّها تقضي على التوازن، وإن كانت أمريكا قد قَسَت على تركيا في وقتٍ لاحق فلأنَّها آلمتها كثيراً، فإن لم تكن ثمَّة عوامل كردية ساعدت أمريكا لكانت في حالةٍ صعبةٍ يُرثى لها، لذا فإنَّ الإمبريالية قامت بتسيير هذه المنطقة على إثر استراتيجيَّتها وفقاً لنهجها السياسيّ، حيثُ رأت أنَّ ثمَّة خطراً مُقبِلاً نحوها من الشرق الأوسط، ما هذا الخطر؟ خطرُ تكوين الدولة الاشتراكية الأولى.

تمَّ إنشاء دولة اشتراكية في العالم لأوَّل مرة، وهذا ادِّعاءٌ جادٌّ ضد الرأسمالية وعرقَلَةٌ لها وتتسبَّبُ في خلق الحماسَةِ، ولا سيَّما لدى الطبقة العاملة وأولئك الذين في جبهة العمل حول العالم ولدى العمَّال والفلاحين والمثقفين لينهضوا ضدَّ الرأسماليَّة، ما هي مرجعيَّتُهم؟ القوة المعنويَّة التي يستمِدّونها من السوفييت، لذا سَعَت الإمبريالية إلى جعل الشرق الأوسط منطقةً للحصار السوفييتيّ، كيف ذلك؟ بتوفير الحزام الأخضر، هذه المنظَّمة التي تُدعى منظَّمة المؤتمر الإسلامي، من الذي صنعها؟ صنعتها أمريكا، ثمَّة تحليلاتٌ لـ لينين حول هذا الموضوع، لِمَ؟ ليس على إثرِ المشاكل الطبقيَّة في المنطقة، بل لكي تبرز القضايا الدينيَّة في المنطقة وتكون في المقدِّمة، وعلى هذا الأساس تمَّ الترويج من الناحية الذهنيَّة وكيفَ أنَّها ضدَّ الدين، لذا حاصرت الاتحاد السوفييتيّ، وتمَّ استخدام الشرق الأوسط آنذاك كمنصَّةٍ للاتحاد السوفياتي لئلَّا تنتشر الأيديولوجيَّة الشيوعيَّة في جميع أنحاء العالم. وحتى اليوم هذه الجغرافيا بمثابة قاعدة عسكرية، الأسطول السادس، قوات التدخُّل السريع، كلها مُتواجدة في الشرق الأوسط، إنَّهم في دول الخليج، في مصر، ثمَّة قواعد عسكريَّة دائمة لهم، فإن كانت أمريكا في يومنا الرَّاهن منزعجةً للغاية من القذافي، فلماذا؟ لأنَّ القذَّافي حين تسلَّم السُّلطة قضى على أكبر القواعد الأمريكيَّة في المنطقة، حيثُ أنَّها كانت تمتلك قاعدةً عسكريَّةً كبيرة في ليبيا، لذا تنتقم منه حتَّى يومنا الرَّاهن، مرَّةً أخرى تبني النظامَ السياسيّ وفقاً لنفسها، ففي السابق كانت ثمَة فاشيَّة، على سبيل المثال: عبر الفاشيَّة في تركيا وباكستان، وبناءِ حُكومةٍ استبداديَّة في إيران وبناء مَلَكيَّةً قاسيَّة وأنارشيَّة قاتلت وحاربَت ضدَّ اليسار الديمقراطيّ وضِدَّ خطر الاتحاد السوفييتي، وخلال يومنا الرَّاهن ما الذي تفعله لتجعل المنطقة مساراً وممرَّاً للطاقة التي تحتاجها؟ تعمل وفقاً لها ولمنهجها السياسيّ على لبرلة المنطقة، تودَّ أن تغدو المنطقة مرتَعَاً للرأسماليَّة الدوليَّة وتستقرَّ فيها، وفي المُحصِّلة تَسبُق القوى البديلة المُمكنة لها أي روسيا والصين والهند وتُضعفها وتُبقيها على ارتباطٍ دائمٍ بها، لذا فإنَّ الشرق الأوسط مهمٌّ دائماً من الناحية الاستراتيجية لمصالح

القوى الدولية، وعلى هذا الأساس تريد المؤسسة السياسيَّة أن تخلق الوضع وفقاً لرغباتها الخاصَّة.

١ـ الإمبرياليَّة في الشرق الأوسط تريد السيادة على النفط:

لأكثر من مئة عامٍ كان النفط على رأس الأجندة ويعتبر ضرورياً، حتى الآن ورغم كثير البحث والاستكشاف عن مصادر لطاقةٍ بديلة، سوى أنَّه لم يتم تطوير طاقة من الممكن أن تكون بديلةً عن النفط أو تقلِّل أهميَّته، مركز الصناعات الثقيلة هو الغرب، السيارات، الدبابات، المدافع، الطائرات، كلُّ الصناعات الثقيلة متمركِزة في أوروبا، الأدوات الكبيرة التي تحتاج إلى أطنانٍ من الحديد، جميع تلك الأشياء غربيَّة، وفي الآونة الأخيرة، خَطَت الصين والهند وروسيا أيضًا بعض الخطوات في المنحى الصناعي، ولكنها تحتاج إلى وقتٍ طويل ليكون بمقدورها منافسة الغرب ولاسيَّما أميركا وأوروبا. أكثر من خمسين في المائة من المنتجات الصناعيَّة في العالم هي من صنع أوروبا وأمريكا، لذا فهي بحاجة إلى ملايين براميل النفط يوميَّاً، ليس فقط مليوناً واحداً، فأحياناً تشتري أمريكا يوميَّاً أكثر من مليون برميل نفط من أكثر من دولة واحدة، في ذلك الوقت كانت تكلفة النفط اليومية أكثر من مليون برميل ولا سيَّما بلد مثل أمريكا. أين يقع أكبر حقل نفط في العالم؟ إنه في الشرق الأوسط، حيثُ تبلغ الطاقة الإنتاجية للمملكة العربية السعودية سبعة ملايين برميل يوميًا، إنَها لا تبيع لأنَّه ثمَّة حدود ومنظَّمة مختصَّة بهذه الأمور تدعى أوبِك وهي التي تضع الحدود، لكن بإمكان السعوديَّة إنتاج سبعة ملايين برميل نفط يوميَّاً، كما وبإمكان إيران إنتاج ما لا يقلّ عن خمسة ملايين برميل يوميَّاً، فيما للعراق إمكانيَّةَ إنتاج أكثر من ثلاثة وثلاثين مليون برميل بشكلٍ يوميّ. ثمَّة غازٌ طبيعيّ في مصر وإيران والعديد من البلدان الأخرى، حتَّى أنَّه في بعض البلدان يتمَّ الحديث عن النفط الخفيف وغير الخفيف، على سبيل المثال، ليبيا لديها زيادة في الطاقة الإنتاجيَّة للنفط، سوى

أنَّ لذلك النفط خصائص معيَّنة، إنَّه نفطٌ خفيف، أي لا توجد فيه نفايات وغالباً ما يتمّ تكريره بسهولةٍ وسرعة، أي يُستخرج منه الكاز والبنزين والمازوت وثمَّة طلبٌ متزايد عليه، هذا ليس واضحاً للغاية، ولكن في النتيجة يمكن القول أنَّ ثمَّة نفطٌ ها هُنا.

النفط هو الدمُ في شرايين حياة الصناعة الأوروبيَّة والأمريكيَّة، وحين ينخفض ضخَّ الدمَّ ستمرض تلك الصناعة، فكل خطرٍ يواجهه النفط يوجد مقابله أزمة في الغرب، حيثُ ترتفع الأسعار وتنشأ مشاكل اقتصادية، لهذا السبب يريدون دائمًا أن يكون لديهم مثل هذا النظام السياسي في الشرق الأوسط لئلَّا يتحوَّل إلى عائقٍ وعقَبَة يحولُ دونَ تدفّق النفط بحريَّة نحو الغرب. حتَّى الآن لم يستخدم الشرقُ سلاح النفط، استخدمتهُ مرَّةً واحدة فتسبَّبَ الأمر في حدوث مشكلةٍ خطيرة، حدث ذلك خلال العام ١٩٧٣ حين اندلعت الحربُ بين إسرائيلَ والعرب، وطالب العرب من السعودية وقف تصدير النفط، فعلت السعودية ذلك فعلاً لفترةٍ قصيرة فتسبَّب الأمر في حدوث أزمةٍ جِديَّة في العالم، حتَّى أنَّه وخلال العام ١٩٧٦ كان ثمَّة ملكٌ سعوديّ –أعتقد أنَّه الملك فيصل – كانَ ملكاً سيّئاً للغاية وجاسوساً رسميَّاً، مثال: دائماً كان جمال عبد الناصر يقول: "لا بدَّ على السعودية أن توقِف تصدير هذا النفط، لا بدَّ أن تفعل ذلك"، سوى أنَّ الملك يردُّ قائلاً: "لا نفهم شيئاً من جمال عبد النَّاصر!!لم نكُن لنعرف ما هو هذا النفط!! أتى الغرباء وأظهروه لنا، لم نكن نعرف كيفيَّة استخراجه فاستخرجوه لنا، لم نكن لنعرف كيف نبيعه فيقومون ببيعه، يأخذون حصَّتهم ويعطوننا أموالنا، فلِم سنوقف النفط؟!!" أي لم يفطِنوا إلى كيفيَّة استخدام هذا السلاح لأجل مصالح قضيَّتهم المركزيَّة فلسطين ولأجل العرب، لأنَّ الإمبرياليَّة هي من صنعتهم فكيف ستصنعهم على ضدَّ نفسها!! فعلوا هذا الأمر ولكن تحت الضغط ولوقتٍ قصير خلال العام ١٩٧٣ لكن رغم ذلك فقد تسبَّب الأمرُ في خلقِ مشكلةٍ لدى الإمبرياليَّة، هل للنفط علاقة بمقاربات الإمبريالية في الشرق الأوسط؟ الإمبريالية تعني التصنيع والتي هي إحدى الركائز الأساسية لها، والنفط يبني

التصنيع، أي أنَّ الصناعة تتطوَّر عبر النفط، والنفط موجودٌ هنا، إذن الآن فإنّ التصميم الجديد، الانقلاب، التغيير، صنع الأنظمة الشبيهة بالدُمى بشكلٍ دائم، لِم كل ذلك؟ لئلَّا تقع تلك الثروة الثمينة في أيدي اولئك الذين سيستخدمونها يوماً ما كابتزازٍ ضدَّ الإمبرياليَّة، لذا فإنَّ الإمبرياليَّة حين ترى نظاماً تجاوزها وباتَ قويَّاً ويتحدَّث عن النفط وتعميمه واستخدامه كسلاحٍ ضدَّ الغرب فإنَّها تسيطر عليه على الفور وما كان إسقاط صدّام إلَّا لأجل ذلك، فضلاً عن تدخُلاتٍ أخرى في الشرق الأوسط للسبب ذاته، لذا فإنَّ هذا السلاح هامَّ للغاية، حيث تقوم الإمبرياليَّة بكل أنواع وأشكال التصاميم في المنطقة بغية منع استخدام ذلك السلاح بشكلٍ جديّ في المنطقة.

للنفط تأثيره المهمّ للغاية، على سبيل المثال، الاسم الأوسع لمنظمة البلدان المصدرة للنفط هو أوبك، وتضمَّ البلدان التي تنتج الكثير من النفط، فمن ينتج الأكثر يكون الأشدّ تأثيراً، على سبيل المثال السعوديَّة وإيران وبعض الدول الأخرى التي تنتج النفط، فما الذي تفعله هذه المنظَّمة؟ تقول لا بدَّ لهذه الدولة أن تنتج مليوني برميل يوميَّاً، فيما الدولة الأخرى ثلاثة ملايين برميل وهكذا، أي توضِّح الإنتاجيَّة، لِمَ تفعلُ ذلك؟ لكي لا يتأثَّر السعر، على سبيل المثال، يمكن للسعوديَّة أن تُنتِج سبعة ملايين برميل ولكَّنها تنتج خمسة، لِمَ؟ لأنَ أوبك أخبرتها بذلك وألَّا تنتج أكثر من خمسة، لأنها إن أنتجت سبعة ملايين برميل فإنَها ستبيع النفط بسعرٍ مُخفَّض، وحين ينخفض سعر النفط تجتمع الـ أوبك، ما الذي تفعله؟ تقول: "لا بدَّ أن نخفِّض الإنتاج لكي يرتفع السعر"، خلال العام ١٩٧٠ انخفض سعر النفط كثيراً فاجتمعت دول الـ أوبك، وقرروا: "لقد انخفض سعر البترول، لذا لا بدَّ أن نقوم بتخفيض الإنتاج لرفع السعر"، عارض السعوديَّون القرار على الرغم من أنَّ لها فائدة منه، لِمَ فعلت ذلك؟ سُئِلَ وزير النفط السعوديّ آنذاك والذي كان يدعى أحمد زكي يماني: "لِم لم تنضمَّوا إلى قرار الـ أوبك في خفض الإنتاج لزيادة أسعار النفط؟" فردَ: " الآن ثمَّة انتخاباتٌ في إيطاليا!" –كان الشيوعيَّون آنذاك قد حصلوا على أصواتٍ كثيرة في الانتخابات وعلى وشك الوصول للسلطة، حيثُ تعاظمت

قوَّة الشيوعيين – لذا كان ردّ وزير النفط السعوديّ: "ثمَّة انتخاباتٌ في إيطاليا، فإن قمنا بتخفيض الإنتاجيَّة سوف يرتفع السعر وسيتسبَّب الأمرُ في أزمةٍ أوروبيَّة، وإن كانت ثمَّة أزمة سيستفيد الشيوعيَّون منها في إيطاليا وبالتالي ستزداد أصواتهم في الانتخابات ويستلموا السلطة، لذا لم نقبل الأمر"، لاحظوا كيف يعملون لأجل النظام، حيثُ كان القرار لصالحهم لأنَّ السعر سوف يكون مرتفعاً الأمر الذي يعودُ عليها بالفائدة، ولكنَّها لم تفعل ذلك لأنَّ النظام الإمبرياليّ لا يريد ذلك، أي يتصرَّفونَ وفقاً لما يريده النظام الإمبرياليّ منهم. لذا فإنَّ مسألة النفط تعتبر خَطِرة في الشرق الأوسط، فالموارد النفطيَّة الهائلة من الأسباب التي تدفع الإمبرياليَّة إلى أن تأخذ هذه المنطقة على محمل الجَدّ، لِذا:

٢ـ ما هو هدف الإمبريالية من حماية إسرائيل؟

إسرائيل مهمَّة في الشرق الأوسط بالنسبة إلى الغرب، لِمَ؟ إسرائيل لا تمثِّل نفسها فقط بل هي وكيلة الشركة الرأسمالية العالمية، هي وكيلة وفي الوقت عينه جاسوسة وفقاً لاسمها الأجنبيّ، أي من يعمل لأجل طرفٍ معيَّن، إسرائيل وكيلة، تعمل بالوكالة لتسيير مصالح الإمبريالية في الشرق الأوسط، لهذا السبب لا تقبل أميركا وبريطانيا وأوروبا كل أنواع التهديدات ضد إسرائيل، ومن أجل ضمان أمن إسرائيل في جميع الأوقات يتمُّ إضعاف الشرق الأوسط، لِمَ؟ إسرائيل كقوَّة عسكرية تجعل الشرق الأوسط في خطرٍ دائم، ثمَّة أسلحة نوويَّة لديها وتمتلك مجموعةً واسعة جدًا من أسلحة الطائرات وقوَّةً استخباراتية ضخمة، ولديها اقتصادها أيضاً. لذا فإنَّ الجانب العسكريّ يُبقي المنطقة تحت السيطرة الدَّائمة، وإسرائيل بمقدورها أن تقوم بهذا الفعل، لِمَ؟ لا صلة اجتماعيَّة لها بالمنطقة لأنَّها غريبة وحتَّى الآن لم تتجاوز عزلتها تلك، تعمل لأجل الخارج، صحيحٌ أنَّها بلدٌ داخل الشرق الأوسط سوى أنَّ نظامها غربيّ ومرتبط بالغرب، ما الذي يفعله وجود

إسرائيل؟ يخلق حالةَ طوارئٍ دائمة في الشرق الأوسط، حيثُ يفسَّر كل شخص حركته وعمله بإسرائيل. على سبيل المثال، النظام العربيّ المسيطر يقتل المُعارضين له، لِمَ؟ لأنَّ إسرائيل دولة أحاديَّة الجانب، عسكريَّة، شوفينيَّة وعنصريَّة، أي كيف تفسِّر كل شرورها؟ بإسرائيل. لِم يقولون إسرائيل عدوَّة؟ إسرائيل إمبريالية، وثمَة بالفعل بعض المقاربات والتصريحات الإسرائيليَّة التي تغذّي هذا الكلام، على سبيل المثال، يقولون، حدود إسرائيل من الفرات إلى النيل، أي من نهر النيل إلى نهر الفرات، عباراتهم تلكَ تثير قلقاً متزايداً بين الناس، ولكن النظام العربي أيضاً يستفيد من ذلك ويوقف الناس على هذا الأساس. يقول، لقد أتت هذه الدولة لأجل أن تُبيدنا جميعاً وتحتلَّنا وتأخذ أرضنا، لذا فإنَّ المعارضة ومستوى المعيشة ليس مهمَّاً، الأهمَّ هو أن نحافظ على وجودنا ضدَّ إسرائيل، لذا لا بدَّ أن نضحيّ بكل شيء لأجل ذلك، وفي المحصَّلة فإنّ الديناميكيَّة المجتمعية الشرق أوسطيَّة لا تتحرَّك منذ خمسين سنة، فما هي أسبابُ ذلك؟ لأنَّ أي حركة في الديناميكية الاجتماعية سوف تُتهَم بالجاسوسيَّة، حينذاك توقِفُ الإمبرياليَّة الديناميَّكية الاجتماعية في الشرق الأوسط عبر إسرائيل، وتغدو إسرائيل السبب الأوَّل في عدم تجديد مجتمع الشرق الأوسط لنفسه، فالأمور الرئيسيَّة في الشرق الأوسط مختلفة، التجديد ليس من أولويَّات الشرق الأوسط ولا التطوُّر والتنمية أو الازدهار الاقتصادي، بل الشيء الأهمّ بالنسبة إلى الشرق الأوسط هو الأمن. حين يتحقَّق الأمن قبل كل تلك الأشياء الأخرى، ما الذي يحصل؟ ينقسم المجتمع، جزءٌ منه يغدو شرطيَّاً، فيما الجزءُ الآخر خطراً مُحتَملاً، وبهذه الطريقة يلتهم المجتمع نفسه، لذا تودُّ الإمبريالية دائماً حماية إسرائيل، وفي الوقت نفسه تعرَّضُ أمنها للخطر، فحين تنظر الإمبرياليَّة إلى وجود نظامٍ قد باتَ خطراً بالنسبة إلى إسرائيل فإنَّها تضربه وتهاجمه على الفور، هاجمت ليبيا والعراق وحاصرت إيران ومارست سياسات معيَّنة ضِدَّ مصر، كل تلك الأمور أسبابها حماية أمن إسرائيل.

٣ـ مشاكلُ الإمبرياليَّة مع الشرق الأوسط حضاريَّة:

تتفهَّم الإمبرياليَّة الشرق الأوسط على أنه نقيض للأطروحة وتعلم أنه هكذا تماماً، كما وتعلم أنَّه قوَّة معارضة محتملة، لِمَ؟ لأن الشرق الأوسط يمتلك قوَّة مقاومة، الشرق الأوسط أصيل له سماته الثقافية والأيديولوجية والفكرية والذهنيَّة التي تُصغي بالاً لعمق التاريخ، لذا فإنَ مشروع التحديث أو التحرير، أو مشاريع مثل الشرق الأوسط الكبير أو الجديد لا يلقى صَدىً بين الشَّعب، هذا صراع ثقافي، فالطبيعة والتاريخ والطقوس، ولا سيَّما الطقوس النقيَّة تجذبُ المرءَ دائماً. إنَّهُ أمرٌ غريب في الشرق الأوسط، فلنتبه إلى العالم كله من الجانب الموسيقيّ، سنرى أنَّ الموسيقى الغربيَّة مُسيطرة تماماً، في اليابان والصين وأفريقيا، لا أحد يعودُ إلى الطقوس والعادات القديمة، لا أحد يعود إلى الوراء، لكن إن أخذنا في الاعتبار مثال الكرد، العرب، فإن موسيقى الغرب لا تمنحُ السلام للمرء، ليست مثيرةً للاهتمام، لكن في السنوات الأخيرة، أصبح الأمرُ أكثر أهميَّة في الجانب الموسيقيّ بين الكرد وحتى بين العرب، حيثُ يتمُّ العودةُ إلى الأصل. آنذاك لن يكون بمقدور الغرب أن يغدو بديلاً، لأن هذه المنطقة تختلف معه في زمن هطول الأمطار فيها، كذلك بالنسبة لثلجها، وأنهارها تتدفَّقُ بشكل مختلف، وقاطنوها يعيشون بشكلٍ مختلف، لذا فإنَّ الشيء الذي يمنحُ الأمنَ والسلام للشعوب في الغرب وبعض الأماكن الأخرى ليست هي نفسها التي تمنح الأمن والسلام بالنسبة إلى الشعوب في الشرق الأوسط، صحيح، لعلَّ ثمَّة أشياء أخرى اليوم تُبثّ عبر قنوات التلفزة تمنح طرقاً وأساليباً جديدة في الموسيقى، سوى أنَّها أساليب وطرق آنيَّة ولن تستمرّ لفترةٍ طويلة ولا تستطيع إرضاء النَّاس، لا يعرف المرءُ كيف يصفّقُ البعضُ من الناس لتلك الأنواع من الموسيقى؟! لعلّ ثمَّة بعض التحضُّر قد حدث فيما يتعلَّق بنمط الحياة وربمَّا تاهت الطقوسُ داخل تلك المُدن، ولكنَّه لم يغدو نموذجاً/موضَةً في حياة الشرق الأوسط ولا يمكنه أن يغدو البتَّة، نتيجة لذلك، فإن مشروع التحديث الثقافيّ والاجتماعي وحتى ذلكَ السياسيّ في الشرق الأوسط لا ينجحُ كثيراً، الإمبريالية ترى ذلك

وتعرف أنَّ الوضع في هذه المنطقة ليس مثل أيّ مكانٍ آخر، فالنَّاسُ هنا تلفُّ نفسها بالقنابل وتفجّرها، هذا ليس تعصُّباً إسلاميَّاً، والتقييمات التي تقول إنَّ الأمر تعصُّبٌ إسلامي ليست صحيحةً البتَّة، على سبيل المثال، لم تكن الرفيقة زيلان متعصِّبةً إسلاميَّة، هنا يدافع التقليد عن نفسه ويقاوم، ما هو هذا التقليد؟ مثال، ثمَّة تاريخٌ لا يقبل المرء أن يُداس عليه، لذا فهو جاهزٌ ومستعدٌّ ليفجَّر نفسه، الأمر هذا ينطوي على إعطاء جوابٍ أو إظهارِ ردَّة فعل، لذا فإنَّ هذا الأمر مشكلة بالنسبة إلى الغرب. دخل الغربُ الشرق الأوسط بجيشه، حمَّل سفنه بقوَّاتٍ خلال العام ١٩١٨ داخلاً العراق وسوريا وأماكن أخرى دون أن يتمكَّن أحدٌ مقاومته، نهبَ الاقتصاد ولا يزال يفعل ذلك حتَّى يومنا الرَّاهن، دون أن ينبسَ أحدهم ببنت شَفة، أي ثمَّة جبهة تسقط تلو الأخرى دون أن يتحدَّث أحد، ولكن ثمَّة في الشرق شيءٌ وحيد لا يستسلم، القوَّة الروحيَّة، ثمَّة قوَّة روحيَّة لا تستسلم وتُقاوم، على سبيل المثال، تلك القوَّة تقاوم في العراق، في أفغانستان، أو مثلاً، لا يمكن لأميركا المقاومة يومين فيما يخصُّ جانب السلاح والجيش، لكن حين يحدث احتلالٌ عسكريّ أو سياسيّ، وحين يحصل النهب على الجانب الاقتصادي، إن لم يُتَمَّم هذا الاحتلال العسكري والسياسي والنهب الاقتصادي بالاحتلال الروحي، فإنَّ الانتصار ليسَ مؤمَّناً، أي إن لم يُتمَّم انتصار الإمبرياليَّة في الشرق الأوسط بالانتصار روحيّ وإيديولوجيّ وثقافي فهو انتصارٌ مؤقَّت وغيرُ كافٍ، ليس آمناً أو مُرضيَاً، لذا تودُّ الإمبرياليَّة فعل ذلك، إذاً ثمَّة هنا كفاحٌ حضاريّ، أي عامل حضاريّ، فما هو هذا العامل؟ إمحاء الجذور التاريخية وغضّ النَّظر عنها وتقزيمها، وأن تجعل المرء يكره المرءَ الآخر، وأن ينسى أصالته الثقافيَّة، وأن يتمَّ إدماجه تماماً ثقافيَّاً وإيديولوجيَّاً ويصبح جزءاً من الغرب، وبهذه الطريقة ينجح الاحتلال العسكريّ والسياسيّ، لذا ولأجل كل ما سبق، فإنَّ الحرب ضدَّ الحداثة أمرٌ ضروريّ.

٤- لا بدّ لحربنا أن تكون ضدَّ فكرة الحداثة وأسلوب حياتها:

سوف نسوقُ مثالاً آخرَ، حينَ تُقاتل ضد الرأسمالية دون أن تفعل ذلك ضدَ الحداثة، ليس بمقدورك تغليب كفَّة الحرب، لأنَّ الرأسمالية تنتصر، فما الذي يمنع الرأسمالية من أن تصبح سلطةً بشكل كامل؟ حين لا تقومُ بتغيير الحداثة، حداثة الرأسماليَّة، أي نظام الرأسماليَّة وأسلوب حياتها سوف تظهر هناك صعوبات وعوائق، لذا فإنَّ الحرب لا تكفي ضدَّ الرأسمالية تحت مسمَّى البروليتاريا والعمل، الحرب ضدَّ الاحتلال لا تكفي، لا بدَّ أن تكونَ لهذه الحرب قوَّتها العقليَّة والفكريَّة، أي ألَّا نتَّحِد ذهنيَّاً مع الإمبرياليَّة، ألَا نكون متّحدين من جانب العمل والحياة، ألَا نتِّحد معها من حيثُ نمط الحياة، فإن كان أسلوب حياتنا وعملنا مشابهاً لها ونزعم أنَّنا نحاربها، فإنَ نضالنا لا طائل منه، مشلولٌ ولن يصل إلى أيَّة نتيجة. الآن إحدى مشاكلنا الرئيسيَّة كتنظيم -لا سيَّما في شمال كردستان- هي أننا نحارب الرأسمالية، نحارب ضدَّ الاحتلال، لكننا لا نحارب الحداثة، بل على النقيض من ذلك نحنُ نُمثِّل الحداثة من رؤوسنا وحتَّى أقدامنا بأسلوب حياتنا ومقارباتنا من القضايا وقُربنا من الأفراد والمجتمع، نحن نتّخذُ الحداثةَ منهجاً وأساساً، الأمر الذي يمنعنا من الحصول على نمطِ حياةٍ خاصٍّ بنا، نقبلُ أسلوب ونمَطِ الحياة الغربيَّة ونحاربها!! لكن متى ستكون حربنا مشروعةً وحقيقيَّة؟ حينَ نقبل طريقة الحياة الشرقيَّة، آنذاك ستكون لحربنا معنىً أكبر، يمكنُ للمرءِ أن يكون مناضلاً بأخلاقه وتضحيته وتنشئته الاجتماعية وبالقيم المجتمعيَّة التي تهتمُّ بتاريخ الإنسانيَّة.

٥- الإمبرياليَّة تشنُّ حرباً تاريخيَّةً وثقافيَّة:

يجب أن يكون نضالنا لأجل حماية الجوهر وليس نضالاً شكليَّاً، الأمرُ الذي يجعلُ منُ الحرب ناجعةً، لذا فإنَّ الحرب الإمبريالية الحالية ضدَّ الشرق

الأوسط حضاريَّة، أي تحاربُ الحضارة، ماذا تفعل؟ تقصفُ الثقافة والإيديولوجيَّة لتشلَّ الناس وتعزلهم عن جذورهم التاريخيَّة وتنمّي الجشع والفردانيَّة حتَّى يصبحوا عبيداً للرأسماليَّة، كما تفعلهُ الآن في جنوب كردستان، في العراق، وفي أماكن أخرى، مع بعض الذرائع التي بإمكانها جذب انتباه المجتمع، عبر الرياضة، والتمييز على أساس الجنس، والجنس، والشهوة، يريدون التسبب في شللٍ كي لا تبقى ثمَة معارضة، فلتكن معارضةً شكليَّة أو لأجل كراسي السيادة أو لإسقاط البرلمان أو أن تغدو البلديَّة ملكاً لأحدهم، أو معارضةً لأجل الحِصَص، لكن لا أن تكون معارضةً لأجل تغيير المجتمع، الإمبرياليَة الآن تشنُّ هذه الحرب، وهي حربٌ استراتيجيَّة ولها مبدأ، ما هو هذا المبدأ؟ لأنَّ لها مخاوفها، وما نتحدَّث عنه هو الشرق الأوسط وليس مكاناً آخرَ، لذا لا ترى المرءَ صغيراً، لا تبدو أفريقيا وباقي الأماكن صغيرةً وهم كلُّهم بشر، سوى أنَّ الشرق الأوسط ليس أفريقيا ولا حتَّى الصين، الشرق الأوسط جغرافيَّةٌ استراتيجيَّة ولديه الفرص الماديَّة الكبيرة، البترول، فئة شباب كبيرة وهي فئة هامَّة للغاية ولديها احتمالية وقدرة على أن تثور، فالبلدان التي لديها نسبة عالية من فئة الشباب تحدثُ فيها الثورات، والثورة التي نعيشها في يومنا الرَّاهن ضمن الشرق الأوسط هي نتاج الشباب، لأنَّهم القوَة الرئيسة للتمرَّد، يمتلكون الأفق الواسع، لا يودُّونَ العيشَ وفقاً للتقاليد ويريدون تجاوزَ الموجود، وحين يقفون وجهاً لوجه أمام العقبات يخلقونَ الثورات، فثورة العام ١٩٦٨ كان سببها كثرة أعداد الشبَّان، لذا حين تكبر أوروبَّا في العمر، أو تتقدَّم أمريكا في السنّ، أو الصين فإنَّ الشباب في الشرق الأوسط يخلقونَ التضخُّم، يبغ تعداد سكَّان مكانٍ مثل مخمور سبعة آلاف نسمة، ثمَّة ثلاثة آلافٍ منهم يدرسون في المدارس الابتدائية، لا يمكن أن يوجد مثيلٌ لذلك في كلِّ تاريخ العالم، إنَّها قوَّة، وإن اتَّحد الموقعُ الجغرافيُّ والفرص الماديَّة وفئة الشباب وكل تلك الأشياء الماديَّة مع الجذور التاريخيَّة فسيظهر مشروع الحضارة والبدائل، أيّ القوَّة المعنويَّة، بمعنى القوَّة الأخلاقيَّة والصحَّة العقليَّة والنفسيَّة، حين يتحقَّق ذلك لا يمكن لأحدٍ الإطاحةَ بالشرق الأوسط، فبإمكانيَّاته الماديّة وقوَّته الفتيَّة وجغرافيَّته الاستراتيجية

وقوَّته المنبثقة من الحضارة والقوَّة المعنويَّة المختبئة في أعماق التاريخ والتي إن ظهرت واتَّحدت في إطارِ مشروعٍ علميٍّ مجتمعيّ فإنَّهُ سيغدو حينذاك بديلاً، ولمنع حصول ذلك، فإنَّ الإمبرياليَّة في خضمِّ صراعٍ، وهذه هي الحرب ضدَّ حزب العمَّال الكردستانيّ، فلنلاحظ أنَّ حزب العمال الكردستاني لم يقم بأيِّ عملٍ عسكريّ ضد أمريكا وفرنسا وأوروبا، بل على النقيض من ذلك، لقد قال القائد منذ العام ١٩٩٥: "لقد ولَّى زمنُ أن تقاتلَ الاشتراكية وجهاً لوجه، جبهةً لجبهة، بل نتداول ذلك"، لقد حلَّل القائد هذا الأمر خلال العام ١٩٩٥، والاستخبارات الأميركيَّة تعرف ذلك وتعرفُ أنَّ حزب العمَّال الكردستانيّ في بعض الأحيان يحظرُ التدخين وبأنَّ شرب الكحول ممنوعٌ البتَّة، دعك عن كل ذلك، المخدَّرات، يوميَّاً تُصدر تقاريرَ تقول فيها أنَّ حزب العمَّال الكردستاني يتاجر بالمخدَّرات ويستخدمها، تفعل كل ذلك لأجل تجريم الحزب، مع العلم أنَها تعرف بأنَّ حزب العمال الكردستاني لا يفعل مثل هذه الأشياء، وتعلم أنَّه حتى لو تمَّ تنفيذ العنف الخاطئ في بعض الأماكن فقد تمَّ تنفيذه خارج منظور حزب العمال الكردستاني، تعرفُ ذلك جيدًا، لأنَّ حزب العمال الكردستاني ينتقد نفسهُ بنفسه على الدَّوام، ورغم ذلك تصف الحزبَ بأنَّه إرهابي وتظهرهُ بشكلٍ سيء، لِمَ تفعلُ ذلك؟ لأنَّ حزب العمال الكردستاني صاحب مشروع ضدَّ الفردانيَّة والسيادة والقمع، إنه مجتمعي، اجتماعي، ديمقراطيّ، على أساس الجمع بين القوة المادية والذهنيَّة للشرق الأوسط وبالتالي خلق انفجار ما، لهذه الأسباب تهاجم حزب العمال الكردستانيّ، ولكن ليس فقط الحزب! وإنَّما ثمَّة هجومٌ على جميع القوى التي تودُّ بصدقٍ تمثيل مجتمعاتها، وهو هجومٌ خَطِر وجزءٌ من السياسة الإمبرياليَّة إزاءَ الشرق الأوسط، لِذا ما الذي تفعله الإمبرياليَة في الشرق الأوسط لأجل ذلك؟ تعمل على تعزيز وتقوية القوموية، التحيز الجنسي، والتعصب الأعمى، والعلمانيَّة، قائلةً: هذا هو العلمُ فخذوه، هذه هي الجنسانيَّة فخذوها، وعلى النقيض من ذلك، تُظهِر نفسها على أنَّها الأكثر ليبراليَّة، من حيث التحيز الجنسي أيضًا، في يومنا الرَّاهن تتمنَّى النساء العراقيَّات ألفَ مرَّة العودة إلى زمنِ صدَّام حسين، لأن العراق كله أصبح كوكِرٍ للدعارة والفاحشة، ليس هذا

وحسب، بل أنَّ الدول المجاورة كوَّنت صورةً سيئةً عن النِّساء العراقيَّات، هذا هو تحرير المرأة الذي جلبوه للعراق!! هذا كلُّه يخدُم المشروع الليبرالي القائم على الفرديَّة والأنانيَّة والانقسام الاجتماعي وإنكار المجتمع، ليعيشَ المرءُ وفق غرائزه وبالتالي يمكن للإمبريالية السيطرة عليه، وكان هذا هو الهدف، فلولا القوميَّة في عهد صدَّام لما قَتل الشيعةُ السُّنَّة ولم يكن ليقتلَ الكُردُ والعرب بعضهم الآخر، لم يكن ليُقتَل المسيحيَّون ويُنهَبوا بهذا القَدر، لذا هذا هو السبب في أن الإمبريالية تعملُ جاهدةً على فرضِ هذا المشروع، الأمرُ الذي يجلبُ معه مشكلةً جديَّة وخَطِرة، لِذا من المهم أن نَلِجَ الميدان بمشاريع واضحة لإحياء مشروع الحرية ضدَّ مشروع لبرلَة المنطقة، أن نعمل على إدخال مشروع الحريَّة، مشروع الحريَّة ضدَّ الحداثة الرأسماليَّة، لا سيَّما أنَّ قاعدتها المجتمعية تعارضُ الحداثة، سيؤدي هذا بشكلٍ أساسي إلى منع مشاريع الحداثة الرأسماليَّة عن النجاح في المنطقة.

فلننظر إلى الأمر بهذه الطريقة، ثمَّة للإمبريالية أسباباً وأساليبَ عِدَّة للهيمنة على الشرق الأوسط، ولكن يودُّ المرءُ جعلَ هذه النقاط الأربع أو الخمس مُشخَّصةً أكثر. لقد واظبت الإمبرياليَّة على زرع بذور الانقسام في المنطقة، أي تركت الصراعات السنيَّة دائمًا موجودةً بين الدول والشعوب. الجغرافيا، الدينية والطائفية والاستراتيجية، انطلاقاً من جهودها في الوصول إلى السلطة وموارد الطاقة ولا سيَّما النفط والدفاع عن إسرائيل وعرقلة مشروع الحضارة الديمقراطية للشرق الأوسط. تلكَ مقاربات للإمبريالية، لذا ظهرت المقاربات اليساريَّة في مواجهتها كبديل راغبةً أن تحكم منذ فترةٍ طويلة، سنناقش هذا الأمر أيضاً.

ثامناً: الاشتراكية في جوهرها الصحيح ليست بعيدةً عن حقيقة الشرق الأوسط:

الاشتراكية كأساس ليست فكرةً بعيدةً عن حقيقة الشرق الأوسط، بمقدور المرء أن يصادف في المنطقة تاريخ الشرق الأوسط والحركات الاجتماعية، والطوائف، على أساس المساواة في العدالة، وهذا النمط الاجتماعي القائم على المساواة، حتى في الآونة الأخيرة حكم الكثير من الناس في أماكن مختلفة بقوتها الجوهريَّة، لذا فإن الاشتراكية ليست بعيدةً عن حقيقة الشرق الأوسط، ولهذا فإنَّ الاسم، أو المفهوم قد تغيَّر بالتأكيد، لكن الاستياء من الحكومة وعدم الرضا عنها والنضال ضدَّها، والابتعاد عن الدولة والعيش خارجها، أو العيش بدون دولة، يمكن للمرء أن يصادف كل تلك الأمور أو أنَّها كانت موجودةً في الشرق الأوسط، لكن الحركة الاشتراكية بتنظيمها وباسمها ونظريتها انتقلت إلى الشرق الأوسط خلال القرن العشرين، لا سيَّما أنَّ القوميَّة أو الدولة القوميَّة والرأسمالية والمُلكيَّة الخاصَّة كانت مسيطرةً ومهيمنة في الشرق الأوسط، كما الصراع في العالم بين الرأسمالية والاشتراكية، وبخاصَةٍ مع ظهور الاتحاد السوفيتي كنظمٍ سياسية متعارضة، كيف رأى تأثيره في الشرق الأوسط؟، حينَ قام المسؤولون والسلطات والحكَّام والدولة، أي تلك القوى العليا في المجتمع بربط نفسها بالنظام الرأسمالي للعالم وتحوَّلوا إلى جواسيس لها وخَدموها، لقد قَبِلَ الفلاَّحون

والعمَّال والفقراء الأفكار الاشتراكية ضدها، وتدريجياً تم تنظيم المنظمَّات ضدَّ الحكومة وعدم المساواة ومن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية.

١ـ تطوّر الحركة الشيوعيَّة في الشرق الأوسط:

باتت الحركة الشيوعيَّة رسميَّة في الشرق الأوسط منذ العام ١٩٢٠ وما تلاه، وتأسس الحزب الشيوعي التركي لأول مرة في تركيا خلال عشرينيات القرن الماضي، تأسس الحزب في الصين، -الصين تختلف عن الشرق الأوسط إلى حدٍّ ما سوى أنَها تقع داخله- وفي سوريا ولبنان تأسَّس الحزب الشيوعي خلال العام ١٩٢٤ وفي العراق خلال العام ١٩٣٦، في السودان، وتأسست في إيران خلال الثلاثينيات وما بعدها. وهكذا تمَّ تشكيل الأحزاب الشيوعيَّة في العديد من الدول العربية، وتركيا، وبلاد فارس، والآن ما هي خصائص تلك الأحزاب الشيوعيَّة؟ تأسَّست الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط خلال الفترة التي كان فيها الاتحاد السوفيتي والحزب الشيوعي السوفييتي المهيمنتان على الحركة اليسارية في العالم، لأنه كان ثمَّة انقسامٌ في الحركة الشيوعيَّة العالميَّة قبل الاتحاد السوفيتي، فأولئك الذين أصبحوا إشتراكيين وطنيين أطلق عليهم لينين حينها اسمَ الاشتراكيين الشوفينيين، أي هم اشتراكيون سوى أنَّ مواقفهم شوفينيَّة، أي لبرلوا الاشتراكية ووضعوها في خدمة الرأسمالية، وهم مهيمنون في يومنا الرَّاهن ضمن بعض الأماكن، على سبيل المثال، الحزب الاشتراكي الفرنسي، الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان، إلخ، حزب العمَّال البريطاني، ومع مرور الوقت اتِّحدوا تماماً مع الرأسماليَّة. على الضدَّ منهم اليساريّون، الشيوعية في شخص الحزب الشيوعي السوفيتي للينين، ووفقًا للانتهازية والإبادة التي حدثت في الحركة العمالية أعادت ترسيخ معيار الشيوعية وتمَّ تأسيس منظمة على هذا الأساس، ما اسمُ تلك المنظمة؟ الشيوعية الثالثة، الأممية الثالثة، الأممية الشيوعية، أو الكومنترن، عُرف أيضًا باسم الكومنترن أي (الشيوعيَّة الدوليَّة)، فما هو

الكومنترن؟ أُسِّسَ الكومنترن خلال العام ١٩١٩ وضمَّ أحزابًا شيوعية ضدَّ الإبادة والليبرالية والشوفينيّة الاجتماعية. مَن كانوا؟ معظمهم كانوا شرقيين، الحزب الشيوعيّ التركي والسوري والصيني والبلغاري والروماني، وفي أوروبا مع الشيوعيين الراديكاليين مثل الحزب الشيوعي الألماني الجديد وروزا لوكسمبورغ، ليحكم الكومنترن بهذه الطريقة الحركةَ الشيوعيَّة. في الحقيقة كان الكومنترن جيِّداً من ناحية، من أي ناحية؟ توحيد عمَّال العالم والاشتراكيين والنضال ضدَّ السلطة والرأسمالية، أي أن الاتحاد المُنشئ كانَ جيدًاً، هذا هو الجانب الجيد، لكن ما هو الجانب السيء؟ كان مركزيًّاً للغاية بتخلّيه عن مبادرة الحركة الشيوعية العالمية، على سبيل المثال: من المهمّ لأيِّ حركةٍ شيوعيَّةٍ في بلدٍ ما أن تأخذ بوضع بلدها ومن ثمَّ تبني وفقاً لذلك سياستها، كانت تلك المبادرة ضعيفة ولأنَّها كانت ضعيفة منذ البداية فإنَّها تسبَّبت في الضرر، لكن في زمن ستالين، حينَ أصبح الاتحاد السوفيتي دولةً قوميَّة، أي كدولةٍ قومية، كانت مصالحها قائمة على حماية الاشتراكية، لذا اختفت تلك المبادرة التي كانت موجودة تمامًا، وخطوةً إثرَ الأخرى تصرَّفت الأحزاب الشيوعية ليس وفقاً لظروف بلدها وإنَّما في إطار مصالح وتطلّعات السوفييت، الأمر الذي تسبَّب في أذىٍ كبير للحركة الشيوعيَّة ضمن الشرق الأوسط، لِمَ؟ باتَ الاتحاد السوفيتي أكبر دولةٍ في العالم، دولة باتت السلطة فيها في المقدمة، دولةً بيروقراطية لها مصالحها الخاصَّة في الجانب الاستبدادي، لم تنجح في نشر فكرة المساواة، بل عملت لتغدو قوَّةً لا يُستهان بها في العالم، أي وكأنَّها عملت ضدَّ أمريكا. ما هي الأسباب الرئيسة لوجود الاتحاد السوفياتي؟ أن يكون مركزاً للاشتراكية وقادرًا على دعم حركات الشعب ضد الإمبرياليَّة، وليس لأجل مصالحه الخاصَّة، لكن حتى في عهد ستالين وما بعده وخطوةً إثر الأخرى باتت خصائص الدولة والمصالح في المقدمة، وعلى أساس تلك المصالح باتت تقترب من العالم، وليس على أساس نشر الاشتراكية بل على أساس مصالحهم الخاصة وبدأت تشكَّل الأنظمة في أماكن متفرّقة من العالم، تدخَّلت في أمريكا اللاتينيَّة، ولتضغط على أمريكا تدخَّلت في الشرق الأوسط، لكن وفقًا لأميركا فإنَّ الاتحاد السوفيتي كان ذا

فائدة للغاية، لأنَّ الجماهير كلها حين كانت غير راضية عن استبداد الرأسمالية والاستعمار عثرت على خلاصها مع السوفييت، ولدت قوة في كل بلد، وكانت تلك القوة مرتبطة بشكل طبيعي بالسوفييت، وكانت تلك الأحزاب الشيوعية مرتبطة بالسوفييت، وعوضاً عن أن يقوم الاتحاد السوفييتي بتمكين هؤلاء الأشخاص لأجل تحقيق المساواة والديمقراطية في بلدانهم، استخدموهم كآلاتٍ تعمل في إطار مصالحه الخاصَّة، هذا الوضعُ أضعفَ موقف الأحزاب الشيوعيَّة وجلبت المزيد من الترويج ضدَّهم، ماذا كانوا يقولون عنهم؟ "هذه ليست أحزاباً وطنيَّة، الشيوعية عبء، إنها من الخارج، وليست فكرةً شرقية. نحن أناسٌ متديّنون، لدينا شعوب ودول، هذا الترويج للشيوعيَّة أمرٌ غريبٌ عنَّا، وبصرف النظر عن ذلك، هذه الأحزاب لا تعمل لأجل بلدها بل من أجل الاتحاد السوفيتي ومرتبطة بالاتحاد السوفييتيّ". حتَّى أنَّ ثمَّة عبارات غريبة ظهرت في هذا الصدد، على سبيل المثال، إن هطلت الأمطار في موسكو يحملُ الشيوعيَّون في الشرق الأوسط مظلّاتهم! لِم كان كلُّ ذلك؟ أي أنهم لم يتصرفوا وفقًا لشروطهم الخاصة بل عملوا دائمًا وفقًا لمطالب الاتحاد السوفيتي. لم تنشأ محاولاتٌ لدى الأحزاب الشيوعيَّة في المنطقة لكي ينفصلوا من الجانب السياسي عن الاتحاد السوفييتي بل بقيت على ما هي عليه، تابعة، وترى الاتحاد السوفييتي لنفسها بمثابة قُبلةٍ يولُّون وجوههم نحوه، وهذا الأمر استخدمه السوفييت واستثمروه، حيث استخدم تلك الأحزاب كآلاتٍ وبقي الوضع هكذا حتَّى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، هكذا كانت حال الأحزاب الشيوعيَّة في سوريا ومصر والعراق وإيران، ما الذي فعله الاتحاد السوفييتي؟ في الستينيَّات نشأت السلطة الراديكاليَّة العربيَّة، القوميَّة والراديكاليَّة، سوى أنَّها كانت تتحدَّثُ عن الاشتراكية، ما الذي قاله الاتحاد السوفييتيّ: "حسناً، البعث، الناصريَّة، كانوا اشتراكيين، ولكنَّهم كانوا ضعفاء" لِمَ؟ كان العمَّال ضعفاء والأفكارُ ضعيفةً"، لذا قال السوفييت: "سوف نساعد تلك البلدان وندخل الصناعة إليها ونقدِّم لهم العونَ الماديّ، وخطوةً إثر الأخرى ستصبح تلك السُّلطات اشتراكية بدون العبور بالرأسماليَّة، وسيحقّقونَ الاشتراكية"، لذا كانت ثمَّة نظريَّة لـ خروتشوف

وواصلها بريجينيف لاحقاً، كان هذان الاثنان في ذلك الوقت سكرتيرين للحزب الشيوعيّ السوفييتيّ، كانت نظريتهما تقومان على التقدُّم غير الرأسماليّ، أي الطريق غير الرأسماليّ، فما كان ذلك الطريق؟ ذلك يعني أن ثمّة تنظيمات برجوازيَّة راديكاليَّة صغيرة وصلت إلى السلطة في دولٍ مثل: مصر وسوريا، وستقوم بمساعدة تلك التنظيمات وتوجَّهها لتقودها إلى الاشتراكية، لقد كان الأمرُ برمَّته عبارةً عن خدعة لا أصل لها ولا نمط ولا يمكن أن يحدث شيءٌ من هذا القبيل. لكن ما الضرر الذي تسبَّب به الأمر؟ حين كان السوفييت يتحدَّثون إلى مصر وسوريا والعراق كحكوماتٍ كانت تعقد علاقاتِ صداقةٍ معها، لتُضعِف تلك الدول الوضع الشيوعي وتعمل على تقوية الدول ضد الشيوعيين، تغتال الشيوعيّين، فيما يلتزم الاتحاد السوفييتي الصمتَ إزاءَهم، حتَّى في بعض الأحايين كان السوفييت أنفسهم يطلبون من الأحزاب الشيوعيَّة: "لا تُزعجوا النظام حتى لا تتدهور علاقاتنا"، أي أنَّهم وضعوا الشيوعيّين في خدمة الدولة القوميَّة في مصر وسوريا والعراق على الرغم من أنَّهم قُتِلوا، كان صدَّام يغتال الشيوعيين كل يوم سوى أنَّ السوفييت بقوا معه وأيَّدوه، بالمنظور السوفييتي، لم يبقَ شيءٌ لم تفعله سوريا بالشيوعيَّين، ولكنّها بقيت مع سوريا، اعتقلت مصر الشيوعيّين جميعهم ليبقى الاتحاد السوفييتي معها، الأمر الذي تسبَّب في إلحاقِ ضررٍ كبير للحركة الشيوعيَّة. مرَّةً أخرى تم إلحاق ضرر كبير بإيران، فما هو ذلك الضرر الكبير؟ المشاكل التي عاشها الحزب الشيوعيّ الإيرانيّ، كان ثمة العديد من قضايا أعضاء الحزب الشيوعيّ الإيراني وكان لهم تأثيرهم الكبير على الشعب وكانوا قد فهموا المجتمع الإيرانيّ إلى درجةٍ كبيرة، لذا كان الحزب يتحدَّث بكلماتٍ يكون عبرها قريباً من الشعب وتجمَّعوا حوله، ولكن العلاقات السوفييتيَّة الغير قويمة والمضللة جعلت من الحزب الشيوعي الإيرانيَّ ضحيَّةً. كان السوفييت دائمًا يتمتعون بعلاقاتٍ جيدة مع إيران، لكنهم دائمًا ما كانوا يبيعون الشيوعيين لمصالحهم الخاصَّة، فعلوا الشيء نفسه مع الكرد وباعوا آخرين كُثر أيضاً، حيثُ تسبَّبت مقاربات السوفييت القائمة على المصلحة الذاتية في تكبُّد الحركة الشيوعية خسائر فادحة وألَّا تتكوَّن لديها

وجهات نظر حول السُلطة، ليس بمقدورهم أن يغدو سلطةً، فالطاقة المتجمَّعة ضدَّ الدولة تمَّ إنفاقها هباءً منثوراً، تلكَ الطاقة لم تكن عاديَّة، فحين نقول الحركة الشيوعيَّة في الشرق الأوسط فإننا نتحدث عن الأشخاص الأكثر قيمةً في ذلك المجتمع بأخلاقهم وتدريبهم وعلمهم، والأهمّ من كل ذلك بطولتهم. أي أنهم آمنوا بالشيوعية متخيّلين أشدَّ أنواع التعذيب التي تنتظرهم، قاوموا في السجون بمواجهة الفاشيَّة الوحشيَّة والتعذيب في العراق ومصر وسوريا وتركيا وإيران، كانوا أشخاصاً أعلى قيمةً في المجتمع، وإن ساروا معهم في الطريق الصحيح كان بمقدورهم خلق عشرات الثورات الاجتماعية، لكن النهج السوفييتي الموجَّه دائماً نحو المصالح والتضليل والتمركز حول الذات كان السبب في عدم أخذ تلك الأحزاب زمام المبادرة ولم يتصرَّفوا أبدًا لصالح بلدانهم، وباتت أحزاباً بلا أي تأثير، كان أحد أسباب فشل الحركة الشيوعية في الشرق الأوسط هو النهج السوفيتي أوَّلاً، وثانياً مقاربات الحركة الشيوعيَّة نفسها في الشرق الأوسط.

٢ـ مقاربات الحركة الشيوعيَّة الدوغماتيَّة في الشرق الأوسط:

لم تتَّخذ الحركة الشيوعيَّة الماركسيَّة واللينينيَّة مقاربةً إبداعيَّة بل مقارباتٍ تأخذ شكل الدوغماتيَّة، أكبرُ الدوغماتيين هم الشيوعيون في الشرق الأوسط. في أوروبا، على سبيل المثال، اهتمّوا بالشيوعيين الفرنسيين والإيطاليين إلى حدٍّ ما، وأعادوا تقييم الماركسية وفقاً لشروطهم، ظهرت مدارس جديدة ولم يمتلكوا الجسارة ضدَّها في الشرق الأوسط بل اتّخذوها كمتنٍ قرآنيّ وتمَّ الترويج لها، سوى أنَّ ذلك الترويج لم يكن صحيحاً ولم يعبَّر عن الواقع الاجتماعي للشرق الأوسط، لم يترجم الشيوعيَّون الكتبَ في الشرق الأوسط وفقاً للوضع السائد في البلاد البتَّة، لذا يقال: هذا ما قاله لينين في إحدى الصفحات الشيء الفلانيّ، وفي كتابٍ آخر يقول أمراً آخرَ، أو أنَّ ماركس قال ذلك في إحدى كتبه، لكن هذا يصلُح لألمانيا، لروسيا، فيما لا يصلُح لسوريا

ومصر والسودان، على سبيل المثال، تجري مناقشة في بعض الأحيان، يأتي أحدهم سواء عبر الراديو أو يطرح أحدهم سؤالاً عبر صحيفة، على سبيل المثال؛ كان هناك عبد الخالق محجوب الذي كان لفترةٍ ما زعيماً للحزب السوداني، أي سكرتير الحزب الشيوعي، الذي كان يتمتَّع بالقوَّة الكافية لتولي السلطة، انقلبوا عليه فيما بعد وقتلوه، يطرح الصحفي سؤالاً عليه: "هل الله موجود أم لا؟" إن قالَ نعم موجود فإنَّه يكون بذلك على النقيض من الشيوعيَّة، وإن قال لا غير موجود فسيستاءُ الشعب من جوابه ذاك، ولكَّن ليس بمقدوره أن يتعارض مع فكره، فيقول: لا، الله غير موجود. ومع ذلك ما كان ينبغي للشيوعيين في الشرق الأوسط الدخول في مثل هكذا نقاشٍ حول ما إذا كان الله موجودًا أم لا، المثاليَّة مختلفة في الشرق الأوسط، سوى أنَّ المادية لا يمكنها أن تكون مختلفة، الشيوعية ضروريَّة في الشرق الأوسط لهذا الغرض. أين كانت المشكلة؟ لم يكن ثمَّة إبداع، بل متن، أو نصٌّ فُرِض بطريقَةٍ مقولَبَة، كان هذا هو سبب عدم تجمّع المجتمع حول الحركة الشيوعية بشكلٍ كبير، كانت هذه بالفعل الحركة الشيوعية في شكلها التقليدي، وتتراجع يوماً إثرَ الآخر، لقد انتشر الشيوعيون العراقيون على نطاق واسع، لا سيَّما بين العرب، لِم انتشرت الشيوعية كثيراً في العراق؟ بسبب وجود صناعة نفطية، كان هناك عمال ونسبة كبيرة من الفقراء، فتجمَّعوا حول الشيوعيَّة، وهكذا كان الحال في سوريا فمصر والسودان، لقد عانت الشيوعيَّة الكثير في تركيا ولم تنجح في أن تصبح قوَّةً عُظمى بالكامل لأنها لم تستطع التخلُّص من الكماليَّة، ولا يمكن تحت اسم القومية تجاوز الحدود، لقد شنَّت الكماليَّة حربًا على الإمبرياليَّة وهي أيضًا ضد الإمبرياليين، إذن كيف سيقومون بوضع حدودٍ بين أنفسهم وبين الكماليّة، حاولوا جاهدين ولكنَّهم لم يستطيعوا وضعَ الحدود ولا يمكنهم فعل ذلك حتى يومنا الرَّاهِن، لذا لم يغدوا حركةً اجتماعية، بل كانوا دائمًا كجناحٍ يساريّ للقوميَّة التركيَّة، كما أن موقفهم السلبيّ تجاه حركة الحرية كان يتطوَّر على هذا الأساس. كانت هذه هي الحركة الشيوعية في شكلها الكلاسيكي، وحين انهار الاتحاد السوفييتي عاش الشيوعيّون المأساة الكبرى، لِم ذلك؟ اتخذت الحركة الشيوعية أسباب وجودها وشرعيتها

بموافقة السوفييت، على سبيل المثال، في الماضي حين تأسس حزب العمال الكردستاني في شمال كردستان كيف تطوَّر وفي أي ظروف، وكيف تمت مناقشته، لم نكن شاهدين على الكثير لكننا سمعنا، حين عبر حزب العمال الكردستاني الحدود إلى سوريا، كان هذا هو السؤال، حزب العمال الكردستاني ماركسي لينيني، هل يعرفكم الاتحاد السوفييتي؟ فيردُّ الرفاق: "ومَن هو الاتحاد السوفيتي؟!" فيقول لهم الناس: "لا تملكون أكثر من بضعةِ رجالٍ وتنتقدون الاتحاد السوفييتي!!، وهل يجوزُ الأمر، إن كنتم اشتراكيَّين فكيف لا يعرفكم الاتحاد السوفييتي، فإن لم يعرفكم السوفييت فهذا يعني أنَّكم لستم اشتراكيين" هكذا كانوا يقتربون من حزب العمال الكردستاني، لِمَ؟ لأن معايير أي حزبٍ شيوعي لا بدَّ أن تمرَّ بموافقة السوفييت. كانت للأحزاب الشيوعيَّة علاقاتٍ مع السوفييت، لذا ولأجل ذلك، من كان الشيوعيَّون؟ الحزب الشيوعي السوري، العراقي، التركي، إلخ، أي تلك الأحزاب التي قبل بها الاتحاد السوفييتي، ومن كانت خارج هذا الإطار فهي ليست شيوعيَّة، بل كان يتمّ التشهير بها من قبل الأحزاب الشيوعيَّة الأخرى معتبرةً إيَّاها خارجةً عن الطريق، لا بل وحتَّى جواسيسَ للإمبرياليَّة! لذا كانوا يقولون أنَّ حزب العمال الكردستاني يحارب لأجل الإمبرياليَّة ويعمل لأجلها، لِمَ؟ لأنه كان ضدَّ الاتحاد السوفييتي وينتقده. لكن حين انهار الاتحاد السوفييتي فمن ذا الذي سيمنحهم الموافقة؟! لقد أضاعوا مصادرهم في القبول والشرعَنة، لذا انهاروا وغدوا يتامى، كانوا فخورين بأنفسهم في الماضي، سوى أنَّهم جلبوا لأنفسهم اللعنة بعد ذلك، لِمَ؟ كان الاتحاد السوفييتي يقبل بهم، كل بضع سنوات يذهب رؤساء تلك الأحزاب في زيارةٍ إلى موسكو ويقيمون في فنادق فخمة، كانت موسكو تتكفَّل بدراسة طلبتهم، كانوا ينظرون إلى أنفسهم وكأَّنهم عظماء ليموت والدهم بغتةً ويبقوا يتامى، لم يبقَ الذي يقبل بهم ويمنحهم الموافقة. هذا الأمر جلب معه عِلَّةً وحالةً نفسيَّةً سيّئة، ما هو ذاك المرض؟ كان مرضاً مزمناً، وهو الردَّة، أو المرتدّ، أي تؤمن بشيء ثم تتخلى عن ذلك الإيمان، لذا خرجَ من بين الشيوعيين جزءٌ أنانيّ، يبيع نفسه، يتجسَّس ويفعل كلَّ الأشياء السيّئة، لِمَ؟ لقد تبدَّدت الآمال كلها، انهارَ الشيءُ الذي كان يؤمنُ به، فما

الطريق الذي بقيَ أمامه؟ الاستسلام، استسلم إلى النظام وباتَ جزءاً منه، وسيكونُ أمراً سيئاً حين يقول أنّه عمل لأجل ذلك النظام، لذا تحوَّل البعض منهم إلى الدين وباتَوا متديِّنين، والبعضُ الآخر غدوا لصوصاً وجواسيس، لذا اتضح أنها كانت حركةً آنيَّة، وهذا آلمَهَا حقيقةً. لكن وبشكلٍ عامّ بِمَ حدث الضرر للإشتراكية المؤسَّسة في الشرق الأوسط؟ بشكل أساسي، القوة المُرشَّحة لإحضار الحل، والسلطة المرشحة لتكون البديل، والسلطة المرشحة لتكون ديناميكية الصراع الرئيسي، وبالتالي إخراج الشرق الأوسط من الفوضى واستنتاج الحل وإنشاء مؤسسة عادلة جديدة، لم تكن تلك القوة ضمن هدف شعوب الشرق الأوسط والتي تُدار وفقاً لوجهاتِ نظرٍ خارجيَّة، لهذا أيضا لم تستفد شيئاً، بل حدث اغترابٌ أكثر عن النفس. لم نتحدَّث عن شيءٍ آخر، وهو النضال ضدَّ النظام، في الواقع لقد أظهروا بطولةً عظيمة في العديد من المراحل، استنكروا الرأسماليَّة، لكن رغم ذلك فإنَّ معظم الذين جسَّدوا الحداثة في الشرق الأوسط كانوا شيوعيين، فعلوا كُلَّ شيءٍ لكي يميِّزوا أنفسهم في المجتمع تحت مسمَّى الحرب ضد التقاليد، وتلك الترويجات التي ظهرت ضدَّهم ساهمت في منحهم بعض الشرعيَّة والاستحقاق، وفعلاً لم تكن تلك الترويجات ذا أصلٍ أو أُسّ، لكن في شكلها ومع قبول الحداثة قدَّمت الأرضيَّة تحت اسم التجديد والتحديث. لذا فإنَّ الحركة الشيوعية الكلاسيكية في الشرق الأوسط أبعدتهم أكثر عن جوهرهم، أي خلقت الاغتراب مساهِمَةً في إنفاق ديناميكيَّة المجتمع في غير مكانها الصحيح، أي خارج مصالحه، وإنَّما في صالح الاتحاد السوفييتي. ولكن يا ترى ألَم تكن ثمَّة حركةٌ بديلةٌ البتَّة؟ كانت هناك حركة بديلة، مَن كانت؟ على سبيل المثال، في شخصيَّة حركة اليسار الفلسطيني التي تحدَّثنا عنها سابقاً، حركة جبهة الشعب التي قادها جورج حبش، قالوا أن هذه الأحزاب الشيوعية الكلاسيكية واليمينيَّة لا تعطي أجوبةً، وأنَّ الخط القومي لا يمكنه أن ينجَح، لذا فإنَّ اليساريَّون بالكاد كان بإمكانهم فعل ذلك، اليساريَّون الماركسيَّون اللينينيّون المستقلّون، ولكن مع مبادئهم تلك لم يتمكَّنوا من المقاومة لفترةٍ طويلة، لأن الجميع جذبوهم نحوهم، لقد ضربوهم، ضربوهم في الأردن ولبنان، عملوا على إضعافهم في

الجانب العسكريّ وأثَّروا عليهم فكريَّاً وأضعفوهم عبر أغرائِهم ماديَّاً، سوى أنَّها كانت خطوة، مرَّةً أخرى وعلى أساس القيم المأخوذة من الحركة اليسارية الأوروبيَّة، لأن الحركة في العام ١٩٦٨ في أوروبا لم تكن مجرد حركةٍ ضد الرأسمالية، بل كانت في الوقت عينه حركةً ضد الشيوعيين الكلاسيكيين والاتحاد السوفييتي، لكنها كانت يساريَّةً فتيَّة وصاغت أهدافها بطريقةٍ مختلفة، كما عبَّرت عن أنشطتها بطريقةٍ مختلفة، كانت أرضيَّةً للانتفاضات في جميع أنحاء أوروبا، ولا سيَّما في فرنسا، أصبحت ألمانيا أرضاً للانتفاضة، كان لها تأثيرٌ قويٌّ للغاية على الشرق الأوسط من ناحيةٍ إيجابيَّة، حيث ظهرت في ذلك الوقت حركة يسارية جديدة في مصر وتركيا، الأخيرة التي قامت بتصفية الحركة عبر إعدام دنيز جيزميش وقتل ماهر جايان. ما كان آخر نشاط للحركة في مصر؟ في يناير ١٩٧٧، برزت الحركة اليسارية في مصر، وفعل الشباب في كل مصر تمامًا كما فعلت الحركة في أوروبا وفرنسا وألمانيا، احتلت مؤسسات الدولة ونُهبت منازل الأغنياء، وتحطمت نوافذ منازلهم، فما فعله الشباب الأوروبيّ فعله الشباب المصريَّون أيضاً، لكن لم يكن بمقدورهم أن يغدو سلطةً، هذا أمر، ومن ثمَّ قمعتهم الدولة، وبعد ذلك، بعد العام ١٩٦٨، أظهرت أوروبا مبادئ الدولة الاجتماعية، أي أنَّ الدولة بدَت مرنة ومهّدت الطريق إلى الديمقراطيَّة، ولكن هذا لم يحدث في الشرق الأوسط، ما الذي فعلته الدولة في الشرق الأوسط؟ قتلت اليساريين ورمتهم في المعتقلات وأفسحت المجال أمام المتديّنين، على سبيل المثال، كانت المعارضة المصريَّة تمتلك شخصيَّةً يساريَّة حتى الثمانينيات وامتلأت السجون المصريَّة بهم، ومنذ الثمانينيات فصاعدًا بدأت مصر بقتل الإسلامويِّين أيضاً، ما أسباب ذلك؟ دول الخليج تحتضن النفط والثروة والأجور والعمالة، فتوجَّه مليون مصري إلى السعودية، ومليون ونصف المليون إلى ليبيا، ومثلهم إلى الكويت، ذهبوا إلى هناك لكسب المال وتغيَّرت أفكارهم ليصبحوا إسلامويين، وهكذا تمَّ تصفية الحركة اليسارية لتظهر عوضاً عنها حركاتٌ دينيَّة. في كردستان، كان اليسار ممثَّلاً بحركة حزب العمال الكردستاني، وحتى يومنا الرَّاهن فإنَّ اليسار والاشتراكية في

الشرق الأوسط، يعثران تدريجياً على أسسهما النظريَة مع إبداع القائد آبو وتتطوُّر تنظيمها من الناحية العمليَّة، وهكذا يمكن للمرء أن يسمّي الحركة اليساريَّة.

٣- تطور الدين الإسلاميّ في الشرق الأوسط:

كانت ثمَّة مشكلة من المشكلات التي لها مصادرها الداخليَّة ولكن تتم إدارتها من قبل الخارج، بهذه الطريقة يتم استهلاك الطاقة الاجتماعية في الشرق الأوسط بشكلٍ معاكس، إحدى تلك المشاكل: الدين، للدين حقيقةً جوانب عِدَّة، بيد أنَّنا سنتوقف عند نقطةٍ محدِّدة، الدين الإسلاميّ وتاريخه، متى ظهر؟ ما الذي حدث؟ لن نُسهِبَ؛ لكننا سنركِّز على بعض الحركات والتنظيمات وكيف أثَّرت على العملية الاجتماعية وكيف مهَّدت الطريق للأزمات.

٤- الحركة الوهابيَّة:

لأنَّ الحركة الدينيَّة الأقوى في الشرق الأوسط هي الحركة الوهابيَّة، فلا بدَّ أن تكون موضَع تقييمٍ بشكلٍ جيّد. أظهرت الحركة الوهابيَّة نفسها كطريقٍ للخلاص وانتشرت أواخر القرن الثامن عشر، أو في ثمانينيات القرن الثامن عشر وما بعده، انتشرت في أوائل القرن التاسع عشر، والذي بدأ بالحركة رجلٌ من بلاد الحجاز، منطقة نجيب في السعودية، يدعى محمد عبد الوهاب، فما هي تلك الحركة؟ حركة سلفية، تهتمُّ بالأسّ، أي تعود إلى الأصل والتاريخ الإسلاميّ، حركة على الضدّ من الغرب وضدَّ الاجتهاد في الإسلام، ويتّخذون النصّ القرآني والأحاديث النبويَّة أساساً ولا يقبلون أيّ شيءٍ آخر غير ذلك، أي أنَّها حركة ضدّ الابتكار والتجديد، أراد محمد عبد الوهاب عبر ذلك النَّهج أن يقوم بتنشيط القوَّة الحضاريَّة لدى العرب مرّةً أخرى، تقوية

الحضارة لدى العرب مرة أخرى، وتغدو مركزاً حضاريَّاً ودولةً قويَّة تمارسُ دورها مرّةً أخرى، وهذه هي أسبابهم: "إذا لم نتمكَّن من التقدُّم اليوم فلأنَّنا ابتعدنا عن الإسلام، فحين كنَّا مسلمين حقيقيين حكمنا العالم آنذاك، ولكن لأنَّنا ابتعدنا اليوم ظهرت الطرق والمذاهب وحصلت التجزئة، الأمر الذي تسبَّب في عدم مقدرتنا على أن نمتلك صوتاً في العالم، الخطر الأكبر هي أوروبا، الغرب، لذا لا بدَّ أن نكون صارمين إزاءَ الفكر الغربيّ وفلسفته ولا بدَّ أن نرفض، وبذلك يمكننا حماية أنفسنا" إنها حركة محافظة، رجعيَّة، أي قائمة على العودة إلى الوراء والعمل انطلاقا من ذلك.

٥- سيكولوجيَّة الحركة الوهابيَّة:

حين نقيّم الأمر فلأنَّ هذه الحركة تريد أن تنتشر إلى أماكن كثيرة حتى في يومنا الرَّاهن، فما هي أسبابها، أو كيف يمكن للمرء تقييم ذلك بشكلٍ موضوعيّ؟ الغضب إزاءَ التطوُّر، فالمرء حين لا يكون بمقدوره التقدُّم فإنَّه يتقهقر، حين لا يمتلك القوَّة والمنافسة يعود إلى الخلف ويتراجع، يجد الخلاص في عودته وتقهقره، وهكذا يُغمِض عينه منقِذاً نفسه، يتسبَّبُ في ضررٍ للمجتمع، فعوضاً عن التنافس مع الغرب عبر العمل الجاد والجهد والعلم، فإنَّه لا يرى في ذاته القوَّة على فعل ذلك، أي لا يرى عبر ذلك المنظور لأنَّه غير موجود البتَّة ويتراجع إلى الخلف؛ هذا لا يحتوي على أي خلاص بل على النقيض من ذلك إنَّهُ ضَرر، هذا جانبٌ من تلك الحركة، فيما الجانب الآخر هو أنَّ تلك الحركة لم تكن مستقلَّةً البتَّة، فصحيحٌ أنَّها قالت بالضديَّة مع الغرب، سوى أنَّها تتجسّس لصالح الغرب منذ القرن التاسع عشر وحتَّى يومنا، كيف تجسَّسَت؟ اتَّحدت مع البريطانيين وقاتلت ضدَّ العثمانيين، ومن ثمَّ بعد ذلك اتّحدت مع الإمبرياليَّة ضدَّ الشيوعيَّة، على سبيل المثال، التعاون الكبير بين الوهابية، أي الإسلام الراديكالي والإمبريالية، فالمثال الأكبر والأكثر إثارة للاهتمام هو طالبان والقاعدة، بإمكاننا فهم هذا

على النحو التالي، كانت ثمَّة حربٌ بين الشيوعية والرأسمالية، بين الاشتراكية البنيويَّة والرأسمالية، كانت حربًا تسبَّبت في شرورٍ كثيرة، وقد توقَّفنا ولو قليلاً عند تأثير تلك الحرب على الشرق الأوسط، ولكن كانت لتلك الحرب فوائدها أيضاً، فما هي تلك الفوائد؟ كان ثمَّة عدوٌّ ضدَّ الإمبرياليَّة يسمى الاتحاد السوفييتي، فاضطرَّت الإمبرياليَّة لاتِّخاذ خطواتٍ ديمقراطيَّة، ومع انهيار الاتحاد السوفيتي لم تعد الإمبريالية ترى حاجةً إلى اتخاذ خطواتٍ ديمقراطيَّة بل غدت مركزيَّة أكثر واستعملت العنف بلا أيّةِ حدود. لكن الإمبريالية أرادت دائمًا تدمير الاتحاد السوفيتي بشتَّى الأساليب وهي كثيرة، كان الإسلام أحد تلك الأساليب ولا سيَّما في الشرق الأوسط، حيثُ أرادت الوقوف في وجه السوفييت باستخدام سلاح الإسلام، حيثُ دعمت كل الحركات الإسلاميَّة وأمَّدتها ماليًّاً، فكل الحركات الدينيَّة في الشرق الأوسط مصدرها غربيّ، مصادر آربكان هي ألمانيا، فتح الله غولن موجودٌ في أمريكا اليوم، كان السوفييت ينتشرون ويزيدون نفوذهم وتزداد هيمنتهم و لا سيَّما في آسيا الوسطى التي كان قسمٌ كبير منها جزءاً من الاتحاد السوفييتي، كجورجيا وأوزبكستان وطاجيكستان، كانت هذه أجزاءَ من الأراضي السوفيتية، وبهذه الطريقة أراد السوفييت أن يكونوا مؤثِّرين على باكستان كذلك وملكت أصدقاءَ دائماً هناك حيثُ كان ثمَّة شيوعيّون واشتراكيّون في أفغانستان، لذا وبعد الحرب الأهليَّة الأفغانيَّة ظهرت مشاكل داخليَّة فقام السوفييت وعبر خطوةً متعمَّدة بغزو أفغانستان للسيطرة على الأمر خلال العام ١٩٧٨ وحين تمَّ الاحتلال تم استنكاره بهدف إبقاء السوفييت في ذلك المستنقع، وهكذا ظهر تنظيم القاعدة.

٦ـ نشأة القاعدة:

بعد الاحتلال السوفييتي لأفغانستان تتجه مجموعةٌ تتبع الاستخبارات الأميركيَّة نحو السعودية لمناقشة الأوضاع في أفغانستان مع العائلة المالكة

ويقولون لها: "نريد أن نعلن عن مقاومةٍ ضدَّ الشيوعيَّة، لكن لكي يتمّ تصديق هذه المقاومة لا بدَّ أن يكون فيها أشخاصٌ منكم، ويشارك فيها المسلمون من جميع أنحاء العالم، ولأجل أن يتمَّ تصديق الأمر أكثر نحتاج إلى شخصٍ من العائلة المالكة لكي يكون بمقدورنا جمع العالم حول هذه المقاومة" السعوديَّة حقيقةً مستعدَّة للعمل ضدَّ الشيوعية، بيد أنّه ما من أحدٍ من أمراء العائلة المالكة قَبِلَ بأداء المهمَّة، والذي قَبِل بأداء المهمَّة هو أسامة بن لادن سليلُ العائلة الثريَّة جدّاً والتي ملكت صلات قرابة مع العائلة المالكة ويتزوّجون من بعضهم الآخر، ومنذ ذلك الحين أصبحوا أغنياء للغاية من الناحية المادية، هم وهابيُّون، أي معروفون بتمسكّهم الدينيّ. قَبِلَ أسامة بن لادن المهمة وتوجَّهَ إلى أفغانستان مُصطحِباً معه العديد من الشباب المسلمين الذين أقبَلوا من كل مكان، السعوديَّة وسوريا ومصر والأردن والعراق، إذن ما الذي فعلته تلك الدول حقيقةً؟ تقوية الحرب ضد الشيوعية، والثاني هو احتمال معارضة الإسلام الراديكالي لها، القاعدة إذن منظمةٌ تتبعُ الاستخبارات الأميركيَّة، السي آي إي، وعلى هذا المنوال اجتمع حولها المسلمون من جميع الدول العربية وأعلن الجهاد ضد الشيوعية لإنقاذ أرض المسلمين. كيف تمَّ تمويلها؟ فُتح بنكٌ في الإمارات تحت مسمَّى "بنك الإعمار والتنمية". لوهلةٍ يبدو بنكاً عاديّاً كغيره من البنوك، سوى أنَّ الأموال المُرسَلة إلى المجاهدين الأفغان والقاعدة وباقي التنظيمات الأخرى التابعة لها كانت تتراكمُ كلُّها في ذلك البنك، أي لا وظيفةً أخرى لذلك البنك سوى هذه المهمَّة، لذا كان أمراً غريباً بالفعل، فحين غادر السوفييتُ أفغانستان أعلن البنك إفلاسه واختفى، لقد انتهت المهمَّة وكان يُدفع لها ملايين الدولارات، ماذا كانوا يفعلون بهذه الأموال؟ يشترون بها أسلحةً متطوّرة وحديثة. فحين تقوم أمريكا بنفسها منح أسلحةٍ إلى تلك التنظيمات فإنَّها ستغدو طرفاً في الحرب ضدَّ السوفييت، وقوانين الحرب الباردة ترفض ذلك، لذا فإنَّ أميركا كانت تبيعهم أسلحةً مقابل تلك الأموال من السعودية والإمارات والكويت وقطر ودول الخليج العربي والتي يتم غسلها وتبييضها في البنك، هكذا كان يتمّ شراء الأسلحة للحركة الجهاديَّة في أفغانستان. اتَّسعت تلك الحرب، فما هي الحرب التي حدثت ضدَّ

السوفييت في أفغانستان؟ كانت الأموال سعوديَّة، أي أموال البلاد المُنتجة للنفط، والتقنيَّة أميركيَّة لأجل إحياء الإسلام، في الحقيقة استفاد هؤلاء من الحرب، ولكن ماذا حصل للاتحاد السوفييتيّ؟ تراجعَ، ومع مغادرة الاتحاد السوفييتي، ابتعدت أميركا عن ذلك التنظيم لأنَّها أتمَّت مهمَّتها، وإن كان ثمَّة حربٌ للقاعدة ضدّ أميركا الآن فهي حربٌ خالية من أي مبدأ، إنَّها حربٌ نفسية، نهجٌ إقطاعيٌّ قائم على أنَّ أحدهم استخدمني ومن ثمَّ استغنى عني ورماني خلفاً، أي أنَّ الانتقام هو من أُسُس تلك الحرب، لِمَ؟ أمريكا لا تخدمُ الإسلام بل تستخدمه لتبني لنفسها نظاماً وليس للمسلمين، الأمر الذي دفع اولئك المسلمين الراديكاليين إلى الدخول في حربٍ ضدِّ أمريكا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، هذا صحيح، ثمَّة حرب سوى أنَّها خالية من أي مبدأ، إنها حرب الأموال وأخذ الحِصص، تمّ استخدامه ومن ثمَّ رميه بعيداً فيُظهر استياءَه، لذا لا يملك أي احتماليَّةً للنجاح، حتى أنَّه ثمَّة اعتقادات مختلفة، على سبيل المثال، قال كاسترو: "ما زلت أعتقد أن رواتب بن لادن لا تزال تُدفَع من قبل الاستخبارات الأميركيَّة"، أي ثمَّة صلة على هذا المستوى بين الإمبريالية والحركة الدينية الراديكالية، أو الحركة الدينيَّة التي لن تختفي قريباً ويتمُّ استخدامها عبر الإمبرياليَّة، هذا هو الوضع بالنسبة إلى الوهابيَّة والقاعدة، تريدان إثبات نفسيهما ووجودهما في أماكن متفرّقة، سوى أنَّ النشاط ليس مستقلّاً ولا لأجل المصلحة العامَّة وفي جهوزيَّةٍ تامَّة ليتمَّ استخدامهما على الدَّوام.

٧- تطوُّر حركة الإخوان المسلمين:

ما هي الحركة الدينيَّة الأخرى التي ظهرت في الشرق الأوسط؟ حركة الإخوان المسلمين، وهي ليست حركةً وهابيَّة، بل سياسيَّة على المستوى الأكبر ولا تزال تعمل أكثر لأجل السلطة، أي أنَّ هدفها هو السلطة والعلميَّة، وتتقبَّل الحركة الثقافيَّة الغربيَّة إلى حَدٍّ ما سوى أنَّها دينيَّة، ومستمرَّة في

مصر منذ الثلاثينيات، حيث نشأت فيها خلال الأعوام ١٩٢٠-١٩٣٠ تحت قيادة رجلٍ يُدعى حسن البنَّا، وانتشرت في كل مكان ضمن الدول العربيَّة في سوريا والعراق وليبيا والأردن والسودان وغيرها، ولديهم مناصبهم السياسيَّة في بعض الدول، على سبيل المثال، يوجد لهم في الأردن ممثِّلون ضمن البرلمان، وأقوياءُ في سوريا رغم أنَّهم خسروا في الحرب الضروس خلال العامين ١٩٨٠-١٩٨٢، لكنَّهم لا يزالون يحتفظون بتنظيمهم من الناحية السياسيَّة، كانت لديهم وجهاتُ نظرٍ حول السلطة وعملوا لأجل ذلك وتطوَّروا، مَلكوا أصداءَ قويَّة بين الشعب لا سيَّما في مصر خلال الستينيَّات حين تطوَّرت قوّتهم النظرية، من الذي طوّر قوَّتهم النظريَّة تلك؟ شخصٌ يدعى سيد قُطُب، حيثُ دوَّنَ مثلاً كتاب (هذا الدين) فضلاً عن تأليفه لعديد الكتب في مجال الشريعة، ودوَّن كتاب: (تفسير القرآن)، إنَّهُ متقدِّمٌ في المنحى النظريّ، اعتقله جمال عبد الناصر مرَّةً خلال العام ١٩٦٤، فدوَّن كُتباً كثيرة أثناء فترة اعتقاله، لكن لم يُقتل آنذاك، لم يُعدَم، -كان لا بُدَّ أن يُعدَم!- كانوا يريدون إعدامه، لكن آنذاك ذهب الرئيس العراقي عبد السلام عارف رسميًا ليطالب جمال عبد الناصر: "أطلقوا سراحه" وهذا ما فعله جمال عبد الناصر، وبعد أمَدٍ قصير من إطلاق سراحه جرت محاولة اغتيالٍ أخرى بحق جمال عبد الناصر، واتُّهِم الإخوان المسلمون بتلك المحاولة فتمَّ اعتقال سيد قطب مرَّةً أخرى مع شقيقه وأُعدما على الفور، لكن حتى يومنا الرَّاهن تعتبر منتجاته النظريَّة مصادرَ علميَّة لحركة الإخوان المسلمين، ليس لها فحسب بل للعديد مِمَّن يتخذونه مرجعًا لها، وله صيتهُ واسمه في تركيا أيضاً.
امتلكَ الإخوان المسلمون منظورهم الخاص للسلطة لكنهم لم يكونوا في السلطة والسبب في ذلك هوَ أنَّهم لم يتمكَّنوا من خلقِ توازنٍ ضدَّ الحركة القومية العربية رغم محاولاتهم الحثيثة في هذا المنحى، ما كانَ بمقدورهم توجيه النشاطات المجتمعيَّة نحو الأسلمة ضدَّ القوميَّة، لذا خسروا أمام القوى القوميَّة. على سبيل المثال خسروا ضد البعثيين والناصريين، ولا سيَّما أنَّهم استخدموا العنف في ذلك دون أن يكون بمقدورهم الصمود كثيراً، لكن رغم ذلك فهي موجودة كقوَّة في يومنا الرَّاهن لكن ليس كما كانت عليه

في الستينيَّات. لذا ثمَّة طوائف ومذاهب، وقد توقَّفنا عند بعض تأثيراتها، سوى أنَّه يتوجب علينا إدراكَ أمرٍ، وهو أنَّ المذاهب لها أسبابها الدينيَّة، علينا أن نقبل بذلك، فهذه حقيقة.

٨- أسباب تطوُّر المذاهب:

على سبيل المثال، يأتي شخصٌ ليرى أنَّ ثمَّة حاجة إلى بعض التغييرات والتقييمات، لذا يظهر مذهبٌ جديد، أو أنَّ هناك حاجة وضرورة للمذاهب، لكن هذه الحاجة دائماً ما تُستَغَلّ من قبل السلطة السياسيَّة، ولا سيَّما في يومنا حيثُ يتمّ استخدام النقشبنديَّة على نطاقٍ واسعٍ من قبل السلطات السياسيَّة التركيَّة.

٩- تطوُّر الطريقة النقشبنديَّة في كردستان:

متى انتشرت النقشبنديَّة في كردستان والشرق الأوسط؟ بُنيت النقشبنديَّة خلال القرن التاسع عشر، في العام ١٩٣٠ في عهد دولة بابان، وأحد مؤسّسيها شخصٌ من قبيلة جاف يُدعى مولانا خالد، حيثُ يسافرُ الأخير نحو الهند ويطوّر هناك معرفته بالنقشبنديَّة، ونظرًا لأنَّ الطريقة النقشبنديّة قديمة، فقد تأسست مقاصد هذه الطريقة على يد شخصٍ من بُخارى -وهي مدينة في باكستان- هناك ظهرت وانتشرت النقشبنديَّة، علامَ تعتمدُ هذه الطريقة؟ تقوم على التوبة، أي، لكي يتمكَّن البشر من الوصول إلى الله ويكون بمقدورهم العبادة بشكلٍ جيد لا بدَّ من وجود وسيطٍ بينهم وبين الله، من هو ذلك الوسيط؟ إنَّهم الشيوخ، وليستطيع الإنسان ممارسة دينه بشكلٍ قويم عليه دائماً أن يتوب ويُجَدِّد دينه بين الفترة والأخرى في حَضرةِ اولئك الشيوخ عبر طقوسٍ معيَّنة في الأقوال والأفعال وما إلى ذلك. في الهند أدرك مولانا خالد هذا وتعلَّم

بعض الأشياء الأخرى، لا سيَّما مواضيع الشفاء والتأمل وما إلى ذلك ومن ثمَّ عادَ إلى وطنه، بدأ يتحدَّث عن هذه الطريقة في السليمانيَّة، سوى أنَّ معظم السليمانييّن كانوا أتباع المذهب القادريّ، حيث أبدى القادريَّون استياءهم من ذلك، حاولوا التهجَّم عليه، لم يقتلوه، لأنَّ مولانا خالد كان رجلاً عارفاً ومطِّلعاً وله تأثيره، فضلاً عن كونه سليل عشيرة جاف الكبيرة للغاية، ولكنّهم اضّطهدوه، فأُجبر مولانا خالد على الفرار نحوَ بغداد، وهناك أرسلوا تقريراً حوله إلى السلطنة العثمانيَّة، حيثُ قالوا في التقرير: "ثمَّة شخصٌ على هذه الشاكلة"، فقال السلطان العثمانيّ: "إنَّهُ أمرٌ جيد ولسوف ندعمه"، ما هو سبب الدعم؟ أحد تلك الأسباب هو أنَّ الوهابيَّون كانوا يتطوَّرون ضدَّ العثمانيين، وبدأت تتطوَّر ضدَّها حركة الآغوات في كردستان، كان ثمَّة حاجة إلى خلق توازن، ضدَّ الآغَوات الكرد الذين بدأوا يثورون ضدَّ الإمبراطوريَّة والسلاطين، والوهابيَّة التي تعمل ضدَّ العثمانييّن، لذا منحوا مولانا خالد مجالاً وعملوا على أن يستقرَّ في حلب ومنحوه فرصاً للعمل، أي ما الذي فعلته الإمبراطوريَّة العثمانيَّة؟ كانت تقوم بتعيين شيخٍ في بدليس وآخرَ في أضنة، وبذلك بَدَت المَشيَخة هي المركز، ومحور اهتمام المجتمع وليس الآغوات. لكن رغم هيمنة النقشبنديَّة، إلَّا أن الدولة عادت وأكَّدت سلطتها الاستبدادية على المنطقة، وحتَّى يومنا الرَّاهن تودَّ تسيير الأمور على هذا النحو، لِمَ؟ ليس ثمَّة قوميَّة في النقشبنديَّة، لذا فحين تهيمن النقشبنديَّة في كردستان سَتضعُف المشاعر القوميَّة، وفي المحصِّلة سيكون بمقدور الدولة أن تتمتع بهيمنةٍ أكبر على المجتمع الكردي.

١٠ـ أسباب تطوُّر الإسلام السياسيّ في الشرق الأوسط:

لذا فإنَّ الدين والمذهب يُستغلَّانِ بشكلٍ كبير، وفي يومنا الرَّاهن يودُّ الإسلام السياسي في شكله المعتدل أن يفعل ذلك، مثل حزب أردوغان وبعض الحركات الإسلاميَّة العاملة في أماكن متفرِّقة، وهي حركات وأحزاب مموَّلة

للغاية، على سبيل المثال، إن نظرنا إلى جنوب كردستان، لرأينا كيف يتمُّ بناء المدارس والمستشفيات، ودفع الرواتب، وتقديم المساعدات الغذائية، من يفعل كل ذلك؟ الكرد الأغنياء لا يملكون القوَّة على فعل ذلك، ولكن ما هو مصدر كل تلك الأشياء؟ السعوديَّة، أي إنَّها تموِّل ليقوم المجتمع بنشاطاتٍ ضمن سياقها، وبالتالي إضعاف الصراعات أكثر ضدَّ الإمبرياليَّة وضدَّ السلطة، لتواصل حكمها وسلطتها تحت ستار الإسلام، هذه مشكلة خطيرة بالطبع، ويهمُّنا الأمر كنضال، وهو على جدول أعمالنا، ولا بدَّ أن نفسِّر الأمر جيداً ونقيّمه، وعلى هذا الأساس أيضًا علينا أن نعرف الحركة الدينيَّة في الشرق الأوسط بشكلٍ جيد ونقيِّمها، ومن ذا الذي ينتبه إلى أين، على سبيل المثال، في يومنا هذا لا يسعنا القول حزب الله فقط، بل ما هي علاقات حزب الله بإيران؟ ما علاقتها بتركيا؟ ماذا عن السعودية ؟! نحن بحاجة إلى فهم تلك الأمور ومن ثمَّ على أساس ذلك الفهم نضع سياساتنا. مشكلتنا الدينية جَديَّة، فما الذي فعله حزب الله؟ دخلوا السجون كجناة، إجراءات السلطات المختلفة، بدءاً من عفو رهشان وصولاً إلى قانون النَّدَم لم تكن كلها لنا، قد يكون الهدف إضعاف التنظيم، لكن كل ذلك كان لأجل إخراج عناصر حزب الله من السجون، لم يبقَ أحدٌ منهم في السجون سوى بعض شخصيَّاتهم المشهورة، فيما أُطلِق سراح الجميع، وكلَّما أصدروا قانوناً للندم كانت تلك القوانين موجَّهةً لنا، سوى أنَّ عناصر حزب الله في السجون كانوا يوقِّعون على أوراقٍ ومن ثمَّ يغادرونَ السجون، ماذا كانوا يفعلون في الخارج؟ يقومون بإنشاءِ تنظيماتٍ، يوزِّعون الصحفَ، يبنونَ تجمَّعاتٍ، للأسف أسَّسوا تجمَّعاً في آمد شاركَ فيه أشخاصٌ تراوحت أعدادهم بين الـ ٣٠ إلى الـ ٤٠ ألف، كما وفعلوا ذلك في باتمان وشرنخ، لأنَّنا لا نعلِّق على الأمر، ولا نعتبر الإسلامَ السياسيّ أداةَ قوَّةٍ في يد الدولة وهو ليس على جدول أعمالنا، لذا يحاولون التأثير على الشعب. لقد تحدَّثنا عن مصر، حيثُ كانت حركة المجتمعات يساريَّة في مصر حتى الثمانينيات، وما بعدها غدت يمينيَّةَ، إسلامويَّة، آنذاك يتغيَّر المجتمع، دعونا الآن نؤمن بأنفسنا، ومسألة أنَّنا حاربنا، والعالمُ إلى جانبنا لذا سيكونون معنا دائمًا، هذه كلَّها قصص، حيثُ لا أسباب ماديَّة لذلك.

يتم توضيح الأنشطة البشرية عبر تأثيرها، ثمَّة إسلاميّون في الميدان، لذا فاليوم وفي كَفرى التي نحصلُ فيها على أصواتٍ بنسبة ١٠٠% اليوم، قد نخسر تلك الأصوات بعد يومين، نحنُ نجلبُ الأصوات، لكن فتح الله غولن يفتتح المدارس ودورات تحفيظ القرآن وما إلى ذلك وسيتحوَّل غداً إلى منظمة سياسيَّة لتذهب دماؤنا التي سالت هباءً منثورا، لذا علينا أن نفهم الحركة بشكلٍ جيد وأن نعطي تدريبًا جيدًا عليها، فحينما نعارضها، فإنَّه من المهمّ أن نعرف معاً القوَّة العلميَّة والمعنويَّة والروحيَّة، لأن شعوب الشرق الأوسط لا تستطيع العيش بدون روحانيَّة، ولا يمكنها أن تحيا دون روحٍ أو دين، لذا تروّج الإمبرياليَّة للإسلام السياسيّ بعد أن رأت عدم مقدرتها على لاستفادة من اليسار والقوميَّة فاتّخذت الدين أساساً ومنطلقاً، لأنَّ الدين آمن والناس في الشرق الأوسط يفهمون الخطاب الدينيَّ على الفور، لذا تدخل الإمبرياليَّة إلى المجتمع تحت ذريعة الدين وبعنوانٍ دينيّ، ألا يستطيع الناس محاربتها؟ يمكن للناس محاربتها بنجاح، لأن أسلوب الإمبرياليَّة نقيض ما تقوله، إنَّهم لصوصٌ وشوفينيَّون يحمون الملكيَّة الخاصَّة، وقساةٌ يتّخذون التعذيب منهجاً، لذا يمكن للمرء أن يجعلها فارغةً من محتواها ومن أيّ تأثير، سوى أنَّ التركيز على ذلك ضعيفٌ للغاية، ولا بدَّ للمرء أن يقف عند هذه النقطة بشكلٍ جيّد.

سننتقل بعد هذا القسم إلى الحلّ، في هذه العوامل التي تمّ توضيحها لتعميق الأزمة والتغيير غير القويم، أو ابتعاد شعوب الشرق الأوسط عن واجباته، وكيف باتت تلك الشعوب غريبةً عن نفسها، أردنا أن نشرح قضايا كيفيَّة تطوُّر حدث الاغتراب مع الإمبرياليَّة والاشتراكية البنيويَّة والحركات الدينيَّة.

تاسعاً: حلُّ مشكلة الشرق الأوسط:

حين نقول الحلّ فإننا نتحدث عن القوى التي تريد الحلّ، هكذا نفهم الأمر، حيثُ لا يمكن فهم الحل على اعتباره أمراً مطلقاً وحقيقيّاً، لأنَّ الحل في النتيجة يعتبر أمراً نسبيّاً، حيثُ يفرضُ كلٌّ حلوله وفقًا لمصالحه الخاصَّة، الآن سيتعيَّنُ علينا التركيز على ثلاثة مشاريع حلول قائمة في الشرق الأوسط، إحدى تلك الحلول: المشروع الرأسمالي، فيما الثاني: مشروع الحفاظ على الوضع الرَّاهن أي مشروعٌ للمحافظين والتقاليد المحليَّة، فيما المشروع الثالث هو المشروع الديمقراطيَّ، بلا شكَّ تختلف هذه المشاريع عن بعضها البعض فيما يخصَّ الأسلوب أو الصيغة التنظيميَّة وأشكال النضال، بل ثمّة مشاكل بينها أيضاً ولا سيَّما في النقاط الرئيسيَّة. **في البداية:**

١- مشروع الحلّ الرأسماليّ الإمبرياليّ:

هذا مشروعٌ لأميركا وأوروبا ومُعتمدٌ على إعادة تنظيم الشرق الأوسط، فما هي مصادر هذا المشروع؟ كانت أمريكا والاتحاد السوفييتي في السابق طرفان قويَّان ضدَّ بعضهما البعض، حيثُ يعمل كل طرفٍ منهما على تدمير الآخر وعرقلته في صراع الاستخبارات والاقتصاد والدبلوماسيَّة والحرب الأهليَّة المحليَّة، ونتيجةً لهذا الصراع واجه الاتحاد السوفيتي في المقام الأول مشاكله الداخلية على المستوى المفاهيمي، ومستوى الخطأ في أسلوب بناء

الاشتراكية وبقيَ في مواجهة المشاكل الداخليَّة، وعلى المستوى الثاني لم يستطع مقاومة الهجمات الخارجيَّة، واجه الانهيار، وبهذه الطريقة انهار الاتحاد السوفييتي، لذا أظهَرَت أمريكا مفهوم إعادة بناء العالم - لا يوجد حالياً أي إعادة تنظيمٍ للعالم- ما هي مطالب إعادة تنظيم العالم؟ مأسَسَة العالم، حينَ تجتمع القوى العالميَّة وتتفق على المبدأ سيتم تنظيم العالم، وهذا النظام العالميّ لا يمكن أن يتغيَّر بشكلٍ يوميّ، بل هو مرتبطٌ بمستوى الصناعة والزراعة والتجارة، ووفقاً لذلك فإنَّ النظام السياسيّ والمستوى الذهنيّ لها تأثيراتها المختلفة على تكوين النظام العالميّ.

النظام العالمي الجديد خُدعة أميركيَّة، لقد انهار التوازن العالمي بين القارّتين مع انهيار الاتحاد السوفيتي، لذا من المهمّ إنشاءُ نظامٍ جديد لأن السابق أُفلِس، ولكن على أن يكون نظاماً يُرضي الجميع وبإشراك الجميع لتحقيق مصالحهم واحترام بعضهم البعض، لذا كان ثمَّة حاجة إلى مثل هذا النظام الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. ولكن ما الذي قالته أمريكا في صدد النظام العالميّ الجديد؟ إنَّها السياسة الأمريكيَّة، أي عندما لم يكن ثمَّة إرثٌ يحلّ محلَّ النظام القديم، والاتحاد الأوروبي لم يكن بذلك المستوى، كما أنَّ الشعوب المضَّطهدة في العالم غير قادرة على أخذ زمام المبادرة وملئ الفراغ القائم، فيما أميركا وعلى إثر اقتصاديّتها الضخمة وقوَّتها الماديَّة الهائلة استغلَّت قوتها العسكرية ونفوذها السياسي ونجاحها ضد السوفييت مُعلنَةً نفسها وريثة النظام القديم ومالكة النظام الجديد، وانتصرت بذلك، رغم أنَّه لا وجود لأيّ انتصار! بل هي من أعلنت نفسها منتصرةً، وبالتالي أرادت فرض نفسها على العالم، ومن لم يقبل بذلك تعرَّض للضرب، لذا فإنَّ أمريكا لم تشنَّ حرباً على العراق وأفغانستان وحسب، بل قصفت ليبيا خلال العامين ١٩٨٤-١٩٨٦، ومن ثمَّ قصفت السودان، وتسبَّبت بانقلابٍ في بنما وهاييتي والعديد من البلدان الأُخرى أيضاً، ما المقصد من ضربها لأفغانستانَ والعراق في الآونة الأخيرة؟ أرادت أمريكا أن تقول للعالم: "أنا مالكةُ العالم الجديد، من يُطيعيني فله كُلُّ الحقّ في العيش، ومن لا يفعل ذلك سيبقى في مواجهة الضَّرب"

وهكذا حصلت على نتائج الحرب التي شنَّتها ضدَّ الاتحاد السوفييتي وأرادت عبر تلك النتائج إثبات هيمنتها على العالم، ثمَّة توجُّهاتٌ أمريكيَّة جديدة، ولا سيَّما لدى المحافظين الجُدد، أي: بوش الأب، ومن ثُمَّ الابن بوش، وأعضاء فريقه: رامسفر، كوندوليزا رايس، ديكنسون، والذين يقولون: "العالم يعيشُ حالةَ انعدام توازن، أي ثمَّة فوضى وتعقيد، لذا فهو بحاجةٍ إلى قائد، هذا أمر، وثانياً لا بدَّ أن يكون قائداً أمريكياً، أمَا ثالثاً: فعلى أمريكا أن تكون مستعدَّةً دائماً لتقديم التضحيات لأجل تلك القيادة وتدفع ضريبةَ ذلك، وتفعل ما هو ضروريّ، أمَّا رابعاً: لا ينبغي استخدام القوَّة العسكريَّة الأميركيَّة كخيارٍ نهائي، بل كخيارٍ أساسيّ، فما هو الغرض من تلك القوَّة العسكريَّة، ليس خياراً نهائيَّاً، بل يمكننا استخدامها كخَيارٍ رئيسيّ، خامساً: ليس على المؤسسات الدوليَّة أن توافق دائماً على عملنا، بل على الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبيّ ومنظمة السلام العالميَّة أن تقبل بكل ما نفعله، فهذه ليست شروطًا، على هذا الأساس أرادت فرض الهيمنة على العالم. السيادة على العالم هي على الشرق الأوسط، فإن كانت أمريكا قد هيمنت على شمال شرق أوروبا والبلقان وأوراسيا، كان ذلك لأجل أن تتقدَّم نحو الأمام جبهةً إثر الأخرى نحو الشرق الأوسط، وحين وصلت إلى الشرق الأوسط لتعيد تصميمه كشفت عن مشروعها الذي يُدعى: الشرقُ الأوسط الكبير.

٢- مشروع الشرق الأوسط الكبير:

ما هو مشروع الشرق الأوسط الكبير؟ تنظيمٌ سياسيٌّ جديد ممتدّ من شمال إفريقيا إلى أفغانستان، ويحوي إعادة تنظيم جميع المناطق مثل شمال إفريقيا ومصر والسعودية ومحيطها وسوريا والأردن والعراق ولبنان وإيران وأفغانستان وباكستان. ما هو خطابها في هذا المنحى؟ الحرية والديمقراطية، هكذا أرادوا دخول المنطقة، وعليه ماذا قالت كوندوليزا رايس خلال العام ٢٠٠٣؟ "من شمال إفريقيا إلى أفغانستان، سننشرُ الديمقراطيَّةَ في كلِّ

مكان"، ما هي تلك الديمقراطية؟ زراعة القيم الأمريكية، أمرَكَة الشرق الأوسط وفقاً لطريقتها السياسية وأسلوب حياتها، ثقافتها، اقتصادها، وفي كل شيء إنها أمركة الشرق الأوسط، إقرار النظام الأميركيّ في الشرق الأوسط، هذا ما تفرضه أميركا منذ البداية، لقد قالت منذ مئة عام: "هذا يكفي، لقد أنشغلنا بأنفسنا وأسَّسنا نظاماً جديداً"، هذا ما قالوه منذ مائة عام حتى عهد رئيسهم ويلسون الذي قال آنذاك: "لقد أنشأنا مؤسسة، المؤسسة الديمقراطية، الديمقراطية الليبرالية، رفعنا مستوى العيش المرفَّه، الثروة الاقتصادية، أنشأنا هذه المؤسسات، والآن نحن بحاجةٍ لنقلها إلى الشرق، نحنُ محكومون بذلك، لأنَّنا إن لم نفعل ذلك فستكونُ الوحشيَّة هي المسيطرة، لذا نحن مجبرون على أن نكون هناك". يريدون أن يروا هذا المشروع على أساس الديمقراطية والحضارة والتجديد، وبهذا الشكل بدأت مرحلة المستعمرات والاحتلال الأمريكيّ للعالم، وفرضت تلك المقاربات على العالم في تلك المناطق لا سيَّما بعد خروجها منتصرةً من الحرب العالمية الثانية، وباتت تأخذ دور الشرطيّ في العالم، حيثُ أظهرَت الحقوق والقانون والعدالة وفقًا لمعاييرها وقواعدها الخاَّصة، وأولئك الذين كانوا وفقاً لها تقبَلُهُم ومن يرفضها تقاتل ضِدَّها، على سبيل المثال، بينما كانت الطائرات الأمريكيَّة تقصف صربيا لمدة أربعٍ وعشرين ساعة، قال كثيرون: "دخلت العراقُ الكويتَ فأقمتم الدنيا ولم تقعدوها، لكن لِمَ تقصفون صربيا، يوغوسلافيا القديمة؟ ردَّت مادلين أولبرايت: "بمقدورنا فعل ذلك، لأننَّا أمريكا لذا يُمكننا ذلك"، هذا يعني أن أميركا لها كُلُّ الحريَّة في القيام بهذه الأشياء، لِمَ؟ لأنها تمتلك النظام العالميّ. كل ما سبق امتلكَ أرضيَةً من الناحية النظرية؛ عبر الكتَّاب الذين غالبًا ما كانت كتاباتهم ونصوصهم تأخذ مكانةً لدينا، مثل فوكوياما وهانتنغتون. فما هي محاور كل تلك النصوص؟ انتصار الليبرالية الديمقراطية والرأسمالية، وهي قوى ناجحة دون بدائل في العالم، لذا فإنَّ الشيوعية، الاشتراكية، الدينيَّة ليس بمقدورها الوقوف في وجه الديمقراطيين الليبراليين وليس بمقدورها مقاومة الرأسمالية، لأنَّ الأخيرة هي النظام الأكثر مثاليَّةً للإنسانيَّة ولا بدَّ من دمج الجميع داخله، وعلى الجميع القبول به.

أثمرت تلك الكتابات في بدايات هذا القرن، أي منذ العام ٢٠٠٠ وما بعده مع مشروع الشرق الأوسط الكبير.

يعتمد هذا المشروع على تغيير الشرق الأوسط، لأنَّ أي نظام في الشرق الأوسط هو نظامُ دولةٍ قوميَّة، دوغماتيٌّ ومغلق، ومؤسَّس وفقًا لمصالح الرأسمالية القديمة وحقبة الحرب الباردة. كانت تركيا في شكلها القديم، أو البلدان العربيَّة في طرائقها القديمة تتماشى مع مصالح الرأسمالية القديمة لأنَّها كانت محتلَّة وفي حاجةٍ إلى موادٍ خام وسوق، لذا أخضعت الشعب للحكم الاستبدادي الأوليغارشي الملكي كي لا يسمح له أبداً بالتطوُّر والتقدُّم وقادرةً على استخدامها كموادٍ أوليَّة لمصالحها، وتتحوَّل تلك الدول إلى سوقٍ لمنتجاتها، كانت تلك الأمور ضروريَّة لها، وفضلاً عن ذلك، فإن الحرب بين الكتل الاشتراكية والإمبريالية سمحت للبنية السياسيَّة في تلك البلدان أن تكون ضمن هذا الإطار أيضًا، أي أنَّهم باتوا مرنين على إثر الحرب، ولم يكن لدى الليبراليَّة ما تحتاجه لتكون قويَّةً في تلك الحرب، لقد تأتَّت الشرعيَّة من هذا الأمر. في تركيا، على سبيل المثال، كانت ثمَّة انقلابات عسكرية تحصل، لِمَ؟ كانوا يقولون أنَّنا ندافع عن أنفسنا ضدَّ تهديد الشيوعيَّة، كما كانت ثمَّة أنظمة أخرى تعمل تحت اسم الاشتراكية، لكن ما من أحدٍ يتحدَّث عن حقوقِ الإنسان أو المرونة أو حريَّة الفكر. الآن فقدَ ذلك النظام شرعيَّته، انتهت الحرب الباردة، لذا لا بدَّ من تنظيمه وفقًا للمصالح الجديدة للرأسماليَّة، فما هي تلك المصالح الجديدة؟ عولمة رأس المال، أي عالميَّة الرأسماليَّة، ليس في أمريكا وأوروبا والغرب وحسب إنَّما في كل مكانٍ من العالم، لكن على أن يعود الدخلُ إلى كلِّ البشر، ولأجل ذلك تمَّ نشر الشركات والاستثمارات والتمويل، يرسلون الأموال ويبنون المصانع، ولكن لكي تحدث كل تلك الأشياء لا بدَّ من تصميم النظام السياسي وفقًا لها. على سبيل المثال، تطورت الرأسمالية في شرق آسيا، أي إندونيسيا وفيتنام وماليزيا وسنغافورة والصين، فلنلاحظ، حين يُطلق أحدهم على منتجٍ ما اسم "سوني"، وترى من هي الدولة المصنِّعة ستعرف أنَّها الصين أو أندونيسيا، على الرغم من أنَّ تلك الشركة يابانيَّة

سوى أنَّ تلك الاشياء تُصَنَّع في الدول آنفة الذكر، ثمَّة بعض المنتجات الأخرى أيضاً على هذا المنوال، فحين تنظر إلى السيَّارات وأجهزة الحواسيب والآلات الزراعيَّة والسياحة ترى أنَّها مصنَّعة في سنغافورة، سوى أنَّ المالك الرئيسي أمريكيّ، مصنَّعة في الصين ولكنَّ الشركة مملوكة لألمانيّ، في فيتنام ولكَّنها مملوكةٌ لهولنديّ، مع وجود الكثير من الاستثمار في هذه البلدان من المهم للمؤسَّسة السياسيَّة أن تتكيَّف وفقًا لذلك من أجل تنمية المزيد من رأس المال، لذا ما الذي يفعلونه، يقومون بلبرلة الأنظمة، فلنلاحظ أنَّ نظام شرق آسيا بدأ يتّجه نحو الليبراليَّة منذ عشر سنواتٍ، حيث أنَّ أندونسيا في السابق كانت مثل تلك الدول العربيَّة، في زمن سوهارتو قُتل مليون عضو من الحزب الشيوعي الإندونيسي، ليس اولئك فقط بل قُتِل الشعبُ أيضاً، ولا يحقُّ لأي أحدٍ أن يرفَع صوته، ولكن حين دخلت الرأسماليَّة إلى تلك البلدان، لم يعد ممكناً العمل مع هكذا أنظمة شموليَّة مركزيَّة أحاديَّة الجانب، فما الذي فعلته الإمبريالية لأجل ذلك؟ تدخَّلت في تلك الأنظمة وعملت على لبرلتها وجعلها تشبهها وتعمل مثلها.

٣- دولة القوميَّة في الشرق الأوسط:

دخلت الدولة القوميَّة في الشرق الأوسط ضمن هذا الوضع، الشرق الأوسط هو الدولة القومية للعراق والسعوديَّة وسوريا، صحيحٌ أنَّ هذه الدول تضّطهد شعوبها وتقتلهم وتظلمهم، لكن وفي الوقت عينه وبهذه الشخصيَّة والسمات، تضع العراقيل أمام الرأسماليَّة، فملكيَّة الدولة على الضدَّ والنقيض من رأس المال الدولي، رأس المال الدولي هو أكثر ليبراليةً، وإن كانت تحتوي على تشبُّثٍ فرديّ فلإنَّ ذلك ضروريٌّ لها. لكن رغم ذلك فإنَّ أسلوب الحياة الذي يتطور في ظل حكم تلك السلطات أحاديُّ الجانب وذا نمطٍ موحَّد، وقد يكون هذا سبباً رئيساً في عدم تطور النزعة الاستهلاكية في هذه البلدان، الأمر الذي يُسبَّب الضرر للرأسماليَّة التي تعمل على تغيير ذلك فتقوم بتغيير

الأنظمة، كيف ستغيّر تلك الأنظمة؟ جرت تدخُّلاتٌ عسكريَّة في بعض البلدان، وتدخلات سياسيَّة في بعض البلدان الأخرى، حيث كانت هناك تدخُّلاتٌ سياسيَّة في تركيا وأخرى عسكريَّة في العراق، لتختلف أشكال تلك التدخُّلات في أماكن مختلفة من العالم.

٤- كيف تَحلُّ الإمبرياليَّةُ مشاكلَ الشرق الأوسط؟

أ- الحُكم الرشيد:

ما الذي يقدِّمُهُ هذا المشروع؟ يقول مشروع الشرق الأوسط الكبير أوَّلاً: **الحكم الرشيد،** ثانياً: **السوق الحرة والاقتصاد الرأسماليّ،** ثالثاً: **تمكين المرأة،** تلكَ الأمور الثلاثة تعتبر أساساً لمشروع الشرق الأوسط الكبير، وحين ينظر إليها المرء لن يجد أيَّة مشاكلَ معها، فالجميع يريد الحكم الرشيد والازدهار الاقتصادي، الجميع يودَّ إخراجَ النساء في الشرق الأوسط من الوضع الرَّاهن، سوى أنَّ المقاربات الأميركية ليست كذلك، على سبيل المثال حين تتحدَّث عن قاعدة الحكم الرشيد، فما هو هذا الحكم الرشيد وفقاً لها؟ الحكم الذي يتضمَّن أحزاباً كثيرة، انتخابات، ليبراليون، قوانين، لكن رغم ذلك جرت انتخاباتٌ في فلسطين وفازت حماس سوى أنَّ أمريكا رفضت الأمر وهي نفسها من قالت: "يجب أن يحدث كل شيءٍ عبر الانتخابات" مضيفةً: "ولكن ليس على حماس أن تفوز"، ما علاقةُ أمريكا بالأمر، لقد توجَّه الشعب نحو صناديق الاقتراع وأدلوا بأصواتهم وفازت حماس سوى أنَّ أمريكا رفضت الأمر ومنعتها عن الوصول للسلطة، لذا هربت حماس نحو غزَّة التي بالكاد كان بمقدورها أن تجعلها موطأ قَدمٍ لها. تُجرى انتخاباتٌ في شمال كردستان وننتصر فيها رغم كلَّ الصعوبات والعراقيل، سوى انَّ أمريكا ترفض ذلك، تأتي إلى BDP حزب السلام والديمقراطية لتخبرهم: "انظروا، سوف نمنحكم الفرص فقط إن ابتعدتم عن حزب العمال

الكردستانيّ" يردُّ الحزب: "لقد ذهبنا إلى صناديق الاقتراع وحصلنا على أصواتٍ كثيرة، تركيا تعتقل ممثلينا وتطردنا وتسجن رؤساء البلديات"، لكن تبقى أمريكا صامتةً إزاءَ ذلك، فما هي الانتخابات التي تريدها أمريكا؟ الانتخابات التي يغدو فيها جواسيسها في السلطة، أي أن تكون الانتخابات عادلة وفقاً لهم، أن يكون النظام عادلاً وفقاً لمنظورها، لكن على الرغم من أن الديمقراطية ليست انتخابات، فإننا لا ندعم الديمقراطيَّة الانتخابية، الديمقراطية في نظرنا نظامٌ للقيم، وليست انتخابات، الانتخابات جزءٌ صغير منها، لكن الديمقراطيَّة في جوهرها أنظمةُ قيم وتُعطي معنى القيم، الديمقراطية ليست انتخابات. إن قبلنا وقلنا فلتكن الديمقراطية هي الانتخابات وحسب، يمكن أن تُجرى الانتخابات أيضًا وحين لا تروق لهم النتيجة لقالوا على الفور هذا غير ممكن ولا يقبلون، ماذا تفعل أمريكا في العراق؟ تأخذها كنموذجٍ لنفسها، فما الذي تفعله في العراق؟ تبني معاهدَ، ثمَّة نوعان من المعاهد في بغداد، أحدهما للحزب الجمهوري، فيما الآخر للحزب الديمقراطي، ثمَّة حزبان في أميركا وبنت لها معهدين في العراق، ما هي مهمَّة المعهدين؟ إعداد كُتيّبات وبروشورات صغيرة وجميلة باللغة العربيَّة وحتَّى بالكرديَّة أي لأجل الشعب جميعاً، يتحدَّثون فيها عن كيفية نشوء الأحزاب وكيفيَّة بدء الحملات الانتخابية وجمع المساعدات، كيف تُبنى الحكومات وكيف تظهرُ المجتمعات المدنيّة، أي لكي يعمِّموا القيم الليبراليَّة والسياسة الليبراليَّة في هذا البلد يقومون طوال اليوم بغسل الأدمغة، لقد أنشأوا المعاهد ونشروا الكتب ووزَّعوا الآلاف بل الملايين منها في كلِّ مكانٍ حول أسلوب بناء الأحزاب وتطوير الحملات الانتخابية وتنظيم المجتمع، وكلُّها أمورٌ لا تحدث وفقاً لرغبات الشعب وإنَّما وفقاً للمنظور الأميركيّ، إنَّها كتب تُقرأ من قبل الكثيرين، لأنهم يكتبون التفاصيل، مثال: ثمَّة بعض الكتب تذكُر: "سوف تذهب إلى أحدهم وتطلبُ منه مالاً، فيخبركَ: لِمَ؟ ستقول: لأجل الانتخابات، سيقولُ، وما علاقتي؟ ثم تؤوب إليه مرَّةً قائلاً: "نريد مالاً"، سيقول" "لِمَ ا؟" فتشرح له "وضعكَ كذا وكذا وكذا، لا بدَّ أن نغيِّر ذلك، وإن وصلنا إلى السلطة سيكون بمقدورنا التغيير" حينئذ سيقتنع ويدفع المال"، أي

تُكتبُ تفاصيلُ كيفيَّة جمع الأموال، وفي المحصِّلة يريدون عبر ذلك إنشاء نموذج لهذه القاعدة العادلة، لذا ولأجل ذلك الحكم العادل الذي تودُّ أمريكا أن تحقِّقه هو الحكم الذي لا يرفض السياسة الأميركيَّة والذي لا بدَّ أن يكون على ارتباطٍ دائمٍ بها، وهذا ما تريده تماماً ولا يريد أن يتَّحِد مع الشعب، فما الذي فعله نظام الحكم العادل أو الرشيد في كلٍّ من أفغانستان والعراق؟ ثمَّة المئات من القتلى يوميَّاً، فالسرقة التي كانت موجودةً في عهد صدَّام تضاعفت عشرات المرات خلال السبع سنوات التي حكمت فيها أمريكا، الكل يسرق، سُرقت الملايين، بل مليارات الدولارات. كما أنَّ ثمة العديد من المشاكل التي لم تُحَلّ، لم يُعثَر على حلٍّ للقضيَّة الكرديَّة، لا استقلال للأحزاب السياسيَّة بل تعمل لأجل المصالح، وإن وُجِدَ حزبٌ سياسيٌّ مستقلّ يريد الحريَّة أو الديمقراطيَّة لخلقوا له الذرائع وحظروه، لقد حظروا حزب الحلّ الديمقراطي الكردستاني، الذي كان الحزب القانونيّ الوحيد في العراق، في الوقت الذي تعمل فيه كلُّ الأحزاب الأخرى خارج القانون، حين تمَّ تشكيل الحزب كان بحضور حاكم الدولة وبحضور الشُّهود على ذلك، عقدوا مؤتمرهم وانتُخبت إدارته بشكلٍ رسميّ وتمَّ الإعلان عن الحزب، لم يكن لأيّ حزبٍ أن يفعل ذلك، كان حزب الحل الديمقراطي الكردستاني هو الحزب الوحيد المشروع سوى أنَّهم قاموا بحظره، لِمَ؟ لأنَّ أميركا وتركيا أرادتا ذلك، لا توجد مؤسَّسة عادلة، الأمر مجرّد حكاية، إنَّه أمرٌ لإثارة الشعب ضدَّ النظام القديم وخلق الآمال وتجميع الناس من حولهم، لكن بعد فترةٍ وجيزةٍ اتضح أن ثمَّة ادّعاء في جوانب الديمقراطيَّة الحقيقية، أي ليس ثمَّة نظام عادل، قوانين عادلة، مساواة، لا توجد أشياءُ من هذا القبيل، بل على النقيض من ذلك فإنَّ الوضعَ أسوأ، فالنظام السياسيّ في العراق اليوم لا يوضِّح العدالة ولا مطالب الشعب، بل مصالح العشائر والعائلات والقبائل والقوميَّات، لذا فهي غير عادلة. فضلاً عن ذلك، اتَّضَحَ أنَّ مشروع الشرق الأوسط الكبير لم يكن له أي نيَّة بإنشاء نظام سياسي جديد في الشرق الأوسط، لِمَ؟ صحيح، أسقطت العراق، سوى أنَّ مصر كانت أسوأ بعشرات المرَّات من العراق، لكنَّ مصر متّفقة معها على المستوى الأوَّل، حتى حينَ سقط مبارك بقوا حلفاء رئيسيين للأميركيين،

وهذا هو الحال أيضاً بالنسبة إلى تونس وتركيا ودول الخليج والكويت وقطر والسعوديَّة، كلهم ملوكٌ طُغاة ولصوص سوى أنَّهم متّفقون مع أميركا على المستوى الأوَّل، أمريكا لا تنتقدهم بجديَّة. وبِذا يتَّضِح أنَّ ادِّعاء الحكم الرشيد ليس إلا خداعاً وتجميعاً للمناصرين وإزالةً للعوائقِ والعقبَات، المؤسسة العادلة وفقاً لأميركا هي التي تحمي مصالحها وتشترك معها في الأفكار والقيم ذاتها، الفرديَّة، الرأسماليَّة، المُلكيَّة الخاصَّة، وفي المحصِّلة ثمَّة نفيٌ وقتلٌ وشرور.

ب- الإقتصاد:

تقول أمريكا أنَّ اقتصاد الدولة أمرٌ خاطئ، وهذا صحيح، أي أنَ ملكيَّة الدولة أمرٌ غيرُ قويم وسيءّ وينهب المجتمعات ويخلق الجوع والفقر بشتَّى الطرق، وهذا صحيحٌ أيضاً. على النقيض من ذلك، ما هو الشيءُ المستقل والحرّ؟ السوقُ الحُرَّة، أي قانون المنفعة الحرّة، لِمَ؟ تقولُ: انظروا، هذا هو الحالُ لدينا في أمريكا وهو كذلك في أوروبا، انظروا، لا مشاكل لدى الشعب فيما يخصَّ المأكَل والمَشرَب، لا مشاكل لديهم في السَكَن، كل شخص يمتلك منزلاً وعملاً وطعاماً، لأجل ذلك ليس ثمَّة مشاكل تظهَر، لذا فإن أصبحتم مثلنا فسيكون الأمر نفسه بالنسبة إليكم. ماذا يحصل؟ يقومون من أجل تقوية أسس هذا المشروع بتعظيم الأنانيَّة والترويج ضد الشيوعيَّة والاشتراكية، يحاولون أن يُبعِدَوا الأفراد عن الحواجز الأخلاقيَّة تجِاهَ المجتمع إلى أقصى حَدٍّ مُمكِن، فيغدو البشرُ في الشرق الأوسط عنيفين للغاية ومتوحّشين، المرءُ الأوروبيّ فردانيّ، سوى أنَّه في نهاية المطاف إنسان ولا يزال لديه بعض المسؤوليَّات والمقاييس، سوى أنَّ المرء في الشرق الأوسط حين يبتعد عن خصائصه الاجتماعية والأخلاقيَّة ويغدو فردانيَّاً لن يتبقَّى لديه أيَّةُ حواجز أو حدود، فالمرءُ الشرير والسيء هو بكلِّ الأشكال عدوٌّ لمجتمعه، يسرق بلا حدود ويفعل كل الأمور السيئة، لأن الفردانيَّة ليست شيئًا يميِّز الشرق الأوسط بل مُكتَسَباً، أي مُقبِلٌ من الخارج، تقليدٌ خارجيّ، لهذا السبب حين يرتبط النَّاسُ

بتلك التقاليد الخارجيَّة فإنهم يبتعدون عن جميع روابطهم الاجتماعية. نلاحظ أن هذا الأمر موجود داخل الحزب أيضاً، على سبيل المثال ما الذي فعلتهُ الفردانيَّة؟ لاحظ أن الحزب الديمقراطي الكردستاني فردانيّ، والاتحاد الوطني الكردستاني فردانيٌّ أيضًا، ولكن حين يقارن المرء بين أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني وبين أحدهم من اولئك المرتزقة الذين فرَّوا فرهاد، بوتان، فإن معايير عضو الحزب الديمقراطي الكردستانيّ تكون أقرب إلى الإنسانية، لِمَ؟ لأنه حينَ يَقبَلُ شخصٌ ما في مركزٍ موحَّدٍ الفردانيَّةَ فلن تكون ثمَّة حدودٌ للخيانة، يستسلمُ إلى نظامٍ معيَّن، وحين تستسلمُ إلى نظامٍ ما فإنَّه لن يقبل بك بشكلٍ طبيعيّ، ماذا يريد منك هذا النظام؟ سيقول: "خُن جيداً المكان الذي أتيتَ منه حتَّى أقبَلَ بك" وإلَّا كيف سَأقبَلُك؟ سيقول حزب PDK-YNK لفرهاد: "صحيحٌ أنَّك أتيت إلينا، لكنَّك كنت تحاربنا حتَّى يوم أمس، أثبت العكس حتَّى نثِق بك"، يهاجمون القيادة والقيم والشهداء ليكونوا مثلَ دوابٍّ على مائدة العدو الذين استسلموا له حتَّى يشبعوا مأكَلاً أو لن يكون لهم الحقُّ في الحياة، لذا ابتعَدوا عن حقيقتهم، الأمر الذي جلبَ معه الوحشيَّةَ إلى الشرق الأوسط بشكلٍ مثيرٍ للانتباه، اي أسوأ من أوروبا، وحين يتطوَّر هذا الأمر يغدو بنيةً للسوق الحرَّة والمُلكيَّة الخاصَّة، وتُقَدَّمُ إغراءاتٍ في هذا المنحى، على سبيل المثال، يسلِّمون أملاكَ المجتمع إلى مجموعة أشخاصٍ، قائلين لهم: سوف نقدِّم لكم الدَّعمَ والعطاء، فلترسلوا مشاريعكم وسنقدِّم لكم كلَّ شيء، لكن في الأساس تلك أملاكٌ للمجتمع الجائع أساساً، لكن إن نظرت سترى ظهور الكثير من الأغنياء، فما هذا الأمر؟ يقولون نُحرِّرُ الاقتصاد من قبضة الدولة لنضعه في قبضة المجتمع، فمن هو هذا المجتمع؟ حفنة من اللصوص الذين باعوا أنفسهم إلى النظام الرَّأسماليّ. لذا إن أمعنَّا النظر -قبل عشر سنوات- رغم الحظر وكل الشرور لم يحصل أن احتارَ عراقيٌّ كيف سيأكل أو يحصل على الوقود، أي لم تكن تلك الأمور هُموماً بالنسبة إليه، لكن انظروا إلى أيَّامنا هذه، لا يمكن للمرء أن يُنفِق على أطفاله، فلكي يكون بمقدوره الإنفاق يُجبرُ على الاستسلام للمؤسسة، يبيع نفسه ويصبح عبداً وجنديَّاً مقابل الحصول على بعض المال، لذلك فإنَّ السوق الحرَّة لا يمكن لها

أن تكون حلّاً للمشكلة بل على النقيض تعمّقُ المشكلةَ أكثر وتخلق طبقةً وسطى بين الفقراء والأغنياء، ما هي مهمَّة تلك الطبقة الوسطى؟ تفرّغُ استياء الناس وتجعله عديم التأثير، تخلق المرونة، تبني الليبراليَّة، وبهذه الطريقة لا تتطوَّر المعارضة الاجتماعية ضدَّ النظام، وهنا أيضاً لا يتم حلُّ المشكلة.

ج- مسألة المرأة:

تقتربُ الرأسماليَّة من تمكين المرأة كأداةٍ وتسيطر عليها، لِمَ؟ الآن ما هي إحدى أسس النظام التقليديّ في الشرق الأوسط؟ قمع المرأة، الإنكار والإهمال، والتعامل معها كأنَّها غير موجودة البتَة، ولكي تضعف الرأسمالية هذا النظام تريدُ توفير أشياءٍ تتسبَّبُ في جموده، فما هي تلك الأشياء؟ المرأة، أي من خلال العمل والتعليم حيث يفتحونَ الطريق أمامها، لذا يحصل شيءٌ ما في جانبٍ معيَّن، فإضعاف النظام التقليديّ بوحشيَّته وإنكاره أمرٌ جيّد، ولكن الطريقة التي تُعلن فيها الرأسماليَّة عن نفسها لا تعتبر طريقَ خلاصٍ للمرأة، وما تفعله هو على النقيض تماماً من ذلك؟ الرأسماليَّة لا تنظر إلى المرأة من منظور كونها قوةً اجتماعية تعيش وفقاً لقيمها والتعبير عن رغباتها ومن ثمَّ تنظيمها على هذا النَّحو وتمارس السياسة، بل تجعل من المرأة شبيهةً بالرجل وتتصرَّف مثله، تلك هي مفاهيم الرأسماليَّة في تحرير المرأة، ليست ثمَّة أنوثة في تلك المفاهيم، بل ذكوريَّة المرأة، أي إتاحة الفرصة لعمل النساء في بعض المجالات الخاصَّة بالرجال، الأمر الذي تسبَّب في مشكلةٍ ببعض البلدان، إحداها العراق، في الواقع وضع المرأة في العراق مرعب، لأنَّه ما من مشروعٍ للحريَّة، المشاكل تتعمَّق، المشاكل العائليَّة، النفسيَّة، لذا نرى الانتحار والقتل في المقدِّمة، على سبيل المثال، تُدركُ أميركا اليوم أنَّهُ لا توجد حقوقٌ للمرأةِ في العراق وكردستان، برلمان كردستان مثلاً يقبل تعدُّد الزوجات، وهذا القبول ليس إلَّا شرعنةً للدعارة، فمن يمتلك القوَّة النقديَّة بإمكانه أن يتزوَّج أربع نساء، هذا الأمر يتمَّ قبوله عبر القوانين، ورغم

امتلاك أمريكا مشروعاً لتمكين المرأة لكن ليس بمقدورها أن تخبرهم افعلوا هذا أو ذاك، لِمَ؟ لا تريد أن تطمئنَهم؟ تُقتل النساءُ في العراق بنسبةٍ كبيرة، وثمَّة المزيد من جرائم الشرف، لكن أمريكا لا تقف في طريقها أو منعها، لم تُطوِّر أميركا مشروعًا جادّاً لتحرير المرأة وإنَّما طوَّرت مشروع اللبرلَة، على سبيل المثال، حين دخلت أميركا إلى أفغانستان، أصدرت قانوناً من لدُنها ينصُّ على أنَّ: "العنف ضدَّ المرأة داخل المنزل ممنوع، ولكن ليس خارجه"، يعتبر العنف المنزليّ بطبيعة الحال وفي العديد من المجتمعات أمرًا طبيعيًا أو أكثر من ذلك فهو حدثٌ يكادُ أن يكونَ يوميًّاً، على سبيل المثال، يضربُ رجلٌ ما زوجته، ما هذا؟ إنَّه أمرٌ قانونيّ، لذا فإنَّ القانون الذي أصدروه يحظر العنف المنزليّ، ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أنه إن ذهبت امرأة واشتكت بأنَّ زوجها أو أخاها أو والدها ضربها، لا بدَّ على الحكومةِ أن تحقِّق في الأمر سائلةً عن سبب الضرب، لكن في الانتخابات الأفغانيَّة الأخيرة تم إلغاء ذلك القانون، لِمَ فعلوا ذلك؟ قال كَرزاي (رئيس جمهورية أفغانستان الإسلاميَّة): "إن أبقينا ذلك القانون، فلن تمنحنا العشائرُ أصواتها، فكيف سنفوزُ في الانتخابات؟" سوى أنَّ أمريكا لم تنبس ببنت شفَّةٍ إزاء ذلك. إذن فإنَّ تلك الأمور الجديَّة والمبدئيَّة لا تحصل على أساس إحقاق تغييرٍ حقيقيّ في الشرق الأوسط أو لأجل تحقيق المساواة، لا، بل الهدف هو إزالة العوائق أمام هيمنة رأس المال الدوليّ والمتمثِّلة في شخص الدولة الجامدة والاستبدادية، هذا هو الهدف ليسَ إلَا، لذا كان واضحاً أنَّ الأوضاع ليست سهلةً ويسيرة، فقد فشلت أمريكا في العراق وأفغانستان وبعض الأماكن الأخرى، وفشلها مؤخَّراً هي في الانتفاضات التي تندلع في الشرق الأوسط، لذا فإنَّ الانتفاضات التي حدثت في مصر، وضدَّ تونس، والتي تحدث في تركيا، كانت كلَّها ضدَّ الحلفاء الأساسيين لأميركا، وبالتالي هي فشلٌ لها أيضاً، بيد أنَّه من الضروري أن نعرف هذا الأمر: أمريكا إمبراطوريَّة، والإمبراطوريَّات لا تُكسَر بالفشل، ثمَّة فرق شاسع بين الفشل والهزيمة، فشلوا في مكانٍ ما، فيما الهزيمة مختلفة، تُهزَم وتخرج، سوى أنَّ أمريكا لا تخرُج ولا تهرُب، لكن ما الذي تفعلُه في مواجهة الفشل؟ تغيُّر الأُسلوب، في البداية قالها بوش: "هذه

حربٌ صليبيَّة، كل من يعارضنا سنقضي عليهم، شاءَ من شاء وأبى من أبى، أولئك الذين ليسوا أصدقاءَ لنا هم أعداؤنا "، لقد فشل، ومن ثمَّ صدر تقريرٌ سُمّيَ: بيكر - هاميلتون ليتمّ تأسيس حكومةٍ جديدة، لذا حلَّ جيس –لا أعرف ما اسمه- مكان رامسفير، ومن ثمَّ أتى أوباما، فما الذي فعلته أميركا؟ غيَّرت الأسلوب، أي لم تقل هذه المرَّة من ليسوا أصدقاءَ لنا هم أعداؤنا، ولم تقل فليشارك من يشارك ومن لا يشارك فليذهب إلى الجحيم، بل قالت هذه المرَّة نحن بحاجةٍ إلى مشاركة الجميع، ولهذه الغاية أُعيدت علاقاتها مع الاتحاد الأوروبي وإيران ومصر، ماذا سُمّيَ ذلك؟ مشروع الشرق الأوسط الجديد، أي ثمَّة مشروعٌ للشرق الأوسط الكبير، وآخر مشروعٌ للشرق الأوسط الجديد، فما هو مشروع الشرق الأوسط الجديد؟ لا يقوم على أساس الانهيار، بل على أساس التحالفات الإقليمية، على سبيل المثال، تركيا ومصر والأردن وإسرائيل، أي تقوم أميركا وعلى أساس هذه التحالفات الإقليمية إعادة إحياء مشروعها، ولتفعل ذلك أقامت اتصالات مع بعض الأحزاب السياسية، والعشائر العراقية، واتصالاتٍ مباشرة وأخرى غير مباشرة مع إيران، لذا أعطت أميركا أسلوبًا جديدًا لنفسها، لِمَ فعلت ذلك؟ أميركا لا تزال حتَّى الآن تغيّر من أساليبها، فكلَّما فشلَ أسلوبٌ استبدلتهُ بآخَرٍ، المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط حيويَّة، وليست استراتيجيَّة فحسب، بل حيوية، أي لها علاقة بوجودها وحيويَّة للغاية، لذا لا تقبل الانتكاسات ولا الإخفاقات، لأنَّها إن هُزمت في الشرق الأوسط فهذا يعني هزيمتها في كل أنحاء العالم، لذا تغيَّر أساليبها، ولكنها لا تستطيع القيام بكلِّ شيءٍ بنفسها، لذا إن كانت القوى الاجتماعية منظَّمةً في الشرق الأوسط سيكون بمقدورها الخروج من هذه الفوضى. فإن تمَّ تنظيم القوى الاجتماعية فلن يستطيعوا إخراج أمريكا من الميدان فحسب، بل ستكسب عديدَ الحقوق لنفسها، وكلَّما أصبح الشرق الأوسط أكثر تنظيماً فإنّه يستطيع ترجيح كفَّة الميزان لصالحه، وثمَّة فُرُصٌ لتحقيق ذلك. ولأن الثبات يُضعِف فإن أمريكا تفشل في نواحٍ كثيرة، لذا فإن كانت القوَّة المجتمعيَّة منظَّمَةً فبمقدورها الحصول على أشياء كثيرة لنفسها، باختصار ما علاقة هذا الموضوع بالقيادة؟ دعونا نفهم ذلك، ما علاقة هذه

القضية بالقيادة؟ القائد هو زعيم حزب العمال الكردستاني، والحزب مركز قوة في الشرق الأوسط، تنظيمٌ مُسلَّح وله نظريَّة خاصَّة ويستند إلى القوى الاجتماعية الأكثر تأثيراً في الشرق الأوسط. أمريكا لها خططها للشرق الأوسط الكبير وستعمل على إدخالها للمنطقة، وإن حصل ودخلت، فما الذي سيحدث؟ السكون سوف يُضعِف والعراق ستنهار، وحين يضعَف السكون فإن القوى الثوريَّة ستستغل ذلك وتأخذ زمام المبادرة، لذا ما الذي فعلته أميركا قبل دخولها إلى الشرق الأوسط؟ توجَّهت نحو حزب العمال الكردستاني مستهدفةً القيادة، لئلَّا تكون القوة الثوريَّة مستعدَّةً وضعيفة غير قادرة على الاستفادة وأخذ زمام المبادرة، لذا قال بانجالوس هذا أيضاً: "كثيرون في يومنا هذا يفهمون الحقيقة ويدركونها، وهي حقيقة واضحة لدى حزب العمال الكردستاني، قبل أن تدخل أميركا إلى الشرق الأوسط، استهدفت في البداية منظمتنا ممثَّلةً في شخص زعيم الشعب الكردي عبد الله أوجلان".

٤- استراتيجيَّة الحفاظ على السُكون:

يقوم النظام السلطويّ في الشرق الأوسط بتعزيز الحلول وفقاً لنفسه، فما هي حلوله؟ توحيد القوى المتخلِّفة، وأكثر من ذلك، مضاعفة العنف، أي يزيدُ من استعماله، لُيطيلَ بتلك الأساليب أمَد حياته، ونظرًا لأن هذا النظام يطوَّر النظريات وفقًا لنفسه، فقد كان ثمة بالفعل أشخاصٌ يتحدثون عن أنَ الملكيَة المطلقة، السلطوية، الاستبدادية هي أفضل الأنظمة، على سبيل المثال يمكن العثور في علم الاجتماع على هذا العلم السياسي ضمن آراء الكتَّاب الإنجليز خلال السنوات ١٦٤٠-٦٥٠ حيثُ يقول هوبز: "لأنَّ المرءُ ذئبُ المرء، لا بدّ أن يكون البشر تحت حكمٍ قويّ ومطلقٍ ومُهيمِن لمنعهم عن التهام بعضهم البعض"، والشرق الأوسط ثابت أيضًا بشأن هذا الأمر، ومن يريدون أن يُحدثوا التغيير هم الغربيَّون الذين ينظرون إلى بلدنا بعين الهيمنة، ويقولون لا

وجود للديمقراطيَّة وفقاً للشرق الأوسط، بل على النقيض، نحنُ نُدرك أكثر كيفيَّة إدارتكم لأنفسكم؟ يودَّون مع هذه الأساليب غير القويمة استغلال مشاعر الناس واكتساب الشرعيَّة والهيمنة وبالتالي إطالة عمرهم، لم تبقى أسباب لذلك، ما هو السبب؟ أوَّلاً مستوى المعرفة، حيث أنَّ مصادر المعلومات ازدادت في الشرق الأوسط، الأمر الذي يعني أن الدولة في الشرق الأوسط لم يعد بمقدورها كما في السابق أن تضع كل شيءٍ في قبضتها، لقد ازدادت مصادر المعلومات، على سبيل المثال، اعتادت الدول في الشرق الأوسط أن تكون لديها وسائلها الخاصة للحظر والرقابة وعدم السماح للناس بسماع أي شيء أو إيصال أي شيء إلى الخارج، ولكن هذا لم يعد ممُكِناً في يومنا الرَّاهن، وهذا أمرٌ يُضعِفُ شرعيَّة النظام، رفع مستوى معرفة العلم والإعلام، قوَّة التعبير عن الذات، قوة فهم التطورات الخارجية والبحث حولها، كل تلك الأسباب تؤدّي إلى إضعاف الثقة في النظام، وتضعف قوته وتمنعه عن أن يكون شديداً في السلطة كما كان ذي قبل، أي أنَّ النظام يفقد شرعيَّته مع معرفة الشعب، فما هي أسباب قوَّة هذا النظام؟ كانت قويةً بدعم الإمبريالية، أي تمَّ تعزيز تلك الدول بدعمٍ من الإمبريالية وليس على إثر قوَّتها أو علمها أو صلاحها لهذا الأمر، وفي يومنا الرّاهن تحاول الإمبريالية رفع يد العون وإن كان بشكلٍ جزئيّ، فالإمبرياليَّة نفسها تودُّ أن تغير تلك الدول لأنَّها بتلك الخصائص والسمات لن تستفيد منها بشيءٍ البتَّة، على سبيل المثال، ماذا قالت كوندوليزا رايس؟ قالت: "نحن نادمونَ للغاية، لأنَّنا دعمنا هذه الأنظمة الاستبدادية على مدى ستّين عاماً، لقد ارتكبنا خطأً فادحاً"، هُم حقيقةً لم يرتكبوا أيَّ خطأ إنَّما تعمَّدوا فعل ذلك، وتوقَّفوا عن الدعم لأنَّ تلك الأنظمة باتت تعارض مصالحهم. إنَّ التغييرات التي حصلت لدى الشعوب في ذلك الوقت، والعلم، وظهور ديناميكيَّات جديدة، والمجاعة، الظلم والمصاعب، فضلاً عن التغييرات التي حدثت في النظام الدولي ولا سيَّما الإمبرياليَّة، أدَّى ذلك إلى فقدان النظام القائم في الشرق الأوسط لشرعيَّته، ولم يعد بمقدوره أن يكون شرعيَّاً، لذا فهو محكومٌ بالسقوط والانهيار، ولأنَّنا نقيَّم وفقَ أرضيَّةٍ ثوريَّة نقول أنَّ مصيرهُ الانهيار، سوى أنَّ النظام لا يقول ذلك

عن نفسه، بل يريد المقاومة، كيف؟ عبر التنازل للإمبرياليَّة والاستسلام لها أكثر، وبهذه الطريقة يمكنه تمديد ولايته والحكم لفترةٍ زمنيَّةٍ أطول.

٥- النظام الاستبدادي يُطيل عمره عبر التنازلات والتحالفات الإقليميَّة:

لذا ثمَّة دول تجهَد في أن تقدِّم تنازلاتٍ، مثال: ما الذي طلبته أميركا من سوريا ولم تقم الأخيرة بتنفيذه؟ أمرت سوريا بمغادرة لبنان ففعلت ذلك، سوريا لا تُشكِّلُ تهديداً على إسرائيل البتَّة، وفي الحالة العراقيَّة قالت لسوريا: "امنعوا بعض النشطاء من العبور الى العراق من أرضكم" ففعلت ذلك واعتقلت، حتَّى انَّها قتلت، أي إنَّها ستفعلُ كُلَّ شيء، سوى أنَّ أميركا تضغطُ الآن أكثر، وعبر تلك التنازلات يودَّ النظام تمديد حكمه، فما هي الطرق التي يمُدُّ بها النظام حكمه؟ يبني تحالفاتٍ محلية، على سبيل المثال، تركيا وإيران وسوريا. تركيا وغيرها من الدول، تقوم بتشكيل تحالفاتٍ ليكون بمقدورها الدفاع عن نفسها ضدَّ التهديدات سواءُ تلك القادمة من الشعب أو من الخارج، ليكسبوا الشرعية بهذه الطريقة، سوى أنَّها تحالفات ليست دائمة أو ناجحة ولا يمكن لها أن تدوم إلى ما لانهاية، على سبيل المثال، التحالف بين تركيا وإيران مؤقَّت، تركيا تُدرِك تماماً أنَّ إيران ليست صديقتها والأخيرة تُدرك أن تركيا ليست كذلك أيضاً، ثمَّة تناقضاتٌ تاريخيَّة بينهما، فضلاً عن أنَّ كلَّ دولة منهما تمثِّل نظاماً معيَّناً، لذا فإن تعمَّقت التوتُرات الحاليَّة بين أميركا وإيران ووصلت إلى مستوى الحرب، هل ستواصل تركيا صداقتها مع إيران؟ هذا غير ممكن، تركيا وسوريا أيضاً لا تربطهما علاقة صداقة جديَّة للغاية، إنَّها فقط سياسة تركيَّة متّبعة لتُظهِر عبرها أن سوريا صديقةٌ لهم، ما الذي تفعله تركيا عبر تلك السياسة في بعض الأماكن؟ تُظهر صداقةً مع سوريا، مع إيران، مع حماس، لِمَ تفعلُ ذلك؟ للحصول على المزيد من التنازلات من أمريكا ضد حزب العمَّال الكردستاني، هذه طريقةُ تركيا في العمل، لذا فإنَّ تلك التحالفات طويلة الأمد قادرة على حماية النظام الحاليّ إلى

أطول فترةٍ زمنيّةٍ ممكنة، فهي ليست في المستوى الذي يمكن لها أن تحرّر نظامها بنفسها.

٦ـ العنفُ كأسلوبٍ آخر للحلّ:

الأسلوب الثالث هو العنف والإبادة والقتل للقضاء على المعارضة، تركيا تفعلُ ذلك، سوريا ودول الخليج وإيران أيضاً، لكن توضَّح مؤخَّراً أنَّه لا يمكن إخضاع الشعب عبر استخدام العنف والعنف المُفرَط، وإنَّما على النقيض من ذلك، هذا الأمر يؤدِّي إلى المزيد من الانتفاضات والاستياء وتعميق روح الانتقام ورفع الشعب لسقف مطالبه وبعد ذلك لن يقبل بأقلَّ من انهيار الأنظمة والدول والحكومات وسقوطها، ولكي يضربوا هؤلاء ماذا تفعل الأنظمة؟ تقوم بتطوير بعض الإغراءات والحوافز، على سبيل المثال توزيع الأموال والإفراج عن بعض السجناء، ولكن ولّى زمن تلك الأمور، لم يفعلوا ذلك في السابق ويفعلونه الآن!! سوريا تقول الآن أنَّها بصدد استصدار بعض القوانين الجديدة، أو أن السعودية ستوزع الأموال على المسؤولين، ولا أدري ماذا فعلت مصر وما وعدت به اليمن، يريدون بذلك الالتفاف على المعارضة، سوى أنَّ هذه الإجراءات قد لا تكون ناجحة، فعلى على الأقلَّ لن يتَّفِقَ الشعب معها وإمكانيَّة الخداع غير واردة، رغم أنَّ انتفاضات الشعوب قد تكون قصيرة الأمَد أو ضعيفة أو حتى متقطِّعة، سوى أنّه ما عاد ممكناً للاستبداد والملكية والظلم والإنكار الاستمرار في الشرق الأوسط، لقد فَقَدَ هذا النظام شرعيَّته ومحكومٌ عليه بالانهيار.

- الحلُّ الديمقراطيّ:

إنه المشروع الثالث للديمقراطية، لمن هذا المشروع؟ هذا المشروع متمثِّل في انتفاضة مصر وتونس وتلك التي في دول الخليج، وحتَّى الانتفاضات الإيرانية ولكن بشكلها المنظم والنظريّ حركة حزب العمال الكردستاني، ما هو هذا المشروع؟ مشروعٌ لدمقرطة الشرق الأوسط، دمقرطة ثقافة الشرق الأوسط، أي إنَّه إعادة إعمار الشرق الأوسط، فما هي أساسيَّات هذا المشروع؟ القيم الإنسانيَّة، الاشتراكية، الشيوعيَّة. وقائم على إضفاء الطابع الديمقراطي على الثقافة، ما يقوم عليه هذا المشروع هو نظامٌ ديمقراطيٌّ عوضاً عن الدولةِ القوميَّة، نظامٌ ديمقراطي منفتحٌ على الجميع ولكل الأشكال، المذهبيَّة، الدينيَّة، العِرقيَّة، الإثنيَّة وكل أشكال المجتمع للتعبير عن الذات بشكلٍ حرّ، ولهم حقوقٌ في الوجود يتمُّ حمايتها بموجب العقود الاجتماعية.

١- مشروع الحريَّة الاجتماعية والمرأة والاقتصاد الاجتماعي:

في محور العائلة والمرأة على وجه الخصوص، وهو مشروعٌ مستند إلى منظور الحرية، أي تجاوز التمييز على أساس النوع الاجتماعي وتمكين المرأة، وليس كما هو في سياق المشروع الرأسماليّ الذي يتم تنفيذه في المنطقة، بل على النقيض تماماً، على أساسِ أن يكون للنساء تنظيمهنّ الطبيعيّ الخاص بهن وفكرهن الجوهريّ وسياساتهنّ الطبيعية الخاصة ويُصِغنَ الاقتصاد والفنَّ وفقاً لأنفسهنّ، يعبِّرن عن أنفسهنَّ بحريَّة ومَحميَّاتٍ بموجب العقود الاجتماعية، هذا مشروعٌ اقتصادي ضدَّ الملكية الخاصة، حيثُ يُطوِّر الملكية الاجتماعية خارج إطار ملكية الدولة، هذا هو الاقتصاد الاجتماعي، على أي أساس يتم بناء هذا الاقتصاد الاجتماعي؟ على أساس الصناديق الاجتماعية والعمل المشترك للتطوير وبالتالي التطوير. هذا الاقتصاد صديقٌ للبيئة، أي صديقٌ للطبيعة، لا يعمل على أساس تدمير الطبيعة بغية العمل أو محاكاة التصنيع الغربيّ، اقتصادٌ مُعتمِدٌ بشكل كامل

على الاحتياجات الاجتماعية الضرورية وعلى علاقة وثيقة بأبسط احتياجات المجتمع، هذا هو الاقتصاد الاجتماعي، أي ليس ثمَّة عمل لأجل الربح أو الأجرة، بل الاقتصاد القائم على احتياجات المجتمع وينتج وفقاً لذلك وليس على أساس كسب المزيد من المال، لأنه اقتصادٌ يملك جانباً اتّحاديَّاً جماعيَّاً، ثمَة تعاونيَّة وشراكة وصناديق اجتماعية، أي أن يؤخَذ الاقتصاد أساساً. في مشروع الشرق الأوسط الحالي، لن يجوع أحد ولن يكون هناك عاطلونَ عن العمل، فالبطالة والجوع نتائجٌ للرأسمالية بالكامل، ما هي البطالة في الرأسمالية؟ تُشجِّعُ الرأسماليَّةُ البطالة لتتمكَّنَ دائمًا من العثور على جيشٍ من العمال الرخيصين. في دولٍ مثل الشرق الأوسط بأرضها ومياهها وجغرافيَّاتها وفرصها الماديَّة لن تبقى ثمَّة بطالة.

٢- المشروعُ الديمقراطيّ انسجامٌ فيما بين البلدات والقرى:

المشروع الديمقراطي على وجه الخصوص هو الثورة الزراعية، لا توجد منتجات للصناعيَّة الاجتماعية وإنَّما نهب وإنفاق، نزعة استهلاكيَّة، فيما الزراعة تُعطي منتوجاً، تزرعُ الأرض وتكدُّ لأجل ذلك وفي النتيجة ينمو المحصول، هذا هو المنتج الحقيقيّ، لذا ما الذي يفعله التصحُّر؟ إنَّه يخلق الجوع ويجمع الناس في المدن بطريقةٍ غير منظَّمة، تبدأ الأزمات الاجتماعية في الظهور، وتتطوَّر الأمراض، الأميَّة والقتل والسرقة والجهل والجريمة، لذا ثمَّة حقيقة لهذا الانسجام، وهذا يعني أنه لا بدَّ من تحقيق الانسجام بين القرية والمدينة، بين الزراعة والصناعة، أي لا بدَّ أن يكون ثمَّة انسجام ما بين الزراعة والصناعة، لذا فإنَّ الديمقراطيَّة على أساس مطالب الشعب ومصالحها إجابةٌ على كل المشاكل الاجتماعية، إجابةٌ على مشاكل المدن، والطبقات، والبيروقراطية، والدولة، والعنف، والجنس وكل المشاكل الموجودة، فالمجتمع المُحقِّق للديمقراطيَّة لا توجد فيه فوارق أو تمييز بين الدين والعِرق والثقافة، حيثُ يمكن للجميع أن يعبِّر عن نفسه تعبيراً حُرَّاً دون إيذاء الآخرين وتتقبُّلهم، ليس في مجال واحدٍ وحسبُ من الحياة، بل في جميع

المجالات السياسية، الاقتصادية، المجتمعيَّة، التنظيميَّة، والدفاع المشروع، والفن، الثقافة، اللغة، بحيث إن وجدت الحريَّة والاستقلال في كل تلك الجوانب فهذه هي الديمقراطيَّة.

٣- الديمقراطيَّة ليست مجرد انتخاب بل تراكم للقيم:

الديمقراطيَّة ليست انتخابات وإنَّما قيم، ثمَّة انتخاباتٌ في أمريكا لكن لا توجد ديمقراطية، هناك انتخابات في تركيا لكن ليس ثمَّة ديمقراطية، يتم انتخاب البرلمان في تركيا، الحكومة تأتي عبر الانتخابات والمحاكم كذلك إلخ. هذا جيد، ولكن ليس ثمَّة ديمقراطيَّة في كل ما ذكرناه، لأن الديمقراطيَّة ليست مجرَّد انتخاباتٍ بل نظام من القيم، فما هي القيم؟ أي أن تتقبَّل المرء بثقافته ووجوده ولغته، الانضباط طبيعة وتعليم، تعليم ذاتي، الديمقراطيَّة روح، لا ننظر إلى الديمقراطية وفق منظور الخارج، الديمقراطية ليست شكلاً من أشكال السلطة، شكل الحكومة لا يسمَّى ديمقراطية، الديمقراطية هي أسلوب حياة المجتمعات، نحن هنا في صراعٍ مرَّةً أخرى مع الماركسية الكلاسيكية والاشتراكية الكلاسيكيَّة. ماذا يقول لينين؟ يقول: "صدِّقوني، الديمقراطية هي شكل من أشكال الدولة، وحين تختفي الدولة تزولُ". فيما نحنُ نقول: "صدِّقوا، الديمقراطية ليست شكلاً من أشكال الدولة، بل شكلٌ من أشكال المجتمع، وطالما يوجد مجتمع، ستكون هناك ديمقراطية" إذن، فالديمقراطية ليست شكلاً من أشكال الحكم ولا يمكن تحديدها في الانتخابات، الديمقراطية هي نظام من القيم، إنها الضمير، المعرفة، تقبُّل الآخرين، إنها العيش مع الآخر، إنها الحرية، سيكون من المفيد والجيد فهم الديمقراطية على هذا الشكل، وهي ضروريَّة للشرق الأوسط. الديمقراطية شريان الحياة لقيم المجتمع الطبيعي والمخرَج من الفوضى، لذا كيف سنعيش في الشرق الأوسط إذن؟ ما هي الحياة نفسها وكيف نمنحها المعنى؟ ما هو تنظيمنا؟ كيف سنعمل؟ من أين سنبدأ؟ ماذا ستكون معرفتنا؟ ما هو أسلوب كفاحنا؟ هذه كلها أسئلة وقضايا رئيسة.

٤ـ الحقيقةُ بحثٌ مستمرّ:

تُنهَبُ الحياة في الشرق الأوسط، لِمَ؟ لأنها عكس الحقيقة وعلى النقيض منها، الحقيقةُ بحثٌ مستمر وكفاح، ولا يمكن أن تتحدَّد عبر النظام السياسي أو العلم الإيجابيّ أو الديني أو الجنسي، ماذا يقول سقراط عن هذا؟ يقول "أنا أعرف أكثر من أي شخصٍ آخر، لِمَ؟ لأن الجميع جاهلون ولكنهم لا يعلمون أنهم جاهلون، أنا أعلم أنني جاهل، لذا أنا على درايةٍ أكثر من أي شخص آخر"، وإذن فالحقيقة لا يمكن لها أن تتحدَّد وفقاً لمستوى المعرفة، إنها بحث مستمرّ، لذا فإنَّ الحقيقة حريَّة، الحرية لا تتحقَّق مع الدولة، ولا يمكن تأمين الحرية عبر معركة، كما أنَّها لا تأتي بمجهوداتٍ قليلة، الحريَّة كفاحٌ مستمرّ، لذا فإنَّ الحقيقة كذلك أيضاً، تعريف الحياة هو على النحو التالي، ما هي الحياة؟ أيّة حياة؟ العلم لا يعطي الموافقة للحياة في الشرق الأوسط، مبدأ الحرية لا يعطيها الموافقة، بل فُرضت حياةٌ وفقاً لمقتضيات النظام الرأسمالي، أو تمَّ تعريفها وتوضيح مقاييسها في الشرق الأوسط وفقًا لسلطة التقليد المتعطِّشة للدماء، لذا إن قِسنَا حياتنا الرَّاهنة بالعقل والمنطق والعلم سنرى أنَّها حياة خاطئة، وإن قسناها بالوجدان والحريَّة لاكتشفنا ذلك أيضاً، حياةٌ خالية من أي ضمير، لِمَ؟ لأنه ويوميَّاً ثمة تجاوزاتٌ تحصل ضدَّ حقوق الإنسان دون أن يكون هناك أيُّ ردِّ فعلٍ إزاء تلك التجاوزات، يوميًّا ننفِّذ في المنطقة ما يفرض علينا قسراً دون أن ينبس أحدٌ ببنت شفة أو يعارض، لذلك حين نعرِّف الحياة لا بدَّ أن نعرِّفها على أساس الحريَّة إلى حَدٍّ ما، لاحظوا خلال العام ٢٤٠٠ حين حُكم على سقراط بالإعدام عبر إجباره على شرب السُمّ، أرادوا اختطافه سوى أنَّه رفض، طلبوا منه أن يتقدَّم بطلبِ عفوٍ من هيئة المحلَّفين، قائلين له: "اطلُب عفواً ستنجو بحياتك"، فيرفض أيضاً، ويردُّ عليهم: "لا، إن لم يكن بمقدور الحياة إثبات حقيقتها بالعقل فليس من المُجدي أن نعيشها، لِم نعيشُ الحياةَ التي لا يمكن لها أن تثبت حقيقتها عبر العقل، الموتُ أفضل منها"، إذا تعارضنا بهذا الشكل مع الحياة الحاليَّة فسوف نسلكُ الدَّربَ القَويم، أي لن نقبل أبداً الحياة بهذا الشكل ومن ثمَّ سنصل إلى المسار

الصحيح، آنذاك سيظهر معنى الحياة، سوى أنَّ الحياة تستحقُّ أن تُعَاش، حسنًا، كيف سنعيشها؟ بشكلٍ جماعيّ متَّحِد، بعلمٍ وحكمة، سنعيشها عبرَ البحث والاستكشاف، عبر النضال والعمل الجادّ، عيشنا للقيم سيمنحُ معنىً لتلك الحياة، اجتماعيُّتنا ستعطي معنىً لها. لذا فإنَّ مسائل توضيح الحياة في الشرق الأوسط، هي العمل والجهد في فلسفة الحياة، والنضال من أجل الحرية، العلم، الكومينياليَّة، الاجتماعية. كيف يفرضُ أعداؤنا الحياة علينا؟ يقولون افعلوا الشيء السائد، كونوا فردانيّين وأنانييّن، وبهذه الطريقة يفرضُ النظام شكلاً من أشكال الحياة، كونوا بلا ضمائرَ أو وجدان، ما الفرق بين الفردانيَّة والمجتمعيَّة؟ على سبيل المثال هذه هي الفردانيَّة، مثال لكي نفهم بلدنا، أنا مثلاً رجلٌ من آمد أو ديرسم أقرأُ في صحيفةٍ خبراً عن اغتصابِ طفلةٍ تبلغ من العمر ١١ سنة في سِرت، أنا من آمد إذن فالأمر لا يعنيني، ثمَّة دولة وقانون يتولَّان الأمر، هذه هي الشخصانيَّة، هذا انفصال الفرد عن مجتمعه وانعدامُ ضمير، لِمَ؟ لأنَّك ترى ظلمًا لكنَّك لا تبدي أيَّةَ حساسيَّة أو ردَّة فعلٍ إزاءَه، لذا كيف عبَّر عبد الله أوجلان عن استيائه؟ قال: "إن لم يتمّ البحث حول الموضوع، فأنا الذي سأتولَّى الأمر وأكون شديداً في ذلك، لأنَّ الفتاة التي اغتصبوها في سرت ربَّما تكونُ يوماً ما أختهم أو زوجتهم أو أمَّهم ويجب أن ينظروا إلى الأمر بهذه الطريقة، أمَّا أن يبتعدوا عن الحادثة وكأنَّهم غير معنيين، لا ينبغي عليهم فعل ذلك، فليخرجوا مظاهراتٍ ويُقيموا الدنيا ولا يقعدوها"، بعد تصريحات القائد هذه خرج رفاقنا ونظَّموا مظاهرات استنكار. هذه هي الشخصانيَّة، جوهر الأنانيَّة، أي اللا مسؤوليَّة إزاءَ مشاكل المجتمع، فما الذي نفعله؟ يقول: لا يجوزُ أن تفعل ما يفعلهُ العالم، لأنَّ العالم عبدٌ للنظام، ولا ينبغي لك أن تكون عبداً للنظام وأسيراً له، لكن ماذا يجبُ عليكَ أن تفعل؟ من الضروريّ أن تكافح ضدَّ النظام، هكذا تُحلُّ المشاكل، حيثُ يجبُ القيام بما هو ضروريّ، وبهذا الشكل سيظهرُ العمل والنضال والتنظيم. لكن ما هيَ الأشياءُ التي يريدها منك النِّظام؟ يقولُ لك: عليكَ أن تبدأ من المكان الذي يبدأ منه الجميع، من أين؟ من المدرسة والجامعة، لِمَ؟ لكي تصبح لديك معلومات حول كيفيَّة أن تغدو جزءاً من النظام وتأخذ مكانك فيه،

أو كيف تقوم بابتكاره وحمايته، لكنَّنا لا نبدأُ من المكان ذاته بل من مكانٍ آخرَ مختلف، سنبدأُ حياتنا من الثورة الوجدانيَّة، هكذا سوف نبدأ، سنخرج من إطار النظام ونحارب ضده، هكذا قال ماركس، ما الذي قالهُ ماركس؟ قال: "حتى الآن قام الفلاسفة بتحليل العالم فقط، لكنَّه يجب أن يتغيَّر". لكنَّه لم يغيّره فما السبب؟ لأنه كان داخل النظام وقَبِلَ حداثتها، لم يكن لديه قوَّة التغيير. بينما نحن أخرَجنا أنفسنا من داخل النظام، فَصَلنا أنفسنا ليس فقط عن اقتصادها، بل عن سياستها وأسلوبَ حياتها، لذا نحن الآن لا نقيَّم فقط، لاحظوا أنَّ ثمَّة فلاسفةٌ كبار ينتقدون النظام، وانتقاداتهم محطُّ اهتمام، سوى أنَّهم لا يملكون أساليب تغييره وتجاوزه، ما الفارق بين قائد الشعب الكردي عبد الله أوجلان وبين فارستاين وكوسكي وكوكين وغيرهم الكثير؟ هم فقط يقيّمون وينتقدون، سوى أنَّ القائد يغيّر، فالمهم هو التغيير وإعادة البناء. لهذا يجب أن نحارب النظام، ولكن كيف؟ أن نُخرِج أرواحنا من داخل النظام، ونتقيّأ تأثيره الذي في دواخلنا، يقولُ القائد: "أن نرمي العباءةَ التي ألبسونا إيَّاها، أن نتقيّأ تأثيرات الحداثة الرأسماليَّة التي في دواخلنا، وبالتالي نُطهّر أنفسنا، فنضالنا ونضال الآخرين ضدَّ النظام ليس هو نفسه". فالدينيُّون والقوى التقليدية التي تدعي أنها تحارب الرأسمالية كاذبون، اولئك يشبهونَ الكلاب، يكافحون النظام لأجل الحصول على لقمةٍ أمام بابه، لكننا لسنا هكذا، نريدُ أن نمحي هذا النظام ونتجاوزه لنبني عوضاً عنه المجتمع الأخلاقيّ والسياسيّ. لذا من المهمّ أولاً وقبل كل شيء، القضاء على تأثير الحداثة، ولا سيَّما أسلوب حياتها، وطريقة حياتها المصنَّعة، والشخصانيَّة، والماديَّة، ونبني عوضاً عن ذلك أسلوبَ الحياة الجماعيَّة والطبيعيَّة والعلميَّة والأخلاقيَّة، ونتّخِذ تلك الأمور منطلقاتٍ لنا، ومن أجل هذا أيضاً لا بدَّ وأن نقاتل، يجب أن نقاتل ضدَّ الوحوش الثلاثة للحداثة الرأسمالية، فما هيَ؟

٥ـ الحرب على نمط حياة الرأسمالية المموّلة:

الرأسمالية بكافة أشكالها، ولا سيَّما الرأسمالية المموّلة تجعل من الشعوب فقيرةً، لا ثمار تؤتى من التمويل الرأسمالي، إنها عبارة عن أوراق، تدفعُ أميركا مليار دولارٍ لتركيا وبعد سنتين تأخذ منها أضعافاً، فلتلاحظوا أنَّ أميركا لا تعطي تركيا الطَّائرات والدبَّابات والأطعمة بل تعطيها أموالاً، أوراقاً، ولكنَّها تسترجعُ أضعاف ما أعطته، مِمَّن تسترجع تلك الأموال؟ من الأطفال والنساء والعمال والمزارعين، فما الذي تفعَلهُ تركيا لتسديد الديون الأمريكيَّة عليها؟ تحتكر، ترفع الأسعار، تُزيد الضرائب، هذه كلُّها أضرارها التي تسبَّبَت بها وفي النهاية تسترجع ثمنها من الشعب!!

آنذاك يجب أن نُدينَ الرأسماليَّة، ولا سيَّما الرأسماليَّة المموّلة والصناعيَّة، عدوَّة الطبيعة والإنسانيَّة، والتي تقوم سياستها الإنتاجيَّة بناءً على الربح وليس على احتياجات المجتمع.

٦ـ دولة القوميَّة:

هذه الدولة التي تريد خلق تجانس، حيثُ نوعٌ واحد من المواطنين وهم مواطنون مستعبَدون، للعمل وفقاً لمصالح الدولة، عوضاً عنها نقاتلها بثلاث مَلَكَاتٍ للحداثة الديمقراطية، فما هيّ تلك الملكات؟ **الإيكولوجيا الاجتماعية**: البيئة الاجتماعية، أي حماية الطبيعة، انسجامها، هذا ليس مجرد نموذجٍ لغرس الأشجار بل أعمق من ذلك. **الاقتصاد الاجتماعي**: اقتصادٌ صديقٌ للمجتمع والطبيعة، ومبنيٌّ على أساس تلبية الاحتياجات المجتمعيَّة. **الكونفدراليَّة الديمقراطيَّة**: نظامٌ سياسيّ بمقدور كل ألوان المجتمع فيه أن تعبِّر عن نفسها، ويمكن تشكيل هذه الكونفدراليَّة الديمقراطيَّة على أساس القواسم الطبيعيَّة المُشترَكة بين شعوب الشرق الأوسط، ثمَّة قواسم مشتركة جغرافيَّة وطبيعيَّة بين الأتراك والعرب والكرد والفرس، بين اليهود والعرب، بين دول شمال إفريقيا، بين دول الخليج، وبالتالي يتأسس تدريجيَّاً تنظيمٌ

ووحدة بين الشعوب على أساسٍ كونفدراليّ وديمقراطيّ عوضاً عن دولة القوميَّة القائمة على الإدماج القسريّ، وعوضاً عنها الوفاق الاجتماعي بين الشعوب وكل شخص قادر على التعبير عن نفسه بشكل طبيعيّ، ولكي يتطوَّر هذا المشروع لأجل شعوب الشرق الأوسط ثمَّة حاجة إلى القوَّة وإلى نمطٍ للحياة، ما هو نمط الحياة؟ القوة التي لها أسلوبها ونمطها الخاصّ في الحياة. ما هو ذلك النمط؟ الوحدة بين الفكر والذهن والتطبيقيَة، أي كيف يفكِّر البشر، كيف يتحدَّثون، كيف يعملون، لا بدَّ أن يكون ثمَّة اتحادٌ بين تلك الأمور الثلاثة، أي لا يجوز أن يفكّر أحدهم بطريقةٍ ومن ثم يتكلَّم بطريقةٍ وينفِّذ ما يقوله أو يفكِّر به بطريقةٍ مختلفة، أي لا بدَّ من اتِّحادٍ بين تلك الأمور الثلاثة، والنضال لأجل هذه الحقيقة، النضالُ الذي تحدَّث عنه قائد الشعب الكردي عبد الله أوجلان هوَ: "النضال الذي يكون فيه فكرك ونشاطك مُتِّحدَين في كلِّ الأوقات، أن تكون قد طهَّرت نفسَك من تأثير الحداثة الرأسماليَّة، وأن تكون على استعدادٍ في أيَّة لحظة أو زمن -مثل الفلاسفة والعلماء القُدماء- للتضحية في سبيل الحقيقة" ويتمُّ ذلكَ عبر الصِدق والممارسة التنظيميَّة والعلميَّة، بعمليَّة العلم وتنظيمه، ما هو العلم؟ الأكاديميَّات، لا بدَّ أن تكون ثمَّة أكاديميَّات مختصَّة بجميع شؤون المجتمع، أكاديميَّات القضايا الوطنية والدينيَّة، والتمييز على أساس النوع، والعلوم، والسلطة، والعنف، وكل ما يتعلق بحياة الإنسان، وليس أكاديميَّات لعلم الوضعية الرأسمالية الساكنة، بل الأكاديميَّات الحرَّة التي تُنير الدرب أمام الشعب لكي يكون بمقدوره المَسير والتعرّف إلى النفس ومعرفة المحيط واختيار الطريقة الصحيحة للحياة، لا بدَّ أن تقدِّمَ هذه الأكاديميَّات تلك المعارف، آنذاك تكونُ الأكاديميَّات قوَّةَ العلم. نقول أحيانًا أننا لا نفهم القائد آبو، يقول بعض الرفاق: لم نفهم القائد!! حسناً؛ القائد يقول "الأكاديميَّة" منذ سنوات، فماهي هذه الأكاديميَّة؟ الفكر الحرّ، لأن مؤسسات النظام الحالية لا تمنحنا تفكيرًا حرًا، بل أنَّ أكاديميَّة الحريَّة هي من ستمنحنا فكرة الحريَّة، وهي ستغدو السبب الرئيسي في ظهور قادة للمجتمع الذي سيتطور ويختار طريقه ويمتلك انتقاداته ضدَّ الحداثة الرأسماليَّة، حين يقول أحد الرفاق أنَّ القائد يقول أشياءَ غريبة ليست في وقتها، أي بمعنى أنَّ

الرفيق يقول ثمَّة اشياء ضروريَّة أكثر، "سأذهب إلى مكانٍ ما لأعمل، وسأفعل الشيء الفلانيّ" سوى أنَّه لا يفعل، لا بدَّ للمرء أن يقول الصدق، ولا يبني الأكاديميَّات أيضاً، ولكن حين هدَّدَ القائد بنى الأكاديميَّات التي بقيت نمطية وممنهَجة لفترةٍ طويلة ودون أي نتاجٍ، مؤخَّراً بات لها نظامها الخاص بعض الشيء، ولكن فلننتبه إلى ما يفعله النظامُ باستمرار لئلَّا تصبح الحداثة الرأسماليَّة قوَّةً، يزجُّ القادةَ في السجون، وحين لا تكون ثمَّة أكاديميَّات فكيف يمكن أن يُملئ الفراغ الحاصل؟! أي كيف يمكن أن تُظهِر التطبيقيَّة العلميَّة؟ التطبيقيَّة العلميّة هي الأكاديميَّات، والعلميَّة فيما يخصّ المشاكل الرئيسيَّة، فما هي التطبيقيَّة المنظَّمة؟ إنَّها الكومونات، التعاونيَّات، تنظيم المجتمع، تنظيم الأطفال والنساء، مجموعات الصناعيين والأطبَّاء والعمَّال والمهندسين والمتديّنين، أي لا ينبغي ترك أي شخص في كردستان غير منظَّماً، لكن على تلك التنظيمات أن تكونَ يقظةً وحسَّاسة وتناضل على أساس الحريَّة والضمير، وعلى أساسٍ جديد، ضدَّ الاحتلال والرأسماليَّة. بناء تلك التنظيمات أمرٌ مهمّ، ولا بدَّ أن يتمَّ تنظيم المجتمع الأدنى، لأنَّ المجتمع الأعلى منظَّم وهو الدولة والجيش والبرلمان والمحاكم، هذه كلها منظمات للمجتمع الأعلى، ولا تحتاج إلى أي تنظيم، بينما المجتمع الأدنى غير منظَّم ولا بدَّ من تنظيمه، كيف يتمَّ هذا التنظيم؟ عبر القادة، القادة الذين يتتبَّعونَ الحقيقة، هؤلاء القادة مطلوبون، القادة المشبعون بتضحيات العلماء القدامى الذين لم ينحنوا أمام الإعدام والحرق والقتل، ما الذي يقوله القائد؟ أن يكونوا مثل: "الشرايين داخل المجتمع"، أي كما الأوعية التي تنقل الدم إلى أنحاء الجسم، على الكادرو أو القائد أن يكون هكذا تماماً، لذا على القائد أن يكون في كلِّ مكان، القائد الذي وحَّد بين نشاطه وفكره، وليس القائد الذي يعيش لأجل نفسه بل لأجل المجتمع، القائد المستعدّ والراغب في تقديم التضحيات في سبيل الحقيقة، لذا ما هيَ حقيقة الحياة؟ "الشهداء لا يموتون" هذه هي حقيقة الحياة، من قُتلوا في سبيل الحقيقة لا يموتون، ولكن كيف لا يموتون؟ حين نتتبعهم، ونتتبع طريقهم، فلن يموتوا ويبقوا خالدين، ولأجل ذلك لا بدَّ على المرء أن يكون له ردَّة فعل إزاءَهم والقيام بواجبه. هذا هو الحل وفقاً لمنطق الحداثة

الديمقراطيَّة، انتبهوا إلى أنّ اسمها دالٌّ عليها، إنَّها حداثة ديمقراطيَّة وليست ديمقراطية وحسب، أي أنَّها ديمقراطيَّة جديدة علميَّة ومنظَّمة، إنها ديمقراطية الدفاع، لذا لا بدَّ أن نكون على استعدادٍ دوماً ولا سيَّما في المجال العلميّ أن نتنافس مع النظام عبر بحثنا واستكشافنا ومعرفتنا وأسلوبنا العلميّ، بيد أنَّه وفي الوقت عينه لا يجب أن ننسى قوَّة الأخلاق وقوَّة الروح والضمير، لا بدَّ أن تكون قوَّتنا وجدانيَّة، والوجدان ليس شيئاً ماديَّاً، بل روحيَّاً، أي إنَّها مسؤوليتنا إزاء المجتمع ولا سيَّما التجاوزات التي تحصل ضدَّ المجتمع، الحساسيَّة مطلوبة في هذا المنحى، ففي يومنا الرَّاهن إن كان مجتمعنا يتعرَّض للنهب، فما الذي سيكون موقفنا آنذاك؟ لا بدَّ أن نقترب على هذا النَّحو. وفي يومنا الذي نعيشه وطالما أنَّه ثمَّة فشلٌ للمشروع الإمبرياليّ وباتَ مشروع الحفاظ على الثبات ضعيفاً، إذن فقد آنَ أوان نجاح المشروع الديمقراطيَّ، وهو ليس نجاحاً مطلقاً في كلِّ الأزمان، فقد يحصل في الشرق الأوسط ألَّا تختفي الإمبرياليَّة أو مشروع الحفاظ على السكون، سوى أنَّ القوى الديمقراطيَّة ستستمرُّ في الحصول على مكاسبها بشكلٍ أكبر، وهذا ممكن، لكن هدفنا هو أن تنجح الديمقراطيَّة، وهو هدفٌ قد لا يتحقَّقُ بشكلٍ كامل في بعض الأحيان، لِمَ؟ لأن السياسة والنضال لا تحدثان دائمًا في المركز الذي نريده، أي أنَّ الأوضاع تؤثِّر في هذا الجانب، ستؤثر عليه الأوضاع، ففي بعض الأحيان لا يمكننا تحقيق هذه النجاحات في الزمان والمكان اللذين نريدهما، بيد أنَّ هذا لا يعني أننا لا نقبل النجاحات المؤقتة، لكن في الوقت عينه لا ينبغي للنجاح المؤقَّت أن ينتقص من أهدافنا النهائية، أي لا يجب على النجاحات النسبيَّة أو الصغيرة أن تُبعِدَنا أبداً عن أهدافنا البعيدة.

٧- معارضة الدين الثقافي مع الرأسماليَّة:

بلا ريب أنَّ الدين كقيمة ثقافية، ولا سيَّما الأخلاق نقيض الرأسمالية. الرأسمالية تأخذ القوانين والأسلوب الماديّ والعلم منطلقاً، وعلى تضادٍّ مع

الأخلاق والدين والروح، لذا يقول ماكس فيبر: "البروتستانتية هي روح الرأسمالية"، حقيقةً أنَّ البروتستانتية لم تنشأ لأجل للرأسمالية ولا علاقة لها بها، إنها حركة دينية قائمة على الإصلاح، ضد هيمنة الكنيسة وطريقة حكم الكنيسة ومركزيَّتها. قالوا: "يجب أن يعرف الإنسان إلهه بنفسه، وألَّا تكون للكنيسة صلة بذلك، ويجب على المرء قراءة الكتاب المقدس بلغته الأمّ، يجب ألا يكون هناك أشياء مقدَّسة، ولا بدَّ للقسِّ أيضاً أن يكون انساناً عاديًّا، أن يدرس ويتزوَّجَ، أي ألَّا تكون له سماتٌ مقدَّسة" أضعف هذا الأمر مفهوم القداسة وأظهر الأسلوب الفردي، فالبشر يتواصلون مع الله بينهم وبين أنفسهم وليس عبر وسطاء، هذه فردية استفادت منها الرأسماليَّة، قالوا: "الدين أيضاً يقولُ ذلك، لا يجب أن يكون هناك شيءٌ مقدَّس، أن تكون هناك قوميَّة لأي انسان ويقرأ الإنجيل بلغته، أن يعرف كل شخصٍ الله وفقاً لطريقته الخاصَّة" لذا فهذه فردانيَّة وقوميَّة ولا أخلاقيَّة، والماديَّة ضد الأخلاق. لذا فإنَّ الرأسمالية ضدَّ الدين في جوهرها، الدين الإسلاميّ، سوى أنَّ الرأسمالية ليست هي الوحيدة الموجودة في العالم، حيثُ كانت الرأسمالية ضدَّ الاشتراكية والقوَّة الأكثر التي كانت ضدَّها هي الاشتراكية، لذا ما الذي فعلته الرأسماليَّة؟ حشدت ضدَّ الاشتراكية كل القوى الموجودة، حشدت كل ما يمكنها حشده، فصحيحٌ أنَّ الرأسمالية ماديَّة وعلميَّة وما إلى ذلك ولكن كل ذلك مؤقَّت، انتفضت الرأسمالية ضدَّ الكنيسة لتجعل كل شيء مطيةً، لكسب كل شيء، للتخلي عن الأخلاق، لكن حين كانت الكنيسة ضروريَّة عادت إليها، لِمَ؟ لأنَّها أضعفت عبر الكنيسة مقاومة العمال بالخداع الديني، لذا فلننتبه، لا يوجد أحدٌ خدَم الرأسماليَّة كما فعل بولس الثاني الذي سبق البابا ديكتوس الذي ماتَ مؤخَّراً، كان يتجوَّلُ في أمريكا اللاتينيَّة وأوروبا وأوروبا الشرقيَّة مروّجاً ضدَّ الشيوعيَّة من كنيسةٍ إلى أخرى، كان مسيحياً ومتقلِّداً منصب البابا في الكنيسة سوى أنَّه خدمَ الإمبرياليَّة، لقد كان يقول للناس: "هذا صحيح، فلتتحلَّوا بالصبر، العالم هناك، وأساساً سوف تدخلونَ الجنَّة، فلِمَ النضالُ الطبقيّ وما الغرضُ منه؟" كان يخدعُ بهذه الطريقة ويؤجِّج الناس ضدَّ الشيوعيَّة، لذا فلننتبه إلى أنَّ من خرج ضدَّ الحكومة الاشتراكية في

بولندا، من كانوا؟ اتِّحادات مسيحيَّة مرتبطة بالبابا ناضلت ضدَّ الدولة، ضدَّ الاشتراكية. لذا فإنَّ الرأسمالية لم تستغلّ المسلمين وحسب، بل المسيحيّين كذلك الأمر، ماذا فعل الإسلام؟ حينَ غادر السوفييت، رأت أن الناس في الشرق الأوسط مغتبطونَ بالاشتراكية والسوفييت للغاية، ما الذي جعلهم سعداءَ هكذا؟ كانوا يقولون: نحن في دولة بها مساواة، ثمَّة اشتراكيَّة وعمَّال، لا يوجد إقطاعيُّون والعمَّال مستقلَّونَ وأحرار، لا يوجد رأسماليُّون، وهذا ما مارس تأثيره، على سبيل المثال، ثمَّة قصائد، حيثُ تقول قصيدة جكَرخوين: "العلم الأحمرُ، الأصفر، خرج من موسكو متوجِّهاً نحو الصين" هذه بِـِشارة، مهما كان المرءُ جاهلاً، سوى أنَّ الأمر بِشارة وفائدة معنويَّة، لذا رأت الرأسماليّة أنَ هذا الأمر خطير فكيف لها أن تقاوم ضدَّ ذلك في الشرق الأوسط؟ إن قرَّرت المجيء فإنَّ الناس مستاؤون منها وغاضبون، وفرنسا وإنجلترا موجودتان سابقاً في المنطقة كاحتلال، لذا قالت: عبر الإسلام، أي أن الاشتراكيون ضدَّ قيم المسلمين، فهم يقولون أنَّ الله غير موجود، ولا أخلاقَ لديهم، فنظَّموا العديد من المتديّنين، ليس للعمل ضد الرأسمالية بل ضدَّ الاشتراكية، على سبيل المثال، ثمَّة رجلٌ في دمشق يدعى البوطيّ وأصوله من هارون ومشهورٌ جدَّاً عميد كلية الشريعة في سوريا ويمتلك العديد من الشهادات الجامعيَّة العلميَّة العليا في الفلسفة والقانون والأدب، يدعى محمد رمضان البوطيّ، وهو في الأصل بوتيّ، على سبيل المثال نشر كتباً ضد الماديَّة الديالكتيكيَّة، ولكن لم ينشر كتباً ضدَّ الرأسماليّة، تحدَّث في وقتٍ لاحق ضدَّ الكرد أيضاً، قال ذات مرة: "أشعر بالخجل لأنني كردي"!!" بعد أن انتفضَ الكرد على إثر بعض الأحداث ليعلنوا رفضهم للنظام، بتلك الطريقة خَدَمَ المتديّنونَ النظام، لذا فلننتبه إلى أنَّ الإسلام الثقافيّ مختلف وجانبهُ الأخلاقي مختلف أيضاً، لكن الإسلام السياسي صنيعةُ الغربِ على وجه الخصوص، صنع في ألمانيا، أمريكا، فرنسا، إنجلترا، ففي يومنا الرَّاهن يتدرَّب قادة الحركات الإسلامية في تلك البلدان، تم تدريب أربكان وسيد قطب وغيرهما هناك، ماذا كان نضال الإمبريالية ضد الشيوعية؟ الحزامُ الأخضر، فما هو الحزام الأخضر؟ أن تحاصر الاتحاد السوفييتي بالإسلام لكي لا يدخل

مرَّةً أخرى ونجحت بطريقتها تلك، فلولا حركة الإسلام السياسيّ في الشرق الأوسط لازدهرت الحركة اليساريَّة في المنطقة. إنهم يعملون الآن ضدَّنا بالطريقةِ عينها. على سبيل المثال، فَتحُ الله غولن، من هو فتح الله غولن؟ أسس مجموعاتٍ مناهضة للشيوعيَّة في أرضروم خلال فترة وجوده، لقد أسَّسَ أول جمعيةٍ مناهضة للشيوعية في أرضروم، ويُدلي حتى الآن بتصريحاتٍ ضد الكرد، حيثُ يأخذ شكله حسبما هو ضروريٌّ للنظام، ولكن هذه ليست مشكلة، ولأجل ذلك يقول القائد عبد الله أوجلان: "لا تنخدعوا" هذا ما كتبه في مرافعاته الدفاعيَّة، لا ينبغي أن تنخدعوا بشعارات هؤلاء الناس الذين يقاتلون الإمبرياليَّة باسم الإسلام الراديكالي، إنَّهم لا يريدون التغيير بل يريدون حصَّتهم وحسب، إنَّهم يريدون حصَّتهم ويجب على المرء أن يعرفهم على هذا الشكل.

٨- أسباب تطوُّر حماس:

موضوع حماس، ثمَّة شيءٌ مثيل له في الإسلام، وقد لا يمكن السيطرة عليه في القريب العاجل، على سبيل المثال أردوغان رجلٌ لأميركا، لكن لا يمكننا القول في الآنِ نفسه أنَّ جميع أعضاء حزب العدالة والتنمية أزلامٌ لأميركا، بالطبع هي جادَّة في عدائها لإسرائيل وأميركا، ولكن الإدارة خادعة ومخطئة ولا أصل لها، فمع اشتداد الصراع بين حزب العدالة والتنمية وإسرائيل ازداد حجم التجارة والاستخبارات بينهما!! ثمَّة أرقامٌ في هذا الصَّدد، ولأجل ذلك تخرج أحياناً عن السيطرة، ماذا كانت حماس؟ إسرائيل ليست هي من أنشأت حماس، بل طورت حماس حركات دينية في العالم العربي نتيجة انهيار الحركات القومية والاشتراكية، لِمَ؟ لأنَّ الحركات القوميَّة والوطنية لم تعطي نتائج كثيرة، الكفاح المسلح لم يؤدِّ إلى نتائج كثيرة وظهرت مشاكلها، فتطورت الحركات الدينية، تلك التي أعطتها إيران زخماً كبيراً ورفعت معنويَّاتها، فرأت إسرائيل أنَّ الحركات الدينيَّة تزدهر ولكن لا أضرار لها

فغضَّت النَّظر، لكن عدوُّها الرئيسي منظمة التحرير الفلسطينية، على سبيل المثال، أحمد ياسين حرٌّ في إسرائيل، لقد أُطلق سراح الشيخ أحمد ياسين الذي أسَّسَ حماس في إسرائيل. بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ظهرت مشاكل أكبر بين الحركات الدينيَّة -التي طالبت بحصَّتها- وبين النظام، كيف عبَّرت الحركة الدينيّة عن مطالبتها بحصَّتها؟: "لقد استخدمتموني ضدَّ الاشتراكية، والآن بعد أن انهارت الاشتراكية، تقولون أنَّ كل شيءٍ مُلكنا، لا، لا بدَّ أن يكون لي نصيبٌ من كل ذلك"، هذه هي المشكلة التي ظهرت واستفادت منها حماسُ كثيراً، ضعف الحركة الوطنية في فلسطين نتيجةٌ لحماس، ضعف الحركة الاشتراكية نتيجة عدم الرضا عنها، ومن ناحيةٍ أخرى فإن التمرد الذي حدث داخل منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة موجودٌ الآن داخل PDK-YNK، ألَم يكن الجميعُ ثوريِّين؟ ألم يكونوا حتَّى يوم أمسٍ مقاتلين؟ ولكنّهم الآن يسرقون ملايين الدولارات، وهذا ما حصل بين الفلسطينيين أيضاً، لم يشتهر الإسلاميَّون كثيراً بموضوع السرقة، لذا فإنَّ الشعب لا يزال يجد فيهم بعض الأمل ومنحوهم أصواتهم ليصلوا إلى السلطة ومن ثمَّ خرجوا عن السيطرة، وحين خرجوا عن السيطرة هاجمهم الشعب، هذا هو الوضع الحاليّ لحزب حماس، إنهم على رأس السلطة الآن في غزة، ولكنهم ليسوا طريقةً للحلّ، أو أن المشكلة لا يمكن لها أن تُحلَّ عبرهم، إن لم يتغيَّروا فلن يتمكَّنوا من المضيَّ قُدُمًا ولن يتقبَّلهم الشعبُ والمجتمع بهذه الطريقة، كما أن المجتمع لا يقبل الاضطهاد الديني، فنلاحظ أن إيران بقمعها الديني حاولت إيقاف المجتمع ولكن الأمر صعب للغاية، فالمجتمعات تتكوَّن من بشر، وللبشر سماتهم الخاصَّة وثقافتهم الخاصَّة وأسلوب حياتهم الخاصّ. على سبيل المثال، ترى امرأة وزوجها يمشيان سويَّة وبأيدٍ متشابكة، ينبري شرطيٌّ ليقول: "لماذا تتشابكان هكذا؟" فيردّانِ: "نحنُ أزواج فما الذي تريدهُ منَّا؟" لا، سيسأل الشرطيُّ لما فعلتم هكذا ويقوم باعتقالهما! إن ظهرت خصلةٌ من شَعر امرأةٍ يتمُّ اعتقالها أيضاً، لذا حصل تلميذٌ لأستاذةٍ جامعيَّة في إيران على جائزة كبرى، الأستاذة كانت امرأةً مسنَّةً وسعيدة لإنجاز تلميذها الذي كان بمثابة ابنٍ لها فقبَّلته مهنّئةً إيَّاه، فقالوا: "كيف يكون هناك اتصالٌ جسديٌّ

بين الجنسين وفي مكانٍ عامّ"!! كادوا أن يعتقلوا الأستاذة!! رُفعت قضيَّةٌ ضدَّها في المحكمة، فأدلَت الأستاذة الجامعيَّة ببيانٍ قائلةً: "أنا نادمة، لقد أخطأت ولن أفعل أيَّ شيء من هذا القبيل مرَّةً أخرى" هذا ما قالته حتَّى تم الصَّفحُ عنها. العالم لا يتقبَّل هكذا وضع، لذا إن لم تحدث دمقرطة سينهار وهذا غير ممكن، سيبقى على ما هو عليه، الأمر مسألة وقت، عامٌ عامين أو ثلاثة وسينهار في نهاية المطاف، لا يجلبُ هذا النظامُ الحَلَّ بل يتَّجهُ بخطواتٍ ثابتة نحو الانهيار والسقوط.